297.
M29
v.1
c.

297.207
M29tA
V.16-18
C.1
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY
V.16-18

تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء السادس عشر

مكتبة العرب
لصاحبها
الشيخ يوسف توما البستاني
شارع الفجالة
بمصر

77594

Cat. Sept. 1951

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء السادس عشر

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

فلا تصاحبنى : أى فلا تجعلنى صاحبا لك ، بلغت من لدنى عذرا : أى وجدت عذرا من قبلى ، قرية : هى أنطاكية كما روى عن ابن عباس أو الأَبُلّة أو الناصرة ، ولا يوثق بصحة شىء من هذا ، استطعما أهلها : أى طلبا منهم أن يطعموهما ، أن يضيفوهما : أى ينزلوهما أضيافا ؛ يقال ضافه إذا كان له ضيفا ، وأضافه وضيّفه : أنزله لديه ضيفا ؛ وأصل ضاف : مال، من قولهم ضاف السهم عن الهدف : أى مال ، جدارا:

أى حائطا ، أن ينقض : أى يسقط بسرعة ، وقد كثر فى كلامهم إسناد ما يكون من أفعال العقلاء إلى غيرهم كما قال :

يريد الرمح صدر أبى بَرَاء ويعدل عن دماء بنى عقيل

أقامه : أى مسحه بيده فقام كما روى عن ابن عباس ، والتأويل من آل الأمر إلى كذا : أى صار إليه ، فإذا قيل ما تأويله : أى ما مصيره .

المعنى الجملى

لا يزال الكلام متصلا فى قصص موسى والخضر عليهما السلام ، ولكن لوحظ فى تقسيم القرآن الكريم إلى أجزائه الثلاثين جانب اللفظ لا جانب المعنى ، ولذا تجد نهاية جزء وبداءة آخر حيث لا يزال الكلام فى معنى واحد لم يتم بعد كما هنا .

الإيضاح

(قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا) زاد كلمة لك على سابقه لتشديد العتاب على رفض الوصية ، ووسمه بقلة الصبر والثبات حين تكرر منه الاشمئزاز والاستكبار مع عدم الارعواء بالتذكير أول مرة .

قال البغوى : روى أن يوشع كان يقول لموسى : اذكر العهد الذى أنت عليه .

(قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى) أى قال موسى عليه السلام : إن سألتك عن شىء بعدها من عجيب أفعالك التى أشاهدها وطلبت منك بيان حكمته ، فضلا عن المناقشة والاعتراض عليه ، فلا تجعلنى لك صاحبا .

(قد بلغت من لدنى عذرا) أى قد بلغت الغاية التى تعذر بسببها فى فراقى ، إذ خالفتك مرة بعد أخرى ، وهذا كلام نادم أشد الندامة قد اضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف .

وقد روى فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب ، لكن أخذته من صاحبه ذمامة

(حياء وإشفاق من الذم) فقال (إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا) » .

(فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما) أى فانطلق الخضر وموسى بعد المرتين الأولين حتى وصلا إلى قرية طالبا من أهلها أن يطعموهما فأبوا أن يضيفوهما ، وفى الحديث « كانوا أهل قرية لئاما بخلاء » وفى قوله (فأبوا أن يضيفوهما) دون أن يقول فأبوا أن يطعموهما ـ زيادة تشنيع عليهم ووصفهم بالدناءة والشح ، فإن الكريم قد يرد السائل المستطعم ولا يعاب ، ولكن لا يرد الغريب المستضيف إلا لئيم ، ألا تراهم يقولون فى أهاجيهم : فلان يطرد الضيف : وعن قتادة شر القُرى التى لا يضاف فيها ، ولا يعرف لابن السبيل حقه .

(فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقضّ فأقامه) أى فوجدا فى القرية حائطا مائلا مشرفا على السقوط فمسحه بيده فقام واستوى ، وكان ذلك من معجزاته .

(قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا) أى قال موسى ذلك تحريضا للخضر وحثا له على أخذ الجُعْل والأجر على فعله ، لإنفاقه فى ثمن الطعام والشراب وسائر مهامّ المعيشة .

(قال هذا فراق بينى وبينك) أى قال الخضر عليه السلام لموسى : هذا الاعتراض المتوالى منك هو سبب الفراق بينى وبينك على حسب ما شرطت على نفسك ، وإنما كان هذا سبب الفراق دون الأولين ، لأن ظاهرهما منكر فكان معذورا دون هذا ، إذ لا ينكر الإحسان إلى المسىء بل يحمد .

(سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) أى سأخبرك بعاقبة هذه الأفعال التى صدرت منى ، وهى : خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار ، ومآلها خلاص السفينة من اليد الغاصبة ، وخلاص أبوى الغلام من شره مع الفوز ببدل حسن ، واستخراج اليتيمين للكنز .

وفى قوله : (بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) دون أن يقول بتأويل ما فعلت ، أو بتأويل ما رأيت ونحوهما - تعريض به عليه السلام وعتاب له .

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) .

شرح المفردات

المساكين : واحدهم مسكين ؛ وهو الضعيف العاجز عن الكسب لأمر فى نفسه أو فى بدنه ، يعملون فى البحر ، أى يؤاجرون ويكتسبون ، أعيبها : أى أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها ، ووراءهم : أى أمامهم ؛ وهو لفظ يستعمل فى الشيء وضده كما قال :

أليس ورائى أن أدب على العصا فيأمن أعدائى ويسأمنى أهلى

وعن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ أمامهم .

خشينا : أى خفنا ، أن يرهقهما : أى يحملهما ، طغيانا : أى مجاوزة للحدود الإلهية ، زكاة : أى طهارة من الذنوب ، رحما : أى رحمة كالكثر والكثرة ، عن أمرى : أى عن رأيى واجتهادى ، مالم تسطع : أى تستطع ماضيه اسطاع الذى أصله استطاع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأمور التى رآها موسى عليه السلام حين صاحب الخضر، وذكر ما كان من اعتراض موسى عليه مرة بعد أخرى، وقد كان أعلمه من قبل أنه لايستطيع معه صبرا، وكان من جرّاء ذلك أنه فارقه ولم يستطع صحبته ـ أردف ذلك بتفسير ما أشكل عليه أمره، مما ينكر ظاهره، وقد أظهر الله الخضر على حكمة باطنة، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم يحكمون بناء على الظواهر كما قال النبى صلى الله عليه وسلم «نحن نحكم بالظواهر والله يتولى السرائر».

وأحكام هـذا العالم مبنية على الأسباب الحقيقية الواقعة فى نفس الأمر، وهذه لايطلع الله عليها إلا بعض خواص عباده، ومن ثم اعترض موسى على ما رأى ولم يعلم ما آتاه الله الخضر من قوة عقلية قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور، ويطلع على حقائق الأشياء، فكانت مرتبة موسى فى معرفة الشرائع والأحكام بناء على الظواهر، ومرتبة هـذا العالم الوقوف على بواطن الأمور وحقائق الأشياء والاطلاع على أسرارها الكامنة.

وخلاصة المسائل الثلاث — إنه حين يتعارض ضرران يجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى، فلو لم يعب تلك السفينة بالتخريق لغصبها الملك وفاتت منافعها بتاتا، ولو لم يقتل ذلك الغلام لكان بقاؤه مفسدة لوالديه فى دينهم ودنياهم، ولأن المشقة الحاصلة بإقامة الجدار أقل ضررا من سقوطه، إذ بالسقوط كان يضيع مال أولئك الأيتام.

ومجمل الأمر فى ذلك — إن الله أطلع الخضر على بواطن الأشياء وحقائقها فى أنفسها، وهذا لايمكن تعلمه إلا بتصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الجسمية، ومن ثم قال فى صفة علمه: «وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا» وموسى عليه السلام لما كملت مرتبته فى علم الشريعة بعثه الله إلى هذا العالم، ليعلمه أن كمال

المعرفة فى أن ينتقل الإنسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر إلى علوم الباطن المبنية على الإشراف على معرفة حقائق الأشياء على ما هى عليها فى الواقع .

الإيضاح

(أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) أى أما فعلى ما فعلت بالسفينة ، فلأنها كانت لقوم ضعفاء لايقدرون على دفع الظلمة ، وكانوا يؤاجرونها و يكتسبون قوتهم منها، فأردت أن أعيبها بالخرق الذى خرقته، وكان قدامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة للاستعمال غصبا ، و يدع كل معيبة ، فعبتها لأرده عنها .

وخلاصة ذلك — إن السفينة كانت لقوم مساكين عجزة يكتسبون بها ، فأردت بما فعلت إعانتهم على ما يخافون و يعجزون عن دفعه من غصب ملك قدامهم ، من عادته غصب السفن الصالحة .

(وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) أى وأما الغلام فإنه كان كافرا وكان أبواه مؤمنين فخفنا أن يحملهما حبه على متابعته على الكفر .

قال قتادة : قد فرح به أبواه حين ولد ، وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقى لكان فيه هلاكهما ، فليرضَ امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب ، وفى الحديث « لايقضى الله لمؤمن قضاء إلا كان خيرا له » ، وقال تعالى : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

وخلاصة ذلك — إنا علمنا أنه لو أدرك و بلغ لدعا أبويه إلى الكفر فأجاباه ودخلا معه فى دينه لفرط حبهما له .

(فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما) أى قال هذا العالم :

أردنا أن يرزق الله هذين الأبوين ولدا يكون خيرا من هذا الولد دينا وصلاحا وأقرب عطفا ورحمة بأبويه وبرا بهما وشفقة عليهما .

(وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك) أى إن الداعى إلى إقامة الجدار أنه كان تحته كنز ، وكان ليتيمين فى المدينة وكان أبوهما صالحا ، فأراد الله إبقاء ذلك الكنز على ذينك اليتيمين رعاية لحقهما ورعاية لصلاح أبيهما ، فأمرنى بإقامة الجدار لتلك المصالح؛ إذ لو سقط ذلك لضاع الكنز وقد كان مشرفا على السقوط .

(وما فعلته عن أمرى) أى وما فعلت الذى رأيتنى أفعله عن رأيى ومن تلقاء نفسى ، بل فعلته عن أمر الله إياى به ، لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم لاتجوز إلا بالوحى والنص القاطع .

(ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا) أى هذا الذى ذكرت لك من الأسباب التى من أجلها فعلت الأفعال التى استنكرتها ، هو بيان ما تئول إليه الأفعال التى ضقت بها ذرعا ، ولم تصبر حتى أخبرك بها ابتداء .

تنبيـــه

لذكر هذه القصة فى الكتاب الكريم فوائد :

(١) ألا يُعجَب المرء بعلمه ، وألا يبادر إلى إنكار مالا يستحسنه ، فلعل فيه سرا لايعرفه .

(٢) إن فيها تأديبا لنبيه بترك طلب الاستعجال بعقوبة المشركين الذين كذبوه واستهزءوا به وبكتابه ، لأن تأويل ذلك صائر إلى هلاكهم وبوارهم بالسيف فى الدنيا واستحقاقهم من الله فى الآخرة الخزى والعذاب الدائم .

(٣) إن ما حدث فيها يجرى مثله كل يوم فى هـذه الحياة ، ألا ترى أن قتل الغلام وهو صغير لاذنب له يشبه الطاعون الذى يهلك الأمم ويفتك بها فتكا ذريعا،

والبهائم التى تفتك بها السباع أو تأكلها الناس - ولو تأمل الناس حكمة ذلك لعلموا أنهم لو بقوا على الأرض مائة عام أونحوها ولم يمت منهم أحد لضاقت بهم الأرض، ولماتوا جوعا، ولأكل الابن أباه، ولأصبحت الأرض منتنة قذرة، ولهلك الناس جميعا، وأن أكل كواسر الطير لصغارها ليخلو الجو والأرض من الحيوان المزدحمة، ولولا ذلك لأصبحت الأرض مضرة بالناس والحيوان، فاقتناصها رحمة ونعمة على الناس.

وأن خرق السفينة التى هى لمساكين أشبه بموت بقرة فلاح فقير بجانبه رجل غنى لم تصب بقرته بسوء، وذلك إنما يكون لحكم لايعلمها إلا الله، وقد يكون منها أن الفقير حين موته يخرج من هذا العالم خفيفا لايحزنه شيء، وأن الغنى إذا لم يهذب نفسه تكون روحه مجذوبة إلى هـذا العالم متطلعة إلى مافيه، فيصير فى حسرة حين موته.

وأن ذكر الجدار وإقامته تشيران إلى كل من نرى أنه ليس أهلا للنعمة ظاهرا وقد أغدقت عليه، فأهل هذه القرية اللؤماء الأشحاء ليسوا أهلا للإكرام.

وخلاصة ما قاله الخضر: إن هذه الأعمال ليست من جنس أعمال الناس، بل هى من أعمال الله، وإنما كنت واسطة فيها، فهى نماذج لفعل ربكم فى هذه الحياة.

قصص ذى القرنين ويأجوج ومأجوج وسدهما

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣)
إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)
حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا
قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦)
قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧)

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا
يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا
تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا
بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ
وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ
إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى
أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَامَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي
بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا
سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ
عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ، وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)
قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي
حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) .

شرح المفردات

ذكرا : أى نبأ مذكورا وهو القرآن ، ومكنه ومكن له ، كنصحه ونصح له : أى مهد له الأسباب وجعله قادرا على التصرف فى الأرض من حيث التدبير والرأى ، سببا : أى طريقا يوصله إليه من علم أو قدرة أو آلة ، حمئة : أى ذات حمأة وهى الطين الأسود ، حسنا : أى أمرا ذا حسن ، نكرا : أى منكرا فظيعا ، الحسنى : أى المثوبة الحسنى ، يسرا : أى سهلا ميسرا غير شاق ، سترا : أى بناء ، وكانوا إذا طلعت

الشمس تغوّروا فى المياه و إذا غربت خرجوا ، خبرا: أى علما يتعلق بظواهره وخفاياه، السدين : أى الجبلين ، يفقهون : يفهمون ، خرجا : أى جُعْلا من أموالنا على سبيل التبرع ، والخراج : مالزمك أداؤه ، بقوة : أى بما يتقوى به على المقصود من الآلات والناس ، ردما : أى حاجزا حصينا ، والردم : أكبر من السد وأوثق يقال ثوب مردم : أى فيه رقاع فوق رقاع ، وزبر : واحدها زبرة (بضم فسكون) كغرفة : وهى القطعة العظيمة ، والصدفين : واحدها صدف ، وهو جانب الجبل ، قطرا : أى نحاسا مذابا وقيل رَصاصا مذابا ، أن يظهروه : أى أن يعلوه و يرقوا فوقه لارتفاعه وملاسته ، رحمة : أى أثر رحمة ، دكاء : أى مثل دكاء وهى الناقة لاسنام لها ؛ والمراد بها الأرض المستوية ، حقا : أى ثابتا واقعا لامحالة ، يموج : أى يضطرب اضطراب البحر ، والصور : قرن ينفخ فيه .

المعنى الجملى

هذه القصة رابعة ثلاثة من القصص التى ذكرت فى هذه السورة ، وقد قدمنا أن كفار مكة بعثوا إلى أهل الكتاب يطلبون إليهم مايمتحنون به النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : سلوه عن رجل طوّاف فى الأرض ، وعن فتية لايدرى ماصنعوا، وعن الروح؟ فنزلت سورة الكهف .

وقبل الشروع فى تفسير هذه الآيات الكريمة لابد من بيان أمور تمس إليها الحاجة ، مَن ذو القرنين ؟ من يأجوج ومأجوج ؟ أين سد ذى القرنين ؟ .

ذو القرنين

يرى كثير من العلماء والمؤرخين أنه هو إسكندر بن فيلبس الرومى تلميذ أرسطاطاليس الفيلسوف المسمى بالمعلم الأول الذى انتشرت فلسفته فى الأمة الإسلامية، وقد كان قبل الميلاد بنحو ٣٣٠ سنة وكان من أهل مقدونيا وحارب الفرس واستولى

على ملك دارا وتزوج ابنته، ثم سافر إلى الهند وحارب هناك، ثم حكم مصر وبنى الاسكندرية؛ والدليل على ذلك أنه لم يعرف التاريخ أن أحدا من الملوك دوّخ العالم وسار شرقا وغربا وغلب أكثر المعمور غيره.

ويرى أبو الرَّيحان البيْرونى المنجم فى كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) أنه من حِمْيَر واسمه أبو بكر بن إفْريقش، وقد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط، فمر بتونس ومرَّاكُش وغيرهما، وبنى مدينة إفريقيّة فسميت القارة كلها باسمه، وهو الذى افتخر به أحد شعراء حمير حيث يقول:

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ... ملكا تدين له الملوك وتسجد

بلغ المشارق والمغارب يبتغى ... أسباب ملك من كريم مرشد

فرأى مآب الشمس عند غروبها ... فى عين ذى خُلُب وثأْطٍ حَرْمَد (١)

وسمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس.

والدليل على أنه حِمْيَرِىّ أن الأذواء إنما يعرفون فى بلاد حمير دون بلاد اليونان، وهو من الدولة الحميرية التى حكمت من سنة ١١٥ ق م إلى ٥٥٢ ب م من الطبقة الثانية منها، وملوكها يسمون التبابعة واحدهم تُبّع (بضم التاء وتشديد الباء).

يأجوج ومأجوج

يأجوج: هم التتر، ومأجوج: هم المغول، وأصلهما من أب واحد يسمى (ترك) وكانوا يسكنون الجزء الشمالى من آسيا، وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالى، وتنتهى غربا بما يلى بلاد التركستان.

وقد ذكر مؤرخو العرب والإفرنج أن هذه الأمم كانت تغير فى أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها، فكثيرا ما أفسدوا فى الأرض، ودمروا كثيرا من الأمم، فمنهم الأمم المتوحشة التى انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى وذهبت إلى أوربا

(١) الخلب: الطين. والثأط: الحمأة. والحرمد: الأسود.

فى العهد القديم كأمة التحيت والسَّمْرِيَانِ والهُون ، وكثيرا ما أغاروا على بلاد الصين وآسيا الغربية التى كانت مقر الأنبياء .

ثم لم يزالوا فى حدود بلادهم لايتجاوزونها بعد زمن النبوة ، إلى أن ظهر فيهم الداهية الرحالة (تموجين) الذى لقب نفسه (جنكيزخان ـ ملك العالم) بلغة المغول ؛ فخرج فى أوائل القرن السابع من الهجرة من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التى فى آسيا الوسطى ، فأخضع الصين الشمالية أولا ، ثم ذهب إلى البلاد الإسلامية فأخضع السلطان قطب الدين بن أرميلان من الملوك السلجوقية ملك خُوَارِزْم ، وفعل بهذه الدولة من الفظائع مالم يسمع بمثله فى التاريخ .

ولما مات جنكيزخان قام مقامه ابنه (أقطاى) وأغار ابن أخيه (باتو) على بلاد الروس سنة ٧٢٣ هـ ودمر بولنيا و بلاد المجر وأحرق وخرّب .

و بعد أن مات أقطاى قام مقامه (جالوك) فحارب الروم وألزم ملكها دفع الجزية ثم مات (جالوك) فقام مقامه ابن أخيه (منجو) فكلف أخويه (كيلاى) و (هولاكو) أن يستمرا فى طريق الفتح ، فأخضع كيلاى بلاد الصين ، وزحف هولاكو على الممالك الإسلامية ومقر الخلافة العباسية ، وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم بالله ، فأخذ بغـداد عنوة فى أواسط القرن السابع من الهجرة ، وأسلمت للسلب والنهب سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهارا ، وطرحوا كتب العلم فى دجلة وجعلوها جسرا يمرون عليه بخيولهم ، وبذلك انتهت الخلافة العباسية ببغداد .

ولما استولت ذرية جنكيزخان على آسيا كلها وأوربا الشرقية ، اقتسموا بينهم ما فتحوه ، وأنشئوا أربع ممالك ، فاختصت أسرة كيلاى بالصين والمغول ، وملك جاغاقاى أخو أقطاى تركستان ، وملكت ذرية باطرخان البلاد التى على شواطئ نهر فلجا ، وصارت الروسيا تدفع لها الجزية زمنا طويلا ، وأخذ هولاكو بلاد الفرس و بغداد حتى بلاد الشام ـ وقد لخصنا ذلك من دائرة المعارف وابن خلدون وابن مسكويه ورسائل إخوان الصفا .

سدّ ذى القرنين

كانت البلاد التى شرقى البحر الأسود يسكنها قوم من الصقالبة (السلاف) وكان هناك سد منيع بالقرب من مدينة (باب الأبواب) أو (در بت) بجبل قوقاف وقد كشفوه فى القرن الحاضر وهو غير السدّ الشهير الذى بناه ذو القرنين ، فإن هذا وراء جيجون فى عمالة (بلخ) واسمه (باب الحديد) بمقربة من مدينة (ترْمِذ) وقد اجتازه تيمورلنك بجيشه ، ومر به أيضا (شاه روخ) وكان فى بطانته العالم الألمانى (سيلد برجر) وذكر السد فى كتابه وكان ذلك فى أوائل القرن الخامس عشر ، وكذلك ذكره المؤرخ الأسبانى (كلا فيجو) فى رحلته سنة ١٤٠٣ وكان رسولا من ملك كستيل (قشتاله) بالأندلس إلى تيمورلنك ، وقال إن سد مدينة (باب الحديد) على الطريق الموصل بين سمرقند والهند انتهى ملخصا من مقتطف سنة ١٨٨٨ م .

وبذلك تعلم أن السد موجود فعلا ، وأن هذا معجزة للقرآن الكريم حقا ، وهى إحدى المعجزات التى أيدها التاريخ وعلم تقويم البلدان ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «ويل للعرب من شر قد اقترب» وقد صدق رسوله، فأزال هؤلاء المغول دولة العرب وانتهت بقتل المستعصم آخر ملوكها ، وبقى خليفة رسمى فى مصر ، وزال ملكهم بتاتا فى حدود الألف ، وتفرق ملك الإسلام شذر مذر ، ولم تحفظه إلا الدولة العثمانية بعد العرب وقد كوّن أولئك التتار أغلب المسلمين فى الهند والصّين وأغلب آسيا ، فهم كما ورثوا بلادهم ورثوا دينهم .

الإيضاح

(ويسألونك عن ذى القرنين) أى تسألك قريش بتلقين اليهود سؤال اختبار وامتحان .

(قل سأتلو عليكم منه ذكرا) أى قل لهؤلاء المتعنتين : سأقص عليكم قصصا وافيا جامعا لما تريدون ، أعلمنيه ربى وأخبرنى به .

ثم فصل ذلك فقال :

(إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا) أي مكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء ، بحيث يصل إلى جميع مسالكها ، ويظهر على سائر ملوكها ؛ وآتيناه من كل شىء أراده من مهام ملكه و بسطة سلطانه طريقا يوصله إليه ، فآتيناه العلم والقدرة والآلات التى توصله إلى ذلك .

(فأتبع سببا . حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) أي فأراد بلوغ المغرب فاتبع طريقا يوصله إليه ، حتى إذا بلغ منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لايمكن تجاوزه ، ووقف على حافة البحر المحيط الاطلانطى (المحيط الأطلسى) وجد الشمس تغرب فى عين ذات حمأة وطين أسود .

وخلاصة ذلك — إنه بلغ بلادا لابلاد بعدها تغرب عليها الشمس ، إذ لم يكن عمران إلا ما عرفوه عند بحر الظلمات ، فهو قد سار إلى بلاد تونس ثم مرّاكش ووصل إلى البحر فوجد الشمس كأنها تغيب فيه ، وهو أزرق اللون كأنه طين وماء .

(ووجد عندها قوما) أى ووجد عند تلك العين قوما كفارا فخيره الله بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الإيمان ، وهذا تفصيل قوله :

(قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب و إما أن تتخذ فيهم حسنا) أى قلنا له بطريق الإلهام إما أن تقتلهم إن هم لم يقروا بوحدانيتى و يذعنوا لك فيما تدعوهم إليه من طاعتى،و إما أن تأمر بتعليمهم طريق الهدى والرشاد،وتبصيرهم بالشرائع والأحكام .

(قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا) أى قال ذو القرنين لبعض خاصته و بطانته : أما من ظلم نفسه فأصرّ على الشرك بربه فسنعذبه بالقتل ثم يرجع إلى ربه فى الآخرة فيعذبه عذابا منكرا فى نار جهنم .

(وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا) أى وأما من صدّق بالله ووحدانيته وعمل عملا صالحا فى الدارين فله المثوبة الحسنى جزاء وفاقا على تلك الخلال الجميلة التى عملها فى دنياه ، وسنعلمه فى الدنيا ما يتيسر لنا

تعليمه مما يقرّبه إلى ربه ، ويلين له قلبه ، ولا يشق عليه فعله مشقة كبيرة كالصلاة والزكاة والجهاد ونحوها .

(ثم أتبع سببا . حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) أى ثم قفل راجعا من مغرب الشمس وسلك طريقا موصلا إلى مشرقها ، حتى إذا بلغ الموضع الذى تطلع عليه الشمس أوّلا من المعمور ، وجدها تطلع على قوم ليس لهم بناء يكنهم ، ولا أشجار تظلهم وتسترهم عن حر الشمس ، فليس لهم سقوف ولا جبال تمنع من وقوع أشعة الشمس عليهم ، لأن أرضهم لاتحمل بنيانا ، بل لهم سروب يغيبون فيها حين طلوع الشمس ، ويظهرون حين غروبها ، فهم حين طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف فى المعاش ، وحين غروبها يشتغلون بتحصيل مهماتهم ، وأحوالهم على الضد من أحوال الناس .

وخلاصة ذلك — إنه بلغ غاية المعمور من الأرض جهة المشرق ووجد قوما لالباس لهم ولا بناء ، فهم عراة فى العراء أو فى سراديب فى الأرض .

(كذلك) أى إن أمر ذى القرنين كما وصفنا من قبل من بلوغه طرفى المشرق والمغرب ، ومن فعله الأفاعيل التى ذكرت ، فهو قد بلغ الغاية فى رفعة الشأن و بسطة الملك مما لم يتح لكثير غيره .

(وقد أحطنا بما لديه خبرا) أى ونحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا شىء منها و إن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض كما قال « لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ » .

وخلاصة ذلك — إنه كما وصف وفوق ماوصف بما لا يحيط بعلمه إلا اللطيف الخبير .

(ثم أتبع سببا) أى ثم سلك طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب آخذا من مطلع الشمس إلى الشمال .

(حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا)

أى حتى إذا وصل بين الجبلين ، (وقد تقدم وصف مكانهما بالتحديد كما رآه السائحون فى القرن الخامس عشر الميلادى) وجد من دونهما أمة من الناس لايكادون يفهمون كلام أتباعه ولا كلام غيرهم ، لبعد لغتهم عن لغات غيرهم ، مع قلة فطنتهم ، إذ لو كان لهم فطنة لفهموا ما يراد من القول بالقرائن وفحوى الحال .

(قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض) أى قال مترجموهم: إن يأجوج ومأجوج يفسدون أرضنا بالقتل والتخريب وأخذ الأقوات وسائر ضروب الإفساد (تقدم تحقيق القول فى ذلك) .

(فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا و بينهم سدا ؟) أى فهل تحب أن نجعل لك جُعْلا من أموالنا فتجعل بيننا و بينهم حاجزا يمنعهم من الوصول إلينا .

وخلاصة ذلك — إنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم ما لايعطونه إياه حتى يجعل بينهم و بينهم سدا .

(قال ما مكنى فيه ربى خير) أى قال ذو القرنين : إن ما مكننى فيه ربى من بسطة الملك والسلطان ووفرة المال ـ خير مما تبذلونه لى من الخراج ، فلا حاجة بى إليه ، وهذا نحو ما قاله سليمٰن عليه السلام « أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ » .

والدول القوية يجب أن تحافظ على الدول الضعيفة ، ولا تأخذ منها مالا مادامت قادرة على إغاثتها .

وخلاصة ذلك — ما أنا فيه خير مما تبذلونه .

(فأعينونى بقوة أجعل بينكم و بينهم ردما) أى ولكن ساعدونى بفعلة وصناع يحسنون العمل والبناء ، أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج سدا منيعا ، وحاجزا حصينا أمنع مما تريدون .

ثم بين تلك القوة التى طلبها فقال :

(آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله

نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا) أى جيئونى بقطع الحديد ، فلما جاءوه بها أخذ يبنى شيئا فشيئا حتى إذا جعل مابين جانبى الجبلين من البنيان مساويا لهما فى العلو، قال للعملة : انفخوا بالكيران فى زبر الحديد التى وضعت بين الصدفين ففعلوا ، وما زالوا كذلك حتى صارت كالنار اشتعالا وتوهجا ، فصب النحاس المذاب على الحديد المحمى فالتصق بعضه ببعض ، وسد الفجوات التى بين الحديد وصار جبلا صلدا .

(فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) أى إن يأجوج ومأجوج ما قدروا أن يصعدوا من فوق السد لارتفاعه وملاسته ، ولا استطاعوا نقبه لصلابته وثخانته .

(قال هذا رحمة من ربى) أى قال ذو القرنين لأهل تلك الديار : هذا السد نعمة من الله ورحمة بعباده ، إذ صار حاجزا بينهم وبين يأجوج ومأجوج يمنعهم من أن يعيثوا فى الأرض فسادا .

(فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء) أى فإذا دنا وقت خروجهم من وراء السد جعله ربى بقدرته وسلطانه أرضا مستوية ، فسلط عليهم منهم أو من غيرهم من يهدمه ويسوى به الأرض .

(وكان وعد ربى حقا) أى وكان كل ما وعد به سبحانه حقا ثابتا لاريب فى تحققه ، وقد جاء وعده تعالى بخروج جنكيزخان وسلائله فعاثوا فى الأرض فسادا من الشرق والغرب وفعلوا الأفاعيل بالدولة الإسلامية ، وأزالوا معالم الخلافة من بغداد كما علمت ذلك فيما سلف .

وقد ذكر المؤرخون أن سبب خروج جنكيز خان أن سلطان خُوَارَزْم السلجوقى قتل رسله وتجاره المرسلين من بلاده ، وسلب أموالهم وأغار على أطراف بلاده ، فاغتاظ ، وكتب إلى السلطان كتابا قال فيه : كيف تجرأتم على أصحابى ورجالى ، وأخذتم تجارتى ومالى ... أتحركون الفتنة النائمة

وتنبهون الشرور الكامنة ... أو ما جاءكم عن نبيكم ، (وعليكم أن تمنعوا من السفاهة غنيَّكم ، وعن ظلم الضعيف غويَّكم) أوما بلغكم عنه مرشدوكم ، اتركوا الترك ما تركوكم ، وكيف تؤذون الجار ، وتسيئون الجوار . ونبيكم قد أوصى به ... ألا إن الفتنة نائمة فلا توقظوها ، وهذه وصاياى إليكم فعوها واحفظوها ، وتلافوا التلف قبل أن ينهض داعى الانتقام ، وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج ، وسينصر الله المظلوم ولينسلنّ عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب اهـ ملخصا .

روى البخارى عن أم حبيبة بنت أبى سفيان عن زينب بنت جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فزعا يقول « لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بإصبعه الابهام والتى تليها ، قالت زينب فقلت يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ، فقال نعم إذا كثر الخبث » .

ولقد اتسع ذلك الفتح من هذا التاريخ شيئا فشيئا حتى فتح عن آخره فى القرن السابع الهجرى ، وخرج هؤلاء القوم كما قدمنا وقد عثر على آثاره كما علمت فيما سلف .

(وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض) أى ويوم يدك السد يخرج هؤلاء من ورائه يموجون فى الناس ، ويفسدون عليهم زروعهم ويتلفون أموالهم ، وهذا بمعنى قوله فى سورة الأنبياء : « حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ » أى وهم من كل مرتفع من الأرض يسرعون فى النزول من الآكام والمرتفعات ، وتلك حال تنطبق على قوم جنكيزخان ، فقد كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى ، كما تقدم نقلا عن مؤرخى العرب والإفرنج .

كل هذا قبل النفخ فى الصور بزمن مجهول غير معلوم .

(ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا) أى فإذا دنا ميقات الساعة نفخ فى الصور وجمعنا الناس جمعا ، وأحضرناهم للحساب كما قال : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ » وقوله : «وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا» .

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) .

شرح المفردات

عرضنا : أى أظهرنا وأبرزنا ، غطاء : أى غشاوة محيطة بها ، عن ذكرى : أى عن الآيات الموصلة إلى ذكرى بتوحيدى وتمجيدى ، أولياء : أى معبودات يقونهم بأسى ، أعتدنا : أى هيأنا ، نزلا : أى طعاما يتمتعون به حين ورودهم إلى ربهم ، ولقائه : أى حين البعث والحشر وما يتبع ذلك ، الهزؤ : السخرية والاحتقار .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه إذا جاء يوم القيامة ينفخ فى الصور لجمع الخلائق وقيامهم من قبورهم بعد أن تقطعت أوصالهم وتمزقت أجسامهم ، ويجمعهم فى صعيد واحد للحساب والجزاء - قفى على ذلك ببيان أنه إذ ذاك يبرز النار للكافرين بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا ، وفى ذلك تعجيل الهم والحزن لهم ، من قِبَل أنهم تعاموا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق وحسبوا أن اتخاذهم أولياء من دون الله ينجيهم

من عذابه ، وأن ما عملوه من تلك الأعمال الباطلة نافع لهم ، وكل ذلك وهم وخيال فلا فائدة منه فى ذلك اليوم ، ولا نقيم له إذ ذاك وزنا .

روى أبو سعيد الخُدْرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كيف أنعَمُ وصاحب القرن قد التقم قرنه ، وحنى الجبهة وأصغى الأذن ، متى يؤمر أن ينفخ ؟ ولو أن أهل مِنًى اجتمعوا على القرن أن يقلوه من الأرض ما قدروا عليه » قال : فأبلس (بئس وتحير) أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشق عليهم ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » والحديث يشير إلى قرب الساعة وأنها أوشكت تجىء .

الإيضاح

(وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا) أى وأبرزنا جهنم يوم ينفخ فى الصور وأظهرناها للكافرين بالله حتى يروا أهوالها وشديد نكالها ويسمعوا لها تغيظا وزفيرا ، وفى هذا تعجيل للهمّ والحزن ومعرفة أنهم مواقعوها ، ولا يجدون عنها مصرفا .

ثم بين أوصافهم التى استحقوا بها هذا الجزاء فقال :

(الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا) أى إن هذا العذاب إنما نالهم من جَرّاء أنهم كانوا لا ينظرون فى آيات الله فيتفكروا فيها ولا يتأملون حججه فيعتبروا بها وينيبوا إلى ربهم وينقادوا لأمره ونهيه ، وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا ذكر الله الذى ذكرهم به ، وبيانه الذى بيّنه لهم فى آى كتابه ، فتغافلوا وتعامَوْا وتصامّوا عن قبول الهدى واتباع الحق كما قال : « وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » .

ذاك أنهم لما دنسوا أنفسهم باجتراح المعاصى والآثام ، وأطاعوا وساوس الشيطان وما نصبه لهم من الحبائل ، طبع الله على قلوبهم وجعل على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة .

ثم بين أن ما اعتمدوا عليه من المعبودات الأخرى لايجديهم نفعا فقال :

(أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء) أى أفظن الذين كفروا بى واتخذوا عبادى الذين هم فى قبضتى وتحت سلطانى كالملائكة وعيسى ـ معبودات من دونى ـ أظنوا أن ذلك يجديهم نفعا أو يرفع عنهم ما يحل بهم من النكال والوبال .

وخلاصة هذا — أظنوا أن ذلك الاتخاذ ينفعهم ، وأنه لايغضبنى ـ كلاّ .

ثم أكد هذا الإنكار بقوله :

(إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) أى إنا هيأنا لهؤلاء الكافرين جهنم عوضا مما أعدوه لأنفسهم من الأولياء الذين اتخذوهم زادا ليوم المعاد .

والخلاصة — إنا أعتدنا لهم مكان ما أعدوا لأنفسهم من العُدّة والدُّخْر ـ عُدة هى جهنم و بئس المصير .

وفى ذلك تهكم بهم وتخطئة لهم فى حسبانهم ذلك ، و إيماء إلى أن لهم وراء جهنم ألوانا أخرى من العذاب ، وما جهنم إلا أنموذج منه .

ثم ذكر سبحانه ما فيه تنبيه إلى جهلهم فقال :

(قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا. الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يجادلونك بالباطل من أهل الكتاب من اليهود والنصارى : هل نخبركم بالذين أتعبوا أنفسهم فى عمل يبغون به ثوابا وفضلا فنالوا به هلاكا و بوارا كالمشترى سلعة يرجو بها ربحا فخاب رجاؤه وخسر بيعه ووكس فى الذى رجا فضله .

وخلاصة ذلك — إنهم عملوا بغير ما أمرهم به الله ، وظنوا أنهم بفعلهم هذا مطيعون له ، وأنهم يحسنون صنعا ، ثم استبان لهم أنهم كانوا مخطئين ، وفى ضلال مبين ، وأن سعيهم الذى سعوا فى الدنيا ذهب هباء ، فلم يجدهم نقيرا ولا قطميرا .

ثم بين السبب فى بطلان سعيهم فقال :

(أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) أى إن هؤلاء الأخسرين أعمالا هم الذين كفروا بالدلائل المنبثة فى الآفاق والأنفس التى تدعو إلى توحيده، وكفروا بالبعث والحساب وما يتبع ذلك من أمور الآخرة، ومن ثم حبطت أعمالهم، فلم يكن لها ثواب ينفع أصحابها، بل لهم منها عذاب وخزى طويل، ولا تثقل بها موازينهم، لأن الموازين إنما تثقل بالأعمال الصالحة وليس لهم منها شىء.

ثم بين مآلهم بسبب كفرهم وسائر معاصيهم إثر بيان أعمالهم المحبطة بذلك الكفر فقال:

(ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) أى إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم رسل الله ومعجزتهم التى أظهرها على أيديهم هزؤا وسخرية، فلم يكتفوا بالكفر بها، بل ارتكبوا هذه الحماقة التى هى أعظم أنواع الاحتقار.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠).

شرح المفردات

الفردوس: البستان بالرومية. وقال السدى: إنه الكرم بالنبطية وأصله فرداسا، حِولا: أى تحولا، والمداد: ما يمد به الشىء؛ واختص بما تمد به الدواة من الحبر،

كلمات ربى : معلوماته غير المتناهية ، والرجاء : طمع حصول ما فيه مسرة مستقبلة ، ولقاء ربه : هو البعث وما يتبعه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعده للكفار من العذاب فى جهنم ، وأن ذلك كان جزاء بما كفروا بربهم واستهزائهم برسله وآياته - أردف ذلك بما يرغب المؤمنين فى العمل الصالح من جنات تجرى من تحتها الأنهار جزاء وفاقا على إنابتهم إلى ربهم وإخباتهم إليه ، ثم ختم السورة ببيان حال القرآن الذى ذكر فيه الدلائل والبينات على وحدانيته وإرسال الرسل والبعث والجزاء مما يدل على عظيم فضله ، ثم أعقب ذلك ببيان أن العمل لايتقبل إلا إذا صاحبه أمران : أن يكون خالصا لوجهه تعالى ، وأن يكون مبرأ من الشرك الخفىّ والجلىّ .

روى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من سمّع سمّع الله به ، ومن يرائى يرائى اللهُ به » أى من عمل عملا مراءاة للناس ، وليشتهر به شهّره الله يوم القيامة .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله تبارك وتعالى يقول : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشركه » .

الإيضاح

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) أى إن الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به وعملوا صالح الأعمال ابتغاء المثوبة من ربهم - لهم بساتين الفردوس فى أعلى الجنة وأوسطها منزلا .

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس ، فإنها أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقها عرش الرحمن تبارك وتعالى ومنه تفجر الأنهار » .

(خالدين فيها لا يبغون عنها حولا) أى لابثين فيها أبدا لايبغون عنها تحولا إلى غيرها ، قال ابن عباس : لايريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار إذا لم توافقه إلى دار أخرى .

وخلاصة هذا — إنه لا مكان أعز منها عندهم ، ولا أرفع شأنا حتى تنازعهم إليه أنفسهم ، وتطمح إليه أبصارهم ، ثم نبه إلى عظيم شأن القرآن بقوله :

(قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) أى قل لهم أيها الرسول : لو كان ماء البحر مدادا للقلم الذى تكتب به كلمات ربى وعلومه لنفد ماء البحر قبل أن تنفد تلك الكلمات ، ولو مددنا ماء البحر بمثل مافيه من الماء مددا وعونا ، لأن مجموع المتناهيين متناه ، وعلوم الله وحكمته لا نهاية لها ، والمتناهى لايفى البتة بغير المتناهى ، ونحو الآية قوله « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَانَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ » .

روى أن اليهود قالوا يامحمد : تزعم أننا قد أوتينا الحكمة ، وفى كتابك « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » ثم تقول « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » يريدون بذلك الاعتراض بوجود التناقض فأنزل الله الآية ردا عليهم .

وقد أثبت العلم الحديث مايتبين منه أن فى كل عالم من العوالم الأرضية والسماوية مالا يحصى من النعم على عباده ، وعليك أن تلقى سمعك إلى آخر الآراء التى اهتدى إليها العلماء فى العصر الحاضر .

قال الأستاذ جينس الإنكليزى المدرس لعلوم الرياضيات التطبيقية فى جامعة (بنسلفانيا) بأمريكا فى ٧ من مارث ١٩٢٨ وهى أحدث الآراء فى منشأ الكائنات وعدم التناهى فى الزمان والمكان . ما خلاصته :

(١) إن عمر الأرض نحو ألفى مليون سنة .

(٢) إن الإنسان لم يمش على الأرض إلا منذ ثلثمائة ألف سنة فحسب .

(٣) إن الشمس ستظل بعد ألف ألف مليون سنة كما هى الآن تقريبا ، وتدور الأرض حولها كما هى الآن .

(٤) الإنسان فى المستقبل يكون أحكم من الإنسان الحاضر بثلاثة ملايين مرة على الأقل ، فسينظم معيشته على وفق حال الكرة الأرضية إذ ذاك .

(٥) مما تقدم نعلم أن الإنسان حديث العهد بالولادة على الأرض ، فهو طفل فى علومه ومعارفه ، وكل هم هذا الطفل كان موجها إلى غذائه ومسكنه ، وهو يجهل العوالم الأخرى ، ولكنه الآن عرف أن هناك عوالم أخرى لا نهاية لها ، وأن معرفته بها تافهة جد التفاهة ، وربما عاش بعد الآن ألفى مليون سنة على الأرض ، وبعبارة أخرى إنه يعيش مدة تعادل عمر الأرض فى الماضى .

(٦) الأجرام التى حولنا لها نهاية ، أما الفضاء الذى بعدها فلا نهاية له ، فالشمس والكواكب والمجرات لها نهاية ، ولكن وراءها فضاء لا نهاية له .

(٧) الأجرام العلوية التى نراها والتى لا نراها كرية الشكل كقطرة الماء وكرة الأرض والشمس .

(٨) الإشارات اللاسلكية تنبعث من جهاز لاسلكى كبير تدور حول الكرة الأرضية فى أقل من سبع ثانية ، وتعود إلى النقطة التى بدأت منها ، وهكذا نحن لو اخترقنا هذه العوالم رجعنا إلى مبدإ سفرنا .

(٩) إننا لو صنعنا منظارا قويا (تلسكوبا) لنرى الأجرام السماوية ، لرأينا النجوم بهيئتها التى كانت عليها حينما أرسلت إلينا النور قبل ملايين السنين .

(١٠) إن الإنسان اليوم طفل فى العلوم ، وربما علم فى المستقبل ما لا يتخيله الآن .

(١١) إن سرعة النور فى الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل ، ومثله فى ذلك

الكهرباء اللاسلكية ، لأنهما شيء واحد فى جوهرهما ، ويرجح أن النور يسير حول الفضاء الكروى مائة ألف مليون سنة ، أى إن النور يدور فى هذا العالم المملوء بالأجرام العلوية الذى مجموعه كرة واحدة مدة مائة ألف مليون سنة مع العلم بأنه يدور حول الأرض فى سبع ثانية ، فما أبعد النسبة بين سبع ثانية ، و بين مائة ألف مليون سنة .

إلا أن الأرقام لاتقدر أن تحصى المسافة المحصورة بين أى نقطتين كانتا على محيط الفضاء الكروى .

(١٢) الشمس أكبر من الأرض حجما بمليون وثلثمائة ألف مرة ، وما هى إلا حبة رمل على شاطئ هذا الفضاء الكروى ، وهى واحدة من أسرة من أسر الكائنات التى فى الفضاء الكروى التى قدرها العلامة (سيرز) بثلاثين ألف مليون مجموعة ، وشمسنا وتوابعها حبة رمل فى مجموعة واحدة من هذه الثلاثين ألف مليون مجموعة .

(١٣) إن هناك سُدُما لولبية فى خارج المجرة ، وهى مجموعة من النجوم التى تمّ نشوءها أو لاتزال فى طور التكوين ، وفى بعضها من المادة ما يكفى لخلق ألف مليون شمس كشمسنا .

(١٤) يقول (هويل) إن مرقب (تلسكوب) مونت ويلسون بأمريقا يريك نحو مليونين من تلك السدم ، وإذا تمكن الإنسان من صنع مرقب أكبر من هذا فإنه يرى بلا شك ملايين كثيرة أخرى منها ، وفيها من المادة مايكفى لخلق ملايين الشموس والأجرام الفلكية ، ويقول : إذا أردت أن تعرف عدد النجوم التى تسبح فى الفضاء على وجه التقريب ، فضع رقم ٢ وعلى يمينه ٢٤ صفرا ، وهذا العدد يغطى الجزائر البريطانية إلى عمق مئات من الأمتار .

(١٥) أضعف النجوم المعروفة هى نجم (وولف) ونوره جزء من عشرين جزءا من نور الشمس ، ونور النجم (دورادوس) يساوى ثلثمائة ألف ضعف بالنسبة للنور المنبثق من الشمس .

وأصغر النجوم هو نجم (فان مانن) وحجمه كحجم الأرض ، وأكبر النجوم الجوزاء ، وهى أكبر من الشمس خمسا وعشرين مليون مرة ، ونسبة نورها إلى نور الشمس كنسبة نور المصابيح الكهربائية إلى نور حشرة (الحباحب) .

(١٦) إن الشمس تخرج أشعة تعادل قوتها خمسين حصانا من كل بوصة مربعة وبعض النجوم التى هى أعظم من الشمس تشعّ نورا من البوصة المربعة يساوى قوة ثلاثين ألف حصان لكل بوصة مربعة .

(١٧) إن الشمس تفقد كل يوم من المادة بسبب خروج الأشعة منها ما يساوى ٢٥٠ مليون طن فى الدقيقة ، فى اليوم تفقد ٣٦٠ ألف مليون طن .

(١٨) يظن أن عمر الشمس الآن عشرة آلاف ألف مليون سنة ، ويمكن أن تعيش ملايين ملايين السنين دون أن تنطفىء .

(١٩) عمر الأجرام الفلكية يختلف من خمسة آلاف ألف مليون سنة إلى عشرة آلاف ألف مليون سنة اه .

هذه آراء علماء الفلك فى العصر الحاضر استنبطوها بالحساب تارة ، وبوجه التقريب تارة أخرى ، مما يرشد إلى تفسير قوله تعالى : (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى) الآية .

فهذه هى الكلمات الإلهية التى أدهشت الألباب ، وضاعت الأعمار فى البحث عن علم شىء منها ، ولا يزال الناس فى عماية من أمرها ، ولم يصلوا إلا إلى معرفة القليل كما قال : « وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » .

(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد) أى قل لهم أيها الرسول : إنما أنا بشر مثل ما أنتم كذلك ، ولا أدعى الإحاطة بكلمات الله جلت

قدرته ، ولا علم لى إلا ما علمنى ربى ، وأن الله أوحى إلىّ أن معبودكم الذى يجب أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ـ هو معبود واحد لاثانى له ولا شريك .

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) أى فمن كان يطمع فى ثواب الله على طاعته فليخلص له العبادة ، وليفرد له الربوبية ولا يشرك به سواه ، لا إشراكا جليا كما فعل الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، ولا إشراكا خفيا كما فعل أهل الرياء ممن يطلب بعمله الدنيا ، وهذا هو الشرك الأصغر كما صح فى الحديث ، وروى مستفيضا فى الأخبار من أن كل عمل أريد به الدنيا لايقبل ، فقد أخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه قال : « أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا برىء منه وهو للذى أشرك » نسأل المولى القدير أن يجعل عملنا خالصا لوجهه ، لايراد به رضا أحد من خلقه .

إجمال ما تضمنته السورة من الأغراض والمقاصد

(١) وصف الكتاب الكريم بأنه قيم لاعوج فيه ، جاء للتبشير والإنذار .

(٢) ما جاء على ظهر الأرض هو زينة لها ، وقد خلقه الله ابتلاء للإنسان ليرى كيف ينتفع به .

(٣) ما جاء من قصص أهل الكهف ليس بالعظيم إذا قيس بما فى ملكوت السموات والأرض .

(٤) وصف الكهف وأهله ، مدة لبثهم فيه ، عدد أهله .

(٥) أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالجلوس مع فقراء المؤمنين وعدم الفرار منهم إلى أغنيائهم إجابة لدعوتهم .

(٦) ذكر ما يلاقيه الكفار من الوبال والنكال يوم القيامة .

(٧) ضرب مثل يبين حال فقراء المؤمنين وأغنياء المشركين .

(٨) ضرب المثل لحال الدنيا .

(٩) عرض كتاب المرء عليه فى الآخرة وخوف المجرمين منه .

(١٠) عداوة إبليس لآدم و بنيه .

(١١) قصص موسى والخضر .

(١٢) قصص ذى القرنين وسد يأجوج ومأجوج ، وكيف صنعه ذو القرنين .

(١٣) وصف أعمال المشركين وأنها ضلال وخيبة فى الآخرة .

(١٤) ما يلقاه المؤمنون من النعيم فى الآخرة .

(١٥) علوم الله تعالى لانهاية لها .

ســـــورة مريم

هى مكية إلا آيتى ٥٨ ، ٧١ فمدنيتان ، وعدد آيها ثمان وتسعون .

ومناسبتها لسورة الكهف اشتمالها على نحو ما اشتملت عليه من أعاجيب القصص كقصة ولادة يحيى ، وقصة ولادة عيسى عليهما السلام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) .

شرح المفردات

زكريا (يمد ويقصر) من ولد سليمان بن داود عليهم السلام وكان نجارا ، نادى ربه : أى دعاه ، خفيا : أى مستورا عن الناس لم يسمعه أحد منهم ،

وهن العظم : ضعف ورق من الكبر: إذ قد بلغ خمسا وسبعين سنة أوثمانين، واشتعل الرأس شيبا : أى صار الشيب كالنار والشعر كأنه الحطب ، ولقوتها وشدتها أحرقت الرأس نفسه ، شقيا؛ يقال شقى بكذا : أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه والمراد أنه خائب غير مستجاب الدعوة ، الموالى : هم عصبة الرجل ، من ورائى: أى من بعدى؛ ويقال رجل عاقر وامرأة عاقر إذا كانا عقيمين، وليا : أى ولدا من صلبى ، ويعقوب: هو يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم وكان متزوجا أخت مريم بنت عمران من ولد سليمان عليه السلام ، رضيا : أى مرضيا عندك قولا وفعلا ، سميا : أى شريكا له فى الاسم؛ فلم يسم أحد بهذا الاسم قبله ، وهذا دليل على أن الأسماء السُّنْع - الشريفة - جديرة بالأثرة وإياها كانت العرب تنتحى فى التسمية كما قال قائلهم فى المدح :

سُنْع الأسامى مُسْبلى أزر حمر تمس الأرض بالهَدَب

أنَّى : أى كيف ، عتيا من عتا يعتو : أى يبست مفاصله وعظامه ، شيئا : أى موجودا ، آية : أى علامة ، سويا : أى سوىّ الخلق سليم الجوارح ليس به بكم ولا خرس ، المحراب المُصلَّى ، أوحى : أى أومأ وأشار ، سبّحوا : أى صلوا ، بكرة وعشيا ، أى صلاة الفجر وصلاة العصر .

المعنى الجملى

روى محمد بن إسحاق فى السيرة من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة - أن جعفر بن أبى طالب قرأ صدر هذه السورة على النجاشى وأصحابه .

الإيضاح

(كۤهيعۤصۤ) تقدم الكلام فى المراد من أوائل السور ، وأن المختار أن المقصود بها التنبيه كحروف التنبيه التى تقع أول الكلام نحو ألا ويا وغيرهما ، وتقرأ بأسمائها فيقال (كاف . ها . يا . عين . صاد) .

(ذكر رحمة ربك عبده زكريا. إذ نادى ربه نداء خفيا) أى مما نقصّ عليك ذكر رحمة ربك عبده زكريا حين دعا ربه دعاء خفيا مستورا عن أعين الناس.

وإنما أخفى دعاءه لأنه أدل على الإخلاص وأبعد من الرياء وأقرب إلى الخلاص من لائمة الناس على طلب الولد وقت الكبر والشيخوخة.

وقصارى ذلك — إن فى هذه السورة ذكر الرحمة التى رحم الله بها عبده زكريا حين أسرّ بدعائه إليه.

ثم فصل كيفية دعائه بقوله:

(قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا. وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا) أورد زكريا عليه السلام قبل سؤاله أمورا ثلاثة، كل منها يستحق الرحمة والشفقة:

(١) ضعفه ظاهرا وباطنا، وأثر الأول قد ظهر فى العظام التى هى حاملة سائر الأعضاء، ومتى وصل إليها الضعف كان ضعف ماعداها أولى وأجدر، وأثر الثانى واضح باستيلاء الشيب على الرأس واضطرامه فى السواد كما قال ابن دريد:

إما ترىْ رأسى حاكى لونه طُرّة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيضّ فى مسودّه مثل اشتعال النار فى جمر الغضا

(٢) إنه ماردُ دعاؤه ولا خاب استعطافه حينا من الدهر، بل كان كلما دعا استجيب له، وهو فى هذه الحال أجدر بالإجابة لضعفه وشيخوخته، وفى هذا إشارة إلى لطف الله به وعظيم فضله عليه مدى حياته.

وقد روى التاريخ أن معن بن زائدة أتاه سائل فقال من أنت؟ قال أنا الذى أحسنتَ إليه حين كذا، قال مرحبا بمن توسل بنا إلينا وقضى حاجته.

(٣) إن فى إجابة الطلب منفعة دينية، إذ أنه خاف أن الموالى أى الورثة الذين يخلفونه فى إقامة الشعائر الدينية — لا يؤدون مايجب عليهم نحو الدين من نشره وتبليغه للناس وعبادة الله كما أمر، والذبّ عنه إذا جد الجد ووجب الدفاع عنه،

فقد أثر عنهم أنهم كانوا من شرار بنى إسرائيل نخافهم ألا يحسنوا خلافته فى أمته لا فى الدين ولا فى المال ولا فى السياسة التى تتبع فى إدارة شؤونها.

وقد عرف زكريا عليه السلام ببعض الأمارات أن عصبته وهم إخوته و بنو عمه ربما استمروا على عادتهم فى الشر والفساد نخافهم على الدين أن يغيروه ، وألا يحسنوا الخلافة على أمته ، فطلب عقبا من صلبه يقتدى به فى إحيائه ، وينهج نهجه فيه فقال :

(فهب لى من لدنك وليا. يرثنى و يرث من آل يعقوب[١] واجعله رب رضيا) أى أعطنى من واسع فضلك وعظيم جودك وعطائك لا بطريق الأسباب العادية ولدا من صلبى ، يرث الحبورة منى و يرث من بنى ماثان ملكهم (قال الكلبى كان بنو ماثان رءوس بنى إسرائيل وملوكهم ، وكان زكريا رئيس الأحبار يومئذ) و يكون برا تقيا مرضيا عندك وعند خلقك ، تحبه و يحبونه لدينه وخلقه ومحاسن شيمه.

ونحو الآية قوله فى سورة آل عمران حكاية عنه «قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » وقوله فى سورة الأنبياء « وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ».

ثم أخبر سبحانه أنه أجاب دعاءه وتولى تسمية الولد بنفسه فقال :

(يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) أى فاستجاب دعاءه وقال : يازكريا إنا نبشرك بهبتنا لك غلاما اسمه يحيى (معرّب يوحنا ، فنى إنجيل متى أنه يدعى يوحنا المعمدانى لأنه كان يعمد الناس فى زمانه) لم يسم أحد من قبله بمثل اسمه.

ثم ذكر جواب زكريا عند هذه البشرى مظهرا التعجب مما سمع :

(قال ربّ أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا؟) أى ومن أىّ وجه يكون لى ذلك وامرأتى عاقر لاتحبل ، وقد ضعفتُ من الكبر

(١) هو يعقوب بن ماثان وأخوه عمران بن ماثان والد مريم.

عن مباضعة النساء، أَبِأَنْ تقوّينى على ماضعفت عنه من ذلك، وتجعل زوجى ولودا وأنت القادر على ما تشاء، أم بأن أتزوج زوجا غير تلك العاقر؟

وخلاصة ذلك — إنه يستثبت ربه الخبر عن الوجه الذى يكون من قبله الولد الذى بشره به، لاإنكارا منه لذلك، وكيف يكون منه الإنكار لذلك وهو المبتدئ مسألة ربه به بقوله: فهب لى من لدنك وليا.

وإجمال المعنى — إنه تعجب حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد، ففرح فرحا شديدا وسأل عن الوجه الذى يأتيه منه الولد، مع أن امرأته عاقر لم تلد من أول عمرها، والآن قد كبرت وهو قد كبر وعتا: أى يبس عظمه ونحل ولم يبق له قدرة على قربان النساء، وكأنه يقول: إنى حين كنت شابا وكهلا لم أرزق الولد لاختلال أحد السببين وهو عقم المرأة، أفحين اختل السببان أرزقه؟

(قال كذلك) أى قال الله تعالى: الأمر كما قلت، فسنهب لك الولد مع ما أنتما عليه من العقم والشيخوخة.

ثم علل هذا بقوله:

(قال ربك هو علىّ هين) أى قال ربك الذى عوّدك الإحسان: خلق ولد منكما على هذه الحال هين، فإنى إذا أردت شيئا كان دون توقف على الأسباب العادية التى رسمتها للحمل والولادة.

ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال:

(وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) أى وليس خلق الغلام الذى وعدتك أن أهبه لك مع كبر سنك وعقم زوجك بأعجب من خلق البشر جملة من العدم، فإن خلق آدم ماهو إلا أنموذج لسائر أفراد الجنس مستتبع لجريان آثاره عليه، فإبداعه عليه السلام على هذا النمط إبداع لجميع أفراد ذريته، والقادر على خلق الذوات والصفات من العدم المحض يكون أجدر بالقدرة على تبديل الصفات بخلق الولد من الشيخ والشيخة.

وخلاصة ذلك — إن من قدر على خلق الذوات والصفات والآثار من العدم، أجْدِرْ به أن يكون قادرا على تبديل الصفات ، فيعيد إليه و إلى زوجه القوة وسائر الوسائل التى بها يمكن أن ينشأ منهما الولد كما قال « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ » .

ثم أخبر سبحانه أن زكريا تاقت نفسه إلى سرعة وجود المبشر به ، ليطمئن قلبه بما وعد به كما قال إبراهيم من قبله « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » فقال حاكيا عنه .

(قال رب اجعل لى آية) أى قال رب اجعل لى علامة تدلنى على تحقق المسئول فى زمن معين ، إذ كانت البشارة غير مقيدة بوقت ، والحمل خفى فى مبدئه ولا سيما ممن انقطع حيضها لكبرها - إلى أنه أراد أن يطلعه على ذلك ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر حين حدوثها .

ثم بين أنه أجابه إلى ماطلب فقال :

(قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) أى علامتك على وجود المبشر به وحصول الحمل ، ألا تقدر على تكليم الناس بكلامهم المعروف فى محاوراتهم ثلاث ليال وأنت صحيح سوىّ الخلق سليم الجوارح ليس بك علة ولا مرض .

وجاء فى سورة آل عمران « قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا » .

(فخرج على قومه من المحراب) أى فخرج غبّ إعلام الله له بهذه الآية على قومه من المحراب (وهو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح ؛ وهو مقصورة فى مقدم المعبد لها باب يصعد إليه بسلم ذى درج قليلة يكون من فيه محجوبا عمن فى المعبد) ممتقع اللون منطلق اللسان بذكر الله منحبسه عن كلام الناس (وقد كانوا ينتظرون أن يفتح لهم الباب إذ كان من عادتهم أن يصلوا معه صلاتى الغداة والعشى فى محرابه) فقالوا مالك يانبى الله ؟.

(فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) أى فأومأ إليهم وأشار كما جاء فى الآية الأخرى « إلاَّ رَمْزًا » أى سبحوا الله ونزهوه عن الشريك والولد، وعن كل نقص طرفى النهار.

وقد كان أخبرهم بما بشر به قبل وجود الآية ، فلما تعذر عليه الكلام أشار إليهم بحصول ما بشر به من ذلك الأمر العجيب فى مجرى العادة فسرّوا به.

فلما ولد و بلغ سنا يؤمر فيه مثله قلنا :

يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) .

شرح المفردات

الكتاب: هو التوراة ، والقوة: الجد والاجتهاد، والحكم والحكمة: الفقه فى الدين، وحنانا : أى عطفا على الناس ، وزكاة: أى طهارة من الذنوب والآثام ، تقيا: أى مطيعا لأمر ربه منتهيا عما نهى عنه، و برا بوالديه : أى كثير البر والإحسان إليهما ، جبارا: أى متعاليا عن قبول الحق والإذعان له، عصيا: أى مخالفا أمر مولاه ، سلام: أى أمان من الله عليه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه دعاء زكريا ربه أن يهبه غلاما سريا ، وذكر أنه أجاب طلبه وجعل لذلك أمارة يعلم منها وقت الحمل به — ذكر هنا أنه بعد أن ظهر ذلك المولود إلى عالمَ الوجود وترعرع ونما ، أمره بالجد والعمل لطاعته ، وجعله طاهرا برًّا بوالديه لايعصى أوامر ربه ولا يتعالى عن قبول الحق .

الإيضاح

(يايحيى خذ الكتاب بقوة) أى خذ التوراة التى هى نعمة الله على بنى إسرائيل بجدّ واجتهاد وحرص على العمل بها .

ثم وصفه الله بصفات كلها مناهج للخير ووسائل للطاعة فقال :

(١) (وآتيناه الحكم صبيا) أى وأعطيناه الحكمة والفقه فى الدين والإقبال على الخير وهو صغير لم يتم سبع سنين ، روى أن الغلمان قالوا له يوما : هيّا بنا نلعب ، قال : ماللعب خلقنا ، اذهبوا بنا نصلى .

(٢) (وحنانا من لدنا) أى وجعلناه ذا حنان وشفقة على الناس وحسن نظرٍ فيما وليه من الحكم فيهم ، وقد وصف الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمثل هذا فى قوله « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ » وقوله « حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

(٣) (وزكاة) أى طهارة من الدنس و بعدا من اجتراح الذنوب والآثام .

(٤) (وكان تقيا) أى مطيعا لما به أمر وعنه نهى ، فلم يفعل معصية ولاهمّ بها .

(٥) (و برا بوالديه) أى كثير البر بهما والإحسان إليهما والحدَب عليهما بعيدا عن عقوقهما قولا وفعلا ، وقد جعل الله طاعة الوالدين فى المرتبة التى تلى مرتبة طاعته فقال : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » .

(٦) (ولم يكن جبارا) أى لم يكن متكبرا على الناس ، بل كان لين الجانب متواضعا لهم ، وقد أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمثل هذا فى قوله : « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » ووصفه بقوله : « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » ومن ثم لما تجبر إبليس وتمرد صار مبعدا من رحمة ربه .

(٧) (عصيا) أى مخالفا لما أمره ربه .

ثم ذكر سبحانه جزاءه على ماقدم من عمل صالح وأسلف من طاعة ربه فقال : (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) أى وتحية من الله عليه أول ما يرى الدنيا ، وأول يوم يرى فيه أمر الآخرة ، وأول يوم يرى فيه الجنة والنار.

وإنما خص هذه المواضع الثلاثة ، لأن العبد أحوج مايكون إلى رضا ربه فيها لضعفه وحاجته وقلة حيلته وافتقاره إلى رحمة ربه ورأفته به.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦)
فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا
سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا
أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ
وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ
وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١).

شرح المفردات

انتبذت : أى اعتزلت وتنحت ، مكانا شرقيا : أى شرقى بيت المقدس ، حجابا : أى ساترا توارت به منهم ، روحنا : هو جبريل عليه السلام ، سويا : أى سوىّ الخلق كامل البنية ، أعوذ : أى أعتصم وألتجئ ، تقيا : أى مطيعا ، لأهب لك : أى لأكون سببا فى هبته ، غلاما : أى ولدا ذكرا ، زكيا : أى طاهرا من الأدناس والأرجاس ، أنّى : أى كيف يكون ذلك ؟ آية : أى علامة على قدرة خالقكم ، مقضيا : أى محتوما قد تعلق به قضاؤنا الأزلى.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص زكريا عليه السلام وأنه أوجد منه فى حال كبره وعقم زوجه ولدا زكيا مباركا - أردف ذلك بذكر قصص مريم وأنه أنجب منها ولدا من غير أب ، وبين القصصين مناسبة ظاهرة ، ومن ثم ذكرهما مقترنين فى سورة آل عمران وهنا وفى الأنبياء ، وبدأ بقصة يحيى لأن خلق الولد من شخصين فانيين أقرب إلى مناهج العادات من خلق الولد بلا أب ، ثم ثنى بقصة عيسى لأنها أغرب من تلك .

ومن حسن طرق التعليم والتفهيم التدرج بالانتقال من الأقرب منالا إلى أصعب منه ، وهكذا صُعُدا .

الإيضاح

(واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا) أى واتل أيها الرسول فى كتاب الله الذى أنزله إليك بالحق ، قصص مريم بنة عمران حين اعتزلت من أهلها وانفردت عنهم إلى مكان شرقى بيت المقدس لتتخلى للعبادة .

وعن ابن عباس أنه قال : إنى لأعلم خلقِ الله لأى شىء اتخذ النصارى المشرق قبلة ، لقول الله عز وجل : « إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا » فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة .

(فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) أى فاتخذت من دون أهلها سترا يسترها عنهم وعن الناس ، فأرسلنا إليها جبريل عليه السلام ، فجاءها بصورة رجل معتدل الخلق ليعلمها بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب ، إذ ربما يشتبه عليها الأمر فتقتل نفسها أسًى وغما ، وإنما مثل لها بهذا المثال لتأنس بكلامه وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته ، ولأنه لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع محاورته .

ثم حكى عنها سبحانه ما قالته حينئذ فقال :

(قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) أى فلما رأته فزعت منه وقالت إنى أستجير بالرحمن منك أن تنال منى ماحرم الله عليك إن كنت ذا تقوى له ، تتق محارمه وتجتنب معاصيه ، فمن يتق الله يجتنب ذلك .

وإجمال المعنى — إنه لما تبدى لها فى صورة البشر وهى فى مكان منفرد ، و بينها و بين قومها حجاب خافته وظنت أنه يريدها على نفسها فقالت : إنى أعوذ بالله منك إن كنت تخافه ـ وقد فعلت المشروع فى الدفع وهو أن يكون بالهوينى والأسهل فالأسهل .

وخلاصة ذلك — إن الاستعاذة لاتؤثر إلا فى التقىّ ، لا أن الله تعالى يخشى فى حال دون حال ، فهو كقوله : « وَذَرُوا مَابَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى إن الإيمان يوجب ذلك .

فلما علم جبريل خوفها :

(قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) أى فقال لها الملك مجيبا لها ومزيلا لما حصل عندها من الخوف على نفسها : لست ممن تظنين ، ولا يقع منى ما تتوهمين من الشر ، ولكنى رسول ربك بعثنى إليك ، لأهب لك غلاما طاهرا مبرأ من العيوب ، وقد أضاف الهبة إلى نفسه من قِبَل أنها جرت على يده بأن نفخ فى جيبها بأمر الله .

ولما عجبت مريم مما سمعت :

(قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا) أى قالت لجبريل : من أى وجه يكون لى غلام ولست بذات زوج ولا يتصور منى الفجور ؟.

(قال كذلك قال ربك هو علىّ هين) أى قال الملك مجيبا لها عما سألت : إن الله قد قال : إنه سيوجد منك غلام و إن لم تكونى ذات بعل ، ولا تقترفين فاحشة فإنه تعالى على مايشاء قدير ، ولا يمتنع عليه فعل ما يريده ، ولا يحتاج فى إنشائه إلى الموادّ والآلات .

ونحو الآية قوله فى سورة آل عمران : « كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ » .

(ولنجعله آية للناس) أى وفعلنا ذلك لنجعل خلقه برهانا على قدرتنا ، فقد خلقنا أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلقنا عيسى من أنثى فحسب ، وخلقنا بقية الذرية من ذكر وأنثى ، وإلى الأولَيَيْنِ أشار القائل :

ألا رب مولود وليس له أب   وذى ولد لم يَلْدَه أبوان

(ورحمة منا) أى ورحمة من الله لعباده ، إذ بعثه نبيا يدعو إلى عبادته وتوحيده.

(وكان أمرا مقضيا) أى قد قضاه الله فى سابق علمه ، ومضى به حكمه ، فلا يغير ولا يبدل : « مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » .

فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) .

شرح المفردات

فانتبذت : أى فاعتزلت ، قصيا : أى بعيدا من أهلها وراء الجبل ، فأجاءها المخاض : أى فألجأها واضطرها؛ والمخاض: الطلق حين تحرك الولد للخروج من البطن والنسى (بفتح النون وكسرها) الشىء الحقير الذى من شأنه أن ينسى ولا يذكر ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل ، والمنسى : مالا يخطر بالبال لتفاهته ، والسرىّ : السيد

الشريف ، والهز تحريك الشيء بعنف أو بدونه ، تساقط : أى تسقط ، ورطبا : أى بسرا ناضجا ، جنيا : أى صالحا للاجتناء ، فقولى : أى أشيرى إليهم . قال الفراء : العرب تسمى كل ما أفهم الإنسان شيئا ـ كلاما بأى طريق كان ، إلا إذا أكد بالمصدر فيكون حقيقة فى الكلام كقوله : « وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً » صوما : أى صمتا .

الإيضاح

(فحملته فانتبذت به مكانا قصيا) أى فلما قال لها جبريل ما قال . استسلمت لقضاء الله فنفخ جبريل فى جيب درعها (الفتحة التى من الأمام فى القميص) فدخلت النفخة فى جوفها فحملته قاله ابن عباس ، وقال غيره : نفخ فى كمها ، والقرآن قد أثبت النفخ فقال : « فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا » ولم يعين موضع النفخ فلا نجزم بشيء من ذلك إلا بالدليل القاطع ، وحينئذ اعتزلت بالذى حملت وهو عيسى عليه السلام مكانا قاصيا عن الناس .

والقرآن الكريم لم يعين مدة الحمل (ولا حاجة إليها فى العبرة) فنقول إنها كانت كما يكون غيرها من النساء إلا إذا ثبت غيره ، وكذلك لا حاجة إلى تعيين سنها حينئذ إذ لا يتعلق به كبير فائدة .

وإنما اتخذت المكان البعيد حياء من قومها وهى من سلائل بيت النبوة ، ولأنها استشعرت منهم اتهامها بالريبة فرأت أن لا تراهم وأن لا يروها .

(فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) أى فألجأها وجع الولادة وألم الطلق أن تستند إلى جذع النخلة للتشبث به لسهولة الولادة ، وتمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الوقت الذى لقيت فيه مالقيت ، حياء من الناس وخوفا من لائمتهم ، أو كانت شيئا لا يعتد به ولا يخطر ببال أحد من الناس .

(فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا) أى فناداها عيسى عليه السلام كما قال الحسن البصرى وسعيد بن جبير ، (وقد أنطقه الله حين وضعته تطييبا لقلبها ، وإزالة للوحشة عنها حتى تشاهد باديء ذى بدء علوّ شأن ذلك المولود الذى بشرها به جبريل عليه السلام) ألا تحزنى فقد جعل ربك المحسن إليك تحتك غلاما رفيع الشأن سامى القدر ذا سخاء فى مروءة .

(وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) أى أميلى إليك جذع النخلة واجذبيه بتحريكه ، يُسقِط عليك رطبا جنيا تأكلين منه ماتشائين .

وتلك آية أخرى لها ؛ إذ روى أنها كانت نخلة يابسة لارأس لها ولا ثمر وكان الوقت شتاء ، فأنزل الله لها رزقا فجعل للنخلة رأسا وخوصا وجعل لها ثمرا رطبا - وهذه رواية يعوزها الدليل .

وفى هذا إيماء وتنبيه إلى أن من يقدر ان يثمر النخلة اليابسة فى الشتاء يقدر أن يجعلها تحمل من غير السنن العادية ، وإلى أن السعى فى الرزق مطلوب ولا ينافى التوكل ، ولله در القائل :

ألم تر أن الله أوحى لمريم وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أحنى الجذع من غير هزه إليها ولكن كل شىء له سبب

(فكلى واشربى وقرّى عينا) أى فكلى من ذلك الرطب واشربى من عصيره وطيبى نفسا وأبعدى عنك الأحزان ، فإن الله قدير أن ينزه ساحتك ويبعد عنك تخرصات المبطلين الذين يتقيدون بالسنن التى جعلها الله الطريق للولادة فى البشر ، ويرشدهم إلى الوقوف على سريرة أمرك حتى يثبتوا لك القداسة والطهر .

(فإما ترينّ من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا) أى فإن رأيت أحدا من بنى آدم يسألك عن أمرك وأمر ولدك وكيف ولدته ، فأشيرى إليهم - إنى أوجبت على نفسى لله صمتا ألا أكلم أحدا اليوم ، فإن كلامى يقبل الرد والجدل ، ولكن يتكلم عنى ذلك المولود الذى لايقبل كلامه الدفع

والرد، وإني أنزه نفسي عن مجادلة السفهاء، ولا أكلم إلا الملائكة أو أناجي الخالق.

وليس الصمت عن الكلام من شريعة الإسلام، فقد روى أن أبا بكر دخل على امرأة قد نذرت ألا تتكلم فقال إن الإسلام قد هدم هذا فتكلمي، وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه جاءه رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر ثم جلسا، فقال القوم: ما لصاحبك لم يسلم؟ قال إنه نذر صوما لا يكلم اليوم إنسيا، فقال له ابن مسعود: بئس ماقلت، إنما كانت تلك المرأة قالت ذلك ليكون عذرا لها إذا سئلت، وكانوا ينكرون أن يكون ولد من غير زوج إلا زنا ـ فكلّمْ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر فإنه خير لك.

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧)
يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)
فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي
عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ
وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي
جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ
حَيًّا (٣٣).

شرح المفردات

فريّا: أي عظيما خارقا للعادة؛ وهي الولادة بلا أب، من فرى الجلد أي قطعه على وجه الإصلاح أو الإفساد، ومنه في وصف عمر «فلم أر عبقريا يفرى فريّه» وفي المثل جاء يفرى الفريّ، وهرون هو أخو موسى عليه السلام، وقيل هو رجل صالح من بني إسرائيل، والأخت على هذا بمعنى المشابهة، وشبهوها به تهكما، أو لما رأوا من

قبل من صلاحها ، والمهد : الموضع يهيأ للصبي ويوطأ والجمع مهود ، والكتاب : الإنجيل ، مباركا : نفاعا للناس ، أو ثابتا في دين الله ، الجبار : المتعظم الذي لا يرى لأحد عليه حقا ، والشقي : العاصي لربه .

الإيضاح

(فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريًّا) أي إن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ولا تكلم أحدا من البشر، وأنها ستكفى أمرها ويقام بحجتها ـ سلمت أمرها إلى الله واستسلمت لقضائه ، فأخذت ولدها وأتت به قومها تحمله ، فلما رأوها كذلك أعظموا مارأوا واستنكروا وقالوا يامريم لقد جئت أمرا عظيما منكرا .

ثم زادوا تأكيدا في توبيخها وتعييرها فقالوا :

(ياأخت هٰرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) أي يامن أنت من نسل هٰرون أخي موسى ، كما يقال للتميمي يا أخا تميم ، وللمضري يا أخا مضر ، أو يامن أنتِ شبيهة بذلك الرجل المسمى بهذا الاسم الذي كنت تتأسَّيْن به في العبادة والزهد ـ ما كان أبوك بالفاجر وما كانت أمك بالبغيّ ، فمن أين لك هذا الولد ؟.

أخرج أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال « بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران فقالوا : أرأيت ما تقرءون « يَا أُخْتَ هٰرُونَ » وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، قال فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألا أخبرتم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم » وهذا التفسير النبوي يغني عن سائر ما روى عن السلف في ذلك .

(فأشارت إليه) أي فأشارت إلى عيسى أن كلموه ، وإنما اكتفت بالإشارة

ولم تأمره بالنطق لأنها نذرت للرحمن صوما عن الكلام ، أو اقتصرت على ذلك للمبالغة فى إظهار الآية العظيمة ، وأن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبارة .

(قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) أى قالوا لها متهكمين بها ظانين أنها تزدرى بهم وتهزأ : كيف نكلم من هو صبى فى المهد ، ولم يعهد فى مثله وهو لم يدْرُج بعدُ من حجر أمه أن يكلم أحدا ؟ .

روى أن عيسى لما سمع كلامهم أقبل عليهم وترك الرضاع وأشار بيمينه ، ثم بدأ يتكلم فوصف نفسه بجملة صفات :

(١) (قال إنى عبد الله) أى إنى عبدا لله الذى له صفات الكمال لا أعبد غيره ، وفى هذا إيماء إلى أن من كان عبد الله لايتخذ إلها من دونه ، ولا يستعبده شيطان ولا هوى .

(٢) (آتانى الكتاب) أى سينزل علىّ الإنجيل .

(٣) (وجعلنى نبيا) أى وسيجعلنى نبيا ، وفى هذا براءة لأمه ، لأن الله لايصطفى لنبوته أولاد سفاح .

(٤) (وجعلنى مباركا أينما كنت) أى سيجعلنى نفاعا للناس هاديا لهم إلى سبيل الرشاد فى أىّ مكان كنت ، وقد جعل هذه الصفات كأنها حدثت له فعلا وهى لم تحصل بعدُ ، من قِبَل أنها لما كانت واقعة حتما نزلت منزلة ماقد حصل .

(٥) (وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا) أى وأمرنى بالصلاة ، إذ فى إقامتها و إدامتها على الوجه الذى سنه الدين ـ تطهير النفوس من الأرجاس ومنع لها عن ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأمرنى بالزكاة بإعطاء جزء من المال للبائس والمحتاج ، لما فى ذلك من تطهير المال ـ مادمت حيا فى الدنيا .

(٦) (وبرا بوالدتى) أى وجعلنى برا بوالدتى مطيعا لها محسنا ، وفى هذا رمز إلى نفى الريبة عنها ، إذ لو لم تكن كذلك لما أمر الرسول المعصوم بتعظيمها .

(٧) (ولم يجعلنى جبارا شقيا) أى ولم يجعلنى جبارا مستكبرا عن عبادته ، ولا شقيا بعقوق والدتى وعدم البر بها .

(٨) (والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) أى والأمنة من الله على ، فلا يقدر أحد على ضرى فى هذه المواطن الثلاثة التى هى أشق ما تكون على العباد .

واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم فى المهد ، واحتج النصارى على ذلك بأن هذا من الأحداث التى لو وجدت لتوافرت الدواعى على نقلها تواترا ، لأنه من المناقب السامية والفضائل التى لها الميزة العظمى بين الناس ، ولما لم يعرف ذلك لدينا مع تتبعنا لفضائله ، وشدة بحثنا عن الجليل والحقير من أحواله - علمنا أنه لم يوجد ، وأيضا فاليهود أظهروا عداوته حين ادعى النبوة ، فلو أنه تكلم إذ ذاك لكانت عداوتهم له أشد ، ولكان تحيلهم فى قتله أعظم ، ومن حيث لم يحصل شىء من هذا علمنا أنه لم يتكلم .

والمسلمون يقولون : كفى إثباتا لذلك نص القرآن القاطع - إلى أن العقل يرشد إليه ، إذ لولا كلامه الذى دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا الحد عليها ، وربما كان الحاضرون حين كلامه عددا قليلا ؛ ومن ثم لم يشتهر بينهم ، وربما لم يحضر اليهود كلامه ولم يسمعوا به

ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ

فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ
وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ، وَإِلَيْنَا
يُرْجَعُونَ (٤٠) .

شرح المفردات

قول الحق: أى قول الصدق الذى لاشبهة فيه، يمترون: أى يشكون و يتنازعون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد : أى ماينبغى ولايصح أن يجعل له ولدا ، صراط مستقيم: أى طريق لايضل سالكه ، الأحزاب : فرق النصارى الثلاث ، مشهد : أى شهود وحضور ، يوم عظيم: هو يوم القيامة ، اليوم : أى فى الدنيا ، يوم الحسرة: هو يوم القيامة حين يندم الناس على مافرطوا فى جنب الله ، قضى الأمر: أى فرغ من الحساب .

الإيضاح

(ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون) أى ذلك الذى فصلت نبوّته وذكرت مناقبه وأوصافه هو عيسى بن مريم ، نقول ذلك قول الصدق الذى لاريب فيه ، لا كما يقول اليهود من أنه ساحر وحاشاه ، ولا كما تقول طائفة من النصارى إنه ابن الله ، ولا كما تزعم طائفة أخرى أنه هو الله ، ويخلعون عليه من صفات الألوهية ماهو منه براء .

ثم أكد مادل عليه سابق الكلام من كونه ابنا لمريم لا لغيرها بقوله :

(ما كان لله أن يتخذ من ولد) أى لايليق بحكمة الله وكمال ألوهيته أن يتخذ الولد ، لأنه لو أراده خلقه بقول « كُنْ » فلا حمل ولا ولادة ، ولأن الولد إنما يرغب فيه ليكون حافظا لأبيه يعوله وهو حى ، وذكراً له بعد الموت ، والله تعالى لا يحتاج إلى شىء من ذلك ، فالعالم كله خاضع له ، لا حاجة له إلى ولد ينفعه ، وهو حى أبدا .

ولما كان اتخاذ الولد من النقائص أشار إلى تنزيهه تعالى عن ذلك فقال :

(سبحانه) أى تنزه ربنا عن كل نقص من اتخاذ الولد أو غيره .

ثم ذكر علة هذا التنزيه وبيان الوجه فيه فقال :

(إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) أى إذا أراد شيئا فإنما يأمر به فيصير كما يشاء كما قال : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » ومن كان هذا شأنه فكيف يتوهم أن يكون له ولد ، لأن ذلك من أمارات النقص والاحتياج .

(وإن الله ربى وربكم فاعبدوه) أى ومما أمر به عيسى قومه وهو فى مهده أن أخبرهم بقوله ـ إن الله ربى وربكم ، وأمرهم بعبادته .

(هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى أوصيتكم به وأخبرتكم أن الله أمرنى به هو الطريق المستقيم ، فمن سلكه نجا ، ومن اتبعه اهتدى ، لأنه دين الله الذى أمر به أنبياءه ، ومن خالفه ضل وغوى ، وسلك سبيل الردى .

ثم أشار إلى أنه مع وضوح الأمر فى شأن عيسى وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ـ اختلفوا فيه كما قال :

(فاختلف الأحزاب من بينهم) أى اختلف قوم عيسى فى شأنه فرقا ثلاثا . فقالت اليعقوبية : (نسبة إلى عالم منهم يسمى يعقوب) هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء ، وقالت النسطورية (نسبة إلى عالم يسمى نسطور) . كان ابن الله أظهره ما شاء ثم رفعه إليه . وقالت الملكانية (نسبة إلى الملك قسطنطين وكان فيلسوفا عالما) إنه كان عبدا لله مخلوقا . وهذا الرأى هو الذى نصره الملك ونصره غيره من شيعته .

ثم توعد من كذب على الله وافترى وزعم أن له ولدا فقال :

(فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) أى فعذاب شديد للكافرين من شهود ذلك اليوم وهو يوم القيامة ، لشدة بأسه وعذابه ، فالأيدى والأرجل والألسن

تشهد على أصحابها ، وقد أجل الله عقابهم إلى هـذا اليوم حلما منه وثقة بقدرته عليهم ، فهو لا يعجل عقوبة من عصاه كما جاء فى الصحيحين « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) وفى الصحيحين أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا أحد أصبر على أذًى سمعه من الله – إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم » .

ثم عجّب ربنا من قوة سمع الكفار وحدّة أبصارهم يوم القيامة وقد كانوا على الضد من هذا فى الدنيا فقال :

(أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لـكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين) أى لئن كان هؤلاء الكفار الذين جعلوا لله أندادا وزعموا أن له ولدا – عميا فى الدنيا عن إبصار الحق والنظر إلى حجج الله التى أودعها فى الكون دالة على وحدانيته وعظيم قدرته وبديع حكمته ، صمّا عن سماع آى كتبه وما دعتهم إليه الرسل مما ينفعهم فى دينهم ودنياهم ويهديهم إلى الصراط المستقيم – فما أسمعهم يوم قدومهم على ربهم فى الآخرة ، وما أبصرهم حينئذ ، حيث لايجدى السماع والإبصار شيئا ، ويعضون على أناملهم حسرة وأسفا ، ويتمنون على الله الأمانى ، فيودون الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا مافاتهم من صالح العمل ، ولـكن هيهات هيهات فقد فات الأوان .

صاح هل ريت أو سمعت براع ... رد فى الضّرع ماقرى فى الحلاب

ومن ثم لايجاب لهم طلب ، بل يقال لكل أفاك أثيم « خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ » .

ثم أمر الله نبيه أن ينذر قومه والمشركين جميعا فقال :

(وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لايؤمنون) أى وأنذر الناس جميعا يوم يتحسر الظالمون على مافرطوا فى جنب الله حين فرغ من الحساب ، وذهب

أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، ونودى كل من الفريقين لاخروج من هنا بعد اليوم ، ولا موت بعد اليوم . روى الشيخان والترمذى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يؤتى بالموت بهيئة كبش أملح (يخالط بياضه سواد) فينادى منادٍ يا أهل الجنة فيشرئبون و ينظرون ، فيقول هل تعرفون هذا ؟ فيقولون: نعم هذا الموت ، وكلهم قد رأوه ، ثم ينادى مناد يا أهل النار فيشرئبون و ينظرون ، فيقول هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم : هذا الموت وكلهم قد رأوه ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، و يا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ « وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » .

وقوله إذ قضى الأمر أى إذ فرغ من الحكم لأهل النار بالخلود فيها ، ولأهل الجنة بمقام الأبد فيها بذبح الموت . وذبحه تصوير لأن كلا من الفريقين يفهم فهما لا لبس فيه أنه لاموت بعد ذلك .

وقوله : وهم فى غفلة أى عن ذلك اليوم ، وعن حسراته وأهواله ، وقوله : وهم لايؤمنون : أى وهم لايصدقون بالقيامة والبعث ومجازاة الله لهم على سيء أعمالهم بما أخبر أنه مجازيهم به .

ثم سلى رسوله وتوعد المشركين فقال :

(إنا نحن نرث الأرض ومن عليها و إلينا يرجعون) أى لايحزنك أيها الرسول تكذيب المشركين لك فيما أتيتهم به من الحق ، فإن إلينا مرجعهم ومصيرهم ومصير الخلق أجمعين ، ونحن وارثو الأرض ومن عليها من الناس بعد فنائهم ، ثم نجازى كل نفس بما عملت حينئذ فنجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ،لاظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب .

قصص إبراهيم عليه السلام

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَالَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) .

شرح المفردات

واذكر فى الكتاب : أى اتل فى هذه السورة ، صدّيقا : أى مبالغا فى الصدق لم يكذب قط ، صراطا سويا : أى طريقا مستقيما موصلا إلى نيل السعادة ، وليا : أى قرينا تليه ويليك فى العذاب ، أراغب أنت عن آلهتى : أى أكاره لها ، لأرجمنك : أى لأشتمنك باللسان أو لأرجمنك بالحجارة ، مليا : أى دهرا طويلا . قال مهلهل:

فتصدعت صُمُّ الجبال لموته ... وبكت عليه المرملات مليا

حفيا : أى مبالغا فى برّى وإكرامى ؛ يقال حفى به إذا اعتنى بإكرامه ، شقيا : أى خائب المسعى ، لسان صدق : أى ثناء حسنا .

المعنى الجملى

اعلم أن المقصد من هذه السورة إثبات الوحدانية والنبوة والبعث ، والمنكرون للتوحيد فريقان : فريق أثبتوا معبودا سوى الله حيا عاقلا وهم النصارى . وفريق أثبتوا معبودا هو جماد ليس بحى ولا عاقل وهم عبدة الأصنام . والفريقان وإن اشتركا فى الضلال ، فضلال الفريق الثانى أشد ، ومن ثم قدم الكلام فى النصارى على الكلام فى عبدة الأصنام . وذكر قصص إبراهيم أوّلا لأنه أبوالعرب وكانوا مقرين بعلوّ شأنه ، معترفين بدينه كما قال « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » إلى أنه تعالى نبههم إلى أن الطريق التى جروا عليها وهى التقليد بنحو قولهم « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » تخالف طريق الاستدلال التى سار عليها أبوهم إبراهيم فى حجاجه مع أبيه آزر .

الإيضاح

(واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالايسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟) أى واتل أيها الرسول على قومك الذين يعبدون الأصنام ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذريته ويدّعون أنهم على ملته (وهو الصدّيق النبى) . حين نهى قومه عن عبادتها وقال لأبيه : ما الذى حبّب إليك أن تعبد مالايسمع ثناءك عليه حين عبادتك له ، ولا يبصر خشوعك وخضوعك بين يديه ، ولا ينفعك فيدفع عنك ضرا إذا استنصرت به ؟

وقد سلك عليه السلام فى دعوته أجمل الآداب فى الحجاج ، واحتج بأروع

البرهانات ليرده عن غيه ، ويقفه على طريق الهدى والرشاد ، فاستهجن منه أن يعبد مايستخفّ به كل ذى لبّ ، ويأبى الركون إليه كل ذى عقل ، فالعبادة هى الغاية القصوى فى التعظيم ، فلا يستحقها إلا الخالق الرازق المحيي المميت المثيب المعاقب ، لا الأصنام التى لاتسمع الأصوات ، ولا تنظر الأشياء ، وتعجز عن جلب المنافع ودفع المضار .

وقصارى ما قال — إن الإنسان السميع البصير يأنف أن يعبد نظيره ، فكيف تعبد ماخرج من الألوهية بفقره وضعفه واحتياجه إلى من يصنعه ، وعن الإنسانية بفقد العقل ، وعن الحيوانية بفقد الحواس .

أما كان لك عبرة فى حاجته وفقده السمع والبصر ؟

(يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا) أى يا أبى إنى وإن كنت من صلبك وترانى أصغر منك لأنى ولدك ، فاعلم أنى قد اطلعت من العلم على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ، فاتبعنى أهدك طريقا مستقيما لازيغ فيه يوصلك إلى نيل المطلوب ، وينجيك من كل مرهوب .

وفى قوله : قد جاءنى إيماء إلى أن هـذه المحاورة كانت بعد أن نبئ ، ولم يعين ما جاءه ليشمل كل مايوصله إلى الجنة ونعيمها ، ويبعد به عن النار وعذابها .

(يا أبت لاتعبد الشيطان) أى لاتطع الشيطان فى عبادة هذه الأصنام ، فإنه هو الداعى إلى عبادتها والموسوس بها .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » وقوله : « إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَرِيدًا » .

ثم بين سبب النهى عن طاعته بقوله .

(إن الشيطان كان للرحمن عصيا) أى إن الشيطان عاص مستكبر عمن شملته

رحمتك ، وعمته نعمتك ، ولا ريب فى أن من أطاع العاصى يكون عاصيا وجديرا بأن تسترد منه النعم ، وحقيقا بأن تنزل عليه النقم .

ثم حذره من سوء عاقبة ماهو فيه من عبادة الأصنام فقال :

(يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) أى يا أبى إنى أخاف لمحبتى لك ، وغيرتى عليك ، أن يصيبك عذاب من الرحمن على شركك وعصيانك .

(فتكون للشيطان وليا) أى قرينا وتابعا له فى النار .

وقصارى ذلك — إنى أخاف أن تكون وليا للشيطان أى تابعا له فى الدنيا ، فيمسّك عذاب من الرحمن فى العقبى .

ولما دعا إبراهيم أباه إلى التوحيد ، وذكر الدلائل على فساد عبادة الأوثان ، وأردف ذلك بالوعظ واللطف ، قابله أبوه بجواب هو على ضد ذلك .

(قال أراغب أنت عن آلهتى يابراهيم ؟) أى أتكره آلهتى ولا ترغب فى عبادتها يابراهيم ؟

(لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا) أى لئن لم تنته عما أنت فيه من النهى عن عبادتها والدعوة إلى مادعوتنى إليه ، لأرجمنك بالحجارة ، فاحذرنى وابعد عنى بالمفارقة من الدار والبلد دهرا طويلا .

وقد قابل الأب رفق الابن بالعنف ، فلم يقل يابنى كما قال الابن يا أبت ، وقابل وعظه بالسفاهة ، إذ هدده بالشتم أو بالضرب بالحجارة بقوله : لئن لم تنته لأرجمنك .

وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتأسية له بإبراهيم فيما كان يلقى من الأذى من قومه ويقاسيه منهم ومن عمه أبى لهب من العنت والمكروه .

ولما سمع إبراهيم عليه السلام كلام أبيه أجابه بأمرين :

(١) (قال سلام عليك) أى سلمت منى لا أصيبك بمكروه مالم أومر فيك بشىء ، وهذا جواب الحليم للسفيه ، وفيه توديع ومتاركة ومقابلة للسيئة بالحسنة ، وزاد على ذلك أن قال :

(٢) (سأستغفر لك ربى) أى سأطلب لك من ربى الغفران ، بأن يوفقك للهداية ، وينير بصيرتك لقبول الحق ، ويرشدك إلى مافيه الخير ، ونحو الآية قوله : « وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ » .

وقصارى دعائه — رب اهد أبى وأخرجه من الضلال .

وإنما استغفر له ، لأنه كان قد وعده أن يؤمن كما قال : « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ » .

ثم ذكر أنه محبب إلى ربه فإذا هو استغفر له أجاب طلبه فقال :

(إنه كان بى حفيا) أى إنه سبحانه للطفه بى وإنعامه علىّ عوّدنى الإجابة ، فإذا أنا استغفرت لك أغاثك بجوده وكرمه ، وغفر لك ذنوبك إن تبت إليه وأنبت.

ثم بين مابيّت النية عليه ، وعزم على إنفاذه فقال :

(وأعتزلكم وما تدعون من دون الله) أى وأتباعد عنك وعن قومك وعما تعبدون من الأوثان والأصنام ، وأفر بدينى وأتشاغل بعبادة ربى الذى ينفعنى ويضرنى ، إذ لم تؤثر فيكم نصائحى ، وقد روى أنه عليه السلام هاجر إلى بلاد الشام، وفى هجرته هذه تزوج سارة .

(وأدعو ربى) أى وأعبده سبحانه وحده ، وأجتنب عبادة غيره من المعبودات .

(عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا) أى لعلى لا أكون بدعاء ربى المنعم علىّ خائب المسعى ، كما خبتم أنتم وشقيتم بعبادة تلك الأوثان التى لاتجيب دعاءكم ولا تنفعكم ولا تضركم .

وقد حقق ماعزم عليه ، فحقق الله رجاءه ، وأجاب دعاءه فقال :

(فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب ، وكلا جعلنا نبيا) أى فلما اعتزل إبراهيم أباه وقومه لم يضره ذلك لافى دين ولا دنيا ، بل نفعه إذ أبدله بهم من هم خير منهم ووهبه بنين وحفدة هم آباء الأنبياء من بنى إسرائيل

ولهم الشأن الخطير والقدر العظيم ، فقد وهبه إسحق وولد لإسحق يعقوب وقاما مقامه بعد موته وورثا منه النبوة . أما إسماعيل فتولى الله تربيته بعد نقله رضيعا إلى المسجد الحرام فأحيا تلك المشاعر العظام ، ومن ثم أفرده بالذكر بقوله : «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ » الآية .

ثم صرح بما وهب لأولاده جزاء على هجرته بقوله :

(وكلاّ جعلنا نبيا) أى وجعلنا له نسلا وعقبا من الأنبياء أقر الله بهم عينيه فى حياته .

(ووهبنا لهم من رحمتنا) أى وآتيناهم من فضلنا الدينى والدنيوى مالم نؤته أحدا من العالمين ، فآتيناهم النسل الطاهر والذرية المباركة ، وإجابة الدعاء واللطف فى القضاء والبركة فى المال والأولاد إلى نحو أولئك من خيرى الدنيا والآخرة .

(وجعلنا لهم لسان صدق عليا) فمحامدهم مذكورة فى جميع الأزمان ، سطرها الدهر على صفحاته استجابة لدعوته عليه السلام بقوله : « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » قال ابن جرير وإنما قال عليًا ، لأن جميع الملل والأديان تثنى عليهم وتمدحهم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد اجتمعت لإبراهيم خلال لم تجتمع لسواه :

(١) إنه اعتزل قومه حبا فى الله فآتاه الله من هم خير منهم ، فوهب له إسماعيل وإسحق ويعقوب .

(٢) إنه تبرأ من أبيه حين تبين منه أنه عدو لله ، لاجرم سماه الله أبا المسلمين بقوله : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » .

(٣) إنه تلّ ولده للجبين ، ليذبحه إطاعة لأمر الله ففداه الله بذبح عظيم .

(٤) إنه أسلم نفسه للنار ابتغاء رضوان الله فكانت عليه بردا وسلاما .

(٥) إنه أشفق على هـذه الأمة فقال : « رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ »

فأشركه الله فى الدعاء وفى الصلوات الخمس - وصل على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم .

(٦) إنه عادى كل الخلق فى الله فقال : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ » فاتخذه الله خليلا كما أخبر بذلك الكتاب : « وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً » .

(٧) إن الله مدحه بقوله : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى » لاجرم جعل موطئ قدميه مباركا كما قال : « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » .

قصص موسى عليه السلام

وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) .

شرح المفردات

مخلصا : أى مختارا مصطفى ، وقربناه : أى تقريب تشريف وتكريم ، والطور : هو الجبل الذى بين مصر ومدين ، ونجيا : أى مناجيا مكلما لله بلاواسطة .

الايضاح

(واذكر فى الكتاب موسى) أى واتل أيها الرسول على قومك ما اتصف به موسى عليه السلام من صفات الجلال والكمال التى سأقصها عليك ، ليستبين لك علو قدره وعظيم شأنه ، وتلك هى :

(١) (إنه كان مخلصا) أى إن الله أخلصه واصطفاه وأبعد عنه الرجس وطهره من الذنوب والآثام كما جاء فى الآية الأخرى : « إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِى وَبِكَلاَمِى » .

(٢) (وكان رسولا نبيا) أى إن الله أرسله إلى الخلق داعيا ومبشرا ونذيرا ، والرسول هو من أرسله الله إلى الناس ومعه كتاب فيه شريعته التى أرسله بها كموسى عليه السلام ، والنبىّ هو الذى ينبئ عن الله ويخبر قومه عنه ، وليس معه كتاب كيوشع عليه السلام .

(٣) (وناديناه من جانب الطور الأيمن) أى وكلمناه من الجانب الأيمن للطور أى الذى عن يمين موسى حين أقبل من مدين متوجها إلى مصر وأنبأناه بأنه رسولنا ثم واعدناه إليه بعد إغراق آل فرعون ورحمنا بنى إسرائيل بإنزال الكتاب عليهم.

(٤) (وقربناه نجيا) أى وقربناه تقريب تشريف وإجلال حين مناجاته لنا ؛ وقد مثل حاله عليه السلام بحال من قربه الملك لمناجاته ، واصطفاه لمصاحبته ، ورفع الوسائط بينه وبينه .

وقصارى ذلك — إنه تجاوز العالم المادى وانغمس فى العالم الروحى ، فقرب من الله وارتقت نفسه حتى بلغت أقصى مناها ، واستعدت للاطلاع على عالم الملكوت ، ورؤية ما غاب عن عالم المادة .

(٥) (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هٰرون نبيا) أى ووهبنا له من بعض رحمتنا معاضدة أخيه ومؤازرته ، إجابة لدعوته عليه السلام بقوله : « وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هٰرُونَ أَخِي » وحققنا ما طلبه له ، وجعلناه نبيا : « قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى » .

قال بعض السلف : ما شفع أحد فى أحد فى الدنيا أعظم من شفاعة موسى فى هٰرون أن يكون نبيا ، قال ابن عباس : كان هٰرون أكبر من موسى بأربع سنين.

قصص إسماعيل عليه السلام

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)

المعنى الجملى

قدم الكلام فى موسى على الكلام فى إسماعيل ليكون الحديث عن يعقوب وبنيه فى نسق واحد دون فاصل بينهما ، وإسماعيل هو إسماعيل بن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، وقد أثنى عليه ربه بما هو أهله ووصفه بصفات هى مفخرة البشر ومنتهى السموّ والفضل فى هذه الدنيا .

الإيضاح

(واذكر فى الكتاب إسماعيل) أى اتل أيها الرسول على قومك صفات أبيهم إسماعيل ، علّهم يهتدون بهديه ، ويحتذون حذوه ، ويتخلقون بمثل ما له من مناقب وفضائل منها :

(١) (إنه كان صادق الوعد) فما وعد عدة إلا وفّى بها ، حتى وعد أباه بالصبر على الذبح فقال : « سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » فصدق فى ذلك ووفّى بما قال ، وامتثل حتى جاءه الفداء .

وصدق الوعد من الصفات التى حث عليها الدين ، وشدد فيها أيما تشديد فقال تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب : وإذا وعد أخلف . وإذا اؤتمن خان » وقد فقدت هذه الصفة من كثير من المسلمين ، فلا تجد عالما ولا جاهلا إلا وهو بمنأى عنها ولا سيما التجار والصناع والعمال .

(٢) (وكان رسولا نبيا) أى وكان رسولا إلى جُرْهُم الذين حلوا بمكة معه ومع أمه ، وكان مرسلا من الله بتبليغ شريعة إبراهيم ، فنبأ بها قومه وأنذرهم وخوفهم ومن هذا يعلم أن الرسول لا يجب أن ينزل عليه كتاب مستقل .

(٣) (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة) أى إنه بعد أن كمل نفسه اشتغل

بتكميل أمته وأقرب الناس إليه ، على نحو ما قاله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » وقال : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » وقال : « قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ».

(٤) (وكان عند ربه مرضيا) عمله ، محمودا فيما كلفه ربه ، غير مقصر فى طاعته فاقتد أيها الرسول به ، لأنه من أجلّ آبائك .

قصص إدريس عليه السلام

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) .

الإيضاح

(واذكر فى الكتاب إدريس) بالثناء عليه ، والنسابون يقولون إنه جد أبى نوح عليه السلام ، ويقولون إنه أول من خط بالقلم وخاط الثياب ولبس المخيط ، وكانوا قبله يلبسون الجلود ، وأول من نظر فى النجوم وتعلم الحساب ، وجعل الله ذلك من معجزاته .

وإن تقادم العهد وطول الزمن وعدم وجود السند الصحيح الذى يعول عليه فى الرواية ، يجعلنا فى شك من كل هذا ، فعلينا أن نكتفى بما جاء به الكتاب الكريم فى شأنه ، وقد وصفه الله بجملة صفات كلها مفاخر ومناقب إعظام وإجلال :

(١) (إنه كان صديقا) تقدم القول فيها .

(٢) (نبيا) » » »

(٣) (ورفعناه مكانا عليا) أى أعلينا قدره ورفعنا ذكره فى الملأ ، ونحو هذا قوله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ » ويرى بعض الباحثين

فى الآثار المصرية أن إدريس تعريب لكلمة (أوزريس - أموريس) وهو الذى ألف له المصريون القدماء رواية خلدت فى بطون تواريخهم ، ومنها أنه حصل بينه وبين أخيه تحاسد وشقاق أدى إلى قتله وتقطيعه إرْبًا إرْبًا ، فجمعت امرأته تلك القطع وحفظتها وحنطتها ، وجعلوه إلها بعد أن كان مصلحا عظيما .

وهذا القصص الخرافى جعل المصريين يُعْنَوْن بتحنيط الموتى ، وقد أفاد هذا العمل صناعة التحنيط ورقاها حتى صارت مضرِب الأمثال فى الخافقَين .

وقد كان الملك والدين فى عهد تلك الدولة أمرا واحدا ، فالملك يجمع بين شئون الدين والدنيا ، فمن عصى الملك فقد عصى الله .

ويعتقدون أن أوزريس صعد إلى السماء وصار إلى العالم العلوى وله عرش عظيم فى السماء ، ويتمتع بأعظم الخيرات ، وكل من حفظ جسمه ووزنت أعماله بعد الموت وحكم القضاة وهم اثنان وأربعون قاضيا بأن حسناته غلبت سيئاته - يلحق بأوزريس وهذا النبى الذى جعلوه إلها بعد ذلك هو الذى علمهم العلوم والمعارف وينسبون الفضل فى ذلك إليه .

وقد ارتقت الأمة المصرية فى العلوم والمعارف إلى حد لم تصل إليه أمة أخرى لا فى القديم ولا فى الحديث ، وخدمت النوع البشرى خدمة جليلة ، فارتفاع إدريس إلى السماء راجع إلى رقى تعاليمه وانتفاع أمته بها ، فالنبى بأمته ، ومن ثم تجد آثار أمته بادية للعيان بعد أن كانت خافية عن الأنظار .

وبعد أن ذكر الله أولئك المرسلين أخذ يعدد مناقبهم ويذكر صفاتهم فقال :

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) .

شرح المفردات

إسرائيل: يعقوب عليه السلام، واجتباه: اصطفاه واختاره، والسجّد، واحدهم ساجد، والبكىّ: واحدهم باكٍ، يقال بكى يبكى بكاء، وبكيا: قال الخليل: إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن أى لاصوت معه كما قال الشاعر:

بكت عينى وحق لها بكاها   وما يغنى البكاء ولا العويل

المعنى الجملى

بعد أن أفرد الله كل رسول من رسله العشرة الذين سبق ذكرهم بالثناء عليه بما هو جدير به - أردفه بذكر بعض ما جازاهم به من النعم، فقد هداهم إلى سبل الخير واصطفاهم من سائر خلقه.

الإيضاح

(أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين) أى هؤلاء النبيون الذين قصصت أنباءهم عليك أيها الرسول هم الذين أنعم الله عليهم بما خصهم به من مزيد القرب إليه، وعظيم المنزلة لديه، وهداهم إلى سبيل الرشاد، ورفع ذكرهم بين العباد.

(من ذرية آدم) أبى البشر الأول.

(وممن حملنا مع نوح) أى ومن ذرية من حملنا مع نوح أبى البشر الثانى فى الفلك كإبراهيم خليل الرحمن.

(ومن ذرية إبراهيم) وهم إسحاق ويعقوب وإسماعيل.

(وإسرائيل) أى ومن ذرية إسرائيل أى يعقوب عليه السلام، وهم: موسى وهرون وزكريا وعيسى وأمه مريم.

(وممن هدينا واجتبينا) أى ومن جملة من هديناهم إلى سبيل الحق، واجتبيناهم للنبوة والكرامة.

(إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) أى إذا تتلى على هؤلاء الأنبياء الذين أنعم الله عليهم أدلة الله وحججه التى أنزلها عليهم فى كتبه ـ خروا لله سجدا استكانة له وتذللا وخضوعا لأمره وانقيادا ، وهم باكون خشية منه وحذرا من عقابه .

قال صالح المرى : قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال: يا صالح هذه القراءة فأين البكاء ؟ وفى الحديث «اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا» . وعن ابن عباس : إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه .

وقصارى ذلك — إنه سبحانه أبان علوّ أمرهم فى الدين والنسب والقرب منه .

جزاء خلف هؤلاء ممن ضل وغوى

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) .

شرح المفردات

الخلف : (بسكون اللام) عقب السوء ، ويقال لعقب الخير والصدق خلَف (بفتح اللام) ، أضاعوا الصلاة : أى تركوها بتاتا ، اتبعوا الشهوات : أى انهمكوا فى المعاصى واللذات ، غيا : أى ضلالا ، والمراد يلقون جزاءه فى نار جهنم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حزب السعداء وهم الأنبياء ومن تبعهم بإحسان ممن قاموا بحدود الدين فاتبعوا أوامره وأدوا فرائضه وتركوا نواهيه ـ أردف هذا بذكر من

خلفهم ممن أضاعوا واجباته ، وأقبلوا على شهوات الدنيا ولذاتها ، وأعقب هذا بذكر ما ينالهم من النكال والوبال فى الآخرة إلا من تاب وأناب فإن الله يقبل توبته ، ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولا ينقصه شيئا من جزاء أعماله . قال مجاهد : نزلت هذه الآية فى قوم من هذه الأمة يتراكبون فى الطرق كما تراكب الأنعام لايستحيون من الناس ولا يخافون من الله فى السماء ، وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم فى جماعة آخرين عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله صلى عليه وسلم وتلا هذه الآية قال : « يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ، ثم يكون خلف يقرءون القرآن لايعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن، ومنافق ، وفاجر » .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «سيهلك من أمتى أهل الكتاب وأهل اللبن» قلت يارسول الله ما أهل الكتاب ؟ قال : « قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا » قلت وما أهل اللبن؟ قال : « قوم يتبعون الشهوات ، ويضيعون الصلوات » .

الإيضاح

(فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات) أى فجاء من بعد الأنبياء الذين ذكروا ـ خلف سوء خلفوهم فى الأرض كاليهود والنصارى ومن على شاكلتهم من أهل الضلال ، إذ تركوا الصلوات المفروضة عليهم ، وآثروا شهواتهم على طاعة الله ، فانكبوا على شرب الخمور ، وشهادة الزور ، ولعب الميسر ، وإتيان الفاحشة خفية وعلانية .

ثم ذكر عاقبة أعمالهم وسوء مآلهم فقال :

(فسوف يلقون غيًّا) أى شرا وخسرانا لإهمالهم أداء واجبات الدين وانهماكهم فى المعاصى والآثام .

(إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة) أى لكن من أنابوا إلى ربهم، وأقلعوا عن ذنبهم، وآمنوا بالله ورسوله وأطاعوه فيما أمر به وأدوا فرائضه، فأولئك يدخلهم ربهم جناته، ويغفر لهم حَوْبَاتهم، فالتوبة تجُبُّ ما قبلها كما جاء فى الحديث «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

(ولا يظلمون شيئا) أى ولا ينقصون شيئا من ثواب أعمالهم، إذ أفعالهم السابقة ذهبت هباء وصارت نسيا منسيا بكرم اللطيف الخبير، وعظيم حلمه على عباده.

ولما ذكر أن التائب يدخل الجنة وصف هذه الجنة بأمور فقال:

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣).

شرح المفردات

جنات عدن: أى جنات إقامة، وهذا وصف لها بالدوام، بالغيب، أى وهى غائبة عنهم، وعده، أى ماوعد به من الجنات، مأتيا، أى يأتيه من وعد به لا محالة، لغوا أى فضولا من الكلام لاطائل تحته، سلاما، أى سلاما من الله أو من الملائكة.

المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه أنه يدخل التائبين الجنة - وصف هذه الجنة بجملة أوصاف كلها غاية فى تعظيم أمرها، وشريف قدرها، وجليل خطرها.

الإيضاح

أوصاف هذه الجنة:

(١) (جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا) أى هذه الجنات هى جنات إقامة دائمة لا كجنات الدنيا، وقد وعد بها المتقين وهى غائبة عنهم لم يشاهدوها، ووعد الله لا يخلف، فهم آتوها لامحالة.

(٢) (لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما) أى لا يسمع المتقون فيها فضول القول وما لا طائل تحته ، ولكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم بما يشعرهم بالأمان والاطمئنان ، وهما منتهى السعادة ، والدنيا لا طمأنينة فيها ولا استقرار فلا سعادة فيها ولا نعيم ، ومن ثم طلب إلينا أن ندعو فى الصلاة بالأمان ونقول : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

ولا شك أن تكرار هذه العبارة فى الصلوات يحدث فى النفس أثرا إذا أدركت مغزاها ، ويشعر بأن الله لم يخلق العالم إلا لغاية واحدة وهى الطمأنينة ، ولا تكون إلا إذا أمن المرء الفقر والمرض والشيخوخة ، وأنى لنا بذلك فى الدنيا ؟ وإنما تكون الطمأنينة لعباده المتقين فى الآخرة ، وهذا المعنى هو الذى تترجم عنه الجملة (السلام عليكم) أى إن الأمان سيحققه الله لكم بأن يأمن بعضكم بعضا فى الدنيا وفى الآخرة بالخروج من جميع المآزق .

وهذا الدعاء أمنية من أمانى النفوس لا تتحقق إلا إذا أمن الإنسان العذاب والعقاب وانتهى الحساب وارتفع السوء كالمرض والموت والفقر والذل يوم القيامة .

(٣) (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) أى ولهم مايشتهون من المطاعم والمشارب فى قدر وقت البكرة ووقت العشى من نهار أيام الدنيا أى إن الذى بين غدائهم وعشائهم فى الجنة قدر ما بين غداء أحدنا فى الدنيا وعشائه .

وخلاصة ذلك — إنه لا بكرة فى الجنة ولا عشى ، إذ لا ليل ولا نهار ، وإنما يؤتون بأرزاقهم فى مقدار طرفى النهار كما كانوا فى الدنيا .

ولما ذكر أن هذه الجنة تخالف جنات الدنيا ـ ذكر الدواعى التى توجب استحقاقها فقال :

(تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا) أى هذه الجنة التى وصفت بهذه الصفات الشريفة ، نورثها عبادنا المتقين الذين يطيعون الله فى السر والعلن ،

ويحمدونه على السراء والضراء ، والمراد أننا نجعلها ملكا لهم كملك الميراث الذى هو أقوى تمليك ، وجاء بمعنى الآية قوله : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » إلى أن قال : « أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)

شرح المفردات

التنزل : النزول وقتا غبّ وقت ، ما بين أيدينا : أى ما قدامنا من الزمان المستقبل ، وما خلفنا : أى من الزمان الماضى ، وما بين ذلك : هو الزمان الحاضر ، نسيًا ، أى تاركا لك ، واصطبر عليها ، أى اثبت لشدائد العبادة وما فيها من المشاق كما تقول للمبارز : اصطبر لقرينك ، أى اثبت له فيما يورد عليك من حملاته ، سميًا أى مثلا ونظيرا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام تثبيتا له صلى الله عليه وسلم وأعقبه بذكر ما أحدثه الخلف بعدهم ، وذكر جزاء الفريقين ، أعقب ذلك بقصص تأخر نزول جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم ؛ إذ زعم المشركون أن الله ودّعه وقلاه ، وقد رد عليهم زعمهم وأبان لهم أن الأمر على غير ما زعموا .

روى أن جبريل عليه السلام احتبس عنه صلى الله عليه وسلم أياما حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ، ولم يدر عليه السلام كيف يجيب ؟

فحزن واشتد عليه ذلك ، وقال المشركون إن ربه ودعه وقلاه ، فلما نزل قال له عليه السلام ياجبريل احتبست عنى حتى ساء ظنى ، واشتقت إليك ، فقال إنى إليك لأشوق ، ولكنى عبد مأمور إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست ، وأنزل الله هذه الآية ، وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت هذه الآية إلى آخرها .

الإيضاح

(وما نتنزل إلا بأمر ربك) أى وما تنزل الملائكة بالوحى على الرسل وقتا بعد وقت إلا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته ، وتدعو إليه مصلحة عباده ، ويكون فيه الخير لهم فى دينهم ودنياهم .

ثم علل الملك ذلك بقوله :

(له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك) أى إنه تعالى هو المدبر لنا فى جميع الأزمنة مستقبلها وماضيها وحاضرها .

وقصارى ذلك — إن أمرنا موكول إلى الله تعالى يتصرف فينا على حسب مشيئته وإرادته لا اعتراض لأحد عليه ، فلا ننتقل من مكان إلى مكان ، ولا ننزل فى زمان دون زمان إلا بإذنه عزّ وجل .

(وما كان ربك نسيا) أى إنه تعالى لإحاطة علمه بملكه ، لايطرأ عليه غفلة ولا نسيان حتى يغفل عنك وعن الإيحاء إليك ، وإنما كان تأخير الوحى لحكمة علمها جل شأنه . أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى فى جماعة آخرين عن أبى الدرداء مرفوعا قال «ما أحل الله فى كتابه فهو حلال وما حرمه فهو حرام وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئا ثم تلا : « وما كان ربك نسيا » .

ثم أقام الدليل على ما تقدم بقوله :

(رب السموات والأرض وما بينهما) فلا يجوز عليه النسيان ، فإن من بيده ملكوت كل شيء ، كيف يتصور أن تحوم حوله الغفلة والنسيان .

ثم بين ماينبغى للمرء أن يفعله بعد أن عرف هذا فقال :

(فاعبده واصطبر لعبادته) أى وإذ قد علمت أنه الرب المسيطر على ما فى السموات والأرض وما بينهما ، القابض على أعنّتهما ، فاعبده ودم على مشاق العبادة وشدائدها ، وإياك أن يصدك عنها ما يحدث من إبطاء الوحى وتقوّل المشركين الخرّاصين عن سببه :

ثم أكد الأمر بالعبادة بقوله :

(هل تعلم له سميا ؟) أى هل تعلم له شبيها ومثلا يقتضى العبادة لكونه منعما متفضلا بجليل النعم وحقيرها ، ومن ثم يجب تعظيمه غاية التعظيم بالاعتراف بربوبيته ، والخضوع لسلطانه .

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) .

شرح المفردات

يذكر : أى يتذكر ويتفكر ، لنحشرنهم : أى لنجمعنهم ، جثيا ، واحدهم جاثٍ وهو البارك على ركبتيه ، شيعة : أى جماعة تعاونت على الباطل وتشايعت عليه ،

عتيا : أى تكبرا ومجاوزة للحد ، صليا : أى دخولا فيها من صلى بالنار إذا قاسى حرها ، واردها : أى مارّ عليها ، حتما : أى واجبا ، مقضيا : أى قضى بوقوعه البتة.

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بالعبادة والمصابرة عليها على مافيها من مشاقّ وشدائد - أبان فائدة ذلك وهى أنها تنجيهم يوم الحشر يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وهو يوم لاريب فيه ولا وجه لإنكاره ، فإن إعادة الإنسان أهون من بدئه ، ثم ذكر ما يلقاه الكافرون يومئذ من الذل والهوان ، ثم أردف ذلك ببيان أن جميع الخلائق ترد على النار ولا ينجو منها إلا من اتقى ربه وأخلص فى عمله .

روى الكلبى أنها نزلت فى أبىّ بن خلف . أخذ عظما باليا فجعل يفته بيده ويذريه فى الريح ويقول: زعم فلان أنا نبعث بعد أن نموت ونكون مثل هذا ، إن هذا لن يكون أبدا .

الإيضاح

(ويقول الإنسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا) أى ويقول الكافر الذى لايصدق بالبعث بعد الموت متعجبا مستبعدا : أأخرج حيا مرة أخرى فأبعث بعد الموت والبلى ؟ وأسند القول إلى الكفرة جميعا وإن لم يقل هذه المقالة إلا بعضهم من حيث رضاهم عن هذا المقال وسكوتهم عن إنكاره كما سلف لك من قبل .

ثم أقام الدليل على صحة ذلك بقوله :

(أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ؟) أى أو لايتفكر الإنسان المجترئ على ربه المنكر لتلك الإعادة بعد الفناء ، وللاحياء بعد الممات ،

أن الله خالقه من قبل مماته ، فأنشأه بشرا سويا من غير شىء ، فليعتبر بذلك وليعلم أن من أنشأه كذلك لا يعجز عن إحيائه بعد مماته ، و إيجاده بعد فنائه .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ : أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ » وقوله : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » وقوله : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وفى الحديث القدسى : « يقول الله تعالى : كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى ، وآذانى ابن آدم ولم يكن له أن يؤذينى ، أما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من آخره ، وأما أذاه إياى فقوله : إن لى ولدا وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

ولما قرر القضية وأقام عليها الدليل أردفها بالتهديد من وجوه فقال :

(١) (فوربك لنحشرنهم والشياطين) أقسم الرب بنفسه الكريمة أنه حاشرهم جميعا وشياطينهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله .

وفى قَسَمه على جمعهم وسوقهم إلى المحشر دون القسم على بعثهم ، تنبيه إلى أن ذلك غنىّ عن الإثبات بعد أن أقام البرهان على إمكانه ، و إنما الذى يحتاج إلى ذلك ما بعده من الشدائد والأهوال .

روى أن الكافرين يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين كانوا يغوونهم ، كل منهم مع شيطانهم .

(٢) (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) أى ثم لنحضرنهم بعد طول الوقوف حول جهنم من خارجها – جاثين على ركبهم إهانة لهم ، أو لعجزهم عن القيام لما حل بهم من المكاره والأهوال .

(٣) (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا) أى لنأخذن من

كل جماعة منهم من هو أشد على الرحمن الذى غمرهم بإحسانه - تكبرا ومجاوزة للحدود التى سنها لخلقه .

وقصارى ذلك — إن الله تعالى يحضرهم أولا حول جهنم ، ثم يميز بعضهم عن بعض ، فمن كان أشدهم تمردا فى كفره ، خص بعذاب أعظم ، فعذاب الضالّ المضلّ فوق عذاب من يضل بالتبع لغيره .

(ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) أى ثم لنحن العالمون بظواهر أعمالهم وبواطنها ، وبما اجترحوا من السيئات ، وبما دسوا به أنفسهم من الموبقات ، مَن هم أولى بجهنم دخولا واحتراقا ، فنبدأ بهم أولا ثم بمن يليهم .

وخلاصة هذا — إنهم جميعا يستحقون العذاب ، لكننا ندخلهم فى جهنم على حسب عتيهم وتجبرهم فى كفرهم .

ثم خاطب سبحانه الناس جميعا فقال :

(وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) أى وما أحد منكم أيها الناس إلا يدنو من جهنم ويصير حولها ، قد قضى ربك بذلك وجعله أمرا محتوما مفروغا منه .

روى السدى عن ابن مسعود قال: «يرد الناس جميعا الصراط، ويقومون حول النار ، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل...» فى حديث طويل ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرد الناس كلهم ثم يصدرون بأعمالهم .

(ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) أى إذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة على قدر ما اجترحوا من الآثام والذنوب - نجى الله المتقين منها على حسب أعمالهم ، وترك الكافرين جاثين على الركب كما جاءوا .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ
الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ
هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ
مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ
شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى، وَالْبَاقِيَاتُ
الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦) .

شرح المفردات

بينات : أى ظاهرات الإعجاز ، مقاما : أى مكانا ومنزلا ، نديًّا : أى مجلسا ومجتمعا ، ومثله النادى ؛ وقيل هو المجلس الذى يجتمع فيه لحادثة أو مشورة ومنه دار الندوة التى كان المشركون يتشاورون فيها فى أمورهم، والقرن: أهل كل عصر، والأثاث: متاع البيت من الفرش والثياب وغيرها ولا واحد له ، والرئى المنظر والمراد به النضارة والحسن ، فليمدد : أى فليمهله بطول العمر والتمكن من سائر التصرفات ، جندا : أى أنصارا ، والباقيات الصالحات : أى الطاعات التى تبقى آثارها ، مردًّا : أى مرجعا وعاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الحجة على مشركى قريش المنكرين للبعث بعد الفناء ، وللعودة إلى حياة أخرى - أتبعه بذكر شبهة أخرى قالوها وعارضوا بها حجة الله التى يشهد بصحتها كل منصف ، ويعتقدها من له أدنى مُسْكة من عقل .

تلك أنهم قالوا : لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أحسن وأطيب من حالنا ، من قِبَل أن الحكيم لا يجدر به أن يوقع المخلصين من

أوليائه فى الذل والمهانة ، وأعداءه فى العز والراحة، لكنا نجد الأمر على العكس من هذا ، فإنا نحن الذين يتمتعون برفاهية العيش والرخاء والنعيم ، وأنتم فى ضنك وفقر وخوف وذل ، فهذا دليل على أنا على الحق وأنتم على الباطل .

وقد رد الله عليهم مقالتهم بأن الكافرين قبلكم وهم كانوا أحسن منكم حالا ، وأكثر مالا ، قد أبادهم الله وأهلكهم بعذاب الاستئصال ، فدل هذا على أن نعيم الدنيا لا يرشد إلى محبة الله لمن أوتوه ، ولا إلى أنهم مصطفَوْن له من بين خلقه .

روى أن قائل هذه المقالة النضر بن الحرث ومن على شاكلته من قريش ، للمؤمنين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وكانوا فى خشونة من العيش وفى رثاثة من الثياب ، وهم كانوا يرجّلون شعورهم و يلبسون فاخر الثياب .

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية ببيان مآل الفريقين يوم القيامة ، وأن ما كان للمشركين فى الدنيا من المال وسعة الرزق فإنما ذلك استدراج و إمهال من الله لهم ، ثم يلقون النكال والوبال فى جهنم و بئس القرار .

الإيضاح

(و إذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟) أى و إذا تتلى على المشركين آياتنا واضحات الدلالة قالوا مفتخرين على المؤمنين ، ومحتجين على صحة ما هم عليه من الباطل ، أىّ الفريقين منا ومنكم أوسع عيشا وأنعم بالا وأفضل مسكنا وأحسن مجلسا وأجمع عددا ؟ أنحن أم أنتم ؟ فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل ، وأولئك المستخفون المستترون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ونحوها من الدور على الحق ؟

ونحو الآية قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ » .

وقد رد الله عليهم شبهتهم بقوله :

(وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا) أى وكم من أمة من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم وقد كانوا أحسن من هؤلاء أموالا وأثاثا ومناظر ذات جمال وزخرف .

وخلاصة هذا — إن كثيرا ممن كانوا أعظم منكم نعمة فى الدنيا كعاد وثمود وأضرابهم من الأمم العاتية قد أهلكهم الله ، فلو صدق ما تدّعون من أن النعمة فى الدنيا تدل على الكرامة عند الله ، ما أهلك أحدا من المتنعمين بها .

وفى هذا تهديد ووعيد لايخفى ، وكأنه قيل فليرتقب هؤلاء ، فسيحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المثلات .

ثم أمر الله نبيه أن يجيب هؤلاء المفتخرين بقوله :

(قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا . حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب و إما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المدعين أنهم على الحق ، وأنكم على الباطل : إن ما افتخرتم به من زخرف الدنيا وزينتها لايدل على حسن الحال فى الآخرة ، فقد جرت سنة الله بأن من كانوا منهمكين فى الضلالة ، مرخين لأنفسهم الأعنّة ، فى سلوك المعاصى والآثام، يبسط لهم نعيم الدنيا ، ويطيب عيشهم فيها ، ويمتعهم بأنواع اللذات ، ولا يزال يمهلهم استدراجا لهم إلى أن يشاهدوا ما وعدوا به رأى العين ، إما عذابا فى الدنيا كما حصل يوم بدر ، وإما مجىء الساعة وهم بها مكذبون ، وعن الاستعداد لها مفرطون ، وإذ ذاك يعلمون من هو شر من الفريقين مكانا ، وأن الأمر على عكس ما كانوا يقدرون ، وسيرون أنهم شر مكانا وأضعف جندا وأقل ناصرا من المؤمنين ، وهذا رد على قولهم (أىّ الفريقين خير مقاما وأحسن نديا) .

وقصارى ذلك — إن من كان فى الضلالة فسنة الله أن يمد له ويستدرجه ليزداد إثما ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر إما بعذاب فى الدنيا يأتيه من حيث

لايحتسب ، وإما بعذاب فى الآخرة لاقِبَل له بدفعه ، وحينئذ يعلم أنه كان فى ضلال مبين ، و بندم ، ولات ساعة مندم .

ندم البغاة ولات ساعة مندم   والبغى مرتع مبتغيه وخيم

ولا يجد عن النار محيصا ولا مهربا .

(ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) أى ويزيد الله الذين اهتدوا إلى الإيمان هدى بما ينزل عليهم من الآيات، عوضا مما منعوا من زينة الدنيا كرامة لهم من ربهم، كما بسط للضالين فيها لهوانهم عليه .

ومجمل هذا — إن من كان فى الضلالة من الفريقين يمهله الله وينفس له فى حياته ليزداد فى الإثم والغىّ ويجمع له عذاب الدارين ، ومن كان فى الهداية منهما يزيد الله فى هدايته ويجمع له خيرى السعادتين .

(والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا) أى والطاعات التى بها تنشرح الصدور ، وتستنير القلوب ، وتصل إلى القرب من الله ، ونيل رضوان ـ خير عند ربك منفعة وعاقبة مما متع به أولئك الكفرة من النعم الفانية التى يفخرون بها من مال وولد وجاه ومنافع تحصل منها ، فإن عاقبة الأولين السعادة الأبدية ، وعاقبة أولئك الحسرة الدائمة والعذاب المقيم .

وخلاصة هذا — إن الطاعات التى يبقى ثوابها لأهلها خير عند ربهم جزاء وخير عاقبة من مقامات هؤلاء المشركين بالله وأنديتهم التى بها يفخرون على أهل الإيمان فى الدنيا .

أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) .

شرح المفردات

أطلع الغيب ؟ من قولهم اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه : أى أظهر له علم الغيب ؟ عهدا : أى عملا صالحا ، كلا : كلمة زجر وتنبيه إلى الخطأ ، سنكتب مايقول أى سنظهر له أنا كتبنا ، ونمد له من العذاب : أى سنطيل له العذاب الذى يستحقه ونرثه ما يقول : أى نسلب ذلك منه بموته ونأخذه أخذ الوارث ما يرثه ، والمراد بما يقول مدلوله ومصداقه ، وهو ما أوتيه فى الدنيا من المال والولد ، فردا : أى لا يصحبه مال ولا ولد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الدلائل على صحة البعث ثم أورد شبه المنكرين له وأجاب عنها بما فيه مقنع لكل ذى لب — قفى على ذلك بذكر مقالتهم التى قالوها استهزاء وطعنا فى القول بالحشر والبعث .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى والطبرانى وابن حبّان عن خبّاب بن الأرَتّ قال : « كنت رجلا قينا (حدادا) وكان لى على العاص بن وائل دَين فأتيته أتقاضاه فقال لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت لا والله لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تموت ثم تبعث ، قال فإنى إذا مِتُّ ثم بعثت جئتنى ولى ثَمّ مال وولد فأعطيك ، فأنزل الله تعالى : « أفرَأيْتَ الآية » .

الإيضاح

(أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالا وولدا) أى انظر إلى حال هذا الكافر واعجب من مقالته الشنيعة وجرأته على الله ، إذ قال لأعطين فى الآخرة مالا وولدا .

ولما كان ما ادعاه لا علم له به إلا بأحد أمرين — الاطلاع على الغيب أو اتخاذ العهد — ولم يحصل له واحد منهما ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا ؟) أى إن ما ادعى أنه سيكون ، لايعلم إلا بأحد الأمرين : إما علم الغيب ، وإما عهد من عالم الغيب ، فبأيهما هو قد وصل إليه ؟ .

وقصارى ذلك — أو قد بلغ من عظم شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب الذى انفرد به الواحد القهار ، أم أعطاه الله عهدا موثقا وقال له : إن ذلك كائن لامحالة ؟ .

ثم زاد فى تأكيد خطئه وهدده بقوله :

(كلا سنكتب ما يقول ونمدّ له من العذاب مدّا) أى ليس الأمر كذلك ، ما اطلع على الغيب فعلم صدق ما يقول وحقيقة ما يذكر ، ولا اتخذ عند الرحمن عهدا موثقا بذلك ، بل كذب وكفر بربه ، وسنظهر له أننا كتبنا قوله ، ونزيده من العذاب فى جهنم بقيله الكذب والباطل فى الدنيا زيادة على كفره بالله وتكذيبه برسوله .

(ونرثه ما يقول ويأتينا فردا) أى ونسلبه ما عنده من المال والولد ونأخذه منه أخذ الوارث ما يرث ، ويأتينا إذ ذاك فردا لايصحبه مال ولا ولد مما كان له فى الدنيا.

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٨٧)

شرح المفردات

العز : المنعة والقوة ، سيكفرون : أى سيجحدون ، ضدّا : أى أعداء وأعوانا عليهم ، والأزّ والهز والاستفزاز : شدة الإزعاج ؛ والمراد الإغراء على المعاصى والتهييج

لها بالتسويلات ، وتحبيب الشهوات ، فلا تعجل عليهم : أى فلا تطلب الاستعجال بهلاكهم ، الوفد والوفود والأوفاد : واحدهم وافد ، وهم القوم يقدمون على الملوك يستنجزون الحوائج ، والمراد يقدمون مكرمين مبجلين ركبانا ، إلى الرحمن : أى إلى دار كرامته وهى الجنة ، وِردا : أى مشاة مهانين باستخفاف واحتقار كأنهم نَعَم تساق إلى الماء ، والمراد بالعهد شهادة أن لا إله الا الله والتبرى من الحول والقوة وعدم رجاء أحد إلا الله

المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنكار المشركين للبعث مع قيام الدليل على إمكانه بما يشاهد من أمر الخلق فى النشأة الأولى ـ أردف ذلك بالرد على عباد الأصنام الذين اتخذوا أصنامهم آلهة ليعتزوا بهم يوم القيامة عند ربهم ، ويكونوا شفعاء لهم لديه ، فبيّن أنهم سيكونون لهم أعداء ، وأنه ما جرأهم على تلك الغواية إلا وسوسة الشيطان لهم ، ثم طلب إلى رسوله ألا يستعجل المشركين فإنما هى أنفاس معدودات ثم يهلكون ، ثم ذكر ما يحوط المؤمنين من الكرامة حين وفودهم إلى ربهم ، وما يحيق بالمشركين من الإهانة حين يردون عليه .

الإيضاح

(واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا) أى واتخذ المشركون من قومك أيها الرسول ـ آلهة يعبدونهم من دون الله ، ليعتزوا بهم ويجعلوهم شفعاء عند ربهم يقربونهم إليه .

(كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدّا) أى ليس الأمر كما ظنوا وأملوا فى أنها تنقذهم من عذاب الله وتنجيهم منه ، بل ستجحد الآلهة عبادتهم إياهم وينطق الله من لم يكن ناطقا منهم ، فيقولون ما عبدتمونا كما قال سبحانه :

« وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ ، فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ » وقال : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا » وقال حاكيا عنهم : « مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ » ويكونون أعداء لهم وأعوانا عليهم إذ يلعنونهم ويتبرءون منهم .

وبعد أن ذكر سبحانه ما لهؤلاء الكفار مع آلهتهم فى الآخرة ، ذكر ما لهم مع الشياطين فى الدنيا ، وأنهم يتولونهم وينقادون لهم فقال :

(ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) أى ألم تعلم أنا سلطنا الشياطين على الكافرين ومكناهم من إضلالهم ، فهم يغرونهم بالمعاصى ، ويهيجونهم على الوقوع فيها .

وخلاصة ما سلف — تعجيب رسوله صلى الله عليه وسلم مما حكته الآيات السالفة عن هؤلاء الكفرة من تماديهم فى الغى ، وانهماكهم فى الضلال ، وتصميمهم على الكفر بدون رادع ولا زاجر ، ومدافعتهم للحق مع وضوحه ، وتنبيه له إلى أن ذلك إنما كان بإضلال الشياطين وإغوائهم ، لا لقصور فى التبليغ .

وفى هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهوين للأمر على نفسه .

(فلا تعجل عليهم) بأن تطلب إهلاكهم وإبادتهم بعذاب الاستئصال حتى تطهر الأرض من خبائث أعمالهم .

ثم علل هذا النهى بأن حين هلاكهم قريب فقال :

(إنما نعد لهم عدا) أى إنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس قليلة نعدها عدا ، وعن ابن عباس أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : آخر العدد خروج نفسك . آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخول قبرك — وعن ابن السماك أنه كان عند المأمون فقرأ الآية ثم قال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفد :

إن الحبيب من الأحباب مختلس لا يمنع الموت بواب ولا حرس
وكيف يفرح بالدنيا ولذتها فتى يعد عليه اللفظ والنفس

وقد أفصح عن هذا شاعر مصر أحمد بك شوقى فقال :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحيـاة دقائق وثوانى

ثم بين سبحانه ما سيظهر فى ذلك اليوم من الفصل بين المتقين والمجرمين فى كيفية الحشر فقال :

(يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) أى واذكر أيها الرسول لقومك ، يوم نحشر المتقين إلى دار الكرامة ركبانا كما يفد الوافدون على أبواب الملوك ينتظرون إكرامهم وإنعامهم .

وقد أثر عن على أنه قال : والله ما يحشر الوفد على أرجلهم ، ولا يساقون سوقا ولكنهم يؤتون بنوق لم ير الخلائق مثلها ، وعليها رحال الذهب ، وأزمتها الزبرجد، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة ـ وهذا تمثيل لحالهم فى عزهم وعظمتهم وإكرام ربهم لهم .

(ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) أى ونسوق الكافرين بالله إلى جهنم مشاة قد تقطعت أعناقهم من العطش ، فهم كالدواب التى ترد الماء .

(لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) أى لا يملك العباد الشفاعة إلا من اتخذ عهدا عند الله بأن أعد لها عدتها فكان فى الدنيا هاديا مصلحا ، فيكون فى الآخرة شافعا مشفعا ، لاجرم أن ينالها فى الآخرة على مقدار هدايته فى الدنيا ، فالشفاعة حينئذ لا تكون إلا للأنبياء والعلماء والشهداء على مقدار أتباعهم .

روى أن ابن مسعود قرأ هذه الآية ثم قال : أَتَّخِذُ عند الله عهدا ، فإن الله يقول يوم القيامة : من كان له عند الله عهد فليقم ، قالوا يا أبا عبد الرحمن فعلّمنا، قال: قولوا «اللهم فاطر السموات الأرض عالم الغيب والشهادة ، إنى أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا ألا تكلنى إلى عمل يقربنى من الشر ويباعدنى من الخير ، وإنى لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لى عندك عهدا تؤديه إلىّ يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد» .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أدخل على مؤمن سرورا فقد سرنى ، ومن سرنى فقد اتخذ عند الرحمن عهدا فلا تمسه النار إن الله لايخلف الميعاد » ، وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئا جاء وله عند الله عهد أن لايعذبه ، ومن جاء قد انتقص منها شيئا فليس له عند الله عهد ، إن شاء رحمه و إن شاء عذبه » .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) .

شرح المفردات

جئتم : أى فعلتم ، والإدّ (بالكسر والفتح) المنكر العظيم ، والإدة : الشدة يقال أدّنى الأمر وآدنى : أثقلنى وعظم علىّ ، والتفطر : التشقق ، وتخر : تسقط وتنهدم ، دعوا : أى نسبوا وأثبتوا ، قال شاعرهم :

إنا بنى نهشل لاندّعى لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا

عبدا : أى منقادا خاضعا كما يفعل العبيد ، أحصاهم : عدهم وأحاط بهم ، وعدهم عدّا : أى عد أشخاصهم ، فردا : أى منفردا لاشىء معه من الأنصار والأتباع .

المعنى الجملى

بعد أن رد على عبدة الأوثان وأثبت بقاطع الأدلة أنهم فى ضلالهم يعمهون ، وأنهم عن الحق معرضون ـ أردف ذلك بالرد على من أثبت له الولد كاليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، والمشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

الإيضاح

(وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدًّا .) أى وقال الكافرون بالله : إن للرحمن ولدا ، لقد جئتم أيها القائلون بمقالتكم هذا شيئا منكرا عظيما يدل على الجرأة على الله وكمال القِحَة عليه سبحانه ، وإنه ليغضبه أشد الغضب ، ويسخطه أعظم السخط .

(تكاد السموات يتفطرن منه) أى إنه لعُظمه تكاد السموات يتشققن منه لشدة هوله وعظم شأنه ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين .

(وتنشق الأرض) أى تخسف بهم .

(وتخر الجبال هدًّا) أى تسقط وتنهد هدا ، فتنطبق عليهم ، روى عن ابن عباس أنه قال : إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت تزول منه لعظمة الله وكماله .

وقصارى ذلك — إن هول هذه الكلمة الشنعاء لو صوِّر بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الأجرام العظام ، وتفرقت أجزاؤها من شدتها .

وفى ذلك تنبيه إلى غضب الله تعالى على قائل هذه الكلمة ، وأنه لولا حلمه سبحانه لهلك .

ثم بين علة ذلك فقال :

(أن دعوا للرحمن ولدا) أى من أجل أنهم نسبوا لله اتخاذ الولد .

ثم نفى ذلك عن نفسه بقوله :

(وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا) أى وما يليق به اتخاذ الولد ، لأن ذلك يقتضى التجانس بينهما وأن يكون كل منهما حادثا ، ولأن الولد إنما يكون للسرور به، والاستعانة به حين الحاجة ، وللذكر الجميل ، إلى نحو أولئك من المقاصد التى يتنزه عنها ربنا جل وعلا .

ثم زاد الإنكار توكيدا فقال :

(إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا) أى ما من أحد من الملائكة والإنس والجن إلا وهو مملوك له سبحانه ، ينقاد لحكمه ، ويلتجئ إليه حين الحاجة ، ويخضع له خضوع العبد لسيده .

(لقد أحصاهم) أى لقد حصرهم وأحاط بهم ، فهم تحت أمره وتدبيره ، يعلم ما خفى من أحوالهم وما ظهر ، لايفوته شىء منها .

(وعدّهم عدا) أى وعد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم وأقوالهم ، فكل شىء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة .

(وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) أى وكل امرئ منهم يأتيه يوم القيامة وحيدا منفردا عن الأهل والأنصار ، منقطعا إليه تعالى ، محتاجا إلى معونته ورحمته .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)
فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧)
وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) .

شرح المفردات

الود : المودة والمحبة ، بلسانك : أى بلغتك ، واللّدّ : واحدهم ألد ، وهو الشديد الخصومة ، وركزا : أى صوتا خفيا .

المعنى الجملى

بعـد أن فصل سبحانه أحوال الكافرين فى الدنيا والآخرة ، وبالغ فى الرد عليهم ـ ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين ، و بين أنه سبحانه سيغرس محبتهم فى قلوب عباده ، و بعد أن استقصى فى السورة دلائل التوحيد والنبوة والحشر وردّ فيها على فرق المبطلين ـ بين أنه يسر ذلك بلسان نبيه صلى الله عليه وسلم ليبشر به المتقين و ينذر به قوما من المشركين ذوى الجدل والمماراة .

الإيضاح

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا) أى إن الذين آمنوا بالله وصدّقوا برسله و بما جاءوهم به من عنده وعملوا به فأحلوا حلاله وحرموا حرامه ، سيجعل لهم الله محبة فى قلوب عباده المؤمنين .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى فى جمع كثير عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحب الله تعالى عبدا يقول لجبريل : إنى قد أحببت فلانا فأحبه ، فينادى فى السماء ، ثم تنزل له المحبة فى الأرض ، فذلك قول الله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآية » .

وأخرج ابن مردويه والديلمى عن البرَاء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه : « قل اللهم اجعل لى عندك عهدا ، واجعل لى فى صدور المؤمنين ودا ، فأنزل الله سبحانه الآية » .

وكان هرِم بن حيّان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم .

وخلاصة ذلك — سيجعل الله للمؤمنين الذين يعملون الصالحات مودة فى القلوب يزرعها لهم من غير تودد منهم ، ولا تعرّض للأسباب التى يكتسب بها الناس مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف .

وقد خصهم الله بهذه الكرامة كما قذف الرعب فى قلوب أعدائهم منهم إعظاما لهم وإجلالا لمكانهم .

ثم ذكر الحكمة فى إنزال القرآن بلغة العرب فقال :

(فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدًا) أى فإنما سهلنا نزول القرآن بلغتك العربية لتقرأه على الناس وتبشر به من اتقى عقاب الله ، فأدى فرائضه واجتنب نواهيه ، بأن له الجنة ، وتنذر به من عصاه من قريش ، وهم أهل اللدد والجدل بالهوى ممن لا يقبل حقا ، ولا يحيد عن باطل .

وقصارى ذلك — بلّغ هذا المنزّل وبشر به وأنذر ، فإنما أنزلناه بلسانك العربى المبين ، ليسهل على الناس فهمه .

ثم ختم السورة بتلك العظة البالغة فقال :

(وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟) أى وقد أهلكنا كثيرا من الأمم قبل هؤلاء المعاندين ، حين سلكوا فى خلافى مسلك هؤلاء ، وركبوا معاصى ، فهل تحس منهم أحدا فتراه وتعاينه أو تسمع له صوتا ؟ لا - إنهم بادوا وخلت منهم الديار ، وأقفرت المنازل ، وصاروا إلى دار لا ينفع فيها إلا صالح العمل ، وإن قومك لصائرون إلى مثل ما صاروا إليه ، إن لم يعاجلوا التوبة قبل الهلاك .

وفى هذا وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالنصر والغلبة على هؤلاء المشركين ووعيد لأولئك الكافرين الجاحدين ، وحث له على التبشير والإنذار .

وقصارى ذلك — إنا أهلكناهم ، فلم نبق منهم أحدا تراه ولا تسمع له صوتا خفيا ولا ظاهرا .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين .

خلاصة لما حوته السورة الكريمة من المقاصد

(١) دعاء زكريا ربه أن يهب له ولدا سريا مع ذكر الأسباب التى دعته إلى ذلك .

(٢) استجابة الله دعاءه وبشارته بولد يسمى يحيى لم يسم أحد من قبله بمثل اسمه .

(٣) تعجب زكريا من خلق ذلك الولد من أبوين : أمّ عاقر وأب شيخ هرم .

(٤) طلبه العلاَمة على أن امرأته حامل .

(٥) إيتاء يحيى النبوة والحكم صبيا .

(٦) ما حدث لمريم من اعتزالها لأهلها ، وتمثل جبريل لها بشرا سويا ، والتجائها إلى الله أن يدفع عنها شر هذا الرجل ، وإخباره لها أنه ملك لا بشر .

(٧) حملها بعيسى عليه السلام وانتباذها مكانا قصيا حتى لا يراها الناس وهى على تلك الحال .

(٨) نداء عيسى لها حين الولادة ، وأمرها بهزّ النخلة حتى تساقط عليها رطبا جنيا .

(٩) مجيئها بعيسى ومقابلتها لقومها وهى على تلك الحال وقد انهال عليها اللوم والتعنيف ، وأنها فعلت مالم يسبقها إليه أحد من تلك الأسرة الشريفة التى اشتهرت بالصلاح والتقوى .

(١٠) كلام عيسى وهو فى المهد تبرئة لأمه ووصفه نفسه بصفات الكمال من النبوة والبركة والبر بوالديه وأنه لم يكن جبارا متكبرا على خالقه .

(١١) اختلاف النصارى فى شأنه .

(١٢) قصص إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر ووصفه له بالجهل وعدم التأمل فى المعبودات التى يعبدها من دون الله ثم تحذيره إياه بسوء مغبة أعماله ، وردّ أبيه عليه مهددا متوعدا .

(١٣) هبة الله له إسحٰق و يعقوب ، و إيتاؤهما الحكم والنبوة .

(١٤) قصص موسى ومناجاته ر به فى الطور ، والامتنان عليه بجعل أخيه هرون وز يرا ونبيا .

(١٥) قصص إسماعيل ووصف الله له بصدق الوعد و إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة .

(١٦) قصص إدريس عليه السلام ووصف الله له بأنه صديق نبى رفيع القدر عظيم المنزلة عند ر به .

(١٧) مجىء خلف من بعد هؤلاء الأنبياء أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .

(١٨) وعد الله لمن تاب وآمن وعمل صالحا بجنات لا لغو فيها ولا تأثيم .

(١٩) إن جبر يل لاينزل إلى الأنبياء إلا بإذن ر به .

(٢٠) إنكار المشركين للبعث استبعادا له ، ورد الله عليهم بأنه خلقهم من قبل ولم يكونوا شيئا .

(٢١) الإخبار بأن الله يحشر الكافرين يوم القيامة مع قرنائهم من الشياطين ثم يحضرهم حول جهنم جثيا ، ثم بدئه بمن هو أشد جُرما والله أعلم بهم .

(٢٢) الإخبار بأن جميع الخلق ترد على النار ثم ينجى الله الذين اتقوا و يذر الظالمين فيها جثيا .

(٢٣) بيان أن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن فخروا على المؤمنين بأنهم خير منهم مجلسا وأ كرم منهم مكانا .

(٢٤) تهديدهم بأنه أهلك كثيرا ممن كان مثلهم فى العتو والاستكبار ، وأكثر أثاثا ورياشا .

(٢٥) بيان أن الله يمد للظالم ويمهله ، ليجترح من السيئات ما شاء ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

(٢٦) النعى على المشركين باتخاذ الشركاء ، وأنهم يوم القيامة سيكونون لهم أعداء .

(٢٧) نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن طلب تعجيل هلاك المشركين ، إذ أن حياتهم مهما طالت فهى محدودة معدودة .

(٢٨) التفرقة بين حشر المتقين إلى دار الكرامة ، وسوق المجرمين إلى دار الخزى والهوان .

(٢٩) النعى الشديد على من ادعى أن لله ولدا .

(٣٠) بيان أن الله قد أنزل كتابه بلسان عربى مبين ، ليبشر به المتقين ، وينذر به الكافرين ذوى اللدد والخصومة .

سورة طه

هى مكية إلا آيتى ١٣٠ ، ١٣١ فمدنيتان ، وعدد آيها خمس وثلاثون بعد المائة نزلت بعد سورة مريم .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه لما ذكر فى سورة مريم قصص عدد من الأنبياء والمرسلين ، بعضها بطريق البسط والإطناب كقصص زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ، وبعضها بين البسط والإيجاز كقصص إبراهيم عليه السلام ، وبعضها موجز مجمل كقصة موسى عليه السلام ، ثم أشار إلى بقية النبيين بالإجمال ـ ذكر هنا قصة موسى التى أجملت فيما سلف ، واستوعبها غاية الاستيعاب ، ثم فصل قصة آدم عليه السلام ، ولم يذكر فى مريم إلا اسمه فحسب .

(٢) إنه روى عن ابن عباس أن هذه السورة نزلت بعد سالفتها .

(٣) إن أول هذه السورة متصل بآخر السورة السابقة ومناسب له فى المعنى ، إذ ذكر فى آخر تلك أنه إنما يسر القرآن بلسانه العربى المبين ليكون تبشيرا للمتقين وإنذارا للمعاندين ، وفى أوائل هذه ما يؤكد هذا المعنى .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) .

شرح المفردات

لتشقى : أى لتتعب وتنصب ، تذكرة : أى تذكيرا وعظة ، يخشى : أى يخاف الله ، العلى : واحدها العليا مؤنثة الأعلى كالكبرى مؤنثة الأكبر ، والعرش : فى اللغة سرير الملك ، ويراد به فى لسان الشرع مركز تدبير العالم ، واستوى : استولى عليه قال شاعرهم :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

والثرى : التراب الندىّ ؛ والمراد هنا مطلق التراب ، وأخفى : أى من السر وهو ما أخطرته ببالك دون أن تتفوه به بحال ، والأسماء : أى الصفات كما جاء فى قوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ » أى صفوهم ، والحسنى : مؤنثة الأحسن .

المعنى الجملى

روى مقاتل أن أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدى والنضر بن الحرث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك ، فقال عليه السلام : بل بعثت رحمة للعالمين ، قالوا بل أنت تشقى ، فأنزل الله الآية ردا عليهم وتعريفا لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن دين الإسلام هو السبيل إلى نيل كل فوز ، وسبب إدراك كل سعادة ، وما فيه المشركون هو الشقاء بعينه .

الإيضاح

(طه) تقدم أن قلنا إن أصح الآراء فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور أنها حروف تنبيه كألا ويا ونحوهما مما يذكر فى أوائل الجمل لقصد تنبيه المخاطب إلى ما يلقى بعدها لأهميته وإرادة إصغائه إليه نحو ما جاء فى قوله تعالى : « أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ » وينطق بأسمائها حين القراءة فيقال (طا.ها)

(ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) أى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب وتغلو فى مكابدة الشدائد حين تحاور أولئك القوم الطغاة ، وتقاول أولئك العتاة ، وتفرط فى الأسى على كفرهم ، وتتحسر على عدم إيمانهم ، بل أنزلناه عليك لتبلغ وتذكر وقد فعلت ، فلا عليك إن لم يؤمنوا بعد هذا .

ونحو الآية قوله : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

وقصارى ذلك — إنا أنزلناه عليك لتذكر به ، فمن آمن وأصلح فلنفسه ، ومن كفر فلا يحزنك كفره ، إن عليك إلا البلاغ ، ولست عليهم بمسيطر .

وفى هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم عما كان يعتريه من التعب والنصب حين كان يدعو أولئك القومَ ذوى اللدد والخصومة ، ولا عجب فالكلام صنعتهم و به يتفاخرون ، وعليه يعتمدون ، إذ يقرعون الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان ، وهو لديهم أمضى من السنان .

(إلا تذكرة لمن يخشى) أى ما أنزلناه عليك لشقائك ، ولكن أنزلناه تذكيرا لمن يخشى الله تعالى و يتأثر بالإنذار لرقة قلبه ، وحسن استعداده ، وقد كان عليه السلام يعظهم به بتلاوته وتفسير ما جاء به من مقاصد وأغراض ومصالح لهم فى دنياهم وآخرتهم .

وخص الخاشعين بالذكر مع أن القرآن تذكرة للناس كلهم ، من قِبَل أن غيرهم كأنه لاوجود له لعدم انتفاعه به .

وخلاصة ذلك — حسبك ماحملته من متاعب التبليغ والتبشير والإنذار ، ولا تنهك بدنك بحملهم على قبول الدعوة والاستجابة لأمرك ، فإن ذلك من شأننا لامن شأنك ، و بيدنا لابيدك .

(تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى) أى نزل عليك تنزيلا من ربك

الذى خلق الأرض والسموات العلى ، والمراد بهما ما فى جهة السفل والعلو ، ويستتبع ذلك كل مايتعلق بهما .

(الرحمن على العرش استوى) أى هو الرحمن الذى على عرشه ارتفع وعلا ، وقد تقدم إيضاح هذا فى سورة الأعراف ببسط وإطناب .

(له مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى) أى له ما فى السموات والأرض وما بينهما ملكا وتدبيرا وتصرفا ، وله ماواراه التراب وأخفاه من المعادن والفِلِزّات وغيرها .

(وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) أى وإن تجهر بدعاء الله وذكره ، فاعلم أنه تعالى غنى عن جهرك ، لأنه يعلم ما أسررته إلى غيرك ولم ترفع به صوتك ، وأخفى منه مما تخطره ببالك دون أن تتفوّه به .

والدعاء والذكر باللسان إنما شرعا ليتصور الداعى والذاكر المعنى فى نفسه ، لاليسمع صوته ، ولا فضل للنطق والجهر به إلا فى منع الشواغل الشاغلة عن حضور المعانى فى القلوب كما قال تعالى : « وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » ونحو الآية قوله : « وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ » .

(الله لاإله إلا هو له الأسماء الحسنى) أى إن ماذكر من صفات الكمال التى تقدمت ليس بأهل لها إلا ذلك المعبود الحق الذى لارب غيره ولا إله سواه ، وله الصفات الحسنى الدالة على التقديس والتمجيد ، والأفعال التى هى غاية فى الحكمة والسداد .

قصص موسى عليه السلام

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)

فلما أتاها نودى يا موسى (١١) إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس
طوى (١٢) وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى (١٣) إننى أنا الله لا إله
إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى (١٤) إن الساعة آتية أكاد أخفيها
لتجزى كل نفس بما تسعى (١٥) فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها
واتبع هواه فتردى (١٦) .

شرح المفردات

الحديث: كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحى فى يقظته أو فى منامه، والمكث : الإقامة ، آنست : أى أبصرت ، آتيكم : أجيئكم ، بقبس : أى بشعلة مقتبسة على رأس عود ونحوه ، هدى : أى هاديا يدلنى على الطريق ، طوى: (بالضم منونا : اسم لذلك الوادى ، اخترتك : أى اصطفيتك ، لذكرى : أى لتكون ذاكرا لى ، أكاد أخفيها : أى أبالغ فى إخفائها ولا أظهرها بأن أقول إنها آتية ، هواه : أى ماتهواه نفسه ، فتردى : أى فتهلك .

المعنى الجملى

بعد أن عظم سبحانه كتابه والرسول الذى أنزل عليه بما كلفه به من التبليغ بالإنذار والتبشير — أتبع ذلك بما يقوى قلبه من قصص الأنبياء وما فعلته أممهم معهم وكيف كانت العاقبة لهم والنصر حليفهم ، ففى هذا سلوى له وتأسٍّ بهم فيما قاموا به من الذود عن الحق مهما أصابهم من العنت والأذى من جراء الدعوة إليه ، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله : « وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » .

وبدأ بقصص موسى لأن محنته كانت أشد فقد تحمل من المكاره ما تنوء به راسيات الجبال ، وقابل ذلك بعزم لايفتر وبقوة تفلّ الحديد .

الإيضاح

(وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا) أى وهل بلغك كيف كان ابتداء الوحى إلى موسى وتكليم الله إياه .

ومن سنن العربية أنه إذا أريد تثبيت الخبر وتقرير الجواب فى نفس المخاطب أن يلقى إليه بطريق الاستفهام ، فيقول المرء لصاحبه : هل بلغك كذا وكذا ، فيتطلع السامع إلى معرفة الخبر ويصغى إليه أتم الإصغاء .

روى أن موسى عليه السلام استأذن شعيبا فى الرجوع إلى والدته فأذن له بعد أن قضى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم ، فخرج وسار قاصدا مصر بعد أن طالت غيبته عنها فقد زادت على عشر سنين ومعه زوجه ، فولد له ابن فى الطريق فى ليلة شاتية ذات ثلج وبرد وسحاب وضباب وظلام ، ونزل منزلا بين شعاب وجبال ، وجعل يقدح بزَنْد كان معه ليورى نارا ، فلم تور المِقْدحة شيئا ، وبينا هو يزاول ذلك ويعالجه إذ رأى نارا من بُعْد عن يسار الطريق .

(فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) أى فقال للمرأة وولدها وخادمها مبشرا لهم : أقيموا مكانكم إنى أبصرت نارا وسأذهب إليها لعلى أجيئكم منها بشعلة مقتبسة على رأس عود أو نحوه ، أو أجد هاديا يدلنى على الطريق ، وجاء فى سورة القصص : « لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » .

وقصارى ذلك — إنه قال لأهله أقيموا مكانكم — وإنى قد رأيت نارا، فإما أن آتيكم منها بقبس تشعلون منه نارا تصطلون بها ، وإما أن أجد دليلا يرشدنى إلى الطريق المسلوك وكان قد ضل عنه .

(فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك) أى فلما خرج موسى نحوها وجد نارا بيضاء تتقد كأضوإ مايكون فى شجرة خضراء ، فلا ضوء النار يغير خضرتها ، ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار - وهناك نودى ياموسى ، قال من المتكلم ؟ قال إنى أنا ربك .

ثم أمره أن يخلع نعليه احتراما للبقعة المقدسة فقال :

(فاخلع نعليك) إذ أن الحفوة أقرب إلى التواضع وحسن الأدب ، ومن ثم طاف السلف الصالح بالكعبة حافين ؛ ثم بين سبب الأمر بذلك بقوله :

(إنك بالواد المقدس طوى) أى لأنك بالوادى المطهر المسمى بطوى فاخلعهما ليحصل للقدمين بركته .

(وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) أى وأنا اصطفيتك من قومك للنبوة والرسالة، فعليك أن تسمع لما أوحيه إليك ، ونحو الآية قوله : « إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى » .

وقصارى ذلك — لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له واجعل كل خاطرك مصروفا إليه ، وقد قالوا : إن من أدب الاستماع سكون الجوارح والأعضاء وغض البصر والإصغاء بالسمع وحضور القلب والعزم على العمل .

وقد بين سبحانه أهم مايوحى إليه بقوله :

(إننى أنا الله لا إله إلا أنا) أى إن أول الواجب على المكلف أن يعلم أنه لاإله إلا الله وحده لاشريك له .

(فاعبدنى) أى و إذ كنت أنا الإله حقا ولا معبود سواى ، فخصنى بالعبادة والتذلل والانقياد فى جميع ما كلفتك به .

(وأقم الصلاة لذكرى) أى أدّ الصلاة على الوجه الذى أمرتك به مقوّمة الأركان مستوفاة الشرائط ، لتذكرنى فيها وتدعونى دعاء خالصا لايشوبه إشراك ولا توجه إلى سواى .

ÜNİVERSİTESİ KÜTÜPHANESİ

وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات ، لما لها من الفضل على سواها ، إذ فيها ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذلك، ومن ثم تنهى عن الفحشاء والمنكر.

أخرج الترمذى وابن ماجه فى جماعة آخرين من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : أقم الصلاة لذكرى » .

ثم بين السبب فى وجوب العبادة و إقامة الصلاة فقال :

(إن الساعة آتية أكاد أخفيها) أى إن الساعة آتية لامحالة ، وإنى أكاد أخفيها من نفسى ، فكيف يعلمها غيرى من الخلق ، وقد جاء هذا على سنن العرب يقول أحدهم إذا بالغ فى كتمان السر : كتمت سرى من نفسى ، يريد أنه أخفاه غاية الإخفاء .

وفائدة إخفائها التهويل والتخويف ، فإنهم إن لم يعلموا متى تقوم الساعة يكونوا منها على حذر ، ولمثل تلك الفائدة أخفى الله وقت الموت ، لأن المرء إذا علم وقت موته وانقضاء أجله اشتغل بالمعاصى إلى أن يقرب ذلك الحين فيتوب ويصلح عمله ، وقد وعد الله بقبول توبته ، وهذا يكون كالإغراء على المعصية ، لكنه إن لم يعلم حين منيته كان منها على حذر ، ولا يزال على قدم الخوف والوجل ، فيترك المعاصى ويتوب منها فى كل حين خوف معاجلة الموت .

(لتجزى كل نفس بما تسعى) أى إن الساعة آتية لامحالة ليجزى كل عامل بعمله « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » « إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

ثم خاطب سبحانه موسى محذرا له فقال :

(فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) أى فلا يردنك ياموسى عن التأهب للساعة من لا يقرّ بقيامها ولا يصدق بالبعث ، ولا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا ، بل يركب رأسه ويخالف أمر ربه ونهيه ، فإنك إن فعلت ذلك وقعت

فى هاوية الخذلان والعصيان ، وهذا الخطاب من وادى قولهم (إياكِ أعنى واسمعى ياجاره) فالمراد بمثل هذا الخطاب جميع المكلفين كما تقدم غير مرة .

وخلاصة ذلك — لاتتبعوا سبل من كذب بالساعة وأقبل على لذاته فى دنياه وعصى أمر ربه واتبع هواه ، فإن من سلك سبيلهم خاب وخسر كما قال: « وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى » .

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) .

شرح المفردات

أتوكأ عليها : أعتمد عليها فى المشى والوقوف على رأس القطيع ونحو ذلك ، وأهش بها : أى أخبط بها ورق الشجر ، مآرب : أى منافع واحدها مأربة (مثلثة الراء) والحية : تطلق على الصغير والكبير والذكر والأنثى من هذا النوع ، والثعبان : العظيم من الحيات ، والجانّ : الصغير منها ، سيرتها الأولى : أى حالها الأولى وهى كونها عصا ، يقال لكل من كان على أمر فتركه وتحول عنه ثم راجعه : عاد فلان سيرته الأولى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مناجاته لموسى حين رأى النار التى فى الشجرة ، واختياره نبيا وإيحاءه إليه أن لا إله إلا هو ، وأمره بإقامة الصلاة لما فيها من ذكره ، وتخصيصه

بالعبادة دون سواه ، ثم إخباره بأن الساعة آتية لامحالة ليجزى المحسن بإحسانه ، والمسىء بما دسى به نفسه جزاء وفاقا .

قفى على ذلك بذكر البرهانات التى آتاها موسى دلالة على نبوته وتصديقا له على رسالته ، فبدأ بذكر العصا التى انقلبت حية تسعى حين ألقاها من يده ، وكان قد سأله عنها استجماعا لقلبه ، وتهدئة لروعه فى هذا المقام الرهيب ، وإعلاما بما سيكون لها بعد من عظيم الشأن وجليل المنافع والمزايا التى لم تكن تدور بخلده عليه السلام .

الإيضاح

(وما تلك بيمينك ياموسى) سأله سبحانه عما فى يده وهو العليم به ، ليبين له أنه سيجعل من تلك الخشبة التى ليس لها خطر كبير ولا منفعة عظيمة ـ جليل المزايا والفوائد التى لم تكن تخطر له على بال كانقلابها حية تسعى ، وضرب البحر بها حتى ينفلق ، وضرب الحجر حتى يتفجر منه الماء ، ولينبهه بهذا الطريق إلى كمال قدرته ، وبالغ عظمته ، إذ أظهر من أحقر الأشياء هذه المزايا الجليلة ـ على سنن الناس فى تخاطبهم إذا أراد أحدهم أن يظهر من الشىء الحقير شيئا شريفا ، أن يأخذه ويعرضه على النظارة ويقول لهم : ماهذا ؟ فيقولون هو كذا ، فيفيض فى شرح ماله من فائق المزايا وجليل المنافع التى لم تكن تدور بخلدهم ، ولم تخطر ببالهم ـ فأجابه موسى معددا ما لها من فوائد ومزايا على حسب ما وصلت إليه معرفة البشر .

(قال هى عصاى) وبهذا تم الجواب ، ولكن موسى ذكر مالها من فوائد ، إذ أحب مكالمة ربه فجعل ذلك كالوسيلة لهذا الغرض ، فبين لها فائدتين على سبيل التفصيل ، وواحدة على سبيل الإجمال فقال :

(١) (أتوكأ عليها) أى أعتمد عليها إذا مشيت أو تعبت أو وقفت على رأس القطيع من الغنم .

(٢) (وأهش بها على غنمى) أى أخبط ورق الشجر بها ليسقط على غنمى فتأكله .

(٣) (ولى فيها مآرب أخرى) أى ولى فيها مصالح ومنافع أخرى غير ذلك كحمل الزاد والسقى وطرد السباع عن الغنم ، وإذا شئت ألقيتها على عاتقى ، فعلقت بها قوسى وكنانتى ومخلاتى وثوبى ، وإذا وردت ماء قصر عنه رشائى وصلته بها .

وقد أجمل عليه السلام فى المآرب رجاء أن يسأله ربه عنها ، فيسمع كلامه مرة أخرى ويطول الحديث بهذا .

وبعد أن ذكر هذه الجوابات أمره الله بإلقائها لتتبين لها فوائد لم يعرفها موسى .

(قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حية تسعى) أى قال له ربه : ألقها يا موسى لترى من شأنها ما ترى ، فألقاها فإذا هى ثعبان عظيم ينتقل من مكان إلى آخر مسرعا وجاء تشبيهها بالجان وهو الصغير من الحيات فى قوله (فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ) لما ظهر لها من سرعة الحركة والقوة ، لا لصغرها .

ثم أمره ربه بأخذها وهى على تلك الحال دون خوف ولا ذعر .

(قال خذها ولا تخف) أى قال له ربه : خذها بيمينك ولا تخف منها .

وهذا الخوف مما تقتضيه الطبيعة البشرية حين مشاهدة الأمر الجلل الذى لا يعرف له نظير ولا يدرك له سبب ، ولا ينقص ذلك من جلالة قدره عليه السلام .

ثم علل النهى عن الخوف بقوله :

(سنعيدها سيرتها الأولى) أى سنرجعها إلى الحال التى كانت عليها من قبل وهى العصوية ، فأقدم على ذلك برباطة جأش وثبات وعزم دون تردد ولا ذعر .

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩)

هَارُونَ أَخِى (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى (٣٢)
كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا
بَصِيرًا (٣٥) .

شرح المفردات

الضم : الجمع ، وأصل الجناح للطائر ثم أطلق على اليد والعضد والجنب وهو المراد هنا ، والسوء : القبح فى كل شىء ، ويراد به هنا البرص والطباع تنفر منه ، وآية أخرى : أى معجزة ثانية غير العصا ، طغى : أى تجاوز الحد فى عتوه وتجبره ، أشرح لى صدرى : أى وسعه لتحمل أعباء الرسالة ، ويسر لى أمرى : أى سهل لى ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة ، واحلل عقدة من لسانى : أى أزل ذلك التعقد والحبسة التى فى لسانى لئلا يستخف بى الناس وينفروا منى ولا يستمعوا لكلامى ، يفقهوا قولى : أى يفهموه ، وزيرا : أى معينا ، والأزر : القوة ، يقال آزره أى قوّاه وأعانه ، وأشركه فى أمرى : أى اجعله شريكا لى فى النبوة والرسالة ، إنك كنت بنا بصيرا : أى عالما بأحوالنا لا نريد بالطاعة إلا رضاك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر المعجزة الأولى الدالة على نبوة موسى عليه السلام ، وعلى صدق رسالته وهى العصا وما صدر منها من الأفاعيل حين ألقاها من يده ، ثم عودتها سيرتها الأولى حين أخذها من الأرض — قفى على ذلك بذكر المعجزة الثانية التى آتاها إياه وهى معجزة اليد ، فإنه كان إذا وضع يده اليمنى إلى جنبه الأيسر تحت العضد ثم أخرجها أضاءت كشعاع الشمس تعشى البصر ، ثم بذكر أمره له بالذهاب إلى فرعون لتبليغ رسالة ربه ، ثم دعائه ربه أن يشرح له صدره ويسهل له أمره ، وأن يجعل له

أخاه هرون نبيا كى يشد أزره ويقوى على تبليغ الرسالة ، ويتعاونا على ذكر الله وعبادته .

الإيضاح

(واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء) أى أدخل يدك اليمنى من طوق مِدْرعتك (قميصك) واجعلها تحت الإبط اليسرى تخرج بيضاء لامعة من غير برص ولا عيب ، روى أن موسى كان إذا أدخل يده فى جيبه ثم أخرجها تتلألأ كأنها فلقة قمر ، قال الحسن البصرى : أخرجها والله كأنها مصباح ، فعلم أنه قد لقى ربه .

(آية أخرى) أى وهـذه علامة أخرى غير الآية التى أريناكها من قبلُ من تحويل العصا حية تسعى ـ تدل على صدقك فيما بعثناك به من الرسالة لمن بعثناك إليهم .

(لنريك من آياتنا الكبرى) أى افعل ذلك كى نريك بعض أدلتنا على عظيم سلطاننا وكامل قدرتنا وبديع تصرفنا فى ملكوت السموات والأرض .

وبعد أن أظهر له هذه الآيات أمره بالذهاب إلى فرعون المتكبر الجبار فقال :

(اذهب إلى فرعون إنه طغى) أى اذهب إليه بما رأيته من آياتنا الكبرى ، وادعه إلى عبادتى ، وحذره نقمتى ، فإنه قد تجاوز قدره وتمرد على ربه حتى تجاسر على دعوى الربوبية ، وقال : أنا ربكم الأعلى .

قال وهب بن منبه : قال الله لموسى : اسمع كلامى واحفظ وصيتى وانطلق برسالتى فإنك بعينى وسمعى ، وإن معك يدى ونصرى ، وإنى ألبستك جبة من سلطانى تستكمل بها القوة فى أمرك ، أبعثك إلى خلق ضعيف من خلقى ، بطر نعمتى ، وأمن مكرى ، وغرته الدنيا حتى جحد حقى ، وأنكر ربوبيتى ، أقسم بعزتى ، لولا الحجة التى وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار ، ولكن هان علىّ وسقط من

عينى ، فبلغه رسالتى ، وادعه إلى عبادتى ، وحذّره نقمتى ، وقل له قولا لينا ، لايغتر بلباس الدنيا ، فإن ناصيته بيدى ، لايطرف ولا يتنفس إلا بعلمى ، قال : فسكت موسى سبعة أيام لايتكلم حتى جاءه ملَك فقال : أجب ربك فيما أمرك ، فحينئذ .

(قال رب اشرح لى صدرى) أى رب وسع لى صدرى ، لأعى عنك ما تودعه فيه من وحيك ، وأجترئ به على خطاب فرعون ، فإنك قد كلفتنى أمرا عظيما لايحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح ، فقد بعثتنى إلى أعظم ملِك على وجه الأرض وأجبرهم وأشدهم كفرا وأكثرهم جندا وأعمرهم ملكا وأطغاهم وأبلغهم تمردا ، وقد بلغ من تمرده أنه لايعلم إلها غيره .

وخلاصة ذلك — اجعلنى رابط الجأش حتى لا أخاف سواك ، ولا أرهب غيرك حين تبليغ رسالتك ، وكن عونى ونصيرى ، وإلا فلا طاقة لى بذلك .

(ويسر لى أمرى) أى سهل علىّ القيام بما تكلفنى به من تبليغ الرسالة ، وتحمّلنى من الطاعة ، وأفض علىّ من القوة مابفى بالعمل على نشر الدين ، وإصلاح حال الخلق .

(واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) أى وأطلق لسانى بالنطق ليفهموا قولى حين تبليغ الرسالة ، وكان فى لسانه حُبْسة تمنعه من كثير من الكلام ، وقد روى أن الحسين رضى الله عنه كان فى لسانه رُتّة (حبسة) فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن هذه ورثها من عمه موسى .

ولما كان التعاون على نشر الدين مع خلوص الود قربة عظيمة لله ـ طلب موسى المعاونة على ذلك فقال :

(واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى) أى واجعل لى عونا من أهل بيتى هرون أخى ، ليحمل معى أعباء الرسالة ، ويكون ظهيرا لى عند الشدائد ، وحلول المكاره ، ولمثل هذا قال عيسى عليه السلام « مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن لى فى السماء وزيرين وفى الأرض وزيرين ، فاللذان فى السماء جبريل وميكائيل ، واللذان فى الأرض أبو بكر

وعمر » . وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أراد الله بملك خيرا قيض له وزيرا صالحا ، إن نسى ذكّره ، وإن نوى خيرا أعانه ، وإن أراد شرا كفه » . وقال أنو شروان : لايستغنى أجود السيوف عن الصقل ، ولا أكرم الدواب عن السوط ، ولا أعلم الملوك عن الوزير .

وقد اختص هرون بأمور منها :

(١) الفصاحة ؛ لقول موسى هو أفصح منى لساناً .

(٢) الرفق لقول هرون : يا ابن أمَّ لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى .

(٣) الوسامة والجمال وبياض اللون ، وكان موسى آدم اللون أقنى جعدا .

روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها خرجت تعتمر فنزلت ببعض الأعراب فسمعت رجلا يقول : أىّ أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه ؟ قالوا لاندرى . قال : أنا والله أدرى ، قالت فقلت فى نفسى ، فى حلفه لايستثنى ، إنه ليعلم أى أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه ؟ قال موسى حين سأل لأخيه النبوة ، فقلت صدق والله .

ثم طلب موسى من ربه أن يشد به أزره فقال :

(اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى) أى أحكم به قوتى ، واجعله شريكى فى أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها على الوجه الذى يؤدى إلى أحسن الغايات ، ويوصل إلى الغرض على أجمل السبل .

ثم حكى عنه سبحانه ما لأجله دعا بهذا الدعاء فقال :

(كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا) أى لكى ننزهك عما لايليق بك من الصفات والأفعال التى من بينها مايدعيه فرعون الطاغية، وفئته الباغية من الألوهية له ونذكرك وحدك ابتغاء مرضاتك ، دون أن نشرك معك غيرك أثناء أداء الرسالة ، ودعوة المردة الطغاة إلى الحق .

ولا شك أن التعاون فى الدعوة أنجع فى الوصول إلى المقصد من الانفراد ، فكل

من النبيّين يصدر عنه بتأييد الآخر من إظهار الحق ما لا يصدر عنه مثله فى حال الانفراد .

(إنك كنت بنا بصيرا) أى عليما بأحوالنا ، وأن ما طلبناه مما يفيدنا فى تحقيق ما كلفتنا به من إقامة مراسم الرسالة على أتم الوجوه وأكملها ، فإن هرون نعم العون على أداء ما أمرت به من نشر معالم الدين وكبح جماح المضلين ، وإرشادهم إلى حق اليقين .

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِى وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى (٣٩) إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى (٤١) .

شرح المفردات

السؤل : بمعنى المسئول : أى المطلوب كالخبز بمعنى المخبوز ، مننا : أى أنعمنا ، مرة أخرى : أى فى وقت آخر غير هذا الوقت ، أوحينا : أى ألهمنا كما جاء فى قوله « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » وقوله « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى » اقذفيه : أى ألقيه واطرحيه ، واليمّ : البحر . والمراد به هنا نهر النيل ، والساحل : الشاطىء ، ولتصنع على عينى : أى ولتربى وتغذى بمرأى منى وأنا مراعيك ومراقبك كما يرعى الرجل الشىء بعينيه دلالة على عنايته به ، يكفله :

أى يضمه إلى نفسه ، تقر عينها : أى تسر ، والغم : الكدر الناشئ من خوف شىء أو فوات مقصود ، والفتون : الابتلاء والاختبار بالوقوع فى المحن ثم تخليصه منها ، لبثت : أى أقمت ، مدين : بلد بالشام .

المعنى الجملى

اعلم أن موسى عليه السلام لما سأل ربه أمورا ثمانية وكان قيامه بما كلف به لايتم على الطريق المرضىّ إلا إذا أجابه إليها ـ لاجرم أجابه الله تعالى إلى ماطلب ، ليكون أقدر على الإبلاغ على الوجه الذى كلف به ، ثم ذكره بنعمه السالفة حين كانت أمه ترضعه وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه ، فألهمها أن تصنع تابوتا وتضعه فيه وتلقيه فى النيل ففعلت ، فألقاه النيل فى الساحل ، فالتقطه آل فرعون وربوه فى منزلهم ، وألقى الله محبة فى قلوبهم له وصار كأنه ابنهم ، ثم ذكره بنجاته من القصاص حين قتل المصرى وهرب إلى مدين .

الإيضاح

(قال قد أوتيت سؤلك ياموسى) أى قال الله تعالى لموسى : قد أعطيتك جميع ما سألتنى عنه من شرح صدرك ، وتيسير أمرك ، وحل عقدة لسانك ، وجعل أخيك هرون وزيرا لك وشد أزرك به وإشراكه فى الرسالة معك .

(ولقد مننا عليك مرة أخرى) أى ولقد تفضلنا عليك من قبل بنعم كثيرة ، ومن راعى مصلحتك قبل سؤلك ، وأعطاك ماترجو ، أفيمنع عنك ماتريد بعد سؤالك؟ ومن رقى بك إلى مراتب الكمال، وصعد بك إلى أوج المعالى، وسما بك إلى درجات الرفعة ، ووكل إليك ذلك المنصب الخطير ، أفيليق به وهو الجواد الكريم أن يحجز عنك ماتؤمل مما أنت فى شديد الحاجة إليه لتبليغ رسالته ؟ .

وفى التعبير عن تلك النعم بالمنن إيماء إلى أنها إنما وصلت إليه بمحض التفضل والإحسان .

وقد عد سبحانه من تلك النعم ثمانيا فقال :

(١) (إذ أوحينا إلى أمك مايوحى. أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدوّ لى وعدو له) أى واذكر حين ألهمنا أمك وأوقعنا فى قلبها عزيمة صادقة أن أمثل الطرق لخلاصك من فرعون وجبروته ، أن تضعك فى تابوت - صندوق - ثم تطرح هذا التابوت فى نهر النيل ، ففعلت فألقاك النهر فى الساحل ، فأخذك فرعون عدو الله ورباك فى بيته ، وسيصير عدوا لك بعد ذلك كما هو عدو لى.

روى أنها جعلت فى التابوت قطنا محلوجا ووضعته فيه ، وطلت ظاهره بالجص والقار ثم ألقته فى اليم ، وكان يشرع منه (يتفرع) نهر كبير إلى بستان فرعون ، فبينا هو جالس إلى رأس بركة مع زوجه إذا بتابوت يجرى به الماء ، فأمر فرعون غلمانه وجواريه بإخراجه ففعلوا وفتحوا رأسه فإذا صبى من أصبح الناس وجها فأحبه فرعون حبا شديدا لم يتمالك أن يصبر عنه .

(٢) (وألقيت عليك محبة منى) أى ألقيت عليك محبة خالصة منى قد ركزتها فى القلوب وزرعتها فيها ، ومن ثم أحبك فرعون وزوجه حتى قالت « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَتَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » .

(٣) (ولتصنع على عينى) أى ولتربى برعايتى ، فأنا مراقبك وحافظك ، كما يراعى الرجل الشىء بعينيه إذا أراد شدة العناية به ، يقول الرجل للصانع : اصنع هذا على عينى انظر إليه حتى يأتى على وفق ما أحب وأبغى .

(٤) (إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله ؟ فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن) أى وألقيت عليك محبة منى حين تمشى أختك تتبعك متعرفة حتى وجدتك وصادفتهم يطلبون لك مرضعا تقبل ثديها ، حتى اضطروا إلى تتبع النساء ، فلما رأت ذلك منهم جاءت إليهم متنكرة وقالت هل أدلكم على من يضمه إليه ويحفظه ويربيه ؟ فجاءت بالأم فقبل ثديها ورجع إليها بما لطف الله له من التدبير ، وقرت عينها بسلامته ، وزال عنها الحزن والغم الذى كان قد ألمّ بها .

(٥) (وقتلت نفسا فنجيناك من الغم) أى وقتلت بعد كبرك القبطى الذى وكزته حين استغاث بك الإسرائيلى ، فنجيناك من الغم الذى نزل بك من وجهين :

(ا) عقاب الدنيا وهو اقتصاص فرعون كما جاء فى الآية « فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » .

(ب) عقابنا إذ قتلته بغير أمرنا فغفرنا لك ذنبك حين قلت : « رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي » ووفقناك للهجرة إلى مدين .

(٦) (وفتناك فتونا) أى أوقعناك فى محنة بعد محنة وتفضلنا عليك بالخلاص منها ، فمن ذلك :

(ا) إن أمك حملت بك فى السنة التى كان فرعون يذبح فيها الأبناء ، فنجاك الله من الذبح .

(ب) إن أمك ألقتك فى البحر بعد وضعك فى التابوت فالتقطك آل فرعون وعنوا بتربيتك ورعايتك .

(ح) إنك امتنعت عن الرضاع إلا من ثدى أمك وكان ذلك وسيلة إلى إرجاعك إليها .

(ء) إنك أخذت بلحية فرعون فغضب من ذلك وأراد قتلك لولا أن قالت له زوجه : إنه صغير لا يفرق بين الجمرة والتمرة وأتى لك بهما فأخذت الجمرة .

(ه) قتلك القبطى وخروجك إلى مدين هاربا .

(٧) (فلبثت سنين فى أهل مدين) قاسيت أثناءها من المحن ما قاسيت ، وتحملت بسبب الفقر والغربة آلاما كثيرة حتى احتجت إلى أن تؤاجر نفسك لشعيب وترعى غنمه .

(ثم جئت على قدر ياموسى) أى ثم جئت على وفق الوقت الذى سبق فى قضائى وقدرى أن أكلمك فيه وأن أجعلك رسولا دون تقدم ولا تأخر عنه ، ولولا توفيق الله لما تهيأ لك شىء من ذلك .

(٨) (واصطنعتك لنفسى) أى اخترتك لإقامة حجتى ، وجعلتك واسطة بينى و بين خلقى فى تبليغ الدين وهدايتهم إلى التوحيد والشرع القويم الذى به صلاح البشر فى دينهم ودنياهم .

وخلاصة ذلك — إنى جعلتك من خواصى واصطفيتك برسالاتى و بكلامى ، فصرت بما آتيتك من كرامة النبوة وجليل النعمة بالمكالمة أشبه بمن يراه الملك أهلا لكرامته فيقر به إليه و يجعله من خواصه وندمائه و يصطنعه بالإحسان إليه فى الحين بعد الحين والفَيْنة بعد الفينة .

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)

شرح المفردات

الآيات : هى المعجزات ، والمراد بها العصا واليد البيضاء ، فإن فرعون حين قال له: فأت بآية ألقى العصا ونزع اليد وقال فذانك برهانان من ربك ، ولا تنيا: أى لاتفترا ولا تقصرا ، فى ذكرى : أى فى تبليغ رسالتى ، فالذكر يطلق على كل العبادات ، وتبليغ الرسالة من أعظمها ، طغى : أى تجاوز الحد ، قولا لينا : أى لاعنف فيه ولا غلظة ، يتذكر : أى يتأمل فيذعن للحق ويؤمن ، يخشى . أى يخاف من بطش الله وعذابه ، يفرط : أى يعجل بالعقوبة، من قولهم فرس فارط إذا كان سباقا للخيل،

يطغى : أى يزداد طغيانا ، أسمع وأرى : أى أسمع وأرى ما يجرى بينكما من قول أو فعل ، فأتياه : أى فقابلاه وجها لوجه ، فأرسل معنا بنى إسرائيل : أى أطلقهم من الأسر ، ولا تعذبهم : أى ولا تبقهم على ماهم عليه من العذاب والتسخير فى شاقّ الأعمال ، والسلام على من اتبع الهدى : أى والسلامة من العذاب فى الدارين لمن صدق بآيات الله الهادية إلى الحق ، تولى : أى أعرض .

المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه المنن الثمانية بإزاء ما طلبه موسى من المطالب الثمان ـ شرع يذكر الأوامر والنواهى التى طلب إليه أن يقوم بتنفيذها ويؤدى الرسالة على النهج الذى أمره به .

الإيضاح

(اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى) أى اذهب أنت وأخوك إلى فرعون وقومه ، وإنى ممدكما بحججى وبرهاناتى الدالة على صدق نبوتكما ، وأظهر على أيديكما من الآيات ما تزاح به العلل والمعاذير ، ولا تفترا فى دعوتهم وتبليغ الرسالة إليهم ، فبيِّنا لهم أن الله أرسلكما إليهم مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه .

(اذهبا إلى فرعون إنه طغى) أى اذهبا معا إلى فرعون وناضلاه الحجة بالحجة وقارعاه البرهان بالبرهان ، لأنه طغى وتجبر وتمرد حتى ادعى الربوبيـة فقال أنا ربكم الأعلى .

وتخصيص فرعون بالدعوة آخرا بعد أن كانت الدعوة عامة أوّلا ، من قِبَل أنه إذا صادفت الدعوة من فرعون أذنا صاغية ، واستجاب لدعوتهما وآمن بهما تبعه المصريون قاطبة كما قيل : الناس على دين ملوكهم .

ثم بين لهما سبيل الدعوة فقال :

(فقولا له قولا لينا) أى فكلماه بكلام رقيق لين ليكون أوقع فى نفسه وأنجع فى استجابته للدعوة ، فبرقيق القول تلين قلوب العصاة ، وتنكسر سَوْرة الطغاة ، ومن ثم جاء الأمر به لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » .

ومن هذا ما حكى الله بعضه عن موسى فى قوله لفرعون : « هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى » وقوله له: «وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى».

ثم علل الأمر بإلانة القول بقوله :

(لعله يتذكر أو يخشى) تقدم أن قلنا إن لعل فى مثل هـذا لتوقع حصول ما بعدها : أى أديا الرسالة ، وقوما بتنفيذ ما دعوتكما إليه ، واسعيا إلى إنجازه سعى من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ، ولا يخيب سعيه ، فهو يجتهد قدر استطاعته ، ويحدّثد بأقصى وسعه آملا أن تكلل أعماله بالنجاح والفوز والفلاح .

وقصارى ذلك — اصدعا بالأمر وأنتما طامعان أن أعمالكما ستثمر ، وأنكما ستهديانه إلى سواء السبيل ؛ وقد جرت العادة أن من رجا شيئا طلبه ، ومن يئس انقطع عمله ، والمقصد من ذلك إلزامه الحجة ، وقطع المعذرة ، وإن لم يفد هدايته .

(قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) أى قال موسى وهرون : ربنا إننا نخاف فرعون إن نحن دعوناه إلى ما أمرتنا أن ندعوه إليه ، أن يعجل علينا بالعقوبة ، ولا يصبر إلى إتمام الدعوة وإظهار المعجزة ، أو يزداد طغيانا فيقول فى شأنك ما لا ينبغى ، لعظيم جرأته ، وقساوة قلبه ، وفجوره وشديد عصيانه .

(قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى) أى قال الله لهما : لا تخافا فرعون إنى معكما بالنصرة والتأييد والحفظ من غوائله ، وإنى أسمع وأرى ما يجرى بينكما وبينه من قول أو فعل وأحدث فى كل حال ما يصرف شره عنكما .

والخلاصة — لست بغافل عنكما ، وإنى سأفعل ما يؤدى إلى حفظكم ونصركم عليه ، فلا تأبها به ، ولا تهتما بأمره .

(فأتياه فقولا إنا رسولا ربك) أى فقابلاه وقولا له : إن الله أرسلنا إليك ـ وقد أمرا بتبليغه ذلك من أول وهلة ، ليعرف لهما حقهما ، ويفكر فيما يقابلهما به من الرد على ما ادعيا .

وفى التعبير بقولهما (ربك) إيماء إلى أن ما ادعيته من الربوبية لنفسك ، مما لا ينبغى أن يلتفت إليه ، ولا أن ينظر إليه نظرة الاعتبار والصدق .

(فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم) أى فأطلق بنى إسرائيل من الأسر ، ولا تعذبهم بتسخيرك إياهم فى شاقّ الأعمال كالحفر والبناء ونقل الأحجار ، وقد كان المصريون يستخدمونهم هم ونساءهم فى تلك الأعمال .

وإنما بدأ بهذا الطلب دون دعوة هذا الطاغية وقومه إلى الإيمان ، لأنه أخف وأسهل من ذلك ، لما فيه من تبديل الاعتقاد وهو عسر شاقّ على النفس .

ثم ذكرا ما يوجب امتثال أمرهما ، ويؤكد دعوى رسالتهما بقولهما .

(قد جئناك بآية من ربك) أى قد جئناك بالحجة البالغة والبرهان الساطع على أنه أرسلنا إليك ، وإن لم تصدقنا فيما نقول أريناكها .

(والسلام على من اتبع الهدى) أى والسلامة والأمن من العذاب فى الدنيا والآخرة لمن اتبع رسل ربه ، واهتدى بآياته التى ترشد إلى الحق وتنيل البغية ، وتبعد عن الغى والضلال .

قال الزجاج : أى من اتبع الهدى سلم من سخط الله وعذابه ، وليس بتحية ، والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب اهـ .

ويمثل هذا كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هِرَقْل ملك الروم قال : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ؛ فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين .

وفى هذا ترغيب فى التصديق على أتم وجوهه ، وتنفير من مخالفته ، وصد عنها على أقصى غاية كما لا يخفى .

ثم ذكرا علة لما سبق لهما من النصح والإرشاد بقولهما .

(إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) أى إنا قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا أن عذابه الذى لانفاد له ولا انقطاع فى الدنيا والآخرة ، على من كذب بما ندعو إليه من توحيد الله وطاعته و إجابة رسله ، وأدبر معرضا عما جئناه به من الحق .

وجاء بمعنى الآية قوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ طَغَى . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى » وقوله : « فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى . لاَيَصْلاَهَا إِلاَّ الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى » وقوله : « فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى وَلٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى » .

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) .

شرح المفردات

أعطى كل شىء خلقه : أى أعطى كل نوع صورته وشكله الذى يشا كل ما نيط به من الخواص والمنافع ، ثم هدى : أى ثم عرّفه كيف يرتفق بما أعطى له ، البال : الفكر ؛ يقال خطر ببالى كذا، ثم أطلق على الحال التى يعتنى بها وهو المراد هنا

فى كتاب : أى دفتر مقيد فيه؛ والمراد بذلك كمال علمه الذى لايضيع منه شىء ، ضل الشىء : أخطأه ولم يهتد إليه ، ونسيه : ذهب عنه ولم يخطر بباله ، والمهد : ما يمهد للصبى ويفرش له : أى جعل الأرض كالمهد ، وسلك : أى سهل ، والسبل : واحدها سبيل : أى طريق ، أزواجا : أى أصنافا ، شتى : واحدها شتيت كمريض ومرضى : أى مختلفة النفع والطعم واللون والشكل ، لآيات : أى لدلالات ، والنهى واحدها نهية ، (بالضم) العقل سمى به لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح .

المعنى الجملى

اعلم أن موسى وهرون عليهما السلام سارعا إلى الامتثال وجاءا فرعون وأبلغاه ما أمرا به ، فسألهما سؤال الإنكار والجحد للصانع الخالق لكل شىء وربه ومليكه ، ودار بينهما من الحوار ما قصه الله علينا .

روى عن ابن عباس أنهما لما جاءا إلى بابه أقاما حينا لايؤذن لهما ، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد ، فدخلا وكان من الحوار ما أخبرنا الله به .

الإيضاح

(قال فمن ربكما يا موسى) أى إذا كنتما رسولى ربكما الذى أرسلكما فأخبرانى من ربكما الذى أرسلكما ؟ .

وإنما خص موسى بالنداء مع توجيه الخطاب إليهما ، لما ظهر له أنه هو الأصل وهرون وزيره .

فأجاب موسى عن سؤاله :

(قالا ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه) أى ربنا الذى أعطى كل شىء ما يليق به مما قدر له من الخواص والمزايا ، فأعطى العين الوضع الذى يطابق ما يراد بها من الإبصار ، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع ، وهكذا الأنف واليد والرجل وجميع أعضاء الجسم .

(ثم هدى) أى ثم أرشده كيف ينتفع بما أعطاه و يرتفق به ، وكيف يصل بذلك إلى بقائه وكماله إما اختيارا كما فى الحيوان و إما طبعا كما فى النبات والجماد .

وخلاصة هذا — ربنا الذى خلق كل شىء على الوجه الذى يليق بما قدر له من المنافع والخواص ، وأرشده كيف ينتفع بما خلق له ، وجعل ذلك دليلا على وجوده ، وعظيم جوده ، وكأنه يقول له : إن ذلك الخالق والهادى هو الله .

و بعد أن أخبر موسى فرعون بأن ربه الذى أرسله هو الذى خلق ورزق وقدر ـ شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى الذين لم يعبدوا هذا الإله ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(قال فما بال القرون الأولى ؟) أى فما حال القرون الماضية كعاد وثمود الذين لم يعبدوا الله بل عبدوا غيره ؟ .

فأجاب موسى :

(قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى) أى إن ذلك من علوم الغيب التى لايعلمها إلا الله ، فهو الذى ضبط أعمالهم وأحصاها فى كتاب لايشذ عنه شىء ولا يفوته شىء لاكبير ولا صغير ، ولاينسى شيئا ، وسيجزيهم بما عملوا جزاء وفاقا .

وقصارى ذلك — إن علمه تعالى محيط بكل شىء ، وأنه لاينسى شيئا تبارك وتعالى ، فعلمه ليس كعلم المخلوقين الذى يعتريه النقص من وجهين : عدم الإحاطة بالأشياء ، ونسيانها بعد علمها .

و إنما سأل فرعونُ هذا السؤال لخوفه أن يزيد موسى فى إظهار تلك الحجة فيستبين للناس صدقه ، فأراد صرفه عن ذلك ، وشغله بالقصص والحكايات التى لاتعلق لها بشئون رسالته ، لكن موسى كان أحرص من أن يهتم بمثل هذا ، ومن ثم أوجز فى رده ، ووكل أمر ذلك إلى ربه .

وإجمال سؤاله — إنه إذا كان الأمر كما ذكرت فقصل لنا حال الماضين من سعادة وشقاء، فرد عليه السلام عليه بأن علم ذلك إلى الله.

ثم عاد إلى تتميم كلامه الأول بإبراز الدلائل على الوحدانية فقال:

(الذى جعل لكم الأرض مهدا) أى ربى الذى لا يضل ولا ينسى هو الذى جعل لكم الأرض كالمهاد تتمهدونها وتستقرون عليها، فتقومون وتنامون وتسافرون على ظهرها.

(وسلك لكم فيها سبلا) أى وجعل لكم فيها طرقا بين الجبال والأودية تمشون فى مناكبها وتسلكونها من قطر إلى قطر لتقضوا مآربكم، وتنتفعوا بمرافقها.

ونحو الآية قوله: « وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ».

(وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) أى وأنزل من السماء مطرا فأخرج به مختلف أنواع النبات من زروع وثمار حامضة وحلوة؛ وهى أيضا مختلفة النفع واللون والرائحة والشكل، بعضها يصلح للإنسان، وبعضها يصلح للحيوان؛ وفى هذا بيان لنعمه على خلقه بما يحدث لهم من الغيث الذى يولد تلك المنافع.

(كلوا وارعوا أنعامكم) أى فأخرجنا أصناف النبات قائلين لكم كلوا وارعوا أنعامكم الخ. فشىء منها أعد لطعامكم وفاكهتكم، وشىء أعد لأنعامكم قوتا لها أخضر ويابسا.

(إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) أى إن فيما وصفت لكم من قدرة ربكم وعظيم سلطانه — لأدلة على وحدانيته وأنه لا إله غيره إذا كنتم من ذوى العقول الراجحة، والأفكار الثاقبة.

ولما ذكر سبحانه منافع الأرض والسماء بين أنها غير مقصودة لذاتها، بل هى وسائل إلى منافع الآخرة فقال:

(منها خلقناكم) أى من الأرض خلقنا النطفة المتولدة من الأغذية التى تتكون

منها بوسائط ، إذ الغذاء إما حيوانى و إما نباتى ، والحيوانى ينتهى إلى نباتى ، والنبات إنما يحدث من امتزاج الماء بالتراب .

(وفيها نعيدكم) أى وفى الأرض نعيدكم بعد مماتكم فتصيرون ترابا كما كنتم قبل نشأتكم .

(ومنها نخرجكم تارة أخرى) أى وسنخرجكم منها بعد مماتكم مرة أخرى بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ، ثم نرد الأرواح من مقرها إليها .

وجاء بمعنى الآية قوله : « فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ » وقوله: « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً » وفى الحديث «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حضر جنازة ، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر وقال : منها خلقناكم ، ثم أخذ أخرى وقال وفيها نعيدكم ، ثم أخرى وقال : ومنها نخرجكم تارة أخرى» ، وأخرج أحمد والحاكم عن أبى أمامة قال: «لما وضعت أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، بسم الله وفى سبيل الله وعلى ملة رسول الله » .

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) .

شرح المفردات

أبى امتنع ، موعد : أى ميعادا معينا ، سوى : أى مستويا لا جبل فيه ولا وهاد بحيث يستر النظارة ، يوم الزينة : يوم عيد كان لهم ، يحشر الناس : أى يجمعون ، والضحى : وقت ارتفاع النهار .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه سؤال فرعون عن رب موسى - قفى على ذلك ببيان أنه بصره بالآيات الدالة على توحيد الله كقوله: ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، وقوله: الذى جعل لكم الأرض مهدا ، والدالة على نبوته كإلقاء العصا وصيرورتها ثعبانا ونزع يده من تحت جناحه فتخرج بيضاء من غير سوء ، فعلم كل هـذا وكذب به كفرا وعنادا كما قال : « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » الآية .

الإيضاح

(ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) أى ولقد بصرنا فرعون وعرّفناه آياتنا الدالة على قدرتنا وعلى نبوة موسى فكذب بها وأبى أن يذعن للحق ، وقد يكون المراد بها الآيات التسع المذكورة فى قوله : «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ».

ثم فصل سبحانه صفة تكذيبه و إبائه فقال :

(قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟) أى قال منكرا مستقبحا لما فعل موسى : أجئتنا من مكانك الذى كنت فيه بعد ماغبت عنا ، لتخرجنا من مصر بما أظهرته من السحر ؟ إذ تستولى على عقول الناس فيتبعونك وتكاثرنا بهم .

وخلاصة ما قال — أجئت ياموسى لتوهم الناس بأنك نبى يجب عليهم اتباعك والإيمان بما جئت به إلى أن تغلب على أرضنا وتخرجنا منها و يكون لك الملك فيها، و إنما قال تلك المقالة ليحمل قومه على السخط على موسى والغضب منه ، بإظهار أن مراده ليس مجرد إنجاء بنى إسرائيل من أيديهم ، بل مقصوده إخراج القبط من أوطانهم وحيازة أموالهم وأملاكهم جملة ، وبذا يسد عليه الباب فلا يتوجه أحد إلى اتباع دعوته مبالغة فى المدافعة عن بلادهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ولا ينظرونه إلى معجزاته ولا يلتفتون إلى مايدعو إليه من الخير ، ثم ادعى أنه سيعارضه بمثل عمله فقال :

(فلنأتينك بسحر مثله) أى فو الله لنأتينك بسحر مثل سحرك ، فإن عندنا مثل ماعندك ، فلا يغرنّك ما أنت فاعل .

(فاجعل بيننا و بينك موعدا لانخلفه نحن ولا أنت) أى فاجعل بيننا و بينك ميقاتا وموعدا نجتمع نحن وأنتم فيه فنعارض ماجئت به بما عندنا من السحر .

و إنما قال تلك المقالة ليبين أنه قوى القلب جَلْدٌ متمكن من تهيئة وسائل المعارضة ، وترتيب أسباب المغالبة ، طال الأمد أو قصر .

(مكانا سوى) أى و يكون الاجتماع فى مكان مستو من الأرض لاانخفاض فيه ولا ارتفاع ، فلا جبال ولا وهاد تستر بعض الحاضرين عن بعض .

وقصارى ذلك — عين لنا زمان المقابلة ومكانها على ألا يكون فيه مايستر أحدا من الناس عن أحد ليروا ما يصدر منك ومن السحرة .

وغير خاف مافى ذلك من إظهار الجلد وقوة الوثوق بالغلبة .

ثم ذكر رد موسى على ماطلب فقال :

(قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) أى قال موسى : ميعادكم للاجتماع يوم عيد النيروز وكان رأس سنتهم حين يفرغ الناس من أعمالهم ويجتمعون ، ليكون الحفل عاما ويتحدث الناس بذلك الأمر العجيب فى القرى والأمصار ، فتعلو كلمة الله ويظهر دينه ويزهق الباطل وينتصر الحق على رءوس الأشهاد .

وفى ذلك من وضوح الحجة مالا خفاء فيه ، ومن وثوقه بفلجه على خصمه ، وعدم مبالاته به .

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ

يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤)

شرح المفردات

فتولى فرعون : أى انصرف عن المجلس ، كيده : أى مايكيد به من السحرة وأدواتهم ، أتى : أى أتى الموعد ومعه ماجمعه من الأعوان والسحرة ، ويلكم : أى هلاك لكم ، والافتراء : الاختلاق والكذب ، فيسحتكم بعذاب : أى يستأصلكم ويهلككم بعذاب شديد ، فتنازعوا : أى تفاوضوا وتشاوروا ، وأسروا النجوى : أى بالغوا فى إخفاء كلامهم ، بطريقتكم المثلى : أى بمذهبكم الذى أنتم عليه وهو أفضل المذاهب وأمثلها ، فأجمعوا كيدكم : أى اجعلوا كيدكم مجمعا عليه ، صفا : أى مصطفين، لأنه أهيب للصدور ، أفلح : أى فاز بالمطلوب ، استعلى : أى غلب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن موسى وفرعون اتفقا على موعد يجتمعان فيه وهو يوم عيد لهم - أردف ذلك بذكر مادبره فرعون بعد انصرافه عن المجلس من أمر السحرة وآلات السحر ، وأتى بجميع ذلك ، ثم ذكر أن موسى أوعدهم وحذرهم من عذاب لاقبل لهم به إن أقدموا على ماهم عازمون عليه ، ثم بين أن السحرة حين سمعوا كلام موسى تنازعوا أمرهم وتشاوروا ماذا يفعلون ، وبالغوا فى إخفاء مايريدون ، وقالوا ماموسى وهرون إلا ساحران يريدان أن يغلباكم ويخرجاكم من دياركم ويرجوان أن تتركا دينكم وهو أمثل الأديان وأفضلها ، لتعتنقوا دينهما ، فحذارِ أن تفعلوا ذلك ولا يتخلفنّ منكم أحد وائتوا صفا واحدا وقد فاز بالمطلوب من غلب .

الإيضاح

(فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى) أى فانصرف عن مجلس الحجاج والمناظرة، وشرع يُعِدّ مايكيد به من السحرة وآلاتهم وأنصاره وأعوانه، وكثير ماهم، ثم أقبل فى الموعد الذى عين ومعه جمعه، وجلس على سرير ملكه وحوله أكابر دولته، واصطفت الرعية يَمْنة ويَسْرة، وأقبل موسى يتوكأ على عصاه ومعه أخوه هرون، ووقف السحرة صفوفا بين يدى فرعون يحرضهم ويستحثهم ويرغبهم فى جودة العمل ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم، وقد جاء فى سورة الشعراء: « قَالُوا أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » .

ثم ذكر سبحانه ما كان من موسى حينئذ فقال :

(قال لهم موسى لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب) أى قال موسى للسحرة : لاتختلقوا الكذب على الله ولا تتقولوه عليه، بأن تدّعوا أن الآيات التى ستظهر على يدىّ سحر كما فعل فرعون، فيستأصلكم بعذاب من عنده، ولا يبقى منكم ولا يذر .

(وقد خاب من افترى) على الله الكذب ولم يفلح فى سعيه ولم يصل إلى غرضه، فابتعدوا عن اختلاق الأكاذيب، ولا تضلوا سواء السبيل، حتى لايصيبكم ما أصاب المفترين الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

ولما سمع السحرة كلام موسى وهرون هاجهم ذلك .

(فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى) أى فتشاوروا وتفاوضوا ماذا يفعلون، وبالغوا فى كتمان مايقولون عن موسى وأخيه حتى لايسمعا مايدور من القول، فيعدّا للأمر عُدته، ويُهيئا وسائل الدفاع، ومن الطبعى فى مثل هذه الأحوال أن يُخفى أحد المتخاصمين كل مايدبره من وسائل الفوز والفلَج عن خصمه الآخر .

ثم بين سبحانه خلاصة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور بقوله :

(قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) أى إن السحرة قالوا فيما بينهم : إن هـذا الرجل وأخاه ساحران خبيران بصناعة السحر ، وهما يريدان أن يغلباكم وقومكم ويخرجاكم من دياركم وتخلص لهم الرياسة دونكم .

وخلاصة ما قالوه التنفير منهما لوجوه ثلاثة :

(١) الطعن فى نبوتهما ونسبتهما إلى السحر ، وكل ذى طبع سليم ينفر من السحر ويبغض السحرة ويعلم أن السحر لابقاء له ، ولا ينبغى اتباع من جاء به ولا اعتناق مذهبه وطريقته .

(٢) إنّ بغيتهما إخراجكم من أرضكم ، ومفارقة الوطن شديدة الوطأة على النفوس ومن ثم قال فرعون : « أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى » .

(٣) إنهما يريدان أن يستوليا على جميع المناصب والرياسات ، ولا يبقيا شيئا من شئون الدولة والتصرف فى أمورها العامة . وإجمال هذا ـ إنهما إذا تم لهما الأمر أخرجاكم من دياركم ، وتمحضت لهما الرياسة دونكم .

ثم بين السحرة مايجب لمقابلة هذا الخطر الداهم والبلاء المقبل فقالوا :

(فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا) أى لاتدعوا شيئا من كيدكم إلا جئتم به كما جاء فى آية أخرى « فَجَمَعَ كَيْدَهُ » ثم ائتوا مصطفين مجتمعين ، وألقوا مافى أيديكم دفعة واحدة لتبهروا الأبصار وتعظم هيبتكم لدى النظّارة فى هذا المشهد الحافل .

(وقد أفلح اليوم من استعلى) أى وقد فاز بالمطلوب من غلب منا ، أما نحن فقد وعدنا بالعطاء الجزيل والقرب من الملك : « قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » وأما هو فسينال الرياسة ، وما مقصدهم من ذلك إلا تشديد العزائم وحفز الهمم ، ليبذلوا أقصى الجهد للفوز والفلج بالمطلوب .

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ
بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦)
فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨)
وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ
السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ
وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي
عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ
فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ
عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي
هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ
مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ
لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ
فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)

شرح المفردات

إيجاس الخوف : الإحساس بشيء منه ، ما في يمينك : هي العصا ؛ وأبهمها تفخيما لشأنها ، وتلقف : تبتلع بقوة وسرعة ، صنعوا : أي زوّروا وافتعلوا ؛ كيد ساحر : أي كيد سحرىّ لاحقيقة له ولا ثبات ، حيث أتى : أي أينما كان ، كبيركم : أي

زعيمكم ومعلمكم. قال الكسائى: الصبى بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال جئت من عند كبيرى ، من خلاف : أى من حال مختلفة فتقطع الأيدى اليمنى والأرجل اليسرى، أشد عذابا : أى أدوم ، نؤثرك : أى نفضلك ونختارك ، فطرنا : أى ابتدعنا وأوجدنا من العدم ، فاقض : أى فاحكم ، جنات عدن : أى جنات أعدت للإقامة ، من تحتها : أى من تحت غرفها ، تزكى : أى تطهر من أدناس الكفر وأرجاس المعاصى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الموعد وهو يوم الزينة ، وذكر أنهم قالوا ائتوا صفا ـ ذكر هنا أنهم بعد أن أتوا خيروه بين أن يبدأ بإلقاء ما معه ، وأن يبدءوا هم ، فاختار الثانية ، وحين بدءوا فألقوا حبالهم وعصيهم خاف موسى عاقبة أمره ، فأوحى إليه ربه « لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ » فسيكون لك الفلج والظفر عليهم ، وقد تحقق ما وعد الله به ، وكتب له النصر وآمن به السحرة ، فلجأ فرعون إلى العناد والاستكبار ، وتوعد السحرة بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسيصلبهم فى جذوع النخل ، فقابلوا تهديده بالازدراء والسخرية ، وقالوا إنما أنت مسلط علينا فى هذه الحياة الدنيا ، وعذابك لا يعدوها ، وما عند الله من العذاب لا يضارعه عذاب ، وما عنده من الثواب لا يقدر قدره ، ففى جناته التى تجرى من تحتها الأنهار ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

الإيضاح

(قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى) أى فأجمع السحرة كيدهم ثم أتوا صفا فقالوا لموسى : اختر لك أحد الأمرين ، إما أن تلقى ما معك ، وإما أن نلقى ما معنا .

وهذا التخيير منهم حسن أدب معه وتواضع منهم وتنبيه إلى إعطائه النصفة

من أنفسهم ، وكأن الله ألهمهم ذلك وعلَّم موسى أن من الخير له اختيار إلقائهم أولا ، لأنهم إذا أبرزوا ما معهم من مكايد السحر واستنفدوا أقصى مجهودهم، أظهر الله سلطانه وقذف بالحق على الباطل فدمغه ، وسلط المعجزة على السحر فمحقته ، وكانت آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين ، ومن ثم قال :

(قال بل ألقوا) أى بل ألقوا أنتم أوّلا لنرى ما تصنعون من السحر ، ويظهر للناس حقيقة أمركم ، وحين ألقوا : « قَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ » .

(فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) أى فألقوا ما معهم من الحبال والعصىّ تخيل إلى موسى أنها تمشى ، وجاء فى آية أخرى : « فَسَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ » .

قيل إنهم حشوها بالزئبق الذى من طبعه أن يتأثر سريعا بحرارة الشمس ، فما أسرع ما تحركت تلك الحبال والعصى حين سقطت عليها أشعة الشمس ، فامتلأ الوادى بحيات يركب بعضها بعضا .

وخلاصة ذلك — إنهم حشوها بزئبق أو بمادة أخرى إذا وقعت عليها الشمس اضطربت وتحركت واتصل بعضها ببعض ، فمن رآها ظن أنها تمشى وتسعى .

(فأوجس فى نفسه خيفة موسى) أى فأحس موسى بشئ من الخوف حين فوجئ بذلك على مقتضى الطبيعة البشرية حين ترى الأمر المهول المخيف .

ثم أبان سبحانه أنه ربط على قلبه فقال :

(قلنا لاتخف) أى قلنا له : هدئ روعك واطمئن بالا .

ثم علل ذلك بقوله :

(إنك أنت الأعلى) أى إنك ستنتصر عليهم وستكون لك الغلبة ، فالعاقبة للمتقين .

(وألق مافى يمينك تلقف ما صنعوا) أى وألق عصاك تبتلع حبالهم وعصيهم التى سحروا بها أعين الناس حتى خيل إليك أنها تسعى .

وإنما أوثر إبهام العصا تهويلا لأمرها ، وتفخيما لشأنها ، وإيذانا بأنها ليست من جنس العصىّ المعهودة ، لما سينشأ عنها من عجيب الأثر وغريب الصنع .

(إن ما صنعوا كيد ساحر) أى إن الذى فعلوه بعد تدرّب كثير وممارسة طويلة كيد سحرى لا حقيقة له ولا بقاء .

وخلاصة ذلك — إن الذى معك يا موسى معجزة إلهية ، والذى معهم تمويه وتلفيق ظاهر عليه الزور والبهتان ، فكيف يتعارضان ؟ .

(ولا يفلح الساحر حيث أتى) أى ولا ينال الساحر مقصوده بالسحر ، خيرا كان أو شرا حيثما كان .

ثم ذكر سبحانه ما يدل على أنه امتثل أمر ربه وألقى العصا وكان ما وعد به من تلقفها لما صنعوا فقال :

(فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى) أى فألقى ما فى يمينه وصار حية تلقف ما صنعوا وظهر للسحرة جليّة الأمر وأن ما عمله ليس بالسحر ، فهو ليس من فنون السحر التى حذقوها ، ولا من أنواع الحيل التى عرفوها ، وإنه الحق الذى لا مرية فيه ، ولا يقدر على مثله إلا من يقول للشىء كن فيكون ، حينئذ وقعوا سجدا لله وقالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهرون .

روى أن رئيسهم قال : كنا نغلب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا ، فلو كان هذا سحرا فأين الذى ألقيناه ، فاستدلوا بتغيير أحوال الأجسام على وجود الصانع القادر ، وبظهورها على يد موسى على كونه رسولا صادقا من عند الله ، لا جرم تابوا وآمنوا وأتوا وهم خاضعون ساجدون .

قال صاحب الكشاف — سبحان الله ، ما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود .

روى عن ابن عباس أنه قال : كانوا أول النهار سحرة ، وفى آخره شهداء بررة ؛ وروى عنه عكرِمة أنه قال : كان السحرة سبعين رجلا أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء .

وإنما قالوا برب هرون وموسى ولم يقتصروا على قولهم (رب العالمين) لأن فرعون كان قد ادعى الربوبية فقال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » والألوهية إذ قال : « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي » فلو قالوا ذلك فحسب لقال فرعون : آمنوا بى ، وإنما لم يقتصروا على ذكر موسى بل ذكروا هرون وقدموه عليه خوفا من هذه الشبهة أيضا ، إذ أن فرعون كان يدعى ربوبيته لموسى ، لأنه رباه فى صغره كما قال: « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا » .

ولما خاف فرعون أن يصير ذلك سببا لاقتداء الناس بهما فى الإيمان بالله ورسوله ألقى شبهة فى النبى ونبوته .

(قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) أى إنكم قد فعلتم جريرتين وارتكبتم جرمين :

(١) إنكم آمنتم له قبل البحث والتفكير ، فإيمانكم لم يكن عن بصيرة وأناة فلا يعتدّ به .

(٢) إنكم تلاميذه فى السحر ، فتواطأتم على أن تظهروا العجز من أنفسكم ترويجا لدعوته وتفخيما لأمره .

وبعد أن أورد هذه الشبهة اشتغل بالتهديد تنفيرا لهم من الإيمان ، وتحذيرا لغيرهم عن الاقتداء بهما فقال :

(فلأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف) أى أقسم بالله لأقطعنها مختلفات ، بأن تقطع الأيدى اليمنى والأرجل اليسرى ، وإنما اختار ذلك دون القطع من وفاق ، لأن فيه إهلاكا وتفويتا للمنفعة .

(ولأصلبنكم فى جذوع النخل) زيادة فى إيلامكم وتشهيرا بكم .

وخلاصة ذلك — لأجعلنكم مثلة ، ولأزيلن مالكم من منافع ولأشهرنّ بكم ، قال ابن عباس فكان أول من عذب بهذا العذاب .

(ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) أى ولتعلمُن أنا أو موسى أشد عذابا وأبقى .

وفى ذلك إيماء إلى اقتداره وقهره و بيان ما ألفه وضَرِى به من تعذيب الناس بأنواع العذاب ، كما فيه تحقير لشأن موسى واستضعاف له مع السخرية منه .

ثم لما صال عليهم بذلك وتوعدهم هانت عليهم أنفسهم فى الله .

(قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات) أى لن نختارك بالإيمان والانقياد على ما جاءنا من الله على يد موسى من المعجزات التى اشتملت عليها العصا .

وفى هذا إشارة إلى أن فرعون طلب منهم الرجوع عن الإيمان بموسى ، و إلا فعل بهم ما أوعدهم به .

(والذى فطرنا) أى لن نختارك على ما جاءنا من الهدى ، وعلى فاطرنا وخالقنا الذى أنشأنا من العدم ، إذ هو المستحق للعبادة والخضوع ، لا أنت .

ولما علموا أنهم متى أصروا على الإيمان ، فعل فرعون ما أوعدهم به قالوا :

(فاقض ما أنت قاض) أى فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك ، فوعيدك لا يزحزحنا عن إيماننا واطمئناننا بما صرنا إليه .

ثم بينوا ما لأجله يسهل عليهم احتمال ذلك فقالوا :

(إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) أى إنما لك تسلط علينا فى هذه الدار دار الزوال ونحن نرغب فى دار البقاء .

وقصارى ردهم — إنك إنما تصنع ما تهوى فى هذه الدنيا فحسب ، و إنا لا نأبه بنعيمها ولا نرهب عذابها .

(إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر) أى إنا آمنا بربنا المحسن إلينا طوال أعمارنا ، ليستر ما اجترحنا من الذنوب والآثام ، ولا سيما ما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آيات الله ومعجزاته .

روى الحسن أن السحرة الذين حشدوا من المدائن ليعارضوا موسى ، أحضروا مُكْرَهين ، وأكرهوا على إظهار السحر ، وروى أن رؤساء السحرة كانوا اثنين

وسبعين ، اثنان منهم من القبط ، والباقون من بنى إسرائيل أكرههم فرعون على تعلّم السحر .

(والله خير وأبقى) أى والله خير منك جزاء وأدوم ثوابا مما كنت دعوتنا إليه ومنيتنا به .

ولم يرد دليل على أنه نفذ ما صمم عليه فى عقابهم ، ولكن الراجح أنه نفذ ذلك كما يرشد إلى ذلك قول ابن عباس وغيره من السلف : أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء بررة .

ثم ختم السحرة كلامهم بشرح أحوال المجرمين وأحوال المؤمنين يوم العرض والحساب عظة لفرعون وتحذيرا له من نقمة الله وعذابه السرمدى وترغيبا له فى ثوابه الأبدى .

(إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لايموت فيها ولا يحيا) أى من يلق الله وهو مجرم بكفره ومعاصيه فإن له جهنم لايموت فيها فينتهى عذابه ، ولا يحيا حياة طيبة ينتفع فيها بالنعيم المقيم ، قال المبرد : لايموت ميتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة ، فهو يألم كما يألم الحى ويبلغ به حالة الموت فى المكروه ، إلا أنه لايبطل فيها عن إحساس الألم ؛ والعرب تقول : فلان لا حى ولا ميت . إذا كان غير منتفع بحياته .

كما قالت زوج صخر حين سئلت عنه وهو مريض : لا هو حىٌّ فيرجى ، ولا ميْت فينعى .

ونحو الآية قوله : « لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ » وقوله : « وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى. الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى. ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا » وقوله : « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ » .

(ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) أى ومن لقى ربه مؤمنا به وبما جاء به رسوله من عنده من المعجزات التى من جملتها ما رأيناه وشاهدناه ثم عمل صالح الأعمال فهؤلاء لهم بسبب إيمانهم وجليل أعمالهم المنازل الرفيعة والدرجات العالية .

وفى الصحيحين : «إن أهل عليين ليرَوْنَ مَنْ فوقهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء لتفاضل ما بينهم ، قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء ، قال بلى ، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» . وفى السنن: إن أبا بكر وعمر لمنهم ونعمّا .

ثم فسر تلك الدرجات العلى بقوله :

(جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى تلك الدرجات العلى هى جنات إقامة تجرى من تحت غرفها الأنهار ماكثين فيها أبدا .

ثم بين سبب فوزهم بهذا النعيم فقال :

(وذلك جزاء من تزكى) أى وذلك الفوز الذى أوتوه جزاء لهم على طهارة أنفسهم من دنس الكفر ومن تدسية أنفسهم بأوضار الذنوب والآثام ، وعلى عبادتهم لله وحده لاشريك له واتباعهم للنبيين والمرسلين فيما جاءوا به من عند ربهم .

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢) .

شرح المفردات

السرى والإسراء : السير ليلا ، اضرب لهم : أى اجعل لهم ، يبسا : أى طريقا يابسا لا ماء فيه ، والدرك (بالفتح والسكون) : الإدراك واللحوق ، تخشى : أى تخاف

غرقا ، وأتبع وتبع: بمعنى ، فغشيهم من اليمّ ماغشيهم : أى غمرهم وعلاهم من البحر ماعلاهم من الأمر الهائل الذى لايعلم كنهه إلا الله ، وأضل فرعون قومه : أى سلك بهم مسلكا أدّاهم إلى الخسران فى دينهم ودنياهم إذ أغرقوا فأدخلوا نارا ، وما هدى : أى وما أرشدهم إلى طريق يصل بهم إلى طريق السعادة ، الأيمن : أى الذى عن يمين من ينطلق من مصر إلى الشام ، المنّ : نوع من الحلوى يسمى الترنجبين ، والسلوى : طائر شبيه بالسُّمَانَى ، ولا تطغوا فيه : أى فلا تأخذوه من غير حاجة إليه فيحل عليكم غضبى : أى ينزل بكم ، هوى : سقط وهلك ، غفار : كثير المغفرة والستر للذنوب ، اهتدى : أى لزم الهداية واستقام .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص موسى مع سحرة فرعون وأنه تم له الغلب عليهم وأن السحرة آمنوا به وأن فرعون أبى أن يذعن للحق وتمادى هو وقومه فى العناد والإعراض عن سبيل الرشاد ـ أردف ذلك بذكر ما آل إليـه أمر فرعون وقومه من الغرق فى البحر حين تبعوا موسى للحاق به لما خرج من مصر ذاهبا إلى الطور، وطوى فى البين ذكر ما جرى على فرعون وقومه بعد أن غُلبت السحرة ـ من الآيات المفصلة التى حدثت على يد موسى فى مدى عشرين سنة على حسب ما فصل فى سورة الأعراف ، وكان فرعون كلما جاءته آية عذاب وعد أن يرسل بنى إسرائيل حين ينكشف عنه العذاب ، فإذا هو انكشف نكص على عقبيه ونكث فى عهده ، حتى أمر الله موسى بالهجرة والخروج ليلا من مصر ، ثم عدد بعدئذ نعمه الدينية والدنيوية على بنى إسرائيل ، فذكر أنه أنجاهم من عدوهم وقد كان يُنزل بهم ضروبا من الظلم : من قتل وإذلال وتعب فى الأعمال ، وأنه ذكر أنه أنزل عليهم كتابا فيه بيان دينهم وتفصيل شريعتهم ، وأنه أنزل لهم المن والسلوى ، وأنه أمرهم بأكل

الطيبات من الرزق وزجرهم عن العصيان ، وأن من عصى ثم تاب كانت توبته مقبولة عند ربه .

الإيضاح

(ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لاتخاف دركا ولا تخشى) أى ولقد أوحينا إلى نبينا موسى حين تابعنا له الحجج على فرعون فأبى أن يستجيب لأمر ربه وتمادى فى طغيانه : أن أسر بعبادى الذين أرسلتك لإنقاذهم من هذا الطاغية ، واخرج بهم من مصر ، فاتخذ لهم طريقا يابسا فى البحر ولا تخف من فرعون وقومه أن يدركوك ولا تخش أن يغرقك البحر .

وفى التعبير عن بنى إسرائيل (بعبادى) إظهار للعناية بأمرهم والرحمة لهم ، وتنبيه إلى قبح صنيع فرعون بهم ، إذ هو قد استعبدهم وفعل بهم من ضروب الظلم مافعل ولم يراقب فيهم مولاهم الحق .

(فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ماغشيهم) أى ولما سرى بهم موسى أتبعهم فرعون بجنوده حين قطعوا البحر فغشيهم من اليم مالاسبيل إلى إدراك كنهه، فغرقوا جميعا .

(وأضل فرعون قومه وما هدى) أى وقد سلك بقومه سبيل الضلال فى دينهم ودنياهم ، وما هداهم إلى سبيل الرشاد ، وفى هـذا تهكم به إذ قال « وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ » .

ثم شرع سبحانه يعدد نعمه على بنى إسرائيل فقال :

(١) (يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم) فرعون وقومه حين كانوا يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وأقر عينكم منهم إذ أغرقهم وأنتم تنظرون كما قال : « وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » .

(٢) (وواعدناكم جانب الطور الأيمن) فكلمناك تكليما وأعطيناك التوراة وفيها تفصيل شريعتك .

(٣) (ونزلنا عليكم المن والسلوى) فكان ينزل عليكم المن وأنتم فى التيه مثل الثلج بياضا مع حلاوة شديدة من الفجر إلى طلوع الشمس ، وتبعث إليكم ريح الجنوب بطير السمانى فيأخذ كل منكم مايكفيه .

(كلوا من طيبات مارزقناكم) أى وقلنا لهم كلوا من تلك اللذائذ التى أنعمنا بها عليكم .

(ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى) أى ولا تطغوا فى رزقى بالإخلال بشكره وتعدى حدودى فيه بالسرف والبطر والاستعانة به على المعاصى ومنع الحقوق الواجبة فيه ، فينزل عليكم غضبى ، وتجب عليكم عقوبتى .

(ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) أى ومن ينزل به غضبى فقد شقى وهلك .

(وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) أى وإنى لذو مغفرة عظيمة لمن يتوب من شركه ، ويقلع عن ذنبه ، ويخلص لى فى العمل ويؤدى فرائضى ويجتنب معاصىَّ ويستقيم حتى الموت .

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا

فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) .

شرح المفردات

يقال جاء على أثره (بفتحتين و بكسر فسكون) : إذا جاء لاحقا به بلا تأخير، فتنا قومك : أى اختبرناهم ، وأضلهم : أى أوقعهم فى الضلال والخسران ، والسامرى: من شعب إسرائيل من بطن يقال له السامرة واسمه موسى ، والأسِف : الحزين ، والوعد الحسن : إعطاء التوراة التى فيها هدى ونور، والعهد : زمان الإنجاز ، موعدى: أى وعدكم إياى بالثبات على الإيمان وقيامكم بأداء ما أمرتم به من التكاليف ، بملكنا: أى بقدرتنا واختيارنا ، والأوزار : الأثقال والأحمال ؛ والمراد بالقوم هنا القبط ، فقذفناها : أى طرحناها فى النار ، جسدا : أى جثة لا روح فيها ، والخوار : صوت العجل ، فنسى : أى فغفل عنه موسى وذهب يطلبه فى الطور ، أن لا يرجع إليهم قولا : أى لا يردّ عليهم جوابا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا : أى لا يقدر أن يدفع عنهم ضرا أو يجلب لهم نفعا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أوحى إلى موسى أن يخرج هو وقومه من مصر ليلا ويخترق بهم البحر ولا يخشى غرقا ولا دركا من فرعون وجنده ، وأن البحر أغرق فرعون وقومه جميعا حينما أرادوا اللحاق ببنى إسرائيل ، ثم عدد نعمه عليهم من إنجائهم من عدوهم و إنزال المن والسلوى عليهم ، ثم أمرهم بأكل الطيبات من الرزق ونهاهم عن الطغيان ، ثم ذكر أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ـ أعقب هذا بما جرى بينه سبحانه و بين موسى من الكلام حين موافاته الميقات على حسب

المواعدة التى ذكرت آنفا ، وبما حدث من فتنة السامرى لبنى إسرائيل ورجوع موسى إليهم غضبان أسفا ، ثم معاقبته لهم على ماصنعوا ، ثم ذكر الحيلة التى فعلها السامرى حين أخرج لهم من حليهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى ، فرد الله عليهم ووبخهم بأن هذا العجل لايجيبهم إذا سألوا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فى دينهم ولا دنياهم .

الإيضاح

(وما أعجلك عن قومك ياموسى ؟) المراد بالقوم النقباء السبعون ، وإعجاله عنهم تقدمه عليهم ، أى أىّ شىء عجل بك عن قومك وجعلك تتقدم عليهم ؟

والمراد الإنكار عليه فى تقدمه عليهم، لأن ذلك يقتضى إغفال أمرهم وعدم العناية بهم مع أنه مأمور باستصحابهم وإحضارهم معه ، وإنكار للعجلة فى ذاتها أيضا ولا سيما من أولى العزم الذين يجدر بهم مزيد الحزم .

(قال هم أولاء على أثرى) أى قال موسى مجيبا ربه : هم أولاء بالقرب منى آتون على أثرى ، وما تقدمتهم إلا بخطا يسيرة لايعتدّ بها ، وليس بينى وبينهم إلا مسافة قريبة يتقدم بها بعض الرفقة على بعض .

(وعجلت إليك رب لترضى) أى وعجلت إليك رب لتزداد عنى رضا ، بالمسارعة إلى امتثال أمرك ، والوفاء بعهدك .

وخلاصة معذرته — إنى اجتهدت أن أتقدم عن قومى بخطا يسيرة ، ظنا منى أن مثل ذلك لاينكر ، فأخطأت فى اجتهادى ، وقد حملنى على ذلك طلب الزيادة فى مرضاتك ، وكأنه عليه السلام يقول : إنما أغفلت هذا الأمر مبادرة إلى رضاك ومسارعة إلى الميعاد ، والموعودُ بما يسرّ يود لو ركب أجنحة الطير ليحظى بما يبتغى ويريد .

(قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك) أى قال سبحانه لموسى : فإنا قد اختبرنا

قومك الذين خلفتهم مع هرون من بعد فراقك . قال ابن الأنبارى صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من بينهم ، وهم الذين خلفهم مع هرون اه . وهذه الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوما .

(وأضلهم السامرى) أى دعاهم إلى الضلال باتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته وكان من قوم يعبدون البقر فدخل فى دين بنى إسرائيل فى الظاهر وفى قلبه حنين لعبادة البقر فأطاعه بعض وامتنع آخرون .

(فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) أى فانصرف موسى إلى قومه بنى إسرائل بعد انقضاء الليالى الأربعين - مغتاظا من قومه ، حزينا لما أحدثوا من بعده من الكفر بالله . روى أنه لما رجع موسى سمع الصياح والضجيج وكانوا يرقصون حول العجل فقال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة .

قال القرطبى : سئل الإمام أبو بكر الطرشوشى عن جماعة يجتمعون ويكثرون من ذكر الله وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم ثم إنهم يضربون بالقضيب على شىء من الطبل ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه ، ويحضرون شيئا يأكلونه، فهل الحضور معهم جائز أم لا ؟ فأجاب : يرحمك الله مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار فقاموا يرقصون حوله ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل ؛ وأما الطبل فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله ، وإنما كان مجلس النبى مع أصحابه، كأنما على رءوسهم الطير من الوقار، فينبغى للسلطان أن يمنعهم من الحضور فى المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يعينهم على باطلهم، وهذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين اه.

(قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) لاسبيل لكم إلى إنكاره ، فقد وعدكم بإنزال الكتاب الهادى إلى الشرائع والأحكام ، ووعدكم الثواب العظيم فى الآخرة

بقوله : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » ووعدكم أنكم ستملكون أرض الجبارين وديارهم .

(أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى؟) أى أفطال عليكم الزمان فنسيتم وعدكم إياى بالثبات على دينى إلى أن أرجع من الميقات ؟ أم تعمدتم فعل مايكون سببا لحلول غضب ربكم عليكم بعبادتكم للعجل وكفركم به ؟

وخلاصة ذلك — أفطال عليكم العهد فنسيتم أم تعمدتم المعصية فأخلفتم ؟

(قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) أى قالوا ما أخلفنا عهدك بالثبات على دينك إلا لأنا لم نملك أمرنا ، فلو خلينا وأنفسنا ولم يسوّل لنا السامرى ماسوّله ، لما أخلفنا .

وفى هذا إيماء إلى أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ وأنهم لم يطيقوا حمل أنفسهم على الصواب ومن ثم وقعوا فيما وقعوا فيه من الفتنة .

وقصارى كلامهم : إن السامرى سول لنا ماسول وغلب على عقولنا فخالفنا عهدك .

(ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها) أى ولكن غلبنا موسى السامرى ، إذ حملنا أحمالا من حلى القبط التى استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر بعلة أن لنا عيدا غدا ، وقال : إنما حُبس موسى عنكم بشؤم حرمتها ثم أمرنا أن نحفر حفرة ونملأها نارا وأن نقذف الحلى فيها فقذفناه .

وسميت أوزارا : أى آثاما لأنه لايحل لهم أخذها ، ولا تحل لهم الغنائم فى شريعتهم .

(فكذلك ألقى السامرى) أى فكما قذفنا نحن تلك الأثقال ، ألقى السامرى ما كان معه منها .

(فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار) أى فأخرج لهم من تلك الأثقال التى

قذفوها جسد عجل من ذهب لاروح فيه ، وله خوار كخواره ، إذ هو قد صنعه بدقة وجعل فيه أنابيب يظهر فيها الصوت بمرور الريح بعد أن جعله فى اتجاهه .

(فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى) أى فقال السامرى ومن افتتن به أول مارآه. هذا هو إلهكم وإله موسى فاعبدوه ، وقد غفل عنه موسى وذهب يطلبه فى الطور .

فرد عليهم سبحانه مقبحا أفعالهم مسفها أحلامهم فقال :

(أفلا يرون أن لايرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا؟) أى أفلا يعتبرون ويتفكرون فى أن هذا العجل لايرجع إليهم كلاما ولا يرد عليهم جوابا ، وأنه لايقدر أن يدفع عنهم ضرا ولا يجلب لهم نفعا .

وقصارى مايقول — إنه عاجز عن الخطاب وعن النفع والضر فكيف يتخذونه إلها .

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى (٩٣) قَالَ يَابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِىُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ

نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا (٩٨) .

شرح المفردات

فتنتم به : أى وقعتم فى الفتنة والضلال ، فاتبعونى : أى فى الثبات على الحق ، لن نبرح : أى لانزال ، عاكفين : أى مقيمين ، بلحيتى ولا برأسى : أى بشعر لحيتى ولا بشعر رأسى ، خشيت : أى خفت ، ولم ترقب قولى : أى ولم تراع ، فما خطبك : أى ماشأنك وما الأمر العظيم الذى صدر منك ، بصرت بما لم يبصروا به (بضم الصاد فيهما) : أى علمت ما لم يعلمه القوم وفطنت لما لم يفطنوا له ؛ يقال بصر بالشىء إذا علمه وأبصره إذا نظر إليه ، والرسول موسى عليه السلام ، وأثره سنته ، فنبذتها : أى طرحتها ، وسولت لى نفسى : أى زينت وحسنت ، لامساس : أى لامخالطة فلا يخالطه أحد ولا يخالط أحدا ، فعاش وحيدا طريدا ، لن تخلفه : أى سيأتيك به الله حتما . ظلت (أصله ظللت دخله حذف) : أى أقمت ، لنحرقنه : أى لنبردنّه بالمبرد ، لننسفنه : أى لنذرينه ، فى اليمّ : أى فى البحر ، وسع كل شىء علما : أى وسع علمه كل شىء وأحاط به .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن عبادتهم للعجل مخالفة لقضية العقل ، لأنه لايستجيب لهم دعاء ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا — أكد هذا وزاد عليهم فى التشنيع ببيان أنهم قد عصوا الرسول الذى نبههم إلى خطإ مافعلوا ، ثم حكى معاتبة موسى لهرون على سكوته على بنى إسرائيل وهو يراهم يعبدون العجل ، ثم ذكر أنه اعتذر له ولكنه لم يقبل معذرته ، ثم قص علينا ما قاله السامرى وما أنبه به موسى وما عاقبه الله به فى الدنيا والآخرة ، وما صنعه موسى بالعجل من نسفه وإلقائه فى البحر ، ثم بين لهم

أن الإله الحق هو الذى يحيط علمه بما فى السموات والأرض لا ذاك الجماد الذى لا يضر ولا ينفع ، ولا يرد جوابا ولا يسمع خطابا .

الإيضاح

(ولقد قال لهم هرون من قبل ياقوم إنما فتنتم به) أى ولقد قال هرون لعبدة العجل من بنى إسرائيل ناصحا لهم من قبل رجوع موسى إليهم : ياقوم إنما اختبر الله إيمانكم ومحافظتكم على دينكم بهذا العجل الذى أحدث فيه الخوار ، ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض الشاك فى دينه .

(وإن ربكم الرحمن) أى إن خالقكم وخالق كل شىء هو الذى عمت رحمته جميع مخلوقاته ، فآتاهم مافيه كمالهم الجسمى والروحى ومابه سعادتهم فى معاشهم ومعادهم.

وفى ذكر الربوبية والرحمة استمالة لهم إلى الحق إثر زجرهم عن الباطل ، وتذكير لهم بإنجائهم من فرعون وعذابه ، وتنبيه لهم إلى أنهم متى تابوا قبلت توبتهم .

(فاتبعونى وأطيعوا أمرى) أى فاتبعونى فيما آمركم به من عبادتى وترك عبادة العجل ، وأطيعونى فى اتباع ما يبلغكم رسولى .

ثم بين أنهم لم يسمعوا نصحه ولم يطيعوا أمره .

(قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) أى قال عبدة العجل من قوم موسى : لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يرجع موسى إلينا ، لنرى ماذا يقول وماذا يرى فى ذلك ؟ .

وما مقصدهم من ذلك إلا التعلل والتسويف وعدم إجابة طلب هرون .

ثم ذكر مقال موسى لهرون بعد أن فرغ من خطاب قومه وبيان خطأ فعلهم .

(قال ياهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن) أى قال موسى لهرون : أىّ شىء منعك حين رأيت ضلالهم أن تلحقنى إلى جبل الطور بمن آمن معك من بنى إسرائيل ؟ .

وقد كان موسى يرى أن مفارقة هرون لهم ، وخروجه من بينهم بعد تلك النصائح القولية يكون أزجر لهم من الاقتصار على النصائح وحدها ، لما فى ذلك من الدلالة على شديد الغضب والإنكار عليهم ، فإن مفارقة الرئيس المحبوب لديهم من أجل أمر مبغوض لديهم مما تشق على النفوس ، وتقتضى ترك ذلك الأمر الذى يكرهه .

(أفعصيت أمرى) فيما قدمت إليك من قولى : « اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ » .

فلما أقام بينهم ولم يبالغ فى الإنكار عليهم نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره .

فترفق هرون فى خطاب موسى استعطافا له وترقيقا لقلبه إذ أضافه إلى الأم مع كونه أخاه لأبيه وأمه .

(قال يا ابن أمّ لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى) أى فامتلأ موسى غضبا مما رأى وألقى مافى يده من الألواح الإلهية وأخذ برأس أخيه يجره إليه فقال : يا بن أمى لاتأخذ بشعر لحيتى ولا بشعر رأسى . وقد روى أن موسى أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله ، وكان عليه السلام حديدا غضوبا لله تعالى ، وقد شاهد ماشاهد وغلب على ظنه تقصير هرون عليه السلام ففعل ما فعل .

قال صاحب الكشاف : كان موسى عليه السلام رجلا حديدا مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب فى كل شىء ، شديد الغضب لله ولدينه ، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله بعد ما رأوا من الآيات العظام أن ألقى ألواح التوراة لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة غضبا لله واستنكافا وحمية ، وعنّف بأخيه وخليفته على قومه ، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشف ، قابضا على شعر رأسه (وكان أفرع) وعلى شعر وجهه يجره إليه .

ثم بين علة هذا النهى بأنه غير عاص أمره ولا مقصر فى المصلحة ، ولكن :

(إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى) أى إنى خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا ، فتريثت حتى تكون أنت المتدارك ذلك بنفسك ،

المتلافيه برأيك ، وخشيت عتابك على اطراح ما وصيتنى به ، ولم يكن بد من مراقبة ذلك والعمل على موجبه .

وخلاصة ذلك — إنى رأيت من صواب الرأى أن أحفظ العامة وأداريهم على وجه لايختل به نظامهم ، ولا يكون سببا للومك حتى ترجع فتتدارك الأمر على حسب ما ترى ، ولا سيما أن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى .

و بعد أن انتهى من سماع اعتذار قومه و إسنادهم الفساد إلى السامرى ومن سماع اعتذار هرون ـ وجه الكلام إلى السامرى .

(قال ما خطبك يا سامرى) أى قال موسى للسامرى : ما شأنك وما الذى دهاك حتى فعلت ذلك الأمر الجلل ؟ وقد خاطبه بهذا ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه ، ويفعل به و بما أخرجه ما يكون نكالا للمفتونين به ولمن خلفهم من الأمم .

(قال بصرت بما لم يبصروا به) أى قال السامرى : إنى عرفت مالم يعرفه القوم ولم تعرفه أنت ، وعرفت أن ما أنتم عليه ليس بالحق .

(فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها) أى وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول أى شيئا من سنتك ودينك فطرحته ، كما يقال فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره إذا كان يمتثل رسمه ، ويتبع طريقته ، وأجرى الكلام على طريق الغيبة وهو يخاطبه على نهج قول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : ما يقول الأمير فى كذا و بماذا يأمر الأمير؟ قاله أبومسلم الأصفهانى، وأيده الرازى وقال إنه أقرب إلى التحقيق .

وخلاصة هذا — إن موسى عليه السلام لما أقبل على السامرى باللوم والتعنيف والسؤال عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم ـ رد عليه بأنه كان استن بسنته ، واقتفى أثره وتبع دينه ، ثم استبان له أن ذلك هو الضلال بعينه ، وأنه ليس من الحق فى شىء ، فطرحه وراءه ظهريا وسار على النهج الذى رأى .

وفى التعبير بكلمة (الرسول) على هذا نوع من التهكم والسخرية ، لأنه جاحد

مكذب له ، فهو على نحو ما حكى الله عن بعض الجاحدين بقوله : « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » وهم لا يؤمنون بالإنزال عليه .

(وكذلك سولت لى نفسى) أى ومثل ما زينت لى نفسى أولا اتباع سنتك واقتفاء أثرك زينت لى أيضا ترك ذلك بمحض الهوى لا لشىء آخر من برهان عقلى أو نقلى أو إلهام إلهى .

والخلاصة — لم يدعنى إلى ما فعلت إلا هوى النفس فحسب .

ولما سمع موسى من السامرى ما سمع ذكر له ما سينزل به فى الدنيا والآخرة من العقوبات ، و بين حال إلهه ، أما حاله فى الدنيا فقد ذكره بقوله :

(قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس) أى قال له : اذهب فأنت طريد من بين الناس ، فلا يخالطك أحد ولا تخالط أحدا ، حتى لو سئلت عن حالك لم تقل إلا أنه لامساس : أى لا يماسنى أحد ولا أماس أحدا ، قال مقاتل : إن موسى عليه السلام أمره هو وأهله بالخروج من محلة بنى إسرائيل ، فخرج طريدا فى البرارى. روى أنه لما قال له موسى ذلك هرب فجعل يهيم فى البرية مع السباع والوحش ، ولا يجد أحدا من الناس يمسه حتى صار كمن يقول لامساس لبعده عن الناس و بعد الناس عنه .

وقصارى ذلك — إنه خاف وهرب وجعل يهيم فى البرّية حتى صار لبعده عن الناس كأنه قائل ذلك .

وأما حاله فى الآخرة فقد ذكره بقوله :

(و إن لك موعدا لن تخلفه) أى و إن لك موعدا فى الآخرة لن يخلفكه الله ، بل سينجزه لك البتة بعد أن يعاقبك فى الدنيا ، وهو آت لا محيص منه .

وأما حال إلهه فقد بينه بقوله :

(وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليمّ نسفا)

أى وانظر إلى هذا المعبود بزعمك الذى عكفت على عبادته ، لنبردنّه بالمبرد ثم لنذرينه فى البحر إذا صار سُحالة كذرات الهباء .

ولقد برّ موسى فى قسمه وفعل ما أوعده به كما يدل على ذلك قوله (وانظر إلى إلهك) ولم يصرح بهذا تنبيها إلى وضوحه واستحالة الخلف فى وعيده المؤكد باليمين.

وفى فعله ذلك به عقوبة للسامرى و إظهار لغباوة المفتونين به لمن له أدنى نظر .

و بعد أن فرغ من إبطال الباطل شرع فى تحقيق الدين الحق فقال :

(إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو) أى ليس هذا بإلهكم ، وإنما المستحق للعبادة والتعظيم الله الذى لا إله إلا هو ، ولا تنبغى العبادة إلا له ، فكل شىء فقير إليه ، وهو الخالق لكل شىء .

(وسع كل شىء علما) أي هو العالم بكل شىء وقد أحاط بكل شىء علما ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين .

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) .

شرح المفردات

ذكرا : أى قرآنا كما قال : « يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ » وسمى بذلك لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم ، والوزر : الحمل الثقيل ؛

والمراد به العقوبة التى تثقل على حاملها ، والصور : قرن ونحوه ينفخ فيه حين يدعى الناس إلى المحشر كما ينفخ فيه فى الدنيا حين الأسفار وفى المعسكرات ، زُرقا : أى زرق الأبدان سود الوجوه لما هم فيه من الشدائد والأهوال ، يتخافتون بينهم : أى يخفضون أصواتهم ويخفونها لشدة ما يرون من الهول ، إلا عشرا : أى عشرة أيام ، أمثلهم طريقة : أى أعدلهم رأيا وأرجحهم عقلا .

المعنى الجملى

بعد أن شرح قصص موسى عليه السلام مع فرعون أولا ثم مع السامرى ثانيا على نمط بديع وأسلوب قويم ـ بين لنبيه صلى الله عليه وسلم أن مثل هذا القصص عن الأمم الماضية والقرون الغابرة كعاد وثمود وأصحاب الأيكة ، نلقيه إليك تسلية لقلبك ، وإذهابا لحزنك ؛ إذ به تعرف ما حدث للرسل من قبلك من شدائد الأهوال وتذكيرا للمستبصرين فى دينهم ، وتأكيدا للحجة على من عاند وكابر من غيرهم .

الإيضاح

(كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) يخاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، ويبين له أنه كما قص عليه خبر موسى وما جرى له مع فرعون وجنوده على هذا الأسلوب الرائع والمسلك البديع ـ يقص عليه أخبار الحوادث التى جرت على الأمم الخالية ، ليكون له فى ذلك سلوة ليتأسى بالأنبياء السالفين وما لاقوه من أممهم من شديد العناد والجحود والتكذيب ومكابدة الشدائد والأهوال .

(وقد آتيناك من لدنا ذكرا) أى وقد أعطيناك من لدنا كتابا جديرا بالتذكر به ، لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولم يعط نبى قبلك مثله ، فهو جامع للأخبار ، حاوٍ للأحكام التى فيها صلاح حال البشر فى دينهم ودنياهم ، مشتمل على مكارم الأخلاق وسامى الآداب التى بها يرتفع قدر الأمم وينبه ذكرها .

(من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا) أى من كذب به وأعرض عن اتباعه وابتغى الهدى من غيره ، فإن الله يضله ويهديه إلى سواء الجحيم ، وسيحمل يوم القيامة من الأوزار والآثام ما لا يقدر على حمله ، بل ينقض ظهره ، وبمعنى الآية قوله : « وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ » .

وكل من بلغه القرآن من العرب والعجم من أهل الكتاب وغيرهم فهو نذير له فمن اتبعه هُدى، ومن أعرض عنه ضل وشقى فى الدنيا، والنار موعده يوم القيامة كما قال « لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » .

(خالدين فيه) أى مقيمين فى ذلك الوزر أى فى عقوبته لا يجدون عنها محيصا ولا انفكاكا .

(وساء لهم يوم القيامة حملا) أى وبئس الحمل الذى حملوه من الأوزار والآثام جزاء إعراضهم وسائر ذنوبهم .

(يوم ينفخ فى الصور) أى هذا اليوم هو يوم ينفخ فى الصور النفخة الثانية إيذانا بالقيام للحشر والحساب .

(ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) أى وفى هذا اليوم يساق المجرمون إلى المحشر شاحبى الألوان زرق الوجوه ، لما هم فيه من مكابدة الأهوال ومقاساة الشدائد التى تحلّ بهم .

(يتخافتون بينهم) أى يخفضون أصواتهم ويهمس بعضهم فى أذن بعض ، لما امتلأت به قلوبهم من الرعب والذعر ، وبمعنى الآية قوله تعالى : « فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » .

(إن لبثتم إلا عشرا) أى يقول بعضهم لبعض : ما لبثتم فى الدنيا إلا عشرة أيام ، ذاك أنهم لما عاينوا تلك الأهوال ذهلوا عن مقدار عمرهم فى الدنيا ، ولم يذكروا إلا القليل فقالوا ما عشنا إلا تلك الأيام القلائل .

والإنسان حين الشدائد والأهوال تغيب عنه أظهر الأشياء ، وأ كثرها خطورا بباله .

(نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما) أى نحن أعلم بالذى يقولونه فى مدة لبثهم ، لاهم ، حين يقول أعدلهم رأيا وأ كملهم عقلا : ما لبثتم إلا يوما واحدا .

ذاك أن الدنيا وإن تكررت أوقاتها ، وتعاقبت لياليها وأيامها ـ قصيرة المدى إذا قيست بالنظر إلى يوم القيامة . وكأن غرضهم بذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر الأجل ، على نحو ما جاء فى قوله : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ » وقوله : « قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ » .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) .

شرح المفردات

ينسفها : أى يجعلها ذرات صغيرة ثم يصيرها هباء منثورا ، يذرها : أى يتركها ، القاع : الأرض التى لا بناء فيها ولا نبات قاله ابن الأعرابى ، والصفصف :

الأرض الملساء ، والعوج : الانخفاض ، والأمت : النتوء اليسير ؛ يقال مد حبله حتى ما فيه أمت ، والداعى : هو داعى الله إلى المحشر ، لاعوج له : أى لاعوج لدعائه فلا يميل إلى ناس دون ناس ، بل ليسمع الجميع ، خشعت : ذلت ، والهمس : الصوت الخفىّ ، وعنت : خضعت وانقادت ؛ ومن ذلك العانى: وهو الأسير ، والقيوم: القائم بتدبير أمور عباده ومجازاة كل نفس بما كسبت ، خاب : أى خسر ، والظلم الأول : الشرك . والظلم الثانى : منع الثواب عن المستحق ، والهضم : النقص .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه حال يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال التى تجعل المجرمين يتخافتون فى حديثهم وينسون مقدار لبثهم فى الدنيا ، ويحشرون زرق الوجوه والأبدان إلى نحو أولئك مما سلف ـ قفى على ذلك بذكر سؤال من لم يؤمن بالحشر ـ عن الجبال وأحوالها فى ذلك اليوم ثم الإجابة عنه ، وضم إلى الجواب أمورا أخر تشرح شؤون هذا اليوم وأهواله ، فبين أن الأرض فى ذلك اليوم تكون مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، وأن الناس يسرعون إلى إجابة الداعى ولا يسمع لهم كلام إلا همس ، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين إلا إذا أذن لهم الرحمن ورضى للمشفوع له قولا ، ثم ذكر أن الله هو العليم بما أصابوا من خير أو شر، وهم لا يحيطون به علما ، وفى ذلك اليوم تذل الوجوه وتخضع للواحد الديان ، وقد خسر حينئذ من ظلم نفسه فأشرك مع الله غيره وعبد معه سواه وعصى أوامره ونواهيه .

أما المتقون فإنهم لا يظلمون فلا يزاد فى سيئاتهم ، ولا ينقص من حسناتهم .

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قالت قريش يامحمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة فنزلت الآية (ويسألونك عن الجبال) الخ .

ولا شك أن سؤالهم هذا سؤال تهكم واستهزاء وطعن فى الحشر والنشر، لا سؤال معرفة للحق وتثبيت له .

الإيضاح

(ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا) أى يسألك المشركون أيها الرسول عن الجبال كيف تكون يوم القيامة ؟ فقل مجيبا لهم يدكها ربى دكا ويصيّرها هباء تذروه الرياح .

(فيذرها قاعا صفصفا. لاترى فيها عوجا ولا أمتا) أى فيدع أماكنها من الأرض بعد نسفها ملساء مستوية لانبات فيها ولا بناء ولا ارتفاع ولا انخفاض .

وخلاصة هـذا — لاترى فى الأرض يومئذ واديا ولا رابية ولا مكانا مرتفعا ولا منخفضا .

(يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له) أى يوم يرى الناس هذه الأهوال يتبعون صوت داعى الله الذى يجمعهم إلى موقف الحساب والجزاء ، ولا يكون لهم ميل عنه ولا انحراف ، ولكنهم سراعا إليه يقبلون ، إذا أمروا بشىء قالوا لبيك ، ونحن بين يديك ، والأمر منك وإليك كما قال : « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ » وقال : « أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا » .

(وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا) أى وعلمت الخلائق أن لامالك لهم سواه ، ولا يسمع لهم صوت يزيد على الهمس الذى لايكاد يفهم إلا بتحريك الشفتين لضعفه، وحق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ، ويضعف صوته، ويختلط قوله ، ويطول غمه ، قاله أبو مسلم .

(يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) أى يومئذ لاتنفع الشفاعة أحدا إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع ورضى له قولا صدر منه .

والفاسق قد قال قولا يرضاه الرحمن فقد قال لا إله إلا الله كما روى عن ابن عباس.

والخلاصة — إن الشفاعة لاتكون نافعة للمشفوع له إلا بشرطين :

(١) إذن الله للشافع بالشفاعة .

(٢) رضا الله عن قول صدر من المشفوع له ، ليأذن بشفاعة الشافع له .

وقصارى ذلك — إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن فى أن يشفع له ، وكان له قول يرضى .

وبمعنى الآية قوله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإِذْنِهِ » وقوله : « وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِى السَّمٰوَاتِ لاَ تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى » وقوله : « وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ » وقوله : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً » .

ولما نفى أن تنفع شفاعة بغير إذنه علل ذلك بقوله :

(يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) أى يعلم مابين أيدى عباده من شؤون الدنيا وما خلفهم من أمور الآخرة وهم لايعلمون جملة ذلك ولا تفصيله .

ولما ذكر خشوع الأصوات أتبعه خضوع ذويها فقال :

(وعنت الوجوه للحى القيوم) أى واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لايموت ، القائم على خلقه بتدبير شؤونهم ، وتصريف أمورهم .

وخص الوجوه بالذكر ، لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة ، ولأن آثار الذل والغبطة والسرور تظهر عليها .

(وقد خاب من حمل ظلما) أى وقد حرم الثواب من وافى الموقف وهو مشرك بالله كافر بأنبيائه أو تارك لأوامره منغمس فى معاصيه .

وبعد أن ذكر أهوال يوم القيامة بين حال المؤمنين حينئذ فقال :

(ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) أى ومن يعمل صالح الأعمال على قدر طاقته وهو مؤمن بربه ورسله وما أنزله عليهم من كتبه فلا يخاف من الله ظلما بأن يحمل عليه سيئات غيره وأوزاره ، ولا يخاف أن يهضمه حسناته فينقصه ثوابها ، ونحو الآية قوله : « وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

وخلاصة ذلك - إنه لايؤاخذ العبد بذنب لم يعمله ، ولا يبطل له حسنة قد عملها .

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) .

شرح المفردات

صرّفنا : كررنا وفصلنا ، ذكرا : أى عظة وعبرة ، فتعالى الله أى تنزه وتقدس الحق : أى الثابت فى ذاته وصفاته ، يقضى إليك وحيه : أى يتم جبريل تبليغه لك .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه أنه كما أنزل الآيات المشتملة على الوعيد المنبئة بما سيحدث من أحوال القيامة وأهوالها - أنزل القرآن كله كذلك على نمط واحد قرآنا عربيا ليفهمه العرب ويقفوا على مافيه من النظم البديع ، والأسلوب العجيب الخارج عن طوق البشر ، ثم بين عز اسمه نفع هـذا القرآن لعباده ، وأنه سبحانه موصوف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص ، وأنه يصون رسوله عن السهو والنسيان فى أمر الوحى .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه السلام فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل إياه مخافة النسيان ، فنهى عن ذلك وقيل له : لاتعجل به إلى أن يستتم وحيه فيكون أخذك إياه عن تثبت وسكون ، والله يزيدك فهما وعلما .

الإيضاح

(وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا) أى ومثل إنزال ماذكر من الوعد والوعيد وبيان أحوال يوم القيامة وأهوالها - أنزلنا القرآن كله بأسلوب عربى مبين، ليتفهمه العرب الذين نزل عليهم ويتفقهوا بدراسته، ويسعدوا بالعمل بما حواه مما فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم.

(وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا) أى وخوفناهم فيه بضروب من الوعيد كى يجتنبوا الشرك والوقوع فى المعاصى والآثام، أو يحدث لهم عظة تدعوهم إلى فعل الطاعات.

وخلاصة ذلك — إنهم بدراستهم إما أن يصلوا إلى مرتبة هى ترك المعاصى والوقوع فى الآثام، وإما أن يرتقوا إلى مرتبة هى فوق ذلك، وهى أن يفعلوا الطاعات ويؤدوا الفرائض والواجبات.

وبعد أن عظم الله كتابه أردفه بتعظيم نفسه فقال:

(فتعالى الله الملك الحق) أى تقدس الله المتصرف بالأمر والنهى الحقيق بأن يرجى وعده ويخشى وعيده، وهو الثابت الذى لايزول ولا يتغير - من ألا يكون إنزال القرآن على من أنزل عليهم مؤديا إلى الغاية التى أنزل لأجلها وهى تركهم للمعاصى وفعلهم للطاعات.

ولا يخفى مافى هـذا من طلب الإقبال على دراسة القرآن وبيان أن قوارعه وزواجره سياسات إلٰهية فيها صلاح الدارين لايحيد عنها إلا من خذله الله، وأن ماتضمنه من الوعد والوعيد حق كله لا يحوم الباطل حول حماه، وأن المحق من أقبل عليه بشراشره، والمبطل من أعرض عن تدبر زواجره.

(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) أى ولا تعجل بقراءته فى نفسك من قبل أن يتم جبريل تبليغه لك، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا ألقى

عليه جبريل القرآن يتبعه حين يتلفظ بكل حرف وكل كلمة خوفا أن يصدر عليه السلام ولم يحفظه ، فنهى عن ذلك، إذ ربما يشغله التلفظ بالكلمة عن سماع مابعدها.

وفى هذا أنزل قوله تعالى : «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » .

وخلاصة ذلك — أنصت حين نزول الوحى بالقرآن عليك ، حتى إذا فرغ الملك من قراءته ، اقرأه بعده .

(وقل رب زدنى علما) أى سل الله زيادة فى العلم دون استعجال بتلاوة الوحى فإن ما أوحى إليك يبقى لامحالة ، روى الترمذى عن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ماينفعنى ، وزدنى علما ، والحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار » وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم زدنى إيمانا وفقها ، ويقينا وعلما .

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣)

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧) .

شرح المفردات

العهد : الوصية يقال عهد إليه الملك بكذا وتقدم إليه بكذا: إذا أمره وأوصاه به ، من قبل: أى من قبل وجود هؤلاء المخالفين، فنسى: أى فترك ، ولم نجد له : أى لم نعلم، والعزم على الشيء : تصميم الرأى والثبات عليه ، أبى : أى امتنع ، فتشقى : أى تتعب بمتاعب الدنيا وهى لاتكاد تحصى ، تظمأ : تعطش ، تضحى : أى تصيبك الشمس يقال ضحا كسعى وضحى كرضى : إذا أصابته الشمس بحرها اللافح ، شجرة الخلد : أى الشجرة التى إذا أكل منها الإنسان خلد ولم يمت، لايبلى: أى لايفنى، طفقا يخصفان أى شرعا يلزقان ورق التين على سوءاتهما لسترها ، غوى : أى ضل عن الرشد حيث اغترّ بقول عدوه ، واجتباه : اصطفاه وقربه إليه ، وهدى : أى إلى الثبات على التوبة عن ذكرى : أى عن الهداية بكتبى السماوية ، والضنك : الضيق الشديد ، أعمى : أى عن النظر فى الحجج والبراهين الإلهية ، عن آياتنا : أى عن أدلتنا ، فنسيتها : أى فتركتها ، وتنسى : أى تترك ، أسرف : أى انهمك فى الشهوات واسترسل فيها.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه صرّف الوعيد فى القرآن وكرره لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ـ قفى على هذا ببيان أنهم لم يلتفتوا إلى ذلك ونسوه كما لم يلتفت أبوهم آدم

إلى الوعيد ونسى العهد ، فمخالفتهم قديمة وعرقهم فيها راسخ . ثم فصل عهده لآدم وبين كيف نسيه وفقد العزم ، ثم ذكر عصيان إبليس للسجود لآدم وتحذيره من الخروج من الجنة إذا هو اتبع نصائحه ، وهو بعد كل هذا قد أطاع وساوسه وقبِل إرشاده ، فأكل من الشجرة التى نُهى عن الأكل منها ، فأُخرج من الجنة مع إعلامه بأن الشيطان عدو له ولذريته ، ثم بين أن من جاءه الهدى من ربه واتبعه عاش فى الدنيا قرير العين هادئ البال ، ويؤتى فى الآخرة ما شاء الله أن يؤتى من ألوان النعيم والسعادة ، ومن أعرض عن ذلك عاش فى الدنيا عيشة ضنكا ، إذ هو لشدة حرصه عليها يخاف انتقاصها ، ومن ثَمَّ يغلب عليه الشح والبخل ويفعل كل منكر فى سبيل جمع المال من أى وجه كان ولا يبالى أمن حلال كان أم من حرام ، ولذلك تراهم يقولون (الغاية تبرر الواسطة) . أما المؤمن الذى لايعنيه جمع حطام الدنيا فإنه فى سرور وراحة قلّ ماله أو كثر .

وهو فى الآخرة يكون أعمى عن الحجة التى تنقذه من ذلك الخزى الدائم والعذاب المقيم .

ثم أردف هذا ببيان سبب ذلك وهو إعراضه فى الدنيا عن الآيات البينات التى تهديه إلى سبيل الرشاد ، ومن ثم يسير فى جهالته إلى يوم القيامة ، وهذا مما يوجب له أشد الآلام الروحية من حين مماته إلى حين الحشر ، وهكذا يجازى الله المسرفين المكذبين بآياته فى الدنيا والآخرة جزاء وفاقا لما اجترحوا من السيئات ، وارتكبوا من الذنوب والآثام كما قال سبحانه : « لَهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ » .

الإيضاح

(ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما) أى ولقد وصينا آدم وقلنا له إن إبليس عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة ، فوسوس إليه الشيطان فأطاعه

وخالف أمرى وترك العهد الذى أمرته به ولم يهتم بالعمل به ، ولم نجد له ثباتا فى الرأى ولا تصميما فى العزيمة .

وخلاصة ذلك — إنه ترك ماوُصِّى به من الاحتراس من الأكل من الشجرة.

ثم بين سبحانه المعهود به وكيفية نسيانه وفقدان عزمه فقال :

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى) أى واذكر أيها الرسول الكريم ماوقع فى ذلك الحين منا ومن آدم حتى يستبين لك نسيانه وفقدان عزمه ، إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فلبوا الأمر إلا إبليس فإنه امتنع وأبى أن يكون مع الساجدين .

وقد تقدم هذا القصص فى سورة البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف ، وسيأتى ذكره فى سورة ص؛ وفيه إشارة إلى تكريم آدم وتشريفه وتفضيله على كثير ممن خلق .

(فقلنا يا آدم إن هـذا عدوٌّ لك ولزوجك) أى فقلنا له عقب ذلك رعاية لإرشاده ونصحه : إن هذا الذى رأيت منه ما رأيت ـ عدوٌّ لك ولزوجك ، ومن ثم لم يسجد لك وخالف أمرى وعصانى ، فلا تطيعاه فيما يأمركما به .

(فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) أى فلا يكونن سببا لإخراجكما من الجنة ، فتتعبا بمتاعب الدنيا التى لاتكاد تحصى .

وخلاصة ذلك — إياك أن تسعى فى إخراجك منها فتتعب وتشقى فى طلب رزقك ، وأنت هاهنا فى عيش رغيد هنىء بلا كلفة ولا مشقة .

ثم علل ما يوجبه النهى عن ذلك فقال :

(إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى. وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى) أى لا يكون لك فى الجنة جوع ولا عرى ، ولا ظمأ ولا إصابة بحر الشمس .

وقرن بين الجوع والعرى أوّلا ، لأن فى الجوع ذل الباطن وفى العرى ذل الظاهر ، و بين حر الباطن وهو العطش وحر الظاهر وهو الضحى ثانيا .

وخلاصة ذلك — إن الجنة اجتمعت فيها الأسباب التى توجب راحة الإنسان، وذلك مما يوجب الاهتمام بتحصيل الوسائل التى توجب البقاء فيها ، والابتعاد عما يدعو إلى الخروج منها .

وقصارى ذلك — إن لك فيها تمتعا بأنواع المعاش وتنعما بأصناف النعم من المآكل الشهية ، والملابس البهية .

و بعد أن بين أنه عظم آدم وعرفه شدة عداوة إبليس له ـ بين أنه قبل نصحه وأكل من الشجرة التى نهى عن الأكل منها فقال :

(فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى؟) أى فألقى الشيطان النصيحة إلى آدم وقال له : هل أدلك على شجرة إن أكلت منها خلدْتَ ولم تمت وملكت ملكا لاينقضى ولا يفنى .

(فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) أى فأكل آدم وحواء من الشجرة التى نهيا عن الأكل منها وأطاعا أمر إبليس وخالفا أمر ربهما ، فانكشفت عورتهما وكانت مستورة عن أعينهما ، فشرعا يلزقان ورق التين عليهما ليغطيا جسمهما .

(وعصى آدم ربه فغوى) أى وخالف أمر ربه ، وتعدى مالم يكن له أن يتعدى إليه من الأكل من الشجرة التى نهاه الله عن الأكل منها .

(ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) أى ثم اصطفاه ربه من بعد معصيته ورزقه التوبة والعمل بما يرضيه حين قال هو وزوجه : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

(قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو) أى قال الرب الذى انتهكت حرمة داره وخولف أمره . انزلا من الجنة إلى الأرض ، أنتما عدو لإبليس وذريته ، و إبليس عدوكما وعدوّ ذريتكما .

(فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) أى فإن يأتكم

يا آدم وحواء وذريتهما بيان لسبيلى وما أختاره لخلقى من دين بإرسال الرسل والكتب فمن اتبع ذلك وعمل به ولم يزغ عنه فإنى أهديه فى الدنيا وأرشده إلى محجة الصواب ولا يشقى فى الآخرة .

أخرج ابن أبى شيبة والحاكم والبيهقى عن ابن عباس قال : « أجار الله تابع القرآن من أن يضل فى الدنيا أو يشقى فى الآخرة ، ثم قرأ الآية » ، وروى عنه مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم « من اتبع كتاب الله هداه الله تعالى من الضلالة فى الدنيا ووقاه سوء الحساب يوم القيامة » .

(ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا) أى ومن أعرض عن ذكرى الذى أذكّره به وتولى عنه ولم يتعظ به فينزجر عما هو مقيم عليه من مخالفة أمر ربه ، فإن له معيشة ضيقة شديدة لما يكون فيه من القلق والحرص على الدنيا والتهالك على ازديادها والخوف من انتقاصها ، فترى الشح غالبا عليه ، والبخل راسخا فى أعراقه .

(ونحشره يوم القيامة أعمى) عن الجنة ، لأن الجهالة التى كانت له فى الدنيا تبقى كذلك فى الآخرة ، وهذا يصير سببا لأعظم الآلام الروحية له .

وقصارى ذلك — إن الله عز اسمه جعل لمن اتبع هداه وتمسك بدينه العيش الهنىء الذى لاهمّ فيه ولا غم ، وجعل لمن أعرض عن دينه التعب والنصب ، وهو فى الآخرة أشد تعبا وأعظم ضيقا وأكثر ألما .

(قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟) أى قال رب لم حشرتنى أعمى عن حجتى وعن رؤية الأشياء على حقيقتها ، وقد كنت فى الدنيا ذا بصر بذلك كله ؟ ، ونحو الآية قوله : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً » .

(قال) ربه مجيبا هذا السائل :

(كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أى فكما تركت آياتنا ترك المنسى الذى لايذكر أصلا وأعرضت عنها — اليوم ننساك فنتركك فى النار .

(وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه) أى وهكذا نعاقب من أسرف فعصى ربه ولم يؤمن برسله وكتبه ، فنجعل له معيشة ضنكا .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال فى الآية : يقول كل مال أعطيته عبدا من عبادى قل أو كثر لايتقينى فيه فلا خير فيه وهو الضنك فى المعيشة ، وعن عكرمة ومالك بن دينار نحوه ، وقيل إن تلك المعيشة له فى القبر بأن يعذب فيه ، وقد روى ذلك عن جماعة منهم ابن مسعود وأبو سعيد الْخُدْرِىّ ومجاهد ، وروى ذلك مرفوعا أيضا فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن حبان وابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له قبره سبعين ذراعا ويضىء حتى يكون كالقمر ليلة البدر ، وهل تدرون فيم أنزلت (فإن له معيشة ضنكا) ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً ، هل تدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية ، لكل حية سبعة رءوس يخدشونه ويلسعونه وينفخون فى جسمه إلى يوم يبعثون» .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : المعيشة الضنك فى النار شوك وزقوم وغسلين وضريع وليس فى القبر ولافى الدنيا معيشة ، وما المعيشة والحياة إلا فى الآخرة.

(ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) أى ولعذاب الآخرة فى النار أشد مما نعذبهم به فى الدنيا وأكثر بقاء ، لأنه لا أمد له ولا نهاية .

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا

مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) .

شرح المفردات

أفلم يهد لهم : أى أفلم يبين لهم العِبَر ، لأولى النهى : أى لذوى العقول الراجحة لزاما : أى لازما لهم لايتأخرعنهم ، فسبح بحمد ربك: أى اشتغل بتنزيه الله وتعظيمه آناء الليل : ساعاته واحدها إِنًى و إِنو (بكسر الهمزة وسكون النون) ولاتمدن عينيك: أى لاتطيلن النظر رغبة واستحسانا ، متعنا : أى جعلناهم يتلذذون بما يدركون من المناظر الحسنة ويسمعون من الأصوات المطربة ويشمون من الروائح الطيبة ، أزواجا: أى أشكالا وأشباها ، زهرة الحياة الدنيا : أى زينتها وبهجتها ، لنفتنهم : أى لنبتليهم ونختبرهم ، ورزق ربك : أى ما ادخره لك ، واصطبر عليها : أى دم عليها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال من أعرض عن ذكر الله فى الآخرة بقوله : ونحشره يوم القيامة أعمى ـ أتبعه بما يكون عبرة للمشركين لو تفكروا فيه ، وهو ما نزل بالمكذبين بالرسل ممن قبلهم من الأمم الذين يمرون بديارهم بكرة وعشيا كقوم عاد وثمود ، وكيف أصبحت ديارهم خرابا بلقعا ليس فيها ديّار ولا نافخ نار ، ثم بين أنه لولا سبق الكلمة بتأخير عذابهم إلى أجل مسمى لحاق بهم مثل ما حاق بمن قبلهم، ثم أمر رسوله بالصبر على ما يسمونه به من نحو قولهم : إنه ساحر ،و إنه شاعر، و إنه مجنون وعدم المبالاة بمقالتهم ، وعليه أن يكثر من التسبيح وعبادة ربه آناء الليل وأطراف النهار ولا يلتفت إلى شىء مما متع به الكفار من زهرة الدنيا التى أوتيت

لهم لتكون ابتلاء واختبارا ، وما عند الله خير منها وأبقى ، ثم طلب إليه أن يأمر أهله بالصلاة ويصطبر عليها ، وهو لا يكلفه رزقا لنفسه ولا لغيره ، فالله يرزقه من واسع فضله وعظيم عطائه ، والعاقبة لمن اتقى : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

الإيضاح

(أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ؟) أى أفلم يرشدهم إلى وجه العبر ، إهلاكنا كثيرا من الأمم الماضية والقرون الغابرة التى يمرون عليها مصبحين وبالليل؛ كعاد وثمود الذين يشاهدون آثارهم العظيمة الدالة على ما كانوا عليه من النعيم ثم ما حل بهم من صنوف البلاء ، فيتعظوا ويعتبروا ويؤمنوا بالله ورسوله خوف أن يصيبهم بكفرهم مثل ما أصاب هؤلاء السابقين .

وللمشاهدة من العبرة ما ليس لغيرها فقد قالوا « ليس الخُبْرُ كالخبَر » وقالوا : « ما راء كمن سمع » .

وخلاصة ذلك — إن فى مشاهدة ما حصل للأمم الماضية ، ورؤية آثارها البائدة التى يمرون عليها فى رحلاتهم فى الصيف لعبرةً وزاجرا لهم لو كانوا يعقلون .

ثم علل هذا الزجر والإنكار بقوله :

(إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) أى إن فيما يعاين هؤلاء ويرون من آثار وقائعنا بالأمم المكذبة لرسلنا وحلول المثلات بهم لكفرهم بربهم - لعبرًا وعظات لأرباب الحجا الذين ينهاهم دينهم ويؤنبهم عقلهم من مواقعة ما يضرهم .

ولما هدد المشركين بالهلاك كهلاك المكذبين من الماضين ، ذكر سبب تأخير ذلك عنهم فقال :

(ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزامًا وأجل مسمى) أى ولولا الكلمة النافذة التى سبقت منا فى الأزل ، وهى أن أمة محمد - وإن كذبوا - سيؤخر عذابهم

ولا يفعل بهم ما فعل بغيرهم من عذاب الاستئصال ، كما قال: « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » يعجل لهم العذاب كفاء ما قاموا به من تكذيب الرسول و إيذائه .

وقد جعل العلماء من الحكمة فى تأخير العذاب أنه ربما تاب بعضهم أو خرج من أصلاب بعضهم من يؤمن ، فيكون فى ذلك إكرام لنبيّه ، ورحمة لأمته ، وتكثير لسواد أتباعه ، و إلى ذلك أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : « و إنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » .

و بعد أن أخبر سبحانه بأنه لا يهلك أحدا قبل استيفاء أجله ـ أمره بالصبر على ما يقولون فقال :

(فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار) أى واصبر أيها الرسول على ما يقول هؤلاء المكذبون بآيات الله من نحو قولهم : إنك لساحر ، و إنك لمجنون ، و إنك لشاعر ، واشتغل بتنزيه الله تعالى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وفى ساعات الليل المختلفة وفى أطراف النهار ، والمراد من مثل ذلك عموم الأوقات ، وفى صحيح مسلم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا وقرأ هذه الآية » .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى يابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ، و إن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك » .

وعن زيد بن ثابت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من كانت

الدنيا همه فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له » .

(لعلك ترضى) أى سبحه رجاء أن تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك من الثواب .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى : يا أهل الجنة فيقولون: لبَّيْك ربَّنا وسَعدَيْك ، فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون ربنا ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول إنى أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » .

ولما صبر رسوله على ما يقولون وأمره بالتسبيح - أتبع ذلك بنهيه عن مدّ عينيه إلى ما متعوا به من زينة الدنيا فقال :

(ولا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) أى ولا تطل النظر استحسانا ورغبة فيما متع به هؤلاء المترفون من النعيم ، فإنما هو زهرة زائلة ، ونعمة حائلة ، نختبرهم بها ، ونعلم هل يؤدون شكرها أوتكون وبالاً عليهم ونكالاً لهم ، وقد آتاك ربك خيرا مما آتاهم ، فرضاه خير وأبقى كما قال : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » .

وخلاصة هذا — التنفير من الانهماك فى التمتع بزهرة الدنيا لسوء عاقبتها .

روى أبو رافع «أنه نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فأرسلنى إلى يهودى بالمدينة يستسلفه ، فأتيته فقال: لا أسلفه إلا برهن ، فأخبرته بذلك فقال : إنى لأمين فى أهل السماء وفى أهل الأرض ، فاحمل درعى إليه ، فنزل (ولا تمدن عينيك)الآية».

و بعد أن أمر الله نبيه بتزكية النفس أمره أن يأمر أهله بالصلاة فقال :

(وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى)

أى وأمر أهلك أيها الرسول بالصلاة وحافظ أنت عليها فعلا ، فإن الوعظ بالفعل أشد أثرا منه بالقول كما قال :

يأيها الرجل المعلم غيره   هلاّ لنفسك كان ذا التعليم

وإنا إنما نريد منك ومنهم العبادة والتقوى ، ولا نطلب منك رزقا كما تطلب السادة من عبيدهم الخراج - والعاقبة الجميلة لمن اتقى الله وأطاعه ، فإن ماعندهم ينقطع، وما عند الله دائم لايفنى كما قال : « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ » .

والخلاصة — داوم على الصلاة ، لانكلفك مالاً ، بل نكلفك عملا نؤتيك عليه أجرا عظيما وثوابا جزيلا ، ونحن نعطيك المال ونكسبكه ولا نسألكه ، والعاقبة الصالحة لأهل الخشية والتقوى لا لمن لايخاف له عقابا ولا يرجو ثوابا كما قال : « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » وقال : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

عن أبى رافع قال : « نزل ضيف برسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن عنده مايصلحه فأرسلنى إلى رجل من اليهود أن بعنا أو أسلفنا دقيقا إلى هلال رجب ، فقال لا إلا برهن فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال أما والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ، ولئن أسلفنى أو باعنى لأدّيت إليه، اذهب بدرعى الحديد، فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية كأنه يعزيه عن الدنيا » أخرجه البزار وأبو يعلى وابن أبى شيبة فى جماعة آخرين .

وأخرج ابن المنذر والطبرانى وأبو نعيم فى الحلية عن عبد الله بن سلام قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة وتلا : وأمر أهلك بالصلاة .

وأخرج مالك والبيهقى عن أسلم قال : كان عمر بن الخطاب يصلى من الليل

ما شاء الله تعالى أن يصلى حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة ويقول لهم : الصلاةَ الصلاةَ ويتلو هذه الآية .

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥) .

شرح المفردات

لولا : أى هلا ؛ وهى كلمة تفيد الحث على حدوث ما بعدها ، آية : أى معجزة تدل على صدقه ، البينة : القرآن ، والصحف الأولى : التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية ، نذل : أى نهان ، ونخزى: أى نفتضح ، متربص : أى منتظر، الصراط : الطريق ، والسوىّ : أى المستقيم .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه رسوله بالصبر على أقاويلهم التى أرادوا بها تكذيبه والكيد له وشديد الأذى به ــ حكى بعض تلك الأقاويل الباطلة ، ومنها ادعاؤهم أن القرآن ليس بحجة ولا معجزة تدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أبان لهم أنهم يوم القيامة سيعترفون بأنه آية بينة ، فلو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ، ومن ثم لم نهلكهم قبله حتى تنقطع معذرتهم كما حكى الله عنهم من قوله : « قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ » .

ثم ختم السورة بضرب من الوعيد فقال : قل لهم كل منا ومنكم منتظر لما يئول إليه أمرنا وأمركم ، وحينئذ يتميز المحق من المبطل بما يظهر على الأول من أنواع الكرامة والتعظيم ، وعلى الثانى من ضروب الخزى والإهانة ، ويظهر مَن مِنّا سار على الطريق السوى ومن المهتدى ؟ .

الإيضاح

(وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه) أى وقال المشركون : هلا يأتينا بمعجزة تدل على صدقه فى دعوى النبوة كما أتى صالح قومه بالناقة وموسى بالعصا وعيسى بإحياء الموتى وإبراء الأكمه ، وهم بذلك قد بلغوا فى العناد والمكابرة شأوا بعيدا ، أفلا يعدّون ما شاهدوه من المعجزات التى تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات حتى يجترئوا على التفوّه بهذه الكلمة الشنعاء ؟ .

ونحو الآية قوله فى سورة العنكبوت : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » وقوله : « فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ » .

(أولم تأتهم بينة مافى الصحف الأولى ؟) أى ألم يأتهم القرآن وهو أم الآيات وأنفع المعجزات ، فالعلم هو أجلّ الأمور وأعلاها ، وهو مبدأ الأمور ومنتهاها ، فبه تنال السعادة الأبدية ، فأى معجزة تطلب بعده ، وهو الذى جمع مافيه مصلحة البشر وصلاح المجتمع فى معاشه ومعاده ، وهو الشاهد على حقية مافى الكتب قبله وما جاء فيها من العقائد وأصول الأحكام التى اتفقت عليها الرسل كافة .

وخلاصة ذلك — أليس قد جاءهم القرآن وهو البينة والشاهد على صحة مافى الكتب الأولى ، وكفى بذلك آية ، ولا حاجة للرسول بعدها إلى آية .

ثم بين أن المشركين يوم القيامة يعترفون بأن القرآن آية بينة، فقال :

(ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) أى ولو أنا أهلكناهم فى الدنيا بعذاب الاستئصال من قبل إتيان البينة وهى القرآن لقالوا يوم القيامة : ربنا هلا أرسلت إلينا فى الدنيا رسولا معه الآيات الدالة على صدقه ، فنتبع حججك وما تنزله عليه من أمرك ونهيك من قبل أن نذل بتعذيبك ونفتضح به .

والخلاصة — إنا لو أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، وننزل عليهم الكتاب العظيم ـ لقالوا: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه ، لكنا لم نهلكهم قبله فانقطعت معذرتهم .

(قل كل متربص فتربصوا ، فستعلمون من أصحاب الصراط السوىّ ومن اهتدى) أى قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المشركين بالله : كلنا منتظر لمن يكون الفلاح ؟ وإلام يئول أمرى وأمركم ؟ فتربصوا وارتقبوا ، فستعلمون من أهل الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه إذا جاء أمر الله وقامت القيامة ؟ أنحن أم أنتم ؟ وستعلمون من المهتدى الذى هو على سنن الطريق القاصد ؟ .

ونحو الآية قوله : « وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً؟ » وقوله : « سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ » .

وغير خافٍ مافى بدء السورة وخاتمتها من المناسبة ، فإنها بدئت ببيان أن القرآن قد أنزل لتحمل تعب الإبلاغ ، وحيث قد بلغتَ فلا عليك ، وختمت بطلب الإقبال على طاعة الله قدر الطاقة وأمر أهله بالصلاة وترك الذين لاينجع فيهم الإنذار ، فإنه تذكرة لمن يخشى ، وسيندم المخالف حيث لاينفع الندم .

خلاصة لما تضمنته السورة الكريمة

(١) إن القرآن أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم تذكرة لمن يخشى ، أنزله من خلق الأرض والسموات العلى .

(٢) قصص موسى عليه السلام وتكليمه ربه فى الطور ، وحديث العصا واليد البيضاء من غير سوء ، وطلبه من ربه أن يجعل له أخاه هرون وزيرا وإجابة سؤاله فى ذلك ، وامتنانه عليه بما حدث له حين وضع فى التابوت وألقى فى اليمّ وقصّ أخته ورجوعه إلى أمه ، ثم طلب ربه منه أن يبلغ فرعون دعوته وينصح له فى قبول دينه وإقامة شعائره ، وإجابة فرعون له بأنه ساحر كذاب ، وأنه سيجمع له السحرة ثم إيمان السحرة به فتوعدهم فرعون بالعذاب فلم يأبهوا له ، واستمر فرعون فى غيه حتى أوحى الله إلى موسى أن يخرج من مصر فأتبعه هو وجنوده فأغرقوا .

(٣) حديث السامرى وإضلاله بنى إسرائيل باتخاذه عجلا جسدا له خوار حين كان موسى بالطور ، وحين رجع ورأى ذلك هاله الأمر وغضب من أخيه هرون وأخذ يجره من رأسه ، ثم إغلاظه القول للسامرى ودعوته عليه بأنه يعيش طريدا فى الحياة وسيعذبه الله فى الآخرة أشد العذاب ، ثم نسف إلهه وإلقاؤه فى اليمّ .

(٤) بيان أن من أعرض عن القرآن فإنه سيلقى الجزاء والوبال يوم القيامة .

(٥) ذكر أوصاف المجرمين حينئذ ، وأنهم يختلفون فى مدة لبثهم فى الدنيا .

(٦) سؤال المشركين عن حال الجبال يوم القيامة ، وأن الأصوات حينئذ تخشع للرحمن فلا تسمع إلا همسا ، وأن الوجوه تخضع لربها القائم بأمرها .

(٧) وصف القرآن الكريم بأنه عربى مبين أنزل تذكرة للناس ، وأن الله سيعصم رسوله من نسيانه ، فلا ينبغى أن يعجل بتلاوته قبل أن يتم تبليغ جبريل له .

(٨) قصص آدم عليه السلام مع إبليس ، وترك آدم للعهد الذى وصاه به ربه ، وقبول نصيحة إبليس مما كان سببا فى إخراجه من الجنة .

(٩) بيان أن من أعرض عن ذكر ربه عاش فى الدنيا عيشة ضنكا وعمى فى الآخرة عن الحجة التى تنقذه من العذاب، لأنه قد كان فى الدنيا أعمى عنها تاركا لها فتركه ربه من إنعامه.

(١٠) بيان أن فى المثلات التى سلفت للأمم قبلهم ممن يمرون على ديارهم مصبحين وبالليل كعاد وثمود - ما كان ينبغى أن يكون رادعا لهم وزاجرا لو تدبروا وعقلوا.

(١١) إن كلمة الله قد سبقت بأنه سيؤخر عذاب المشركين إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة.

(١٢) طلبه من رسوله تنزيهه والثناء عليه آناء الليل وأطراف النهار رجاء أن يعطيه ما يرضيه.

(١٣) أمر رسوله أن يأمر أهله بالصلاة ويصطبر هو عليها وهى لاتكون شاغلا لهم عن الرزق.

(١٤) طلب المشركين من الرسول أن يأتيهم بآية من نوع ماأوتى الرسل الأولون.

(١٥) إن إنزال القرآن على رسوله ليزيح العلة ويمنع المعذرة يوم القيامة، فلا يقولون: لولا أرسلت إلينا رسولا وأتيتنا بكتاب نتبعه.

(١٦) وعيد المشركين بأنهم يتربصون، وسيعلمون يوم القيامة لمن يكون حسن العاقبة؟

ربنا إنك رءوف بعبادك رحيم بهم، ربنا اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وصل ربنا على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمت مسودة هذا الجزء فى صبيحة اليوم الرابع والعشرين من شوال سنة ثلاث وستين وثلثمائة وألف بعد الهجرة بمدينة حلوان من أرباض القاهرة.

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٤	فى الحديث رحمة الله علينا وعلى موسى .
٧	إذا تعارض ضرران وجب تحمل الأدنى .
٨	لايقضى الله لمؤمن قضاء إلا كان خيرا له .
٩	لذكر قصص الخضر فى القرآن فوائد .
١٣	يأجوج ومأجوج .
١٥	سد ذى القرنين .
١٩	سبب خروج جنكيزخان .
٢٢	فى الحديث كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم قرنه .
٢٦	ما أثبته العلم الحديث فى عمر الأرض .
٢٨	الشمس أكبر من الأرض بمليون وثلثمائة ألف مرة .
٣٤	دعاء زكريا ربه .
٣٥	إجابة الله دعاءه .
٣٧	علامة إجابة الدعاء .
٣٩	ما وصف الله به يحيى .
٤٢	الاستعاذة لاتؤثر إلا فى التقى .
٤٥	السعى فى الرزق لاينافى التوكل .
٤٧	من هرون الذى نسبت إليه مريم ؟
٤٨	ما وصف به عيسى نفسه .

الصفحة	المبحث
٤٩	اليهود والنصارى ينكرون تكلم عيسى فى المهد .
٥٢	قوة سمع الكفار وحدة أبصارهم يوم القيامة .
٥٥	الحوار الذى دار بين إبراهيم وأبيه آزر .
٥٩	قد اجتمعت لإبراهيم خلال لم تجتمع لغيره .
٦١	قصص إسماعيل .
٦٣	قصص إدريس – ما وصفه الله به .
٦٥	ما جازى به سبحانه أولئك الأنبياء .
٦٨	التائب من الذنب كمن لاذنب له .
٦٨	أوصاف الجنة .
٧٠	احتبس جبريل عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وسلم أياما .
٧١	لاتتنزل الملائكة بالوحى إلا بأمر الله .
٧٣	جميع الخلائق ترد على النار .
٧٤	تهديد منكرى البعث .
٧٥	ينجى الله المتقين ويترك الكافرين جاثين على الركب .
٧٨	سنة الله أن يستدرج أهل الضلال ليزدادوا إثما .
٧٩	الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا .
٨٠	قال الكافر لأعطينّ مالا وولدا يوم القيامة .
٨٢	اتخذ المشركون آلهة يعبدونهم ويجعلونهم شفعاء عند ربهم .
٨٣	الشياطين يغرون الكافرين بالمعاصى .
٨٤	يحشر المتقون ركبانا والكافرون مشاة .
٨٦	قال الكافرون اتخذ الرحمن ولدا .
٨٧	يأتى المرء يوم القيامة وحيدا منفردا عن الأهل والإخوان .
٨٨	فى الحديث اللهم اجعل لى عهدا واجعل لى فى صدور المؤمنين ودا .

الصفحة	المبحث
٩٤	أصح الآراء فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور .
٩٥	القرآن تذكرة لمن يخشى الله .
٩٨	ما حدث لموسى وهو عائد إلى مصر
١٠٠	أمر موسى بإقامة الصلاة .
١٠٢	صفات العصا .
١٠٤	اليد البيضاء .
١٠٥	أمر موسى بدعوة فرعون إلى التوحيد .
١٠٦	ما طلبه موسى من ربه .
١٠٧	اختص هرون بأمور .
١٠٩	منن الله على موسى وهرون .
١١٣	تبليغ موسى وهرون الرسالة إلى فرعون .
١١٩	الدلائل التى أتى بها موسى لفرعون .
١٢٠	العناد الذى أظهره فرعون بعد أن أظهر له موسى الأدلة .
١٢٢	ما أعده فرعون ليوم الزينة .
١٢٥	خلاصة ما استقر رأى السحرة عليه بعد التشاور .
١٢٥	ما ذكره السحرة لدفع هذا الخطر .
١٢٧	تخيير موسى بين أن يلقى أو يلقى السحرة .
١٢٨	ما حشا به السحرة عصيهم .
١٢٩	لايفلح الساحر حيث أتى .
١٣٠	ما قاله فرعون للسحرة مهددا لهم .
١٣٢	أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء بررة .
١٣٣	إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب العابر .

الصفحة	المبحث
١٣٥	نعمة الله على بنى إسرائيل .
١٣٩	أضل السامرى قومه بنى إسرائيل .
١٤٢	عتاب موسى لهرون على سكوته على بنى إسرائيل .
١٤٤	كان موسى رجلا حديدا مجبولا على التصلب فى كل شىء .
١٤٥	مقالة موسى للسامرى ورده عليه .
١٤٦	خاف السامرى وهرب إلى البرّية .
١٤٨	فى قصص الأنبياء الماضين عبرة وتسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم .
١٤٩	يحشر المجرمون زرق الوجوه شاحبى الألوان .
١٥١	قال المشركون للرسول صلى الله عليه وسلم ما يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة ؟
١٥٢	الشفاعة لاتنفع إلا بشروط .
١٥٣	تستسلم الخلائق للحى الذى لايموت .
١٥٤	نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن العجلة بالقرآن قبل أن يستتم الوحى .
١٥٦	كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انفعنى بما علمتنى الخ .
١٥٩	نصح آدم وإرشاده .
١٦٠	وسوسة إبليس لآدم .
١٦١	من اتبع هدى الله فلا يضل ولا يشقى .
١٦٤	فى إهلاك من قبلهم من الأمم عبرة لهم .
١٦٥	رؤية الله سبحانه يوم القيامة .
١٦٩	طلب المشركين من النبى صلى الله عليه وسلم آية كآيات موسى وعيسى .
١٧٠	لايعذب الله أمة إلا إذا أرسل إليها رسولا .

A50

تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء السابع عشر

مكتبة العرب
لصاحبها
الشيخ يوسف توما البستاني
شارع الفجالة
بمصر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء السابع عشر

سورة الأنبياء

هى مكية وآيها اثنتا عشرة ومائة .

أخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال : « بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادى » .

وعن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه وكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه الرجل فقال : إنى استقطعت رسول الله واديا ما فى ديار العرب واد أفضل منه ، وقد أردت أن أقطع إليك قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك ، فقال عامر : لاحاجة لى فى قطعتك ، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ، يريد هذه السورة .

ومناسبتها لما قبلها .

أن السورة السالفة ختمت بأن الناس قد شغلتهم زهرة الدنيا التى جعلها الله لهم فتنة ، وأن الله نهى رسوله أن يتطلع إليها ، وأمره بالصلاة والصبر عليها ، وأن العاقبة للمتقين ـ وبدئت هذه السورة بمثل ما ختمت به السالفة ، فذكر فيها أن الناس غافلون عن الساعة والحساب ، وأنهم إذا سمعوا القرآن استمعوه وهم لاعبون ، وقلوبهم لاهية عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

اُقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ
مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاَهِيَةً
قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ؟
أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّمَاء
وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ
بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ
مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) .

شرح المفردات

اقترب وقرب بمعنى ، والمراد من اقتراب الحساب اقتراب زمانه : وهو مجىء الساعة ، والناس : هم المكلفون ، معرضون : أى عن التأهب لهذا اليوم ، من ذكر: أى قرآن، محدث: أى جديد إنزاله، يلعبون: أى يسخرون ويستهزئون، لاهية قلوبهم: أى غافلة قلوبهم عن ذكر الله ، النجوى : التناجى ، والمراد أنهم أخفوا تناجيهم ولم يتناجوا بمرأى من غيرهم ، أضغاث أحلام : أى تخاليط أحلام رآها فى النوم ، افتراه : اختلقه من تلقاء نفسه ، بل : كلمة تذكر للانتقال من غرض إلى آخر ولا تذكر فى القرآن إلا على هذا الوجه كما قال ابن مالك وسبقه إليه صاحب الوسيط ووافقه ابن الحاجب وهو الحق .

الإيضاح

(اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) أى دنا حساب الناس على أعمالهم التى عملوها فى دنياهم ، وعلى النعم التى أنعمها عليهم ربهم فى أجسامهم وعقولهم ومطاعمهم ومشاربهم ، ماذا عملوا فيها ؟ هل أطاعوه فيها فانتهوا إلى أمره ونهيه ؟ أو عصوه فخالفوا أمره فيها ، وهم فى هذه الحياة فى غفلة عما يفعل الله بهم يوم القيامة ، ومن ثم تركوا الفكر والاستعداد لهذا اليوم والتأهب له ، جهلا منهم بما هم لاقوه حينئذ من عظيم البلاء وشديد الأهوال ؛ وآثر بيان اقتراب هذا اليوم مع أن الكلام مع المشركين المنكرين للبعث ، للإشارة إلى أن البعث لاريب فيه ، وأن الذى يرجى بيانه ذكر ما يستتبعه من الأحوال والأهوال كالحساب الموجب للاضطراب على وجه أكيد ونهج سديد .

وخلاصة ذلك — إنه قد دنا وقت الساعة وهم غافلون عن حسابهم ، ساهون لايتفكرون فى عاقبتهم ، مع أن قضية العقل تقضى بجزاء المحسن والمسىء ، وإذا هم تنبهوا من غفلتهم بما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا عنه وسدوا أسماعهم عن سماعه .

ثم ذكر ما يدل على غفلتهم وإعراضهم بقوله :

(ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون. لاهية قلوبهم) أى ماينزل الله من قرآن ويذكرهم به ويعظهم إلا استمعوه وهم لاهون لاعبون مستهزئون.

والخلاصة — إنه ما جدد لهم الذكر وقتا فوقتا وكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون ، إلا زادهم ذلك سخرية واستهزاء .

وفى هذا ذم لأولئك الكفار وزجر لغيرهم عن مثله ، فالانتفاع بما يسمع لا يكون إلا بما يرجع إلى القلب من تدبر وتفكر ، وإلا حصل مجرد الاستماع الذى تشارك البهيمة فيه الإنسان .

وبعد أن ذكر ما يظهرونه حين الاستماع من اللهو واللعب، ذكر مايخفونه بقوله:

(وأسروا النجوى الذين ظلموا) أى وأسرّ هؤلاء الذين اقتربت الساعة منهم وهم فى غفلتهم معرضون - التناجى بينهم وأخفوه عن سواهم.

ثم بين ماتناجوا به فقال:

(هل هذا إلا بشر مثلكم ؟) أى قالوا فى تناجيهم متعجبين من دعواه النبوة هل هذا الذى آتاكم بهذا الذكر إلا بشر مثلكم فى خَلْقه وأخلاقه ، يأكل كما تأكلون، ويشرب كما تشربون، ويموت كما تموتون، فكيف يختص دونكم بالرسالة؟

(أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) أى ماهذا الذى أتى به مما لاتقدرون عليه إلا سحر لاحقيقة له ، فكيف تعلمون ذلك ثم تذعنون له وتتبعونه وتجيبون دعوته.

وخلاصة ذلك — إنهم طعنوا فى نبوته بأمرين :

(١) إن الرسول لا يكون إلا ملكا .

(٢) إن الذى يظهر على يديه من قبيل السحر.

وإنما أسروا ذلك ، لأنه كالتشاور بينهم والتحاور لطلب الطريق الموصل إلى هدم دينه ، وقد جرت عادة المتشاورين فى خطب عظيم ألا يشركوا أعداءهم فى مشورتهم ، بل يجتهدون فى طىّ سرهم عنهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا كما جاء فى حكمهم : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » .

فأجابهم عليه السلام عما قالوا :

(قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم) أى قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : إنكم وإن أخفيتم قولكم وطعنكم فىّ ، فإن ربكم عليم بذلك وإنه معاقبكم عليه ، وهو السميع لجميع المسموعات ، العليم بجميع المعلومات .

وفى هذا من الوعيد والتهديد ما لايخفى .

وإنما آثر كلمة (القول) التى تعم السر والجهر دون كلمة (السر) التى تقدمت

فى الكلام - للإيذان بأن علمه تعالى بالأمرين على وتيرة واحدة ، لاتفاوت فيه بالجلاء والخفاء كما فى علوم العباد .

وخلاصة ذلك — إنه يعلم هذا الضرب من الكلام وأعلى منه وأدنى منه ، وفى هذا مبالغة فى علمه تعالى بكل ما يمكن أن يسمع أو يعلم .

ثم بين سبحانه أنهم اقتسموا القول فى النبى صلى الله عليه وسلم وفيما يقوله فقال:

(بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر) أى إنهم لم يقتصروا على قولهم السابق (هل هـذا إلا بشر مثلكم) وعلى قولهم فيما ظهر على يديه إنه سحر - بل قال بعضهم : أخلاط أحلام قد رآها فى النوم ، وقال آخرون : بل اختلقه من تلقاء نفسه ونسبه إلى الله ، وقال قوم : بل هو شاعر وما أتى به شعر يخيل إلى السامع معانى لاحقيقة لها .

وخلاصة ذلك — إنهم ما صدقوا بحكمة هذا القرآن ولا أقروا أنه من عند الله، ولا أنه وحى أوحاه الله إليه ، بل قالوا هذه المقالات .

وهذا الاضطراب والتردد فى القول دأب المحجوج المغلوب على أمره ، لايتردد إلا بين باطل وأبطل منه ، ويتذبذب بين فاسد وأفسد منه .

وقد ذكرت هذه المقالات على هذا الوضع ، إشارة إلى ترقيها فى الفساد ، فإن كونها سحرا أقرب من كونها أضغاث أحلام فقد يقال : « إن من البيان لسحرا » ، بخلاف تخاليط الكلام التى لاتنضبط ولا شبه لها بهذا النظم البديع ، وادعاء كونها مفتريات أبعد وأبعد ، لأنه عليه السلام قد شهر بالأمانة والصدق - إلى أنهم أعرف الناس بالفرق بين المنظوم والمنثور ، وبين ما يساق له الشعر، وما سيق له هذا الكلام، إلى أنهم يعلمون من مخالطته مدى أربعين سنة أنه لايتسهل له الشعر وإن أراده .

ولما قدحوا فى القرآن طلبوا آية أخرى غيره فقالوا :

(فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) أى إن كان صادقا فى أن الله بعثه رسولا إلينا وأن الذى يتلوه وحى أوحاه الله إليه - فليأتنا بحجة تدل على ما يقول ويدعى كما جاء

به الرسل الأولون من قبله من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وناقة صالح وما أشبه ذلك من المعجزات التى لايقدر عليها إلا الله ولا يأتى بها إلا الأنبياء والرسل .

وفى التعبير بقولهم (كما أرسل الأولون) بيان كونها آيات مسلمات تثبت الرسالة بمثالها ، ويترتب عليها المقصود ، وليس لأحد أن ينازع فيها .

ثم كذبهم سبحانه فيما تضمنته خاتمة مقالهم من الوعد بالإيمان حين إتيان الآية المقترحة ، وبين أن فى ترك إجابتهم عما طلبوا - إبقاء عليهم فإنهم لو أوتوها ولم يؤمنوا بها لاستئصلوا بالعذاب كما هى سنة الله فى الأمم السالفة إذا كذبت رسلها بعد إتيانهم بما اقترحوا ، ولكن قد سبقت كلمة الله أن مشركى هذه الأمة لايعذبون بعذاب الاستئصال فقال :

(ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ؟) أى إن هؤلاء أشد عتوًّا من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات ووعدوا أنهم يؤمنون حين مجيئها ، فلما جاءتهم نكثوا العهد وخالفوا ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فلو أعطوا ما اقترحوا لكانوا أشد نكثا ، فينزل بهم عذاب الاستئصال ، وقد سبقت كلمة ربك أنه سيؤخر عذابهم إلى اليوم المعلوم .

قال قتادة : قال أهل مكة للنبى صلى الله عليه وسلم إذا كان ماتقوله حقا ويسرك أن نؤمن فحوّل لنا الصفا ذهبا ، فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان الذى سألك قومك ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا لم يُنْظَروا ، وإن شئت استأنيت بقومك ، قال بل أستأنى بقومى فأنزل الله ما آمنت قبلهم الآية .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (١٠) .

شرح المفردات

أهل الذكر : هم أهل الكتاب ، الجسد : كالجسم إلا أنه لايقال لغير الإنسان كما قال الخليل بن أحمد ، خالدين : أى باقين ، الوعد : هو نصرهم و إهلاك أعدائهم، المسرفين : أى الكافرين ، ذكركم : أى عظتكم ، تعقلون : أى تتدبرون مافى تضاعيفه من العبر والمواعظ .

المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه فيما سلف إنكارهم لأن يكون الرسول بشرا بقولهم «هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » أجاب عن هذه الشبهة بأن هذه سنة الله فى الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، فليس محمد بيدع من الرسل ، و إن كنتم فى ريب من ذلك فاسألوا أهل الكتاب من قبلكم ، ثم ذكر أن الرسل كسائر البشر فى سنن الطبيعة البشرية يأكلون الطعام ولا يخلدون فى الأرض ، بل يموتون كما يموت سائر الناس ، وقد صدقهم الله وعده ، فينجيهم ومن آمن بهم ويهلك المكذبين لهم ، وأعقب ذلك بأن فى القرآن عظة لهم لو كانوا يعقلون ما فى تضاعيفه من مواعظ وزواجر ووعد ووعيد .

الإيضاح

(وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم) أى وما أرسلنا قبلك أيها الرسول رسولا إلى أمة من الأمم التى خلت من قبلك إلا رجلا مثلهم نوحى إليه ما نريد من أمرنا ونهينا ، لاملكا نوحى إليه بوساطة الناموس ما نوحى من الشرائع والأحكام والقصص والأخبار ، فما بالهم لايفهمون أنك لست بدعا من الرسل ؟ .

وقد جاء بمعنى الآية قوله : « وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ

أَهْلِ الْقُرَى » وقوله : « قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ » وقوله حكاية عمن تقدم من الأمم : « أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ؟ » .

ثم أمرهم سبحانه أن يسألوا فى ذلك أهل الكتاب من اليهود والنصارى تبكيتا لهم وإزالة لما علق بأذهانهم من الاستبعاد بعد أن بين لهم وجه الحق فقال :

(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) أى فاسألوا أهل الكتاب ممن يؤمن بالتوراة والإنجيل - يخبروكم عن ذلك إن كنتم لاتعلمون الحق ولايستبين لكم الصواب.

و بعد أن بين أنه صلى الله عليه وسلم على سنة من مضى من الرسل فى كونه رجلا - بين أنه على سنتهم فى سائر الأوصاف التى حكم بها على البشر فى معيشتهم وموتهم فقال :

(وما جعلناهم جسدا لايأكلون الطعام وما كانوا خالدين) أى وما جعلنا الرسل الذين أرسلناهم من قبلك إلى الأمم الماضية قبل أمتك - جسدا لايأكلون الطعام : أى لم نجعلهم ملائكة لايأكلون الطعام ، بل جعلناهم أجسادا مثلك يأكلون الطعام وتعرض لهم أطوار البشر جميعا من صحة ومرض وسرور وحزن ونوم ويقظة ، وما كانوا مخلدين لايموتون ولا يفنون ، ولكنهم غبروا حينا من الدهر وهم أحياء ثم طواهم الثرى وضمتهم القبور .

وخلاصة ذلك — إنا جعلنا الرسل أجساما تتغذى حين الحياة ، ثم يصير أمرها إلى الفناء بعد استيفاء آجالها ، ولم نجعلهم ملائكة لايتغذون ، وما كانوا مخلدين بأجسادهم ، بل يموتون كما مات الناس قبلهم و بعدهم ، و إنما امتازوا عن غيرهم من سائر الناس بما يأتيهم عن الله من الوحى والزلفى عنده .

(ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين) أى إنا أرسلنا رسلا من البشر وصدقناهم وعدنا فنصرناهم على المكذبين وأنجيناهم هم ومن آمن معهم وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بتكذيبهم رسل ربهم .

ونحو الآية قوله : « فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » .

و بعد أن حقق رسالته صلى الله عليه وسلم ببيان أنه كسائر الرسل الكرام ـ شرع يحقق فضل القرآن الكريم و يبين نفعه للناس بعد أن ذكر فى صدر السورة اعراض الناس عما يأتيهم من آياته واضطرابهم فى شأنه فقال :

(لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم) أى ولقد آتيناكم كتابا فيه عظتكم بما إشتمل عليه من مكارم الأخلاق وفاضل الآداب وسديد الشرائع والأحكام مما فيه سعادة البشر فى حياتهم الدنيوية والأخروية .

ثم حثهم على التدبر فى أمر هذا الكتاب فقال :

(أفلا تعقلون ؟) أى أفلا تتفكرون فيما فى تضاعيفه من فنون المواعظ وقوارع الزواجر ، فتحذروا الوقوع فيما يخالف أمره ونهيه ، ولا يخفى مافى هذا من الحث على التدبر ، لأن الخوف من لوازم العقل ، فمن لم يتدبر فكأنه لاعقل له .

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَاهُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥) .

شرح المفردات

كم : لفظ يفيد تكثير وقوع ما بعدها ، القصم : هو الكسر بتفريق الأجزاء و إذهاب التئامها ، والإحساس : الإدراك بالحاسة : أى أدركوا بحاسة البصر عذابنا

الشديد ، والبأس : الشدة ، والركض : الفرار والهرب ؛ يقال ركض الرجل الفرس برجليه إذا كدّه بساقيه ثم كثر حتى قيل ركض الفرس إذا عدا ومنه « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ » والإتراف : إبطار النعمة يقال أترف فلان: أي وسع عليه فى معاشه وقل فيه همه ، يا ويلنا : أى يا هلاكنا ، دعواهم : أى دعوتهم التى يرددونها ، حصيد : أى كالزرع المحصود بالمناجل ، خامدين : أى كالنار التى خمدت وانطفأت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه سبحانه أهلك المسرفين فى كفرهم بالله والعاصين لأوامره ونواهيه - بين هنا طريق إهلاكهم وكثرة ما حدث من ذلك فى كثير من الأمم ، ثم بين أنه أنشأ بعد الهالكين قوما آخرين ، وأنهم حينما أحسوا بأس الله فروا هاربين فقيل لهم على ضرب من التهكم والسخرية فلترجعوا إلى ما كنتم فيه من الترف والنعيم وإلى تلك المساكن المشيدة والفرش المنجدة ، فلعلكم تسألون عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومنازلكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة ، ثم بعد أن يئسوا من الخلاص وأيقنوا بالعذاب قالوا هلاكا لنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا ، مستوجبين العذاب بما قدمنا ، وما زالوا يكررون هذه الكلمة ويرددونها وجعلوها هِجّيراهم حتى صاروا كالنبات المحصود والنار الخامدة .

الإيضاح

(وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين) أى وكثير من أهل القرى أهلكناهم بكفرهم بالله وتكذيبهم رسله ، ثم أنشأنا بعد إهلاكهم أمما أخرى سواهم .

ونحو الآية قوله « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ » وقوله « فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا » .

ثم بين حالهم حين حلول البأس بهم فقال :

(فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون) أى فلما أيقنوا أن العذاب واقع بهم لامحالة كما أوعدهم أنبياؤهم - إذا هم يهربون سراعا عجلين يعْدُون منهزمين .

والخلاصة — إنهم لما علموا شدة بأسنا وبطشنا علم حس ومشاهدة ركضوا فى ديارهم هاربين من قراهم بعد أن كانوا قد تجبروا على رسلهم وقالوا لهم « لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا » .

ثم ذكر أنهم فى ذلك الحين جديرون أن يقال لهم .

(لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون) أى يقال لهم على طريق الاستهزاء والتهكم : لا تركضوا هاربين من نزول العذاب ، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمساكن الطيبة والفُرُش المنجّدة الوثيرة ، لعلكم تُقصدون للسؤال عما يجرى عليكم وينزل بأموالكم ومساكنكم ، فتجيبوا السائلين عما تشاهدون وتعلمون .

ثم ذكر ما أجابوا به القائلين لهم لا تركضوا وارجعوا فقال :

(قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين) أى قالوا حين يئسوا من الخلاص إذ نزل بهم بأس الله بظلمهم أنفسهم : هلاكا لنا لكفرنا بربنا - وهذا منهم اعتراف بالكفر المستتبع للعذاب ، وندم عليه حين لا ينفع الندم :

ندم البغاة ولات ساعة مندم	والبغى مرتع مبتغيه وخيم

(فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين) أى فما زالوا يرددون هذه المقالة ويجعلونها هِجِّيراهم حتى حصدوا حصدا ، وخمدت حركاتهم ، وهدأت أصواتهم ، ولم ينبسوا ببنت شفة .

وخلاصة هذا — إنهم صاروا يكررون الاعتراف بظلم أنفسهم ولكن لم ينفعهم ذلك كما قال : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » حتى لم يبق لهم حس ولا حركة ، وأبيدوا كما يباد الحصيد ، وخمدوا كما تخمد النار .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) .

شرح المفردات

اللعب : الفعل لا يقصد به مقصد صحيح ، واللهو : الفعل يعمل ترويحا عن النفس ، ومن ثم تسمى المرأة لهوا وكذا الولد لأنه يُستروَحُ بكل منهما ، ويقال لامرأة الرجل وولده ريحانتاه ، من لدنا : أي من عندنا ، القذف : الرمي البعيد ، وأصل الدمغ : كسر الشيء الرخو ؛ ويراد به هنا القهر والإهلاك ، زاهق : أي زائل ذاهب ، الويل : الهلاك ، مَنْ عنده هم الملائكة ، لا يستكبرون أي لا يتعظمون ، يستحسرون : أي يكلون ويتعبون ، يقال حَسِر البعير إذا أعيا وكلّ ، ومثله استحسر وتحسر ، لا يفتُرُون : أي لا يضعفون ولا يتراخَون .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مطاعنهم فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بتلك المقالات التى سلف ذكرها - قفّى على ذلك بذكر فساد تلك المطاعن وبيان أن من أنكر نبوته فقد جعل تلك المعجزات التى ظهرت على يديه من باب العبث واللعب . تنزه ربنا عن ذلك ، فإنه ما خلق السماء والأرض وما بينهما إلا لعبادته ومعرفته ومجازاة من قام بهما بالثواب والنعيم ، ومن لم يقم بذلك بالعقاب الأليم ، ولن يتم علم هذا إلا بإنزال الكتب وإرسال الرسل صلوات الله عليهم ، فمنكر الرسالة جاعل خلق السماء والأرض لهوا ولعبا، تعالى خالقهما علوًّا كبيرا .

ثم أردف هذا بالرد على من ادعى أن المسيح ابن الله وعزير ابن الله ، بأنه لو اتخذ ولدا لاتخذه من الملائكة ، وعقب هذا بأن الغلبة للحق دائما مهما طال أمد الباطل ، وأن جميع من فى السموات والأرض كلهم عبيده لايستكبرون عن عبادته ولا يملون .

الإيضاح

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) أى ماخلقنا هـذا السقف المرفوع ، وهذا المهاد الموضوع ، وما بينهما من أصناف المخلوقات البديعة - للهو واللعب ، بل خلقناهما لفوائد دينية ، وحكم ربانية ، كأن تكون دليلا على معرفة الخالق لها ، ووسيلة للعظة والاعتبار - إلى ما فيها من منافع أخرى لا حصر لها .

وخلاصة ذلك — إن إيجاد العالم كله ولا سيا النوع الإنسانى واستخلافه فى الأرض - مبنى على بديع الحكم ، مستتبع لغايات جليلة لاتخفى على ذوى الألباب ، وقد علم بعضها من أنعموا النظر فى الكون وعجائبه ، وأوتوا حظا من صادق المعرفة ، فعرفوا بعض أسراره ، وانتفعوا ببعض ماأودع فى باطن الأرض وما على ظاهر سطحها ، مما كان سببا فى رقّ الانسان ، ولا يزال العلم يولد لنا كل يوم عجيبا و يظهر لنا من كنوزها غريبا « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » .

ونحو الآية قوله تعالى « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً . ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ » .

ثم أكد نفى اللعب بقوله :

(لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) أى لو أردنا أن نتخذ لهوا كما يتخذ العباد لاتخذناه من عندنا من العوالم المجردة من المادة كالملائكة ، لكننا لانتنزل لملابسة ماهو من شأنكم المادى كالزوج والولد ، إذ لايجمل بنا ، لأنه

خارج عن نظام حكمتنا ، وقوانين نظامنا ، ورفعة قدرنا ، فنحن لا نلهو بالصور الجسمية ، ولا بالنفوس الروحية .

وخلاصة هذا — إنا خلقناكم لحكمة ، وصورناكم لغاية ، وجعلنا لكم السمع والأبصار لمنافع قدرناها لكم ، لا للهونا ولعبنا ، ومن ثم لا نترككم سدى ، بل نحاسبكم ونؤاخذكم ، والجدُّ مطلبنا ، واللهو واللعب من شأن العبيد المخلوقين ، لا من شأن رب العالمين .

ونحو الآية قوله « لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » .

(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) أى إن من شأننا أن نرمى الحق الذى من جملته الجدّ على الباطل الذى منه اللعب فيكسر دماغه بحيث يشق غشاءه فيؤدى ذلك إلى زهوق روحه ، فيهلك ـ وقد شبه الباطل بإنسان كسر دماغه فيهلك ـ .

وإذا كان هذا شأننا فكيف نترككم بلا إنذار كأننا خلقناكم لنلهو بكم .

(ولكم الويل مما تصفون) أى ولكم العذاب الشديد من وصفكم ربكم بغير صفته ، وقيلكم إنه اتخذ ولدا وزوجة وافترائكم ذلك عليه .

ولما حكى كلام الطاعنين فى النبوات وأجاب عنها ، وبين أن غرضهم من تلك المطاعن إنما هو التمرد والعناد ـ بين فى هذه الآية أنه غنى عن طاعتهم ، لأنه هو المالك لجميع المخلوقات ، والملائكة على جلالة قدرهم مطيعون له خائفون منه ، فأجْدِر بالبشر على ضعفهم أن يطيعوه ، وما أخلقهم أن يعبدوه ، فقال :

(وله من فى السموات والأرض) أى وله تعالى جميع المخلوقات خلقا وملكا وتدبيرا وتصرفا وإحياء وإماتة وتعذيبا وإثابة دون أن يكون لأحد فى ذلك سلطان لا استقلالا ولا استتباعا .

(ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون) أى والملائكة الذين شرفت منزلتهم عند ربهم لا يستعظمون عن عبادته ولا يكلّون ولا يتعبون .

وتخصيص الملائكة بالذكر للدلالة على رفعة شأنهم ، كما خصص جبريل من بين الملائكة فى قوله « تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ » .

ثم بين سبحانه كيف يعبدون ربهم فقال :

(يسبحون الليل والنهار لا يفترون) فهم دائبون فى العمل ليلا ونهارا ، مطيعون قصدا وعملا ، قادرون عليه كما قال فى الآية الأخرى « لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » .

وخلاصة ذلك — المبالغة فى تنزيه الله وتسبيحه ، وهذا لا يمنع من تخلل فترات لا يفعلون فيها ذلك ، كما يقال : فلان لا يفتر عن ثنائك ، وشكر آلائك .

أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (٢٩) .

شرح المفردات

ينشرون، من أنشره : أى أحياه ، لفسدتا : أى لخرجتا عن نظامهما وخربتا ، فسبحان الله : أى تنزيها له عما وصفوه به ، هذا ذكر من معى : أى هذا الوحى المتضمن للتوحيد عظة أمتى ، وذكر من قبلى : أى وموعظتهم وإرشادهم ، لايسبقونه بالقول : أى لايتكلمون حتى يأمرهم ، مكرمون : أى مقربون عنده ، من خشيته : أى بسبب خوف عذابه ، مشفقون : أى حذرون .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فى سابق الآيات أن كثيرا من الأمم المكذبة لرسلها قد أبيدت وأنشئ بعدها قوم آخرون ، وأنهم حين أحسوا بالبأس ارعووا وندموا حيث لاينفع الندم ؛ ثم أردف ذلك بذكر أن من فى السموات والأرض عبيده ، وأن الملائكة لايستكبرون عن عبادته ، ولا يكلّون ولا يملون منها ـ ذكر هنا أنه كان يجب عليهم أن يبادروا إلى التوحيد ، لكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل فعلوا ضده فكانوا جديرين بالتوبيخ والتعنيف ، ثم أقام البرهان على وحدانيته وأنه لو كان فى السموات والأرض إلٰهان لهلك من فيهما ، تنزه ربنا عما يقول هؤلاء المشركون ، وقد كذب من اتخذ آلهة لادليل عليها ، وأن جميع الأديان جاءت باخلاص التوحيد ، كما كذب من جعل لله ولدا فقال : الملائكة بنات الله ، والملائكة خلق مطيعون لربهم لايفعلون إلا ما يؤمرون به ولايشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خوفه حذرون ، ومن يقل منهم إنه إله فلا جزاء له إلا جهنم ، وهى جزاء كل ظالم .

الإيضاح

(أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون) أى بل اتخذوا آلهة من الأرض هم مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى .

وإنهم ولا شك بمعزل عن ذلك — والمشركون وإن لم يقولوا ذلك صريحا ، فما ادعوه لها من الألوهية يستدعى ثبوت إحياء الموتى لها ، لأنه من خصائصها .

ووصف الآلهة بكونها من الأرض – للإشارة إلى أنها من الأصنام التى تعبد فيها ، وللإيماء إلى ضعة شأنها ، وحقارة أمرها .

ثم أقام بعد هذا – الدليل العقلى على التوحيد ونفى أن يكون هناك إله غير الله فقال :

(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أى لو كان فى السموات والأرض غير الله لخربتا وهلك من فيهما – ذاك أنه لو كان فيهما إلهان فإما أن يختلفا أو يتفقا فى التصرف فى الكون ، والأول ظاهر البطلان ، لأنه إما أن ينفذ مرادهما معا فيريد أحدهما الإيجاد والثانى لا يريده فيثبت الوجود والعدم لشىء اختلفا فيه ، وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الثانى ، فيكون هذا مغلول اليد عاجزا ، والإله لا يكون كذلك ، والثانى باطل أيضا ، لأنهما إذا أوجداه معا وجب توارد الخلق من خالقين على مخلوق واحد .

ولما أثبت بالدليل أن المدبر للسموات والأرض لا يكون إلا واحدا ، وأن ذلك الواحد لا يكون إلا الله قال :

(فسبحان الله رب العرش عما يصفون) أى فتنزيها لله رب العرش المحيط بهذا الكون ومركز تدبير العالم عما يقول هؤلاء المشركون من أن له ولدا أو شريكا .

ثم أكد هذا التنزيه بقوله :

(لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) أى هو الحاكم الذى لا معقب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله ، وعلمه وحكمته ، وعدله ولطفه ، وهو سائل خلقه عما يعملون كما قال : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقال : « وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ » .

ثم أعاد الإنكار مرة أخرى استفظاعا لشأنهم ، واستعظاما لكفرهم ، وإظهارا لجهلهم فقال :

(أم اتخذوا من دونه آلهة) أى أبعد هذه الأدلة التى ظهرت تقولون إن لله شركاء ؟ .

ثم أمرهم بإقامة الدليل على صحة ما يدّعون فقال :

(قل هاتوا برهانكم) أى بعد أن ثبت أنه لا إله غيره فهاتوا برهانكم على صحة اتخاذ الآلهة من الأصنام والأوثان ، ولا سبيل إلى ذلك ، لا بالدليل العقلى لأنه مر بطلانه ، ولا بالدليل النقلى لأن الكتب السماوية جميعا متفقة على هذا ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(هذا ذكر من معى وذكر من قبلى) أى هذا هو الكتاب المنزل على من معى ، وهذه هى الكتب المنزلة على من تقدمنى من الأنبياء كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى ، انظروا فيها هل تجدون إلا الأمر بالتوحيد والنهى عن الإشراك .

قال الزجاج : قيل لهم : هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلها غير الله ، فهل فى ذكر من معى وذكر من قبلى إلا توحيد الله ؟

وفى هذا تبكيت لهم متضمن إثبات نقيض مدعاهم ، وإذاً فليس لهم إلا العجز مركبا .

ولما كانوا لا يجدون شبهة لهم فضلا عن حجة ، ذمهم على جهلهم بمواضع الحق فقال :

(بل أكثرهم لا يعلمون الحق) أى بل أكثر هؤلاء لا يميزون بين الحق والباطل ، فلا تؤثر فيهم المحاجة وإقامة البرهان والاقتناع به .

ثم ذكر أن هذا كان سببا فى إعراضهم وتجافيهم عن سماع الحق فقال :

(فهم معرضون) أى فهم لأجل هذا الجهل المستولى على أكثرهم أعرضوا عن

قبول الحق وعن النظر الموصل إليه ، فلا يتأملون حجة ، ولا يتدبرون برهانا ، ولا يتفكرون فى دليل .

ثم أكد ما تقدم من أدلة التوحيد فقال :

(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) أى وما أرسلنا رسولا إلى أمة من الأمم إلا أوحينا إليه أنه لامعبود فى السموات والأرض إلا أنا فأخلصوا لى العبادة وأفردوا لى الألوهة .

وخلاصة ذلك — إن الرسل جميعا أرسلوا بالإخلاص والتوحيد لا يقبل منهم سواه.

ونحو الآية قوله : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ، أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟ » وقوله : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » .

و بعد أن بيَّن سبحانه بالدلائل الباهرة أنه منزه عن الشريك والندّ ـ أردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد فقال :

(وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) أى وقال فريق من هؤلاء المشركين وهم حى من خزاعة وجهينة و بنى سلمة ـ الملائكة بنات الله ، فرد الله تعالى عليهم بقوله : (سبحانه) أى تنزيها له عن ذلك ، لأن الولد لابد أن يكون شبيها بالوالد ، فلو كان له ولد لأشبهه ، ولا مجانسة بين النعمة والمنعم والخالق والمخلوق .

ثم أكد إبطال ما سلف بقوله :

(بل عباد مكرمون) أى ليس الملائكة كما قالوا ، بل هم عباد مخلوقون له تعالى ، فهم ملكه لـكنهم مقربون عنده فى منازل عالية ، ومقامات سامية .

ثم بين سبحانه كال طاعتهم وانقيادهم لأمره وتأدبهم معه تعالى فقال :

(لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) أى لايتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم، ولا يخالفونه فيما أمرهم به ، بل يبادرون إلى فعله .

وخلاصـة ذلك — إنهم فى نهاية المراقبة لربهم ، يجمعون بين الطاعة فى القول والفعل.

ثم علل هذه الطاعة بعلمهم بأن ربهم محيط بهم لاتخفى عليه خافية من أمرهم فقال:

(يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى يعلم ما عملوا وما هم عاملون ، لاتخفى عليه خافية مما قدموا وأخروا ، فلا يزالون يراقبونه فى جميع شئونهم .

(ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) أن يشفع له الشافعون ، أى إلا لمن رضى عنه ، فلا تطمعوا فى شفاعتهم لـكم بغير رضاه تعالى .

قال ابن عباس : هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله ، وقد ثبت فى الصحيح أن الملائكة يشفعون فى الدار الآخرة ، قال قتادة أى لأهل التوحيد .

(وهم من خشيته مشفقون) أى وهم من خوف الله والإشفاق من عقابه حذرون أن يعصوه ويخالفوا أمره ونهيه .

(ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم) أى ومن يدعى منهم أنه إله مع الله فجزاؤه جهنم على ما ادعى كسائر المجرمين ، ولا يغنى عنه ماسبق من أوصافه ، ومرضىّ أفعاله .

قال قتادة والضحاك وغيرهما : عنى بهذه الآية إبليس حيث ادعى الشركة ودعا إلى عبادة نفسه وكان من الملائكة ، ولم يقل أحد من الملائكة (إنى إله) غيره .

(كذلك نجزى الظالمين) أى وهكذا نجزى كل من ظلم نفسه ، فـكفر بالله وعبد غيره .

وخلاصة ما تقدم — إنه تعالى وصف الملائكة بخمس صفات تدل على العبودية وتنافى الولادة .

(١) المبالغة فى الطاعة ، فإنهم لايقولون قولا ولا يفعلون فعلا إلا بإذنه .

(٢) إنه سبحانه يعلم أسرارهم وهم لايعلمون أسراره ، فهو المستحق للعبادة لاهم كما قال عيسى عليه السلام : « تَعْلَمُ مَافِى نَفْسِى وَلاَ أَعْلَمُ مَافِى نَفْسِكَ » .

(٣) إنهم لايشفعون إلا لمن ارتضى الشفاعة له ، ومن يكون إلها أو ولدا للإله لايكون كذلك .

(٤) إنهم فى نهاية الإشفاق والوجل من الله .

(٥) إن حالهم كحال سائر المكلفين فى الوعد والوعيد ، فكيف يكونون آلهة.

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ؟ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)

شرح المفردات

الرتق : الضم والالتحام خلقة كان أو صنعة ، والفتق : الفصل بين الشيئين الملتصقين ، الرواسى : الثوابت واحدها راسية ، وتميد : تتحرك وتضطرب ، والفجاج واحدها فج ، وهوشقة يكتنفها جبلان ، والسبل واحدها سبيل : وهو الطريق الواسع والفلك : كل شىء دائر ، وجمعه أفلاك .

المعنى الجملى

بعد أن حكى مقالات أولئك المشركين الذين كانوا يعبدون آلهة من دون الله ، ومقالات أولئك الذين قالوا اتخذ الله ولدا من الملائكة وطالبهم بالدليل على صدق مايدّعون ، و بين لهم أنه لاسبيل إلى إثبات ذلك لامن العقل ولا من النقل ، إذ كل الرسل السابقين كان أسّ دعوتهم أن لا إله إلا أنا فاعبدون .

فقفى على ذلك بتوبيخهم على عدم تدبرهم الآيات المنصوبة فى الكون الدالة على التوحيد ، ولفت أنظارهم إلى أنه لاينبغى عبادة الأصنام والأوثان ، فإن الإله القادر على مثل هذه المخلوقات لايعبد سواه من حجر أو شجر لايضر ولا ينفع .

الإيضاح

اعلم أنه سبحانه ذكر أدلة ستة تثبت وجود الخالق الواحد القادر ، لو تدبرها المنصفون ، وعقلها الجاحدون لم يجدوا مجالا للإنكار ولا سبيلا إلى الجحد :

(١) (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) أى ألم يعلم الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا مرتوقتين : أى ملتحمتين متصلتين ففصلناهما وأزلنا اتحادهما .

وهكذا يقول علماء الفلك حديثا إذ يثبتون أن الشمس كانت كرة نارية دائرة حول نفسها ملايين السنين ، وفى أثناء سيرها السريع انفصلت منها أرضنا والأرضون الأخرى وهى السيارات من خط الاستواء الشمسى ، فتباعدت عنها ، وما زالت أرضنا دائرة حول نفسها وحول الشمس على نظام خاص بحكم الجاذبية .

قال الأستاذ عبد الحميد سماحة وكيل المرصد الملكى المصرى : إن النظرية الحديثة فى كيفية مولد الأرض وأخواتها الكواكب السيارة من الشمس ، هى افتراض اقتراب نجم كبير من الشمس فيما مضى من الزمن اقترابا كافيا ، فجذب من سطحها كتلة لم تلبث أن انفصلت من الشمس على شكل سهم مدبب الطرفين سميك فى الوسط ، ثم تكثفت هذه الكتلة فى الفضاء البارد إلى كتل منفصلة ، وبقيت هذه الكتل التى تمثل الأرض وأخواتها الكواكب السيارة تدور بفعل الجاذبية للشمس فى مداراتها حولها بلا انقطاع ، وانطفأ نورها لأن كتلها كانت أصغر من أن تحتفظ بصفتها الأصلية قبل الانفصال وهو إشعاع الضوء .

فالكواكب السيارة ومنها الأرض لانراها بضوء يشع منها ، بل بضوء

الشمس منعكسا على سطوحها كما نرى القمر وكما نرى وجوهنا بضوء الشمس أو المصباح منعكسا عليها .

والكواكب السيارة تسعة وهى بترتيب قربها من الشمس : عُطارد . الزُّهرة . الأرض . المرّيخ . المُشْتَرى . زُحل . أورانوس . نبتون . بلوتوه .

ويدخل ضمن هذه الأسرة مجموعة كبيرة العدد من أجسام صغيرة تقع بين مدارى المريخ والمشترى وتدور حول الشمس كسرب من الطير ، ومن بينها المذنّبات أيضا والشهب التى نرى الكثير منها كل ليلة يهوى نحو الأرض ويحترق باحتكاكه بالغلاف الجوى الذى حولها .

أما بقية الأجرام السماوية التى نراها ليلا تزين سطح القبة السماوية فهى النجوم . والنجوم شموس موادها المركبة منها هى المواد المركبة منها شمسنا ، فسبحان الخلاق العظيم اهـ .

وبعد أزمنة طويلة لا يعلم مداها بردت القشرة الأرضية وصارت صالحة لإنبات بعض أنواع النبات ، ثم لسكنى الحيوان ثم لسكنى الإنسان .

ولا شك أن هذه النظرية التى لم يكن يعرفها العرب ولا الأمم المعاشرة لهم ، ولم تعرف إلا منذ القرن السابع عشر الميلادى ومحصت بعض التمحيص فى عصرنا الحاضر — تدل أكبر دلالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن القرآن وحى أرسله إليه ربه هداية للبشر ورحمة للعالمين .

وخلاصة ذلك — إن العقل البشرى مستعد لدرس عجائب هذا الكون ، ومعرفة سير هذه الكواكب ودورانها بنظام الجاذبية حول الشمس على سنن لا يتغير ولا يتبدل ، وقد دل البحث على أنها كلها كانت مجموعة واحدة انفصل بعضها من بعض بأسباب خاصة قدرها العليم الخبير .

وقد أرشد إلى بيان هذا خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله، ولم يكن قومه يفكرون فيه ولا الأمم المعاصرة لهم ، مما يدل على أن ذلك وحى أوحى إليه من لدن عليم خبير،

وقد كان هذا وحده كافيا فى الإسراع إلى تصديقه والإيمان برسالته لولا الجحد والإنكار وعمى القلوب « إِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » .

(٢) (وجعلنا من الماء كل شىء حى) أى وخلقنا من الماء كل حيوان كما قال فى آية أخرى « وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ » وكذا يحيا به كل نبات و ينمو . وقال قتادة : خلقنا كل نام من الماء ، فيدخل الحيوان والنبات .

و يرى بعض علماء العصر الحاضر أن كل حيوان خلق أولا فى البحر ، فأصل جميع الطيور والزواحف وحيوان البر — من البحر .

ثم تطبعت بطباع حيوان البر على مدى الأيام وتنوعت أصنافها ، ولهم على ذلك كثير من الأدلة .

(أفلا يؤمنون) بأن يتدبروا هذه الأدلة فيعلموا بها الخالق الذى لايشبه غيره ، و يتركوا طريق الشرك .

(٣) (وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم) أى وجعلنا فيها جبالا ثوابت لئلا تميد وتضطرب بهم .

وقد أثبت العلم حديثا أن الأرض كانت نارا ملتهبة ثم بردت قشرتها وصارت صوانية صلبة وقدروا زمن ذلك بنحو ثلثمائة مليون سنة .

ومما يدل على صدق هذه النظرية ماتراه من حمم النيران التى تخرجها البراكين فى جهات كثيرة من الأرض كما حدث فى سنة ١٩٠٩ لبركان و يزوف بإيطاليا ، وقد طغى على مدينة مسّينا وابتلعها فى باطنه ولم يبق منها شيئا .

فهذه البراكين أشبه بأفواه تتنفس بها الأرض لتخرج من باطنها نيرانا ومواد ذائبة ، مما يرشد إلى أن الأرض كلها فى أحقاب طويلة كانت كذلك .

ولولا هذه القشرة الصلبة لتفجرت ينابيع النيران من سائر جهاتها كما كانت بعد ما انفصلت من الشمس كثيرة الثوران والفوران .

وهذه القشرة الصوانية البعيدة الغور المغلفة للكرة النارية هى التى نبتت منها الجبال التى نراها فوق أرضنا ، وهى التى جعلت لحفظ الأرض من أن تميد ، لأن الطبقة الصوانية هى الحافظة لكرة النار التى تحتها ، وما هى إلا كأسنان لها طالت وامتدت فوق طبقات الأرض ، فلو زالت هذه الجبال لبقى ماتحتها مفتوحا ، وإذ ذاك ربما تثور البراكين فى جهات كثيرة من الأرض وتضطرب اضطرابا شديدا وتزلزل زلزالا كثيرا .

وخلاصة ذلك — إنه لو لم تكن هذه الجبال التى هى قطعة من قشرة الأرض مرتفعة لما وجد ما يحفظ النيران المشتعلة فى باطن الأرض من الظهور على سطحها بالبراكين والزلازل ، و إذ ذاك ربما تضطرب الأرض اضطرابا شديدا وتخرج نيرانها الملتهبة من باطنها وتطغى على سطحها وتهلك الحرث والنسل .

وقد قدر العلماء حديثا نسبة الجبال إلى الأرض فقالوا : لو كان قطر الكرة الأرضية مترا لم تزد الجبال على ملليمتر ونصف فحسب .

وهذه هى المعجزة الثالثة فى الآية التى ترشد إلى أن القرآن وحى يوحى ، فما محمد ولا قومه ولا الأمم المعاصرون لهم يعلمون شيئا من هذه الآيات الكونية التى أيد صحتها تقدم العلوم وفهم ظاهر الأرض و باطنها .

وفى هذا مصداق لما أثر عن على كرم الله وجهه «القرآن جديد لاتبلى جدته» :

(٤) (وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون) أى وجعلنا فى الأرض طرقا بين جبالها يسلكها الناس من قطر إلى قطر ومن إقليم إلى آخر ليهتدوا بذلك إلى مصالحهم ومهامّ أمورهم المعيشية .

(٥) (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) أى إنه تعالى نظم السماء وجعلها كالسقف المحفوظ من الاختلال وعدم النظام ، فقد حفظت الشموس والكواكب فى مداراتها بحيث لا يختلط بعضها ببعض ولا يختبط بعضها فى بعض ، بل جعلت فى أماكنها الخاصة بها بقوة الجاذبية .

فالشمس والقمر والكواكب الأخرى متجاذبات حافظات لمداراتها لا تخرج عنها، وإلا اختل نظام هذا العالم، وبهذا الحفظ ونظام الدوران كان الليل والنهار الحادثين من جرى الأرض حول الشمس.

ونحو الآية قوله: «وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ».

(وهم عن آياتها معرضون) أي والمشركون معرضون عن التفكر فى تلك الآيات الدالة على وحدانيتنا وعظيم قدرتنا وإحاطة علمنا.

(٦) (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، كل فى فلك يسبحون) أى والله خلق لكم الليل والنهار نعمة منه عليكم، وحجة على عظيم سلطانه، فيهما يختلفان عليكم لصلاح معايشكم وأمور دنياكم وآخرتكم، وخلق الأرض والشمس والقمر تجرى فى أفلاكها كما يجرى السمك فى الماء.

وهذا هو الرأى الحديث، وأن هذه كلها تجرى فى عالم الأثير المالئ لهذا الفضاء، فالشمس تجرى، والأرض تجرى، والقمر يجرى، وبينها هذه المخلوقات الحية، فما مثل هذه العوالم إلا كآلة الطباعة، والمخلوقات كلماتها وسطورها، أو كدار صناعة تخرج كل يوم مصنوعات جديدة بعد فناء القديمة وزوالها.

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ؟ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦).

شرح المفردات

الخلد: الخلود والبقاء، الذوق: هنا الإدراك؛ والمراد من الموت مقدماته من الآلام العظيمة، والمدرك لذلك هى النفس المفارقة التى تدرك مفارقتها للبدن، ونبلوكم:

أى نختبركم ؛ والمراد نعاملكم معاملة من يختبركم ، بالخير والشر: أى المحبوب والمكروه ، فتنة : أى ابتلاء ، إن يتخذونك إلا هزوا : أى ما يتخذونك إلا مهزوءا به مسخورا منه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة على وجود الخالق الواحد القادر ، بما يرون من الآيات الكونية - أردف ذلك ببيان أن هذه الدنيا ما خلقت للخلود والدوام ، ولا خلق من فيها للبقاء ، بل خلقت للابتلاء والامتحان، ولتكون وسيلة إلى الآخرة التى هى دار الخلود ، فلا تشمتوا إذا مات محمد صلى الله عليه وسلم فما هذا بسبيله وحده ، بل هذا سنة الله فى الخلق أجمعين .

تمنى رجال أن أموت ، وإن أمت		فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذى يبغى خلاف الذى مضى		تزود لأخرى مثلها فكأنْ قدِ

ثم ذكر أنهم نعوا على نبيه صلى الله عليه وسلم ذكر آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء ، ورد عليهم بأنهم قد كفروا بالرحمن المنعم على عباده الخالق لهم المحيى المميت ، ولا شىء أقبح من هذا وأخلق بالذم منه .

أخرج ابن أبى حاتم عن السدى « أنه صلى الله عليه وسلم مرّ على أبى سفيان وأبى جهل وهما يتحادثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال : هذا نبىّ بنى عبد مناف ، فغضب أبو سفيان وقال : أتنكر أن يكون لعبد مناف نبى ؟ فسمعها النبى صلى الله عليه وسلم فرجع إلى أبى جهل فوقع به وخوّفه وقال : ما أراك منتهيا حتى يصيبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة ، وقال لأبى سفيان : أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية فنزلت الآية » .

الإيضاح

(وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) أى وما كتب لأحد من قبلك البقاء فى الدنيا حتى نبقيك فيها، بل قدر لك أن تموت كما مات رسلنا من قبلك.

(أفائن مت فهم الخالدون؟) أى أفهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدون بعدك؟ لا — ماذلك كذلك، بل هم ميتون، عشت أو مِتّ.

أخرج البيهقى وغيره عن عائشة قالت: دخل أبو بكر على النبى صلى الله عليه وسلم وقد مات فقبّله وقال وانبياه، واخليلاه، واصفياه، ثم تلا: وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد الآية.

ثم أكد ماسلف و بين أن أحدا لايبقى فى هذه الدنيا فقال:

(كل نفس ذائقة الموت) أى كل نفس منفوسة من خلقه ذائقة مرارة الموت ومتجرعة كأسه وشدة مفارقة الروح للبدن، وقد جاء فى الحديث «إن للموت لسكرات» فلايفرحنّ أحد لموت أحد ولا يظهرن التشفّى منه، كما لاينبغى أن تبدو عليه علامات الجزع والحسرة لموت أحد.

(ونبلوكم بالشر والخير فتنة) أى ونختبركم أيها الناس بالمضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد، و بنعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من حصول ماتريدون، لنرى أتصبرون فى المحن وتشكرون فى المنح؟ فيزداد ثوابكم عند ربكم إذا قمتم بأداء ذلك، والقيامُ بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فالمنحة أعظم البلاءين؛ ومن ثم قال عمر رضى الله عنه: بلينا بالضراء فصبرنا، و بلينا بالسراء فلم نصبر، وقال على كرم الله وجهه: من وسع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مُكِرَ به فهو مخدوع عن عقله.

وخلاصة ذلك — إنا نعاملكم معاملة من يختبركم ونفتنكم كما يفتن الذهب إذا أريد تصفيته بالنار عما يخالطه من الغش، لنرى أتصبرون فى الشدائد، وتشكرون حين الرخاء؟.

(وإلينا ترجعون) فنجازيكم وفق مايظهر من أعمالكم .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعد والوعيد بالثواب والعقاب .

(وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا) أى وإذا رآك المشركون لم يكن لهم عمل إلا أن يجعلوك موضع السخرية والهزؤ ، وقد كان من حقهم أن يفكروا مليًّا فيما يشاهدون من أخلاقك وآدابك ، وفيما ينزل عليك من الوحى الذى فيه عظة وذكرى لقوم يعقلون ، لعل بصائرهم تستنير وطباعهم ترق ، وقلوبهم ترعوى عن غيها ، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » .

(أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون) أى ويقولون استنكارا وتعجبا : أهذا الذى يسب آلهتكم ويسفّه أحلامكم ؟ وكيف يعجبون من ذلك وهم كافرون بالله الذى خلقهم وأنعم عليهم ، وبيده نفعهم وضرهم وإليه مرجعهم ؟ قال الزجاج يقال فلان يذكر الناس أى يغتابهم ويذكرهم بالعيوب ، وفلان يذكر الله أى يصفه بالتعظيم ويثنى عليه .

وخلاصة ذلك — كيف يعجبون من نبز آلهتهم بالسوء ، وهم قد كفروا بربهم الذى برأهم وصورهم فأحسن صورهم ، وإليه مرجعهم فيحاسبهم على النقير والقطمير .

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١) .

شرح المفردات

العجل والعجلة : طلب الشيء قبل أوانه ، والمراد بالإنسان: هذا النوع وقد جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق من العجل مبالغة كما يقال للرجل الذكى هو نار تشتعل ، ويقال لمن يكثر منه الكرم : فلان خُلق من الكرم ، قال المبرد : خلق الإنسان من عجل : أى إن من شأنه العجلة كقوله : « خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ » أى ضعفاء ، والآيات هى آيات النقم التى هددهم بوقوعها وإراءتهم إياها : إصابتهم بها ، والمراد بالوعد قيام الساعة ، لا يكفون : أى لا يمنعون ، بغتة : أى فجأة، تبهتهم : أى تدهشهم وتحيرهم ، يُنظَرون : أى يمهلون ويؤخَّرون ، حاق : حل ونزل .

المعنى الجملى

بعد أن بين جلت قدرته أنه كلما آتى المشركين آية كفروا بها ، وكلما توعدهم بالعذاب كذبوا به وقالوا تهكما وإنكارا : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ - قفى على ذلك بنهيهم عن العجلة وبيان أن ما أوعدوا به آت لا محالة ، ثم أرشد إلى أن العجلة من طبيعة الإنسان التى جبل عليها ثم ذكرهم بجهلهم بما يستعجلون ، فإنهم لو عرفوا كنه ما طلبوا ما دار بخلدهم ذلك المطلب .

وفى هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم كما سلاه بأن الاستهزاء به وبما أتى به ليس بدعا من المشركين ، فكثير من الرسل قبله أوذوا واستهزئ بهم، وكان النصر آخرا حليفهم وحاق الهلاك بالمكذبين ، فانتظر لهؤلاء يوما يحل بهم فيه مثل ما حل بمن قبلهم وقل لهم : انتظروا إنا منتظرون .

روى أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث، وهو القائل : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

الإيضاح

(خلق الإنسان من عجل) أى إنه تعالى فطر هذا النوع على العجلة ، وجعلها من سجيته وجبلّته ، فليس بعجيب من المشركين أن يستعجلوا عذاب الله ونزول نقمته بهم ، وقد كان من الحق عليهم أن يتلبثوا قليلا فإن الله سينزل بهم من سخطه مثل ما أنزل بالمكذبين قبلهم ، ويُحِل بهم من العذاب ما لاقبل لهم بدفعه ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(سأريكم آياتى فلا تستعجلون) أى إن نقمى ستصيبكم لامحالة ، فلا تتعجلوا عذابى واصبروا حتى يأتى وعد الله ، إن الله لايخلف الميعاد .

وقد نهى الإنسان عن العجلة مع أنها ركبت فى طبيعته ، من قِبَل أنه أوتى المقدرة التى يستطيع بها تركها وكف النفس عنها .

ثم حكى عنهم بعض ما يستعجلون فقال :

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويقولون للنبى صلى الله عليه وسلم ولمن معه من المؤمنين الذين يتلون الآيات المنبئة بقرب الساعة ونزول العذاب بمن كفر بها استهزاء : متى يجيئنا هـذا العذاب الذى تعدوننا به إن كنتم صادقين فى وعدكم ؛ والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الذين يتلون الآيات القرآنية المنذرة بمجىء الساعة وقرب حضور العذاب .

وهذا منهم استبطاء للموعود به يراد به إنكار وقوعه وأنه لن يكون البتة .

ثم بين شديد جهلهم بما يستعجلون وعظيم حماقتهم لهذا الطلب فقال :

(لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولاهم ينصرون) أى لو يعلم هؤلاء الكفار المستعجلون ماذا أعد لهم ربهم من البلاء حين تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، فلا يستطيعون ردها عن تلك الوجوه ، ولا يدفعونها بأنفسهم عن الظهور ، ولا يجدون ناصرا ينصرهم وينقذهم من ذلك

العذاب - لما أقاموا على كفرهم بربهم ولسارعوا إلى التوبة منه ، ولما استعجلوا لأنفسهم هذا النكال والوبال .

وإنما خص الوجوه والظهور لأن مس العذاب لهما أعظم موقعا .

ولما بين شدة العذاب فى ذلك اليوم بين أن وقته لا يكون معلوما لهم فقال :

(بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) أى بل تأتيهم الساعة وهم لأمرها غير مستعدين ، فتدعهم حائرين لايستطيعون حيلة فى ردها ، ولا منصرفا عما يأتيهم منها ، ولا هم يمهلون لتوبة ولا لتقديم معذرة فقد فات ما فات وأحاط بهم ما كانوا به يستهزئون .

وإنما لم يعلم الله عباده وقتها لما فى ذلك من فائدة ، فإن المرء يكون مع جهله بها أشد حذرا وأقرب إلى التلافى وانتهاز الفرصة .

ثم سلى رسوله عن استهزائهم به فقال :

(ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) أى ولقد استهزئ برسل من رسلنا الذين أرسلناهم قبلك إلى أممهم ، فنزل بالذين استهزءوا بهم العذاب والبلاء الذى كانت الرسل تخوفهم نزوله ، ولن يعدو أن يكون أمر هؤلاء الكفار كأمر أسلافهم من الأمم المكذبة لرسلها ، فينزل بهم من عذاب الله وسخطه باستهزائهم مثل ما نزل بمن قبلهم ، فانتظر لهم عاقبة وخيمة كعاقبة أولئك ، وسيكون لك النصر عليهم .

ونحو الآية قوله : « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ » .

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ

أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) .

شرح المفردات

يكلؤكم : يحرسكم ويحفظكم قاله ابن عباس ، من الرحمن : أى من بأسه وعقابه الذى تستحقونه ، من دوننا : أى من غيرنا ، يصحبون : أى يجارون من عذابنا ؛ تقول العرب أنا لك جار وصاحب من فلان : أى ومجير منه واختاره الطبرى ، نفحة : أى قسط ونصيب ضئيل ، حبة الخردل : مثل فى الصغر ، حاسبين : أى عادّين محصين.

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن الكافرين فى الآخرة لايستطيعون أن يمنعوا عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ، وأنه سيكون لهم من الأهوال مالم يكن يخطر لهم ببال أعقبه ببيان أنه لولا أن الله قدر لهم السلامة فى الدنيا وحرسهم إلى حين لما بقوا سالمين ، وأنه مع إنعامه عليهم ليلا ونهارا بالحفظ والحراسة ـ هم معرضون عن الدلائل الدالة على أنه لاحافظ لهم سواه ، وأنه قد كان ينبغى لهم أن يتركوا عبادة الأصنام التى لاحظ لها فى شىء من ذلك ، فهى لاتستطيع أن تحفظ نفسها من الآفات ،

فضلا عن منع بأس الله إن حل بهم ؛ ثم أردف ذلك ببيان أن الذى غرهم وحملهم على الإعراض عن ذلك هو طول الأمد حتى نسوا العهد وجهلوا مواقع النعمة ، وقد كان لهم فى نقص الأرض من أطرافها وفتح المسلمين لها عبرة أيما عبرة ، فهاهم يرون محمدا صلى الله عليه وسلم وأتباعه يفتحون البلاد والقرى حول مكة ويدخلونها تحت راية الإسلام ويقتلون الرؤساء والعشائر من المشركين ، فمن حقهم أن يفكروا فى هذا مليا ويرعووا عن غيهم ويعلموا آثار قدرتنا وأن جندنا هم الغالبون ، ثم قفى على ذلك ببيان أن وظيفة الرسل هى الإنذار والتبليغ ، وليس عليهم الإلزام والقبول، فإذا كانت القلوب متحجرة ، والآذان صماء ، فماذا تجدى العظة وماذا ينفع النصح ، ولئن أصابهم القليل من عذاب الله لتنادوا بالويل والثبور ، واعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا ظالمين - ثم قفى على ذلك ببيان أن الدار الآخرة لاظلم فيها ولا محاباة ، فالمرء يحاسب فيها على الجليل والحقير ، فهناك تنصب موازين العدل ويجازى كل امرئ بما قدم من خير أو شر : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

الإيضاح

(قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) أى سل أيها الرسول أولئك المستهزئين سؤال إنكار وتوبيخ ، من يستطيع أن يحفظكم من الرحمن إذا أراد أن ينزل بكم بأسه وعذابه الذى تستحقونه ؟

والخلاصة — من يحفظكم بالليل إذا نمتم ، وبالنهار إذا تصرفتم فى أمور معايشكم من عذاب الرحمن إن نزل بكم ، ومن بأسه إذا حل بساحتكم ؟

وفى ذكر (الرحمن) إيماء وتنبيه إلى أنه لاحفظ لهم إلا برحمته ، وإلى أن بأسه أليم شديد ، وإلى أنه قد عذبهم من غلبت رحمته قسوته ، جزاء وفاقا بما دسوا به أنفسهم من فاسد الطوايا ، وسىء الأعمال .

ثم ذكر أنهم قد غفلوا عن الكالئ الحافظ فقال :

(بل هم عن ذكر ربهم معرضون) أى إن هؤلاء القوم قد ألهتهم النعم عن المنعم فلا يذكرون الله حتى يخافوا بأسه ، أو يعدّوا ما كانوا فيه من الأمن والدعة كلاءة وحفظا لهم ، حتى يسألوا عن الكالئ الحافظ .

وخلاصة ذلك — إنهم على وجود الدلائل العقلية والنقلية الدالة على أنه تعالى هو الكالئ الحافظ - معرضون عنها ، لا يتأملون فيها .

وفى ذكر (الرب) إيماء إلى أنهم خاضعون لسلطانه ، وأنهم فى ملكوته وتدبيره ، وجميل رعايته وتربيته ، وهم على ذلك معرضون ، فهم فى الغاية القصوى من الضلال وفى النهاية من الجهل والغباء .

ثم انتقل من وصفهم بالإعراض إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهة لا تنصر ولا تنفع فقال :

(أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ؟) أى بل ألهؤلاء المستعجلى عذاب ربهم آلهة تمنعهم منه إن نحن أنزلناه بهم ، وتدفع عنهم بأسنا إن حل بساحتهم ؟ .

ومجمل ذلك — إن آلهتهم لا تمنعهم بأسنا إن أردنا ؟ .

ثم وصف تلك الآلهة التى اتخذوها بالضعف فقال :

(لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون) أى وكيف تستطيع آلهتهم أن تمنعهم منا وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا دفع ما ينزل بهم من البلاء ، ولا هم يُصحبون منا بنصر ، فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم .

والخلاصة — إنهم فى غاية العجز ، فكيف يتوهم فيهم ما يتوهمون من القدرة والسلطان ، ويدينون لهم بالخضوع والعبادة .

ثم بين سبحانه تفضله عليهم مع سوء ما أتوا به من الأعمال فقال :

(بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر) أى إن الذى غرهم وحملهم على

ماهم فيه من الضلال أنهم مُتعوا فى الحياة الدنيا ونعموا بها وطال عليهم العمر حتى اعتقدوا أنهم على شىء .

وقصارى ذلك — إنهم طالت أعمارهم وهم فى الغفلة فنسوا عهدنا ، وجهلوا مواقع نعمتنا فاغتروا بذلك ولم يعرفوا مواضع الشكر .

ثم بين لهم سوء مغبتهم فقال :

(أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟) أى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون للعذاب آثار قدرتنا فى إتيان الأرض من جوانبها ، ففتحناها للمؤمنين وزدناها فى ملكهم واقتطعناها من أيدى المشركين ؟ فقد تم لهم فتح البلاد التى حوالى مكة وقتل رؤسائها و إزالة دولة الشرك وأهله منها ، ألا يفكرون فى هذا فيكون لهم فيه مزدجر لو كانوا يعقلون ؟ .

والخلاصة — ألا يعتبرون و يحذرون أن ينزل بهم بأسنا كما أنزلناه بسواهم ؟ .

ثم وبخهم وأنبهم على غفلتهم عن الحق بعد وضوحه فقال :

(أفهم الغالبون ؟) أى أفهم الغالبون أم نحن ؟ أى أفبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم إياه يتوهمون غلبتهم ؟ .

و بعد أن بين هول مايستعجلون ، وحالهم السيئة حين نزوله بهم ، ثم نعى عليهم جهلهم و إعراضهم عن ذكر ربهم الذى يكلؤهم من طوارق الليل وحوادث النهار ، أمر رسوله أن يقول لهم : إن ما أخبركم به جاء به الوحى الصادق فقال :

(قل إنما أنذركم بالوحى) أى إنى إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة وشديد أهوالها ـ بالوحى الصادق الناطق بحصوله وفظاعة أهواله ، وقد أمرنى ربى بذلك ، وهأنذا قد قمت بما أمرنى به ، فإن لم تجيبوا داعى الله وتقبلوا ما دعوتكم إليه فعليكم النكال والوبال لاعلىّ .

ثم أردف هذا بأن الإنذار مع مثل هؤلاء لايجدى فتيلا ، فما حالهم إلا حال الصم الذين لايسمعون دعوة الداعى فقال :

(ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون) أى فما مثلهم إذ لم ينتفعوا بما سمعوا من الإنذار على كثرته وتتابعه إلا مثل الصم الذين لايسمعون شيئا ، إذ ليس الغرض من الإنذار السماع فحسب ، بل العمل بما يسمع بالإقدام على فعل الواجب والتحرز من المحرم ومعرفة الحق ، فإذا لم يحصل شىء من هذا فلا جدوى فى السمع وكأن لم يكن.

والخلاصة — إن الكافر بالله لايوجه همه إلى العظة بما فى كتابه من المواعظ حتى يقلع عما هو عليه مقيم من الضلال ، بل يعرض عن التفكر فيها فعل الأصم الذى لايسمع ما يقال له حتى يعمل به .

ثم بين سرعة تأثرهم من العذاب حين مجيئه إثر بيان عدم تأثرهم به حين مجىء خبره فقال :

(ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين) أى ولئن أصاب هؤلاء المستعجلين للعذاب أدنى قسط من عقاب ربك بكفرهم به وتكذيبهم برسوله ـ ليقولنّ إنا كنا ظالمين لأنفسنا بعبادتنا الآلهة والأنداد وتركنا عبادة الذى برأنا وأنعم علينا ، وجحدنا لما يجب علينا من الشكر له بالإخلاص فى عبادته .

والخلاصة — إنهم يوم القيامة حين يمسهم العذاب يدعون على أنفسهم بالويل والثبور وعظائم الأمور ويقولون هلاكا لنا ، إنا ظلمنا أنفسنا بكفرنا بمن خلقنا وخضوعنا لمن لايضر ولا ينفع ، ويندمون على ما فرط منهم ، ولات ساعة مندم .

ثم بين الأحداث التى ستقع حين إتيان ما أنذروا به فقال :

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) أى ونحضر يوم القيامة الموازين العادلة التى توزن بها صحائف الأعمال ، وهذا قول أئمة السلف ، وقال مجاهد وقتادة والضحاك المراد من الوزن العدل بينهم ، فلا يظلم عباده مثقال ذرة ، فمن أحاطت حسناته بسيئاته ثقلت موازينه : أى ذهبت حسناته بسيئاته ، ومن أحاطت سيئاته بحسناته خفت موازينه : أى ذهبت سيئاته بحسناته .

(فلا تظلم نفس شيئا) أى فلا تظلم أى نفس شيئا من الظلم ، فلا ينقص ثوابها الذى تستحقه ، ولا يزاد عذابها الذى كان لها على قدر ما دست به نفسها من سيئ الأعمال .

(وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها) أى وإن كان العمل الذى فعلته النفس صغيرا مقدار حبة الخردل جازينا عليه جزاء وفاقا ، سيئا كان أو حسنا .

(وكفى بنا حاسبين) أى وحَسْب من شهدوا ذلك الموقف بنا حاسبين لأعمالهم محصين لها ، لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم وما سلف منهم فى الدنيا من صالح أو سيئ منا.

ولا يخفى مافى الآية من التحذير وشديد الوعيد للكافرين على ما فرطوا فى جنب الله ، فإن المحاسب إذا كان عليما بكل شىء ولا يعجز عن شىء كان جديرا بالعاقل أن يكون فى حذر وخوف منه .

نزول التوراة على موسى عليه السلام

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ؟ (٥٠) .

شرح المفردات

الفرقان: هى التوراة ، وهى الضياء والموعظة، وكانت فرقانا لأنها تفرق بين الحق والباطل ، وكانت ضياء لأنها تنير طريق الهدى للمتقين ، وكانت موعظة لما فيها من عبرة للسالكين سبل النجاة ، يخشون ربهم : أى يخشون عذابه ، مشفقون : أى خائفون مبارك : أى كثير الخير غزير النفع .

المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : إنما أنذركم بالوحى ـ أردفه ببيان أن هذه سنة الله فى أنبيائه ، فكلهم قد آتاهم الوحى و بلغهم من الشرائع والأحكام ما فيه هداية للبشر وسعادة لهم فى دنياهم وآخرتهم .

الإيضاح

(ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين) أى قسما لقد آتيناهما كتابا جامعا لأوصاف كلها مدح وفخار ، فهو كتاب فارق بين الحق والباطل ، وضياء يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية ، وعظة يتعظ بها من يتعظ و يتذكر بها ما يجب لله من اعتقاد وعمل وما ينبغى سلوكه من أدب وفضيلة .

ثم ذكر أوصاف المتقين فقال :

(١) (الذين يخشون ربهم بالغيب) أى إن المتقين يخافون عذاب ربهم وهو غائب عنهم غير مرئىّ لهم .

ونحو الآية قوله تعالى : « مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ » وقوله : « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

(٢) (وهم من الساعة مشفقون) أى وهم من عذاب يوم القيامة وسائر أحوالها خائفون وجلون .

و بعد أن ذكر فرقان موسى وكان العرب يشاهدون تمسك اليهود به ـ حثهم على التمسك بالكتاب الذى نزله على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

(وهذا ذكر مبارك أنزلناه) أى وهذا القرآن الذى أنزلناه إلى محمد صلى الله عليه وسلم ذكر لمن تذكر به ، وموعظة لمن اتعظ بها ، وهو كثير النفع والخير لمن اتبع أوامره وانتهى بنواهيه .

و بعد أن أبان صفة هذا الكتاب و بخهم على إنكارهم له فقال :

(أفأنتم له منكرون ؟) أى أفبعد أن استبان لكم جليل خطره وعظيم أمره تنكرون وتقولون هو أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون .

وقد يكون المعنى — كيف تنكرون كونه منزلا من عند الله ؟ وأنتم من أهل اللسان تدركون مزايا الكلام ولطائفه ، وتفهمون من بلاغة القرآن ما لا يدركه غيركم وفيه شرفكم وصيتكم .

وخلاصة ذلك — أفبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة أنتم تنكرون أنه منزل من عند الله ؟ فهذا ما لا يستسيغه عقل راجح ولا فكر رصين ، فثل هذا فى غاية الوضوح والجلاء .

حجاج إبراهيم لأبيه وقومه ودعوتهم إلى التوحيد

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا
آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِى ضَلَالٍ
مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ
رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦)
وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا
إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) .

شرح المفردات

الرشد : هو الاهتداء إلى وجوه الصلاح فى الدين والدنيا والاسترشاد بالنواميس الإلهية ، التماثيل : واحدها تمثال وهو الصورة المصنوعة على شبه مخلوق من صنع الله كطير أوشجر أو إنسان؛ والمراد بها هنا الأصنام سماها بذلك تحقيرا لشأنها ، والعكوف على الشيء: ملازمته والإقبال عليه ، بالحق: أى بالشيء الثابت فى الواقع ، اللاعبين : أى الهازلين ، فطرهن : أى أنشأهن ، من الشاهدين : أى المتحققين صحته المثبتيه بالبرهان ، والكيد : الاحتيال فى إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه ، والمراد المبالغة فى إلحاق الأذى بها ، جذاذا : أى قطعا ، من الجذ ، وهو القطع .

الإيضاح

(ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) أى ولقد آتينا إبراهيم مافيه صلاحه وهداه من قبل موسى وهرون ووفقناه للحق وأضأنا له سبيل الرشاد ، وأنقذناه من بين قومه من عبادة الأصنام ، وكنا عالمين بأنه ذو يقين و إيمان بالله وتوحيد له لايشرك به شيئا ، فهو جامع لأحاسن الفضائل ومكارم الأخلاق وجميل الصفات ، وقال الفراء : أعطيناه هداه من قبل النبوة والبلوغ اه . أى وفقناه للنظر والاستدلال لما جنّ عليه الليل فرأى الشمس والقمر والنجم ، وعلى هذا جرى كثير من المفسرين.

(إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟) أى آتيناه الرشد حين قال لأبيه آزر ولقومه وهم مجتمعون : ما هذه الأصنام التى تقيمون على عبادتها وتعظيمها ؟ .

وقد أراد عليه السلام بهذا السؤال تنبيه أذهانهم إلى التأمل فى شأنها ، وتحقير أمرها ، متجاهلا حقيقتها ، ، وكأنه يومئ بذلك إلى أنهم لو تأملوا قليلا لأدركوا أن مثل هذه الأحجار والخُشُب لاتغنى عنهم فَلًّا ولا كُثْرًا .

ولما لم يجدوا ما يعول عليه فى تعرف حقيقتها لجئوا إلى التثبت بالتقليد دون إقامة الحجة والبرهان .

(قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) أى قال آزر وقومه له : إنا وجدنا آباءنا يعبدون هذه الأوثان فسرنا على نهجهم واقتفينا أثرهم ولا حجة لنا غير ذلك .

وخلاصة مقالهم : ليس لنا برهان على صحة ما نفعل ، وإنما نحن مقلدون للآباء والأجداد ، وكفى بهذا سُبّة لهم ، فإن الشيطان قد استدرجهم وكاد لهم حتى عفّروا لها جباههم وجدّوا فى نصرتها ، وجادلوا أهل الحق فيها ـ وما كان أجدرهم أن يتواروا خجلا وحياء ولا يقولوا مثل هذا .

والتقليد هو العصا التى يتوكأ عليها كل عاجز ، والحبل الذى يتشبث به كل غريق ، وهكذا يجيب المقلدة من أهل الملة الإسلامية إذا أنكر عليهم العالم بالكتاب والسنة العمل بالرأى المدفوع بالدليل ـ بهذا قال إمامنا الذى وجدنا آباءنا له مقلدين ، وبرأيه آخذين وكأنه يقول :

وهل أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غَوَتْ غويت وإن ترشد غَزِيَّةُ أرشد

وقد أجابهم إبراهيم ببيان قبح ما يصنعون ، وبكّتهم على سوء ما يفعلون .

(قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) أى قال لهم : لقد كنتم أيها القوم أنتم وآباؤكم بعبادتكم إياها فى ضلال بيّن ، وجور واضح عن سبيل الحق لمن تأمله بلبه ، وفكّر فيه بعقله .

وخلاصة هذا — إن المقلدين ومن قلدوا فى ضلال بين لايخفى على من لديه أدنى مُسْكة من عقل ، فالفريقان لايستندان إلا إلى هوى متبع ، وشيطان مطاع وقد أحسن من قال :

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

وفى ذلك إيماء إلى أن الباطل لايصير حقا بكثرة المستمسكين به .

وقد أجابوه إجابة مستفهم متعجب مما يسمع ويرى .

(قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟) أى قالوا حين سمعوا مقالته مستبعدين أنهم فى ضلال ومتعجبين من تضليله إياهم : أجادّ أنت فيا تقول أم أنت لاعب مازح ؟ فإنا لم نسمع بمثله من قبل .

وخلاصة هذا — إنهم لما سمعوا منه مايدل على تحقير آلهتهم وتضليله إياهم وشاهدوا منه الجد فى القول والغلظة فيه ، طلبوا منه الدليل على صدق مايقول إن كان جادا ، ثم ارتقوا من هذا إلى بيان أنه هازل لاعب كما هو دأبه وعادته من قبل ولا يقصد بذلك إظهار حق البتة .

فردّ عليهم منتقلا من تضليلهم فى عبادة الأوثان إلى بيان الحق وذكر المستحق للعبادة .

(قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن) أى قال لهم : بل جئتكم بالحق لا اللعب — إن الذى يستحق العبادة من أنشأ السموات والأرض على غير مثال يحتذى وأنتم مغمورون بجميل عطفه ، وعظيم جوده وبرّه .

وصفوة هذا — إن الجدير بالعبادة هو من رباكم تحت ظلال عطفه ، وأنعم عليكم بجزيل برّه ولطفه ، وأوجدكم وأوجد السموات والأرض من العدم ، لا من كان بمعزل عن كل ذلك .

وفى هذا إرشاد إلى أنه ينبغى لهم أن يرعووا عن غيهم ويعلموا من يستحق أن يعبدوه ويخضعوا له ، وبذلك يهتدون إلى الطريق السوىّ .

ثم ختم مقاله بنفى اللعب والهزل عن نفسه فقال :

(وأنا على ذلكم من الشاهدين) أى وأنا أدلى على ما أقول بالحجة كما تصحح الدعوى بالشهادة ، وأبرهن عليه كما تبين القضايا بالبينات ، فلست مثلكم أقول مالا أقدر على إثباته ، فإنكم لم تقدروا على الاحتجاج على مذهبكم ، ولم تزيدوا على أن تقولوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون .

وقصارى ما أقول : لست من اللاعبين الهازلين ، بل من العالمين بذلك

بالبراهين القاطعة ، والحجج الساطعة كالشاهد الذى يكون قوله الفصل فى إثبات الدعوى ، و إحقاق الحق .

و بعد أن أقام البرهان على إثبات الحق أتبعه بالتهديد لهدم الباطل ومحو آثاره وأنه سينقل من المحاجة القولية إلى تغيير المنكر بالفعل ثقة بالله ومحاماة عن دينه ، جمعا بين القول والفعل .

(وتالله لأ كيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) أى وتالله القوى العظيم لأجتهدن فى كسر أصنامكم و إلحاق الأذى بها بعد أن تذهبوا إلى عيدكم ، وقد فعل ذلك عليه السلام ليرشدهم إلى ماهم فيه من الضلال ، و يبين لهم خطأهم على ألطف أسلوب وأتم وجه .

وفى التعبير بالكيد إيذان بصعوبة انتهاز الفرصة وتوقفها على استعمال الحيلة فى كل زمان ، ولا سيما زمن نمرود على عتوه واستكباره ، وقوة سلطانه ، وتهالكه على نصرة دينه .

قال مجاهد وقتادة : قال إبراهيم هذه المقالة سرا من قومه ولم يسمع ذلك إلا رجل واحد فأفشاه عليه وقال إنا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم .

وقال السُّدّى : كان لهم فى كل سنة مجمع عيد وكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم عادوا إلى منازلهم ، فلما كان ذلك العيد قال آزر: يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ، فخرج معهم ، ولما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه وقال إنى سقيم أشتكى برجلى ، فلما مضوا نادى فى آخرهم وقد بقى فيهم ضعفاء الناس : تالله لأكيدنّ أصنامكم ، فسمعوها منه ، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة وهى فى بهو عظيم ، وكان مستقبل هذا البهو صنم عظيم إلى جنبيه أصغر منه والأصنام بعضها إلى جنب بعض ، كل صنم يليه أصغر منه إلى باب البهو ، وإذا هم قد جعلوا طعاما فوضعوه بين يدى الآلهة وقالوا إذا رجعنا و باركت الآلهة عليه أكلنا منه ، فلما نظر إبراهيم إليهم و إلى مابين أيديهم من الطعام قال لهم

مستهزئا : ألا تأكلون ، فلما لم يجيبوه قال لهم : مالكم لاتنطقون ؟ وراغ عليهم ضربا باليمين ، وجعل يكسرهن بفأس فى يده حتى إذا لم يبق إلا الصنم الأكبر علق الفأس فى عنقه ثم خرج فذلك قوله :

(فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم) أى فتولوا فأتى إبراهيم الأصنام فجعلهم قطعا قطعا إلا كبيرا لهم لم يكسره .

(لعلهم يرجعون) أى لعل هؤلاء الضلال يرجعون إلى الكبير كما يُرجَع إلى العالم فى حل المشكلات ، فيقولون له : مالهؤلاء مكسورة ومالك صحيحا والفأس فى عنقك أو فى يدك ؟ وحينئذ يستبين لهم أنه عاجز لاينفع ولا يضر ويظهر لهم أنهم فى عبادتهم على جهل عظيم .

وقد كان هذا بناء على ظنه فى أمرهم لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم فى آلهتهم وتعظيمهم لها .

فلما عادوا إلى أصنامهم فوجدوها على تلك الحال .

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥)

شرح المفردات

يذكرهم : أى يعيبهم ويسبهم ، على أعين الناس : أى على رءوس الأشهاد فى الملأ ، يشهدون : أى بفعله أو قوله ، فرجعوا إلى أنفسهم : أى ففكروا وتدبروا ،

الظالمون : أى الظالمون لأنفسكم بغفلتكم عن آلهتكم وعدم حفظكم إياها ، ويقال نكسته : أى قلبته فجعلت أعلاه أسفله، والمراد أنهم بعد أن أقروا أنهم ظالمون انقلبوا من تلك الحال إلى المكابرة والجدل بالباطل .

الإيضاح

(قالوا من فعل هذا بآلهتنا؟) أى قال قوم إبرهيم على سبيل التوبيخ والتأنيب حين رأوا آلهتهم قد صارت جذاذا إلا الذى علق فيه إبرهيم الفأس : من كسر هذه الآلهة وجعلها هكذا ؟

وفى تعبيرهم بالآلهة دون الأصنام تشنيع ومبالغة فى اللوم والتعنيف .

(إنه لمن الظالمين) أى إنه لمن زمرة الذين ظلموا أنفسهم وجرءوا على إهانة هذه الآلهة ، وهى الحقيّة بالإعظام والتكريم .

(قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) أى قال بعض منهم ممن سمع قوله تالله لأكيدن أصنامكم : سمعنا فتى يعيبهم ويستهزئ بهم ولم نسمع أحدا يقول ذلك غيره ، وإنى لأظن أنه صنع ذلك بهم .

(قالوا فأتوا به على أعين الناس) أى قال أولئك القائلون من فعل هذا بآلهتنا: إذا كان الأمر كما ذكرتم فأتوا به بمرأى من الناس ومسمع .

(لعلهم يشهدون) أنه الذى فعل ذلك ، فتكون شهادتهم عليه حجة لنا .

(قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابرهيم ؟) أى فلما أتوا به قالوا له أأنت الذى كسر هذه الأصنام وجعلهم جذاذا ؟ وقد طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على إيذائه وهم مقتنعون بصحة هذه الجريمة فى زعمهم ، فما كان منه إلا أن بادرهم بما أدهشهم حتى تمنوا الخلاص منه فقال :

(بل فعله كبيرهم هذا) أى بل الذى فعل هذا هو الصنم الأكبر الذى لم يكسر .

و إيضاح هذا — أن إبراهيم عليه السلام لما رأى تعظيمهم لهذا الصنم أشد من تعظيمهم لسائر ما معه من الأصنام غضب أشد الغضب وأسند إليه الفعل الصادر منه هو - من قِبَل أنه هو الذى حمله على ذلك ، وهو يومئ بذلك إلى مقصده وهو إلزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه ، مع حملهم على التأمل فى شأن آلهتهم .

ومجمل كلامه — إن شديد غضبى من تعظيمكم له حملنى على أن أفعل هذا ، والفعل كما ينسب إلى المباشر له ينسب إلى الباعث عليه ؛ فهذا الصنم الأكبر قد كان السبب فى استهانتى بهم وتحطيمى إياهم .

(فاسألوهم إن كانوا ينطقون) أى فاسألوهم عن كسرها ليخبروكم به إن كانوا ممن ينطق على زعمكم أنهم آلهة تنفع وتضر .

وقد كانت مقالة إبراهيم عليه السلام قوية الحجة شديدة الوقع فى نفوسهم ، وكأنما ألقمهم حجرا ، وذلك ما أشار إليه بقوله :

(فرجعوا إلى أنفسهم) أى فرجعوا على أنفسهم بالملامة ، إذ علموا أن مالا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على إلحاق الضر بمن ألحق به الأذى - يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له ، وإذا فكيف يستحق أن يكون معبودا ؟ .

ثم بين ملامتهم لأنفسهم بقوله :

(فقالوا إنكم أنتم الظالمون) أى فقال بعضهم لبعض : إنكم أنتم الظالمون بعبادة ما لا ينطق ، وما هذا منكم إلا غرور وجهل بما ينبغى أن تكون عليه حال المعبود .

ثم أبان أنهم أركسوا بعدئذ ورجعوا عن فكرة سليمة لاغبار عليها بوصفهم أنفسهم بالظلم إلى فكرة خاطئة وهى الحكم بصحة عبادتها مع اعترافهم بأن حالهم دون حال الحيوان ، فلا ينبغى لعاقل أن يعبدها فقال :

(ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) أى لقد بلغ الأمر بهم أن قالوا إنما اتخذناهم آلهة مع علمنا بأنهم لا ينطقون ولا يتكلمون فكيف تأمرنا

بسؤالهم ، و إنما قال ينطقون ولم يقل يسمعون أو يعقلون ، مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضا ، من قِبَل أن نتيجة السؤال الجواب ، وأن عدم نطقهم أبلغ فى تبكيتهم.

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَانَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) .

شرح المفردات

أف : كلمة تدل على أن قائلها متضجر متألم من أمر ، والكيد : المكر والخديعة .

المعنى الجملى

بعد أن أقروا على أنفسهم بأنْ لافائدة فى آلهتهم ، قامت لإبراهيم الحجة عليهم فوبخهم على عبادة ما لايضر ولا ينفع ، إذ هذا ما لاينبغى لعاقل أن يقدم عليه ، و بعد أن دحضت حجتهم وبان عجزهم انقلبوا إلى العناد واستعمال القوة الحسية إذ أعيتهم الحجة فقالوا حرقوا إبراهيم بالنار وانصروا آلهتكم التى جعلها جذاذا ، ولكن الله سلمه من كيدهم وجعل النار بردا وسلاما عليه .

الإيضاح

(قال أفتعبدون من دون الله ما لاينفعكم شيئا ولا يضركم ؟) أى قال إبراهيم مبكتا لهم : أفتعبدون غير الله معبودات لاتنفعكم شيئا فتعلقوا رجاءكم بها ، ولاتضركم شيئا فتخافوها .

(أف لكم ولما تعبدون من دون الله) أى تبا لكم وقبحا لمعبوداتكم التى اتخذتموها من دون الله .

(أفلا تعقلون ؟) أى أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الذى لا يروج إلا على جاهل فاجر، وأنتم الشيوخ الذين بَلَوُا الزمان حلوه ومره وحنّكتهم تجارب الأيام ، فمن حقكم أن تعاودوا الرأى وتقلّبوه ظهرا البطن ، لعلكم ترشدون بعد الضلال ، وتهتدون بعد الغى والعمى .

ولما بان عجزهم وحصحص الحق لجئوا إلى الغلظة واستعمال القسوة ، وذلك ما أشار إليه بقوله :

(قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) أى قال بعضهم لبعض : حرقوا إبراهيم بالنار وانصروا آلهتكم إن كنتم ناصريها ، ولا تريدون خذلانها وترك عبادتها.

ثم أبان سبحانه أنه أبطل كيدهم ودفع عنه هلاكا محققا بمعونته وتأييده فقال :

(قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم) أى فأوقدوا له نارا ليحرقوه ثم ألقوه فيها فقلنا للنار : يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم أى ابردى بردا غير ضارّ به.

روى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لما ألقى إبراهيم فى النار قال : اللهم إنك فى السماء واحد ، وأنا فى الأرض واحد أعبدك .

(وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين) أى وأرادوا بإبراهيم مكرا لإيصال الأذى به فجعلناهم من ذوى الخسران والوبال إذ صار سعيهم فى إطفاء نور الحق قولا وفعلا - برهانا على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل ، وأنهم استحقوا أشد العذاب .

وفى هذا القصص من العبرة - أن الجهاد لنصرة الحق والفضيلة فيه الخير كل الخير ، وأنه مهما صادف المرء فيه من آلام وأهوال فهى هينة لينة ، فلنجاهد إذا مثل ما جاهد إبراهيم ، فإن مِتنا أو قتلنا فإن ما يصيبنا فى سبيل الحق يكون لنا عزا وشرفا .

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا
لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ
وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ
الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ
فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) .

شرح المفردات

لوط : هو ابن أخى إبراهيم : قاله ابن عباس ، والأرض هى أرض الشام .

نافلة : أى عطية ومنحة ، حكما : أى نبوة ، القرية : هى سذوم التى بعث إليها لوط ، والخبائث : الأعمال الخبيثة التى يستقذرها أرباب الفطر السليمة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أكرم به إبراهيم من نجاته من النار - قفى على ذلك ببيان أنه أخرجه من بين قومه مهاجرا إلى بلاد الشام وهى الأرض المباركة ، ثم وهب له من الذرية إسحق وابنه يعقوب عليهما السلام وكانا أهل صلاح وتقوى يقتدى بهما ويأتمر بأمرهما ، ثم أردف ذلك بذكر ما آتاه لوطا من العلم والنبوة وجعله يعزف عن مفاسد تلك القرية التى كان يقيم فيها بين ظهرانَىْ أهلها وقد أهلكهم الله جميعا وأنجاه هو وأهله وأدخله فى جنات النعيم ، وقرّبه إلى حظيرة قدسه ، وساحة رحمته .

الإيضاح

(ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) أى إنه تعالى أتم عليه النعمة فأنجاه وأنجى لوطا معه إلى الأرض التى باركها بكثرة ما بعث فيها من الأنبياء

الذين انتشرت شرائعهم فى أقاصى المعمور ، فهى أس الخيرات الدينية والدنيوية ، لكثرة خصبها وأشجارها وثمارها وأنهارها .

وقد خرج إبراهيم من كُوثَى من أرض العراق ومعه لوط وسارة يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه حتى نزل حرّان فمكث بها ما شاء الله ، ثم خرج منها وجاء إلى مصر ، ثم رجع إلى الشام ونزل بفلسطين وترك لوطا بالمؤتفكة وهى مسيرة يوم وليلة منها .

ثم ذكر ما أفاضه من النعم على إبراهيم فقال :

(١) (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة) أى ووهبنا لإبراهيم إسحق ولدا ويعقوب ولد ولد ، عطية وفضلا لاجزاء مستحقا .

(٢) (وكلا جعلنا صالحين) أى وجعلنا كلا من إبراهيم وإسحق ويعقوب مطيعين لربهم مجتنبين محارمه .

(٣) (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) أى وجعلناهم أئمة يدعون الناس إلى دين الله تعالى وإلى الخيرات بأمرنا وإذننا .

(٤) (وأوحينا إليهم فعل الخيرات) أى وأوحينا إليهم فيما أوحينا أن افعلوا الطاعات واتركوا المحرمات .

(٥ ، ٦) (وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) أى وأوحينا إليهم أن أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وقدخصهما بالذكر من بين سائر العبادات ، لأن الصلاة أشرف العبادات البدنية ، والزكاة أفضل العبادات المالية ، والمال شقيق الروح ، ومجموع العبادتين تعظيم الخالق والشفقة على المخلوق .

وبعد أن بين صنوف نعمه عليهم ذكر اشتغالهم بعبادته فقال :

(وكانوا لنا عابدين) أى وكانوا خاشعين لايستكبرون عن طاعتنا وعبادتنا ولا يخطر لهم ببال سواها .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى حين وفى لهم بعهد الربوبية من الإحسان والإنعام وفوا له بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة .

و بعد أن ذكر ما أنعم به على ابراهيم أتبعه بذكر ما أنعم به على لوط فقال :

(١) (ولوطا آتيناه حكما) أى وآتينا لوطا الحكم وهو حسن الفصل بين الخصوم فى القضاء .

(٢) (وعلما) بأمر دينه وما يجب عليه لله من واجب الطاعة والإخبات إليه.

(٣) (ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث) أى ونجيناه من عذابنا الذى أحللناه بأهل تلك القرية التى كانت تعمل خبيث الأعمال التى من أشنعها إتيان البيوت من غير أبوابها .

ثم بين السبب الذى دعاهم إلى ذلك فقال :

(إنهم كانوا قوم سوء فاسقين) أى إن الذى حملهم على ذلك وجرأهم على ارتكابه أنهم كانوا خارجين عن طاعة الله منتهكين حرماته ، قد دسُّوا أنفسهم بقبيح الأفعال والأقوال ، فلا عجب إذا هم لجوا فى طغيانهم يعمهون .

(٤) (وأدخلناه فى رحمتنا) أى وجعلناه فى جملة من يستحقون رحمتنا ولطفنا بإدخاله جنتنا كما جاء فى الحديث الصحيح : «قال الله عز وجل للجنة : أنتِ رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى » .

ثم ذكر علة هذا بقوله :

(إنه من عبادنا الصالحين) الذين سبقت لهم منا الحسنى ، إذ كان ممن يعملون بطاعتنا ، فيأتمرون بأمرنا وينتهون عن نهينا .

وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) .

شرح المفردات

الكرب : الغم الشديد ؛ والمراد به هنا العذاب النازل بقومه وهو الغرق بعد أن لقى منهم الأذى ، قوم سوء : أى منهمكين فى شرورهم وآثامهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصة إبراهيم وهو أبو العرب ـ أردفها بقصة نوح وهو الأب الثانى للبشر على المشهور من أن جميع الباقين بعد الطوفان من ذريته عليه السلام .

الإيضاح

(ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) أى واذكر أيها الرسول نبأ نوح إذ نادى ربه من قبلك ومن قبل إبراهيم فسألنا أن نهلك قومه الذين كذبوا الله فيما توعدهم به من وعيده ، وكذبوه فيما آتاهم به من الحق من عند ربه فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » وقال : « إِنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ » فاستجبنا له دعاءه ونجيناه وأهل الإيمان من ولده وأزواجهم مما حل بالمكذبين من الغرق .

روى أنه بعث وهو ابن الأربعين ومكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وعاش بعد الطوفان ستين سنة ، فذلك ألف وخمسون سنة كذا فى التحبير .

(ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا) أى ونصرناه على القوم الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا .

(إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) أى فأغرقناهم أجمعين ، لأنهم كانوا يسيئون الأعمال فيعصون الله ويخالفون أوامره ويتصدون لأذى نبيهم ويتواصون جيلا بعد جيل بمخالفة أمره ورفع راية العصيان فى وجهه .

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ
وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا
وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩)
وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ
(٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا
فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ
وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) .

شرح المفردات

الحرث هنا : الزرع ، والنفش : رعى الماشية فى الليل بلا راع ، وشاهدين : أى حاضرين ، واللبوس : الدروع ، والبأس : الحرب ، والريح العاصف : الشديدة الهبوب ، إلى الأرض التى باركنا فيها : هى أرض الشام ، والغوص : النزول إلى قاع البحار لإخراج شىء منها ، ودون ذلك : أى غير ذلك كبناء المدن والقصور واختراع الصناعات الغريبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما أنعم الله به على نوح عليه السلام من النعم الجليلة - قفى على ذلك بذكر الإحسان العظيم الذى آتاه داود وسليمان عليهما السلام وهو قسمان :

(١) نعم مشتركة بينهم و بين النبيين وهى العلم والفهم وإلى ذلك أشار بقوله وكلا آتينا حكما وعلما .

(٢) نعم خاصة بواحد دون الآخر .

(ا) فأنعم على داود بتسخير الجبال والطير للتسبيح معه، وتعليم صنعة الدروع للوقاية من أذى الحرب .

(ب) وأنعم على سليمان بتسخير الريح العاصفة التى تجرى بأمره ، و بتسخير الشياطين تغوص فى البحار لتخرج له اللؤلؤ والمرجان ، وتعمل له أعمالا أخرى غير ذلك .

الإيضاح

(وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) أى واذكر أيها الرسول الكريم نبأ داود وسليمان عليهما السلام حين حكما فى الزرع الذى رعته غنم لقوم آخرين غير صاحب الحرث ليلا فأفسدته ، وكان ربك شاهدا عليما بما حكم به داود وسليمان بين القوم الذين أفسدت غنمهم الحرث وصاحب الحرث ، لايخفى عليه شىء منه ولايغيب عنه علمه ، ففهّم الفتيا فى ذلك لسليمان دون داود ، وقد كان كل منهما فيصلا فى الحكم فى الخصومات ، ذا علم بالدين والتشريع .

وقد روى الرواة فى تفصيل هذه القصة - أن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : إن هذا الرجل أرسل غنمه فى حرثى فلم تبق منه شيئا ، فقال داود : اذهب فإن الغنم كلها لك ، ومرّ صاحب الغنم بسليمان فأخبره بالذى قضى به داود ، فدخل سليمان على داود فقال يا نبى الله : إن القضاء سوى الذى قضيت ، فقال كيف ؟ قال ادفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له منافعها من درّها وأولادها وأشعارها ، والحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان ، ثم يترادان فيأخذ صاحب الحرث حرثه وصاحب الغنم غنمه ، فقال داود : القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك .

وجه الرأى لدى كل منهما — إن داود قدر الضرر فى الحرث فكان مساويا

لقيمة الغنم فسلم الغنم للمجنى عليه ، وإن سليمان قدر منافع الغنم بمنافع الحرث فحكم بها ، وكان حكمهما بالاجتهاد دون الوحى ، إذ لو كان به ما أمكن تغييره .

نعم الله على داود عليه السلام

(١) (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين) أى وسخرنا الجبال والطير لداود تُقَدِّس الله معه بحيث تمثّل له مسبِّحة ، فيكون ذلك أملك لوجدانه وجميع مشاعره ، فيستغرق فى التسبيح ، وكنا فاعلين لأمثاله ، فليس ذلك ببدع منا وإن كنتم أنتم تعجبون منه ، فإن المستغرقين فى التسبيح والتقديس يحصل لهم من الأنس بالله ما يجعل العالم كله فى نظرهم مسبحا ، وكأن العوالم كلها تنطق لهم به بلسان أفصح من لسان المقال ، ولا يدرك هذا أحد إلا بوجدانه .

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ مِنْ شَيْء إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِنْ لاَتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

(٢) (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم) أى وعلمناه صنعة الدروع وقد كانت صفائح فجعلها حِلَقا ، فتمنع عنكم إذا لبستموها ولقيتم أعداءكم أذى الحرب من قتل وجرح ونحوهما .

(فهل أنتم شاكرون؟) أى فاشكروا الله على ما يسّره لكم من هذه الصنعة التى تمنع عنكم غوائل الحروب وتقيكم ضرها وعظيم أذاها .

نعم الله على سليمان عليه السلام

ورّث الله سليمان من داود ملكه ونبوته وزاده أمرين أشار إليهما بقوله .

(١) (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها) أى وسخرنا لسليمان الريح عاصفة شديدة الهبوب تارة ، ورخاء لينة تارة أخرى .

وفى كل حال منهما تجرى بأمره إلى أى بقعة من الأرض المقدسة ، فيخرج هو وأصحابه حين الغداة إلى حيث شاءوا ثم يرجعون فى يومهم إلى منزله بالشام .

وقد رووا أنه كان له بساط من الخشب يضع عليه كل ما يحتاج إليه من أدوات الحرب كالخيل والجمال والخيام والجند ، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ثم تحركه ثم ترفعه وتسير به ، وتظله الطير لتقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض ، ثم ينزل وتؤخذ الآلات إلى حيث شاء كما قال : « فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ » وقال : « غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ » .

(وكنا بكل شىء عالمين) أى فما آتيناه الملك والنبوة وما سخرنا له الريح تجرى بأمره إلا لعلمنا بما فى ذلك من الحكمة والمصلحة ، وأن قومه سيعرفون نعمتنا فيشكروننا عليها .

(٢) (ومن الشياطين من يغوصون له) أى وسخرنا له من الشياطين من يغوصون له فى البحار ويستخرجون منها اللؤلؤ والمرجان ونحو ذلك .

(ويعملون عملا دون ذلك) أى ويعملون له غير ذلك كبناء المحاريب والتماثيل والقصور والجفان ونحو ذلك .

(وكنا لهم حافظين) أى وكنا حافظين لأعمالهم فلا يناله أحد منهم بسوء ، فكل فى قبضته وتحت قهره لا يجسر على الدنوّ منه وهو المتحكم فيهم إن شاء حبس وإن شاء أطلق كما قال : « وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ » .

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤) .

شرح المفردات

أيوب : هو أيوب بن أموص اصطفاه الله و بسط له الدنيا وكثر أهله وماله ثم ابتلاه بموت أولاده بسقوط البيت و بذهاب أمواله و بالمرض فى بدنه ثمانى عشرة سنة، وسنه إذ ذاك سبعون سنة ، ثم آتاه الله من الأولاد ضعف ما كان وأزال عنه ما به من مرض ، وسيأتى تفصيل قصصه فى سورة ص ، والضرر: شائع فى كل ضرر، والضر (بالضم) : خاص بما فى النفس من مرض وهزال ونحوهما ، والذكرى : التذكرة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص داود وسليمان وما كان منهما من شكر على النعماء ـ أردف ذلك بقصص أيوب لما فيه من صبر على البلاء ، فداود وسليمان شكرا على النعم المترادفة ، وأيوب صبر على النقم النازلة ، فأزيلت عنه .

و إن فى قصصه الذى ذكر هنا وفى مواضع من الكتاب الكريم لعبرا له ولغيره ممن سمع به ، ولفتا لأنظارهم إلى أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأن الواجب على المرء أن يصبر على ما يناله من البلاء فيها و يجتهد فى القيام بحق الله و يصبر فى حالى السراء والضراء .

الإيضاح

(وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) أى واذكر نبأ أيوب حين دعا ربه وقد مسه الضر والبلاء فقال : رب إنى قد مسنى الضر وأنت أعظم رحمة من كل رحيم .

وقد وصف أيوب نفسه بما يستحق به الرحمة ، ووصف ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بمطلوبه إيماء منه بأن ربه به عليم ، فكأنه يقول : أنا أهل لأن أُرحم ،

وأنت الكريم الجواد الذي يرحم، فأفض عليّ من جودك ورحمتك ما يسعفني ويدفع الضر عني فأنت أرحم الراحمين.

وهذا أسلوب من الطلب دقيق المسلك حكيم المنحى.

روى أن امرأته قالت له يوما لو دعوت الله، فقال: كم كانت مدة الرخاء؟ فقالت ثمانين سنة، فقال أستحيي من الله أن أدعوه، ما بلغت مدة بلائي مدة رخائي.

(فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر) أي فاستجبنا له دعاءه فكشفنا ضره، وقد كان الذي نزل به امتحانا من الله واختبارا له.

(وآتيناه أهله ومثلهم معهم) أي وأعطيناه في الدنيا مثل أهله عددا مع زيادة مثل آخر، فولد له من الأولاد ضعف ما كان.

(رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) أي آتيناه ما ذكر رحمة منا لأيوب، وتذكرة للعابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة.

وخلاصة ما سلف — إن أيوب ابتلى في نفسه وولده وماله، فابتلى بالمرض وهلاك الأولاد وضياع الأموال امتحانا منه تعالى واختبارا له، ثم كشف عنه ما به من ضر فشفى من أمراضه التي أصيب بها، وأنجب من الأولاد ضعف ما كان، وحسن حاله في ماله فزال ما به من عُدْم وإقتار.

ولم يصرح القرآن الكريم بما صار اليه من سعة في المال كما صرح بما صار اليه أمره من كثرة الولد.

وما روى من مقدار ما لحقه من الضر في نفسه حتى وصل الى حد النفرة منه، وأن الناس جميعا تحاموه وطردوه من مقامه الى ظاهر المدينة في موضع الكناسة ولم يكن يتصل به الا امرأته التي تذهب اليه بالزاد والقوت — فكل ذلك من الإسرائيليات التي يجب الاعتقاد بكذبها، لأنه ليس لها من سند صحيح يؤيدها، ولأن من شروط النبوة ألا يكون في النبي من الأمراض والأسقام ما ينفر الناس منه، ولأنه متى كان كذلك لا يستطيع الاتصال بهم وتبليغ الشرائع والأحكام إليهم، وسيأتي لهذا مزيد إيضاح في سورة ص.

وَإِسْمَاعِيلَ ، وَإِدْرِيسَ ، وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥)
وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر سبحانه صبر أيوب عليه السلام ودعاءه ربه وانقطاعه إليه حتى كشف عنه الضر – قفى على ذلك بذكر هؤلاء الأنبياء الذين صبروا على ما أصابهم من المحن والشدائد .

الإيضاح

(وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين) أى واذكر نبأ هؤلاء الرسل الكرام الذين صبروا على ما ابتلاهم الله به وأخبتوا إليه ، فنالوا رضاه وأدخلهم جنته .

(١) أما إسماعيل؛ فانه صبر على الانقياد للذبح ، وصبر على المقام ببلد لازرع فيه ولا ضرع ، وصبر على بناء البيت وتكلف المشاق فى ذلك ، وقد أكرمه الله فأخرج من صلبه خاتم النبيين .

(٢) وأما إدريس – أخنوح – فهو موضع التجلة والاحترام لدى قدماء المصريين وهو المسمى عندهم (أوزيس) ويزعم كثير من الناس أنه أول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وكانوا من قبل يلبسون الجلود ، وأول من اتخذ السلاح عُدّة ، وقد تقدم قصصه بإسهاب فى سورة مريم .

(٣) وأما ذو الكفل – والكفل : الحظ والنصيب – فقد اختلف العلماء فى شأنه ، فمن قائل إنه نبى وهم الأكثرون، وقالوا إنه ابن أيوب عليه السلام بعثه الله نبيا بعد أبيه وسماه ذا الكفل وأمره بالدعاء الى توحيد الله وأقام عمره بالشام . وقال

أبوموسى الأشعرى ومجاهد لم يكن نبيا بل كان عبدا صالحا استخلفه اليسع عنه على أن يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب ففعل .

(وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين) أى وأدخلنا كل هؤلاء جنات النعيم جزاء لهم على مافعلوا من صالح الأعمال .

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) .

شرح المفردات

النون : الحوت وجمعه نينان ، وذو النون : أى صاحب الحوت وهو يونس بن متى ، مغاضبا : أى غضبان من قومه لتماديهم فى العناد والطغيان ، نقدر عليه : أى نضيق عليه فى أمره بحبس ونحوه ، والظلمات : هى ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل .

الايضاح

(وذا النون إذ ذهب مغاضبا) أى واذكر نبأ يونس عليه السلام حين بعثه الله إلى أهل نينوى (قرية بالموصل) فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته فأبوا عليه وتمادوا فى كفرهم فخرج من بين ظهرانيهم مغاضبا لهم وأوعدهم بالعذاب بعد ثلاث .

فلما تحققوا أنه كائن لامحالة وعلموا أن النبى لايكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم وفرقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله وجأروا إليه

ورغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وعجاجيلها ، وثغت الغنم وسخالها ، فرفع الله عنهم العذاب كما قال : « فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ » .

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم فى سفينة ، فلما وصلوا اللجة تكفأت بهم وأشرفوا على الغرق ، فاقترعوا على رجل منهم يلقونه فى البحر يتخففون منه ، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوها فوقعت القرعة عليه أيضا فأبوا ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضا كما يرشد إلى ذلك قوله : « فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » ثم قام يونس وتجرد من ثيابه وألقى بنفسه فى البحر ، فأرسل الله إليه حوتا يشق البحر فالتقمه .

ومعنى مغاضبته قومه أنه أغضبهم بفراقه وهجرته من ديارهم ، لأنهم حين تمادوا فى تكذيبه توعدهم بالعذاب فلم يأتهم لأنهم تابوا ، فكره أن يكون بين ظهرانىْ قوم جربوا عليه الخلف فيما أوعدهم واستحيا منهم ولم يعلم توبتهم التى كانت سبب رفع العذاب عنهم .

وخلاصة ذلك — إن غضبه كان أنفة من ظهور خلف وعده لا كراهية لحكم الله ، وقد بحث عنه قومه فلم يجدوه لأنه نزل إلى سفينة فى البحرهاربا ، فأخرجه الله من الأنبياء أولى العزم كما قال لنبيه : « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ » أى لاتلق أمرى كما ألقاه .

(فظن أن لن نقدر عليه) أى فظن أن لن نضيق عليه الأمر بالحبس أو بغيره (فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك) أى فدعا ربه فى الظلمات الثلاث التى سبق ذكرها - سبحانك لا إله غيرك ولا يعجزك شىء .

(إنى كنت من الظالمين) لنفسى بالمبادرة بالهجرة دون أمر منك .

(فاستجبنا له) دعاءه الذى دعا به وأظهر به التوبة على ألطف وجه وأحسنه .

روى ابن جرير والبيهقى فى جماعة عن سعد بن أبى وقاص أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « دعوة ذى النون فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، لم يدعُ بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له » .

وروى عن أنس مرفوعا أنه عليه السلام حين دعا بذلك أقبلت دعوته تحفّ بالعرش فقالت الملائكة هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة ، فقال الله تعالى : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا يا رب من هو ؟ قال ذاك عبدى يونس ، قالوا عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبَّل ودعوة مجابة ، يا رب أفلا ترحم من كان يصنع فى الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال بلى ، فأمر الحوت فطرحه ، فذلك قوله :

(ونجيناه من الغم) الذى ناله حين التقمه الحوت ، فجعلناه يقذفه إلى الساحل بعد ساعات ، قال الشعبى : التقمه ضحى ، ولفظه عشية .

(وكذلك ننجى المؤمنين) من كربهم إذا استغاثوا بنا طالبين رحمتنا ، قال الرازى : شرط كل من يلتجىء إلى الله أن يبدأ بالتوحيد ثم بعده بالتسبيح والثناء ثم بالاستغفار والاعتراف بالذنب ، وسيأتى ذكر هذا القصص فى الصافات و نَ .

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) .

المعنى الجملى

بين سبحانه فى هذا القصص انقطاع زكريا إلى ربه لما مسه الضر بتفرده وأحب أن يكون معه من يؤنسه ويقويه على أمر دينه ودنياه ويقوم مقامه بعد موته

فدعا ربه دعاء مخلص عارف بأنه قادر على ذلك ، وأنه قد انتهت الحال به وبزوجه من كبر وغيره إلى اليأس من الولد على مجرى العادة .

الإيضاح

(وزكريا إذ نادى ربه لاتذرنى فردا وأنت خير الوارثين) أى واذكر خبر زكريا حين طلب أن يهبه الله ولدا يكون من بعده نبيا، فقال خُفية عن قومه : رب لاتدعْنى وحيدا لا ولد لى ولا وارث يقوم بعدى فى النادى ، فإن لم ترزقنى من يرثنى فلا أبالى فإنك خير وارث ، وقد تقدم هـــذا القصص ، مبسوطا فى سورتى آل عمران ومريم

(فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه) أى فأجبنا سؤله ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه بأن أزلنا عنها الموانع التى كانت تمنعها من الولادة فولدت له بعد أن كانت عقيما .

ثم ذكر السبب فى إجابة مطلبهم فقال :

(إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات) أى لأن زكريا وزوجه ويحيى كانوا يسارعون فى طاعتنا والعمل بما يقربهم إلينا .

(ويدعوننا رغبا ورهبا) أى ويعبدوننا رغبة منهم فيما يرجون من رحمتنا وفضلنا ، وخوفا من عذابنا وعقابنا .

(وكانوا لنا خاشعين) أى وكانوا لنا متواضعين متذللين ، لايستكبرون عن عبادتنا ودعائنا .

وخلاصة ما سلف — إنهم نالوا من الله ما نالوا لاتصافهم بتلك الخلال الحميدة.

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١) .

شرح المفردات

الإحصان : المنع مطلقا ، والفرج فى الأصل : الشق بين الشيئين كالفُرجة ثم أطلق على السوءة ، وكثر حتى صار كالصريح فى ذلك ، والروح هو المعنى المعروف ، ونفخ الروح : هو الإحياء ، آية : أي برهانا ودليلا على قدرة الله .

الإيضاح

(والتى أحصنت فرجها) أى ومريم التى منعت نفسها من قربان الرجال سواء أكان من حلال أم من حرام كما قالت : « وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا » وجاء فى سورة التحريم : « وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا » .

(فنفخنا فيها من روحنا) أى فنفخنا الروح فى عيسى فى بطنها وجعلناه يجرى فى جوفها .

(وجعلناها وابنها آية للعالمين) أى وجعلنا أمرهما آية للناس يستدلون به على قدرة الله وحكمته ، ويتدبرون فيما خصا به من الآيات .

أما آيات مريم فمنها :

(١) ظهور الحمل من غير ذكر .

(٢) إن الملائكة كانت تأتيها برزقها كما حكى القرآن قول زكريا لها وردها عليه : « يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ؟ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ » .

وأما آيات عيسى فقد سبق تفصيلها فى سورتى آل عمران ومريم .

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا، يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) .

شرح المفردات

الأمة : القوم المجتمعون على أمر ثم شاع استعمالها فى الدين ، وتقطعوا أمرهم بينهم : أى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا ، وحرام : أى ممتنع : وقرية : أى أهلها ، أهلكناها : أى قدرنا هلاكها ، يأجوج ومأجوج تقدم الكلام فيهما وفى بيان أصلهما ، وحدب : أى مرتفع من الأرض ، ينسلون : أى يسرعون ، واقترب : أى قرب ، الوعد الحق : هو يوم القيامة ، شاخصة : أى مرتفعة أجفانها لاتكاد تطرِف من شدة الهول ، والويل : الهلاك.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص جمع من الأنبياء كنوح وإبراهيم وإدريس وموسى وعيسى وبيّن ما أوتوا من الشرائع والأحكام على وجه الإجمال ـ قفى على ذلك ببيان أن لب الدين عند الله واحد ، وأن جميع الأنبياء قد اتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه فى عصر من الأعصار وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وأنه هو القاهر فوق عباده المالك لجميع السموات والأرض لا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم ، وإن اختلفوا فى الرسوم والأشكال على حسب اختلاف الأزمان والأمكنة ، فعليكم أيها المسلمون أن تحافظوا على وحدة دينكم ، وألا تجعلوه عضين ، وكأنه يقول لهم : عليكم ألا تركنوا

إلى خوارق العادات كما رأيتم فى قصص موسى ، ولا تدعوا نظم الدولة بل سوسوها كما كان يفعل داود وسليمان ، ولا تذروا الصبر فى جميع الأعمال كما رأيتم فى قصص أيوب ومن بعده .

ثم نعى على المسلمين ما سيحدث منهم فى مستأنف الزمان حين يتفرقون شيعا يذوق بعضهم بأس بعض ويجعلون الدين قطعا فيما بينهم كما تتوزع الجماعة الشىء يقتسمونه فيصير لهذا نصيب ولذاك آخر .

وهذا إخبار بالغيب لما سيحصل فى هذه الأمة الاسلامية ، وقد حدث فعلا وافترقت الأمة سياسيا واجتماعيا بوساطة بعض رؤساء الدين ، فأعرض الله عن هؤلاء المختلفين وقطّعهم بين الأمم ، كما قطعوا أمرهم بينهم واقتسموه .

ثم بين أن الله يثيب عباده على صالح الأعمال اذا كانت القلوب عامرة بالايمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن كل عمل جلّ أو قل فهو مكتوب محفوظ لديه لايغيب عنه مثقال ذرة ، وأن جميع الخلق راجعون إليه فيثيب كل إنسان بما عمل من خير أو شر ، وأن الساعة قد اقترب ميقاتها ، ثم أخبر أن المشركين يدعون إذ ذاك على أنفسهم بالويل والثبور ويقولون يا حسرتنا على ما فرطنا فى جنب الله ، وكنا ظالمين لأنفسنا ، ولا ينفع الندم اذ ذاك .

ندم البغاة ولات ساعة مندم		والبغى مرتع مبتغيه وخيم

الإيضاح

(إن هـذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون) أى إن الدين عند الله هو الانقياد له وحده لايقبل غيره ، وعليه اتفق جميع الأنبياء والشرائع ، وما اختلفوا الا فى الرسوم والصور على حسب اختلاف الأزمنة والأمكنة فعليكم أن تعبدوه وحده ولاتشركوا به شيئا من صنم أو وثن شجر أو حجر أو بشر أو ملك .

ثم نعى على المسلمين ما فعلوا من تفريق شأنهم فرقا وشيعا فقال :

(وتقطعوا أمرهم بينهم) أى وإنهم قد فرقوا أمرهم بينهم فرقا شتى كل فرقة تنعى على من سواها وتشيد بمفاخرها ، وقد كان لهم فى عبر الماضين ما يمنعهم أن يقترفوا مثل هذا الجُرْم وكبير ذلك الإثم .

قال الحسن البصرى فى هذه الآية - يبين لهم ما يتقون وما يأتون - يريد أن هذا إخبار بالغيب بما سيكون منهم .

والخلاصة — إنهم قد غفلوا عما أمر به دينهم من وجوب الاعتصام بوحدة الأمة ونبذ الفرقة ، ففعلوا ضد هذا وذاق بعضهم بأس بعض ، وكان فى هذا وبال للجميع وتمكن عدوهم من أن يهيض جناحهم ويبطش بهم ويستعبدهم فى عُقر دارهم ويسيمهم الخسف والصغار بعد أن كانوا سادة أحرارا ، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ثم توعدهم على ما فعلوا فقال :

(كلّ إلينا راجعون) أى إنهم سيرجعون إلينا ونجازيهم على تفرقهم واختلافهم شيعا .

وفى هذا إخبار بالغيب بما سيحدث فى هذه الأمة التى ذاقت وبال أمرها وعاقبة اختلافها ، وكانت لقمة سائغة للآكلين ، ونهبا مقسما بين الطامعين ، جزاء ما اجترحت من التفرق شَذَرَ مَذَرَ « وَلاَ يَظْلِمُ رَبكَ أَحَدًا » .

وبعد أن أبان أن افتراق الأمة واقع لا محالة أردفه بفتح باب الرجاء فى لمّ شعثها واتفاقها بعد تفرقها ، عسى أن تقوم من كبوتها وترجع إلى وحدتها وتصير لها الدولة والصولة كما كانت فى سالف عهدها فقال :

(فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون) أى ومن يعمل صالح الأعمال وقلبه ملىء بالإيمان بربه والتصديق لأنبيائه ورسله ، واليقين بيوم الآخر يوم تجزى كل نفس بما عملت من خير أو شر ، فإنا لا نضيع سعيه ولا نبخسه حقه بل نوفيه على عمله الجزاء الأوفى ، وإنا مثبتون له ذلك فى صحيفة أعماله لا نترك منه شيئا جلّ أو قل ، عظم أو حقُر .

ونحو الآية قوله : « وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا » وقوله : « إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » .

(وحرام على قرية أهلكناها أنهم لايرجعون) أى ممتنع أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا .

(حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) أى ويستمر هذا الامتناع إلى قيام الساعة ، ومن أمارات ذلك فتح سد يأجوج ومأجوج و إتيان الناس سراعا من كل مرتفع من الأرض ، والمقصود الرد على المشركين فى إنكارهم للبعث والجزاء .

والخلاصة — إنه لاتزال حياة من مات وهلك ممتنعة ولا يمكن رجوعهم إليها حتى تقوم الساعة ويسرع الناس من كل حدب من الأرض .

(واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) أى وقرب مجىء يوم القيامة و إذ ذاك تشخص أبصار الذين كفروا وترتفع أجفانهم فلا تكاد تطرف من هول ماهم فيه حين يقومون من قبورهم و يعلمون أن هـذا يوم الحساب الذى لم يُعدُّوا له العُدّة ، بل كانوا ينكرون مجيئه وحينئذ يقولون :

(يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين) أى يا هلاكنا احضر فهذا أوانك ، فقد كنا فى الدنيا فى غفلة من هذا الذى دهمنا من البعث والرجوع إلى الله للحساب والجزاء ـ لا بل الحق أننا لم نكن فى غفلة إذ نبهتنا الآيات والنذر ، و إنما كنا ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب .

وصفوة القول — إن الناس لايرجعون إلى الحياة حتى تزلزل الأرض زلزالها ويختل نظام هذا العالم فتموج الأمم بعضها فى بعض بتفريق أجزائها ، لافرق بين يأجوج ومأجوج وغيرهما ـ فذكرهما رمز لاختلال الأرض وخرابها ، فكأنه قيل إنهم لايرجعون إلى الحياة إلا إذا اختل نظام العالم ورجت الأرض رجا وماجت الأمم بعضها فى بعض وخرج الكفار من قبورهم شاخصة أبصارهم من الهول الذى هم

فيه ، وقد ذكرنا فى سورة الكهف من يأجوج ومأجوج ، وأين مساكنهم على وجه البسط ؟ فلا حاجة إلى إعادته هنا .

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا
وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩)
لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا
الْحُسْنَى أُولٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ
أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ
هٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ
لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) .

شرح المفردات

الحصب : ما يرمى به فى النار لاشتعالها ، والزفير صوت نفس المغموم يخرج من أقصى الجوف ، والحسنى : أى الكلمة الحسنى التى تتضمن البشارة بثوابهم حين الجزاء على أعمالهم ، والحسيس : الصوت الذى يحس من حركتها ، والسجل: هو الصحيفة ،

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه هول الموقف ودعاء المشركين على أنفسهم بالهلاك فى هذا الحين وشخوص أبصارهم من الحيرة والدهش مما يشاهدون ويرون ـ أردف هذا بذكر مايئول إليه أمرهم بعد الحساب ، وأنهم يكونون هم ومعبوداتهم من الأصنام والأوثان

حطبا للنار حين يردونها ، وأنهم من شدة العذاب فيها يكون لهم أنين وزفير حتى لا يسمع بعضهم أصوات بعض لفظاعة ماهم فيه من العذاب .

أما من كتبت له السعادة والنجاة من النار فأولئك يكونون مبعدين عنها لا يسمعون صوت لهيبها ، ولا يخافون من أهوالها وآلامها ، بل يكونون فى نعيم دائم وتستقبلهم الملائكة مهنئين لهم قائلين : هذا يومكم الذى كنتم توعدون فى الدنيا .

ثم أعقب ذلك بذكر حال السماء حينئذ وأنها تطوى طيا وكأنها لم تكن كما يطوى الكاتب الطومار الذى يكتب فيه ، ويحوّل ذلك العالم المشاهد إلى عالم آخر فيخلق الله أرضا جديدة وكواكب جديدة ويعيد الناس للحساب ، وهو القادر على ذلك ، فكما قدر على خلقه أول مرة يعيده فى حال أخرى كما قال : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ » .

الإيضاح

(إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) أى إنكم أيها المشركون بالله العابدون من دونه الأوثان والأصنام ، وما تعبدون من دونه من الآلهة ــ وقود جهنم ، وإنكم واردوها وداخلون فيها .

ونحو الآية قوله : « فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » .

والحكمة فى أن الآلهة تقرن بهم وتدخل معهم فى النار :

(١) إنهم كلما رأوهم ازدادوا غما وحسرة ، لأنهم ما وقعوا فى العذاب إلا بسببهم وقد قالوا : النظر إلى وجه العدوّ باب من أبواب العذاب .

(٢) إنهم قد كانوا فى الدنيا يظنون أنهم يشفعون لهم فى الآخرة ويدفعون عنهم العذاب ، فإذا استبان لهم أن الأمر على عكس ما كانوا يظنون لم يكن شىء أبغض إليهم منهم .

(٣) إن إلقاءهم فى النار استهزاء بهم وبعبادتهم .

ثم بين لهم بالدليل خطأ ما يعتقدون فقال :

(لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) أى لو كان هؤلاء الأصنام آلهة كما تزعمون أيها العابدون - ماوردوا النار ولا دخلوها ، لكنه قد اتضح لكم على أتمّ وجه أنهم وردوها ، إذ صاروا حطبها فامتنع كونهم آلهة .

وقصارى ذلك - إن الأصنام إذا كانت لاتنفع نفسها ولا تدفع الضر عنها ، فهى أبعد من أن تدفع الضر عن غيرها ، ومن جرّاء ذلك فهى جديرة بالتحقير والإهانة لا بالتعظيم والعبادة .

(وكلّ فيها خالدون) أى وكل من الآلهة ومن عبدوها ماكثون فى النار أبدا لاخلاص لهم منها .

ثم بين أحوالهم فيها فقال :

(١) (لهم فيها زفير) أى لهم فى النار أنين ونفس متقطع من شدة ما ينالهم من العذاب .

(٢) (وهم فيها لايسمعون) أى وهم فى النار لايسمع بعضهم زفير بعض لعظم الهول وفظاعة العذاب .

و بعد أن ذكر حال أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله عطف عليه بيان أحوال السعداء من المؤمنين بالله ورسوله وقد أسلفوا صالح الأعمال فقال :

(إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) أى إن الذين سبق لهم التوفيق للطاعة ، وأخبتوا لله وأخلصوا له العمل - لايدخلون النار ولايقربونها البتة .

ثم ذكر أوصافهم حينئذ فقال :

(١) (لايسمعون حسيسها) أى لايسمعون صوت النار الذى يحس من حركتها، ولا يرون اضطرابها من شدة توهجها .

(٢) (وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) أى إنهم فى حبور دائم ونعيم لاينقطع

(٣) (لا يحزنهم الفزع الأكبر) أى لايخيفهم هول النفخة الأخيرة فى الصور

حين قيامهم من قبورهم للحساب كما قال : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ » .

(٤) (وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون) أى وتستقبلهم الملائكة بالبشرى من النجاة من العذاب قائلين لهم : هذا هو اليوم الذى كنتم توعدون فى الدنيا بمجيئه وتبشرون بما لكم فيه من الثواب كفاء إيمانكم بالله وطاعتكم له ، وتزكية أنفسكم بصالح الأعمال باتباعكم أوامر ربكم واجتنابكم نواهيه .

وقصارى ذلك — إنهم خلصوا من كل ما يكرهون ، وفازوا بكل ما يحبون .

(يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) أى هم لا يفزعون حين تطوى السماء وتزال وتأتى سماء أخرى جديدة وكواكب أخرى كما يطوى الطومار على ما يكتب فيه لحفظه من الضياع والمحو .

والخلاصة — إنه لا يلحقهم الفزع حين تمحى رسوم السماء وتذهب آثارها وتخلق أرض جديدة وكواكب جديدة .

(كما بدأنا أول خلق نعيده) أى وهكذا نخلقكم خلقا جديدا للحشر كى تحاسبوا ، فالناس ترجع للحياة على طراز غير طراز الدنيا ، وكذلك العوالم جميعها .

(وعدا علينا إنا كنا فاعلين) أى تلك الإعادة عدة منا كائنة لا محالة ، ولا بد من تحققها ، لأنا قادرون عليها .

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) .

شرح المفردات

الزبور : الكتب التى أنزلت على الأنبياء ، والذكر : اللوح المحفوظ ، والبلاغ : الكفاية ، والعابد : من عمل بما يعلم من أحكام الشريعة وآدابها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أحوال كل من الكافرين والمؤمنين فى الآخرة ـ ذكر أن الدنيا ليست كالآخرة ، فلا يرثها إلا من كان قادرا على إصلاحها والانتفاع بخيراتها والاستفادة مما على ظاهرها وباطنها ، فمن كان أحصف رأيا وأحكم فكرا ملكها وتسلط عليها وجنى ثمارها واهتدى إلى ما أودع فيها من الخير .

ثم بين أن ما أوحى إلى الرسول من الشرائع وضروب الهداية كاف جد الكفاية لمن يعتبر بسنن الله فى الكون فيستفيد منها ما ينفعه فى دينه ودنياه ، فجميع ما جاء به الوحى من المواعظ وأحكام الشرائع هداية وذكرى لو تدبرها المتدبرون وتأملها المنصفون .

الإيضاح

(ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) أى ولقد كتب الله عنده وأثبت فى قديم علمه الأزلى الذى لا ينسى ، ثم أثبت فى الكتب السماوية من بعد ذلك أن الأرض لايعمرها من عباده إلا من يصلح لعمارتها من أى دين كان وأىّ مذهب انتحل .

وصلاح الأمة يقوم على أربعة عُمَد :

(١) أن يكون قادتها علماء مفكرين ، وساستها حكماء عادلين ، بعيدين عن الجور والظلم والمحاباة ، يأخذون بيد المظلوم و ينصفونه من الظالم ، و يعملون لخير الأمة وسعادتها ، و يواصلون ليلهم بنهارهم فى كل مايرفع من شأنها ، ويسمو بها على الأمم .

(٢) أن يكون لها جيش منظم يحمى حريمها ، ويدافع عنها إذا جد الجد ، وادلهمّ الخطب ، ولن يكون كذلك إلا إذا كان فيه المهندسون والمخترعون والقادة البارعون ، ولديه من السلاح وعُدد الحرب مايكشف عنه العلم من وسائل الدفاع من

طائرات وغواصات وسفن حربية وآلات للهدم والتدمير ، وجند حذقوا فنون الحرب وبلوْا أساليبها المختلفة .

(٣) أن يقوم أبناء الحرف المختلفة من تجار وصناع وزراع بأداء أعمالهم على الوجه المرضى ، وكل طائفة منها تظاهر الطوائف الأخرى وتعاونها لخير الجميع وتقوم بما يجب نحوها من المساعدة فيما يكفل نجاح الأعمال .

(٤) أن تنظم هذه الطوائف أعمالها بحيث تتوزع هذه المهن بين الأفراد على حسب حاجة الأمة إليها حتى لا تمد يدها إلى غيرها لمعونتها ، ويكون فى كل طائفة جماعة مبرزون يفكرون فيما يرقى شئون الطائفة بحيث تنافس أمثالها فى الأمم الأخرى أو تفوقها بما أوتيت من حسن التدبير والتصرف .

وهذا حكم أيدته التجارب فى سائر العصور لدى جميع الدول، فما من أمة تهاونت فى هذه الأمور أو فى شىء منها إلا حكم عليها بالفناء والزوال ، وتواريخ الفرس والروم والأمم الإسلامية والدولة التركية تدل على صدق ما نقول .

ونحو الآية قوله تعالى « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ » .

(إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين) أى إن فيما ذكر فى هذه السورة من أنظمة الدول والتسلط على ألطف الأشياء كالهواء وعلى أصلبها كالحديد ، ومن الجمع بين حرب الأعداء والاستغراق فى ذكر الله وتسخير العمال فى المبانى العظيمة ، واستخراج ما فى البحار من أصناف اللآلئ ، وما فى باطن الأرض من مختلف المعادن لكفاية لقوم يجمعون بين العلم والعمل ، إذ يعلمون أن العلم شجرة ثمرتها العمل .

فعلى المسلمين قاطبة أن يصدعوا بما أمروا به فى هذا الكتاب وأن يعرضوا عن الجاهلين بأمور دينهم فالله محاسبهم على أعمالهم كما يحاسبهم على قدرهم الجسمية ،

وليعلموا أنه متى ذاعت هذه الآراء فى الأمة قامت كلها قومة رجل واحد فى تنظيم شئونها وتربية أبنائها تربية تؤهلهم أن يكونوا قادة العالم الإنسانى .

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) أى وما أرسلناك بهذا وأمثاله من الشرائع والأحكام التى بها مناط السعادة فى الدارين - إلا رحمة الناس وهدايتهم فى شئون معاشهم ومعادهم .

بيان هذا أنه عليه السلام أرسل بما فيه المصلحة فى الدارين ، إلا أن الكافر فوّت على نفسه الانتفاع بذلك ، وأعرض عما هنالك ، لفساد استعداده وقبح طويته ولم يقبل هذه الرحمة ، ولم يشكر هذه النعمة ، فلم يسعد لا فى دين ولا فى دنيا كما قال « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ » وقال فى صفة القرآن « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله بعثنى رحمة مهداة » .

قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ، وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢) .

شرح المفردات

مسلمون : أى منقادون خاضعون ، تولوا : أى أعرضوا ، آذنتكم : أى أعلمتكم وكثر استعماله فى الإنذار كما فى قوله : فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، ما توعدون : من

غلبة المسلمين عليكم ، فتنة أى اختبار، واحكم: أى اقض ، وبالحق: أى العدل؛ والمراد بذلك تعجيل العذاب لهم ، ماتصفون : أى ماتقولون وتفترون من الكذب كقولكم « بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ » وقولكم إن للرحمن ولدا .

المعنى الجملى

بعد أن أورد سبحانه الحجج والبراهين لإقناع الكافرين بأن رسالة الرسول حق حتى لم يبق فى القوس منزع وبلغ الغاية التى ليس بعدها غاية ، وبين أن هذا الرسول رحمة للعالمين ، وهداية للناس أجمعين ، وأن من اتبعه سلك سبيل الرشاد ومن نأى عنه ضل وسار فى طريق الغواية والعناد ـ أردف ذلك بما يكون إعذارا وإنذارا فى مجاهدتهم والإقدام على مناوأتهم بعد أن أعيته الحيل وضاقت به السبل ولم تغنهم الآيات والنذر ، فتمادوا فى غوايتهم ، ولجوا فى عنادهم وأصبح من العسير إقناعهم وهدايتهم .

الإيضاح

(قل إنما يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد) أى قل لمشركى قومك ولمن بلغته الدعوة من غيرهم : ماأوحى إلىّ ربى إلا أنه لا إله إلا هو ، فلا تصلح العبادة لسواه ، فانقادوا لأمره ، وأذعنوا لطاعته ، وابتعدوا عن عبادة الأوثان والأصنام ، وتبرءوا منها حتى تسلكوا سبيل النجاة ، وتفوزوا بالسعادة .

(فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء) أى فإن أعرضوا عن اتباع ما أوحى إليك فقل لهم : هأنذا أعلمكم بأنى حرب لكم كما أنكم حرب لى ، فأنا برىء منكم كما أنكم براء منى ، وأنتم سواء فى هذا الإعلام لا أخص أحدا منكم دون أحد .

ونحو الآية قوله « فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » .

(وإن أدرى أقريب أم بعيد ماتوعدون) أى إن ماتوعدون من غلب المسلمين عليكم واقع لامحالة ، ولكن لاعلم لى بقربه ولا ببعده ، لأن الله لم يطلعنى على ذلك.

(إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون) أى إن الله يعلم ماتجهرون به من الطعن فى الإسلام وتكذيب الآيات ، ويعلم ماتكتمون من الأضغان والعداوات للمسلمين ، فيجازيكم على قليل ذلك وجليله .

(وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) أى وما أدرى سبب تأخير جزائكم ولعل ذلك زيادة فى افتتانكم وامتحانكم ،لينظر كيف تعملون ، وإنه ليؤخركم إلى حين كى تتمتعوا بلذات الدنيا مع إعراضكم عن الإيمان ، فيكون فى ذلك زيادة عذابكم لأن المعرض عن الإيمان مع توالى الآيات وتتابع البينات والنذر يكون عقابه أشد .

(قال رب احكم بالحق) أى قال الرسول : رب افصل بينى وبين من كذبنى من مشركى قومى ، وكفر بك وعبد غيرك ، بإحلال عذابك ونقمتك به بالعدل الذى يقتضى تعجيل العذاب به ، وتشديده عليه .

وخلاصة ذلك ــ رب عجل بعذابهم وقد أجاب الله دعوته وأنزل بهم العذاب الأليم يوم بدر .

قال قتادة : كان الأنبياء يقولون « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ » فأمر رسولُ الله أن يقول ذلك .

(وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون) أى والله المستعان على ماتصفون من الشرك والكفر والكذب والأباطيل كقولكم إن الله اتخذ ولدا وقولكم فى الرسول « بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ » .

وخلاصة ذلك ــ إن الله أمره أن يدعوه بأن يحكم بما يظهر الحق للجميع ، وأمره أن يتوعد الكفار بقوله :

(وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون) أى وربنا الكثير الرحمة لعباده ، المستعان به فى كل الأمور التى من جملتها ماتصفون به من أن الشوكة تكون لكم ، ومن قولكم « مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » ومن قولكم « اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا » .

وقد كثر استعمال الوصف فى الكتاب الكريم بمعنى الكذب كقوله « وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ » وقوله « سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ » وصلى الله على محمد وآله .

خلاصة ما تتضمنه هذه السورة

(١) الإنذار بقرب الساعة مع غفلتهم عنها .

(٢) إنكار المشركين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بشر مثلهم ، وأن ما جاء به أضغاث أحلام ، وأن محمدا قد افتراه ، ولو كان نبيا حقا لأتى بآية كآيات موسى وعيسى .

(٣) الرد على هذه الشبهة بأن الأنبياء جميعا كانوا بشرا ، وأهل العلم من اليهود والنصارى يعلمون ذلك حق العلم .

(٤) الإخبار بأن الله أهلك كثيرا من الأمم المكذبة لرسلها وأنشأ بعدهم أقواما آخرين .

(٥) بيان أن السموات والأرض لم تخلقا عبثا ، وأن الملائكة لايستكبرون عن عبادته ولا يملون .

(٦) إقامة الدليل على وحدانية الله تعالى والنعى على من يتخذ آلهة من دونه بلا دليل على صدق ما يقولون مع أن الأنبياء جميعا أوحى إليهم أنه لا إله إلا هو .

(٧) النعى على من ادعى أن الملائكة بنات الله .

(٨) وصف النشأة الأولى ببيان أن السموات والأرض كانتا رتقا فانفصلتا ، وأن الجبال جعلت فى الأرض أوتادا حتى لاتميد بأهلها ، وأن كلا من الشمس والقمر يسبح فى فلكه .

(٩) استعجال الكافرين للعذاب ، مع أنهم لو علموا كنهه ماطلبوه .

(١٠) بيان أن الساعة تأتيهم بغتة وهم لايشعرون .

(١١) قصص بعض الأنبياء كموسى وهرون وإبرهيم ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذى الكفل ويونس وزكريا وقصص مريم .

(١٢) بيان أن الدين الحق عند الله هو الإسلام وبه جاءت جميع الشرائع ، والاختلاف بينها إنما هو فى الرسوم على حسب اختلاف الأزمنة والأمكنة .

(١٣) حادث يأجوج ومأجوج من أشراط الساعة واقتراب يوم القيامة .

(١٤) بيان أن الأصنام وعابديها يكونون يوم القيامة حطب جهنم ، وأنهم لو كانوا آلهة حقا ما دخلوها .

(١٥) وصف ما يلاقيه الكفار من الأهوال فى النار يوم القيامة .

(١٦) وصف النعيم الذى يتمتع به أهل الجنة إذ ذاك .

(١٧) بيان أن الأرض ستبدل غير الأرض ، وأن السماء تطوى طى السجل للكتاب .

(١٨) إن سنة الله فى الكون أن يرث الأرض من يصلح لعمارتها من أى دين كان وأىّ مذهب اعتنق .

(١٩) الوحى إنما جاء بالتوحيد وأن لا إله إلا إله واحد ، وأن الواجب الاستسلام له والانقياد لأمره .

(٢٠) ما ختمت به السورة من طلب الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحكم الله بينه وبين أعدائه المشركين ، وأنّ الله هو المستعان على مايصفونه به من أنه مفتر وأنه مجنون وأنه شاعر يتربصون به ريب المنون .

سورة الحج

هى مدنية إلا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ فبين مكة والمدينة ، والأصح أنها مختلطة منها المكى ومنها المدنى ، قال العزيزى وهى من أعاجيب السور نزلت ليلا ونهارا ، سفرا وحضرا ، مكيا ومدنيا ، سلميا وحربيا ، محكما ومتشابها .

وآيها ثمان وسبعون .

وهى على حسب موضوعاتها أقسام ثلاثة .

(١) البعث والدليل عليه وما يتبع ذلك .

(٢) الحج والمسجد الحرام

(٣) أمور عامة كالقتال وهلاك الظالمين والاستدلال بنظام الدنيا على وجود الخالق وضرب المثل بعجز الأصنام وعدم استطاعتها خلق الذباب .

ومناسبتها للسورة قبلها من وجوه :

(١) إن آخر السورة قبلها كان فى أمر القيامة كقوله : يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ، وقوله : واقترب الوعد الحق ـ وأول هذه السورة الاستدلال على البعث بالبراهين العقلية .

(٢) إنه قد أقيمت فى السورة السالفة الحجج الطبيعية على الوحدانية ـ وفى هذه جعل العلم الطبيعى من براهين البعث .

(٣) فى السورة السالفة وما قبلها قصص الأنبياء وبراهينهم لقومهم ، وفى هذه السورة خطاب من الله للأمم الحاضرة ، وهو خطاب يسترعى السمع ويوجب علينا ولو إجمالا أن نعرف صنع الله فى أرضه وسمائه وتدبيره خلق الأجنة والنبات والحيوان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ
تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا
وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ
شَدِيدٌ (٢) .

شرح المفردات

التقوى : التباعد عن كل ما يكسب الإثم من فعل أو ترك ، والزلزلة : الحركة الشديدة بحيث تزيل الأشياء من أماكنها ، والذهول : الدهش الناشئ عن الهمّ والغم الكثير ، والمرضعة : الأنثى حال الإرضاع والمرضع ما من شأنها أن ترضع ولو لم ترضع حال وصفها به .

الإيضاح

(يأيها الناس اتقوا ربكم) أى يأيها الناس احذروا عقاب ربكم فأطيعوه ولا تعصوه بفعل ما أمركم به من الواجبات وترك ما نهاكم عنه من المحرمات ، وهذا خطاب ينتظم فيه المكلفون حين النزول ومن سيوجدون بعده إلى يوم القيامة .

ثم علل هذا الأمر بقوله:

(إن زلزلة الساعة شىء عظيم) أى إن الزلزلة التى تكون حين قيام الساعة قبل قيام الناس من أجداثهم كما قال: « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا. وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » وقال : « وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ » الآية، وقال: « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا. وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا » الآية ـ أمر هائل وخطر عظيم لايقدر قدره إلا موجده ، وإذا كانت الزلزلة

وحدها لاتحتمل فما بالك بما يحدث فى ذلك اليوم من الحشر والجزاء والحساب على الأعمال لدى من لايغيب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

ثم بين شيئا من أهوال هذا اليوم فقال :

(١) (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت) أى فى هذا اليوم يبلغ الأمر من الدهشة والاضطراب والحيرة والذهول أن تذهل المرضعة عن ولدها الذى ترضعه وهو أعز شىء لديها ، فكيف بذهولها عن سواه .

(٢) (وتضع كل ذات حمل حملها) أى وتسقط كل ذات حمل الجنين الذى فى بطنها قبل التمام رعبا وفزعا .

قال الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام ، وتضع الحامل مافى بطنها بغير تمام .

(٣) (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) أى وترى الناس حينئذ كأنهم سكارى وما هم بسكارى على التحقيق ، ولكن شدة العذاب هى التى أذهلت عقولهم وأذهبت تمييزهم .

وقد يكون المراد من ذهول الحامل ووضع المرضع ضرب المثل لشدة الأمر و بلوغه أقصى الغايات كما يؤوّل به أيضا قوله تعالى : « يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً » .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) .

المعنى الجملى

بعد أن أخبر فيما سلف بأهوال يوم القيامة وشدتها ودعا الناس إلى تقوى الله ـ بين أنه مع هذا التحذير الشديد فإن كثيرا من الناس ينكرون هذا البعث و يجادلون فى أمور الغيب بغير علم .

أخرج ابن أبى حاتم أن هذه الآيات نزلت فى النضر بن الحارث وكان جدِلا يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، ولا يقدر الله على إحياء من بَلِى وصار ترابا .

الإيضاح

(ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) أى ومن الناس من يتعاطى الجدل فيما يجوز على الله من الصفات والأفعال ، وما لا يجوز عليه غير متبع فى ذلك حجة ولا برهانا ، بل يجهل بحقيقة ما يقول ، فيزعم أن الله غير قادر على إحياء من بلى وصار ترابا ، وأن لله ولدا ، وأن القرآن ما هو إلا أسطورة من أساطير الأولين إلى نحو ذلك من الترّهات والأباطيل .

وقد ذم المجادلة بغير علم فأومأ إلى أن الجدل إذا كان مع العلم والحجة والبرهان فلا يذم ولا يقبح ، وعليه جاء قوله تعالى : « وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

(ويتبع كل شيطان مريد) المريد المتجرد للفساد العارى عن الخير من قولهم شجرة مرداء إذا كان لا ورق لها ورملة مرداء إذا لم تنبت شيئا ، أى ومن الناس من يتبع فى كل ما يأتى وما يذر من شئونه وأهوائه شياطين من شياطين الإنس والجن الذين يزينون له طرق الغواية ويسلكون به الطرق التى تزلق به فى المهاوى ويقودونه إلى الأعمال التى تصل به إلى النار من شرك بالله وعبادة للأوثان والأصنام وشرب للخمر ولعب للميسر إلى نحو أولئك مما يحسّنون له عمله ويكونون له فيه القادة الذين لا يرد لهم قول ولا يقبح منهم فعل .

ثم وصف سبحانه ذلك الشيطان بقوله :

(كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) أى قدر أن من اتبع ذلك الشيطان وسلك سبيله أضله الله فى الدنيا بما يوسوس له ويدمّى

به نفسه ويزين لها من اتباع الغواية والفجور وسلوك سبيل المعاصى والآثام التى توبقه فى جهنم وبئس القرار .

وخلاصة ذلك — إنه يضله فى الدنيا ويقوده فى الآخرة إلى عذاب السعير بما يجترح من السيئات ، ويرتكب من الآثام .

يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى الْقُبُورِ (٧) .

شرح المفردات

الريب : الشك ، وأصل النطفة : الماء العذب ويراد بها هنا ماء الرجل ، والعلقة : القطعة الجامدة من الدم ، والمضغة : القطعة من اللحم بقدر ما يمضغ ، والأجل المسمى : هو حين الوضع ، والطفل : يكون للواحد والجمع ، والأشد : القوة ، وأرذل العمر : أدنؤه وأردؤه ، هامدة : أى ميتة يابسة من قولهم همدت الأرض إذا يبست ودرست ، وهمد الثوب : بلى ، واهتزت : أى اهتز نباتها وتحرك ، وربت : ازدادت وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات ، زوج : أى صنف ، بهيج : أى حسن سار للناظرين ، والحق : هو الثابت الذى يحق ثبوته .

المعنى الجملى

لما حكى سبحانه عن المشركين الجدل بغير علم فى البعث والحشر وذمهم على ذلك - قفى على هذا بإثباته من وجهين :

(١) الاستدلال بخلق الحيوان وهو ما أشار إليه فى الآية الأخرى : «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » وقوله : « فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ؟ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » .

(٢) الاستدلال بحال خلق النبات فى قوله وترى الأرض هامدة الخ .

الإيضاح

(يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث) أى إن كنتم فى شك من مجىء البعث فانظروا إلى مبدإ خلقكم ليزول ريبكم وتعلموا أن القادر على خلقكم أول مرة قادر على إعادة خلقكم ثانيا .

وعبر سبحانه بالريب مع أنهم موقنون بعدم حصوله ، إيذانا بأن أقصى ما يمكن صدوره منهم وإن بلغوا غاية المكابرة والعناد - هو الارتياب فى شأنه ، أما الجزم بعدم إمكانه فلا يدور بخلد عاقل على حال .

ثم ذكر سبحانه من مراتب الخلق أمورا سبعة :

(١) (فإنا خلقناكم من تراب) إذ خلق الإنسان من المنى المتولد من الأغذية ، والأغذية تنتهى إلى النبات وهو يتولد من الأرض والماء .

(٢) (ثم من نطفة) أى ثم من منى مكون من الدم المتولد من الغذاء المنتهى إلى التراب .

(٣) (ثم من علقة) أى ثم من دم جامد غليظ ، ولا يخفى ما بين الماء والدم من المباينة والمخالفة .

(٤) (ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة) أى ثم من قطعة من اللحم مسواة لانقص فيها ولا عيب فى ابتداء خلقها ، ومضغة غير مسواة فيها عيب ، وبهذا التفاوت فى الخلق يتفاضل الناس فى صورهم وأشكالهم وطولهم وقصرهم .

(لنبين لكم) أى خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم جميل نظامنا وعظيم حكمتنا التى من جملتها أمر البعث .

(ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى) أى ونبقى ما نشاء من الأجنّة إلى الوقت الذى قدر أن تلد المرأة فيه .

(٥) (ثم نخرجكم طفلا) أى ثم نخرجكم من أرحام أمهاتكم إذا بلغتم الأجل الذى قدرته لخروجكم منها أطفالا صغارا فى المهد .

(٦) (ثم لتبلغوا أشدكم) أى ثم يعمركم ويسهل تربيتكم حتى تبلغوا كمال عقولكم ونهاية قواكم .

(٧) (ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) أى ومنكم من يتوفى على كمال قوته وكمال عقله ، ومنكم من يبقى حتى يبلغ الهرم والخرَف فيصير كما كان فى أول طفولته ضعيف البنية سخيف العقل قليل الفهم.

وخلاصة ذلك — إنه إما أن يميتكم أو يردكم إلى أرذل العمر الذى يُسلب فيه العلم والقدرة على العمل .

ثم ذكر الاستدلال على إمكان البعث بحال خلق النبات أيضا فقال :

(وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) أى وترى الأرض يابسة دارسة الآثار من النبات والزرع ، فإذا نحن أنزلنا عليها الماء تحركت بالنبات وازدادت وانتفخت ، لما يتداخلها من الماء والنبات ، ثم أنبتت أنواعا تسر الناظرين ببديع منظرها ، وجميل شكلها ، واختلاف طعومها وروائحها ، ومقاديرها ومنافعها .

وبعد أن قرر سبحانه هذين البرهانين رتب عليهما النتيجة الحتمية لذلك ، وذكر أمورا خمسة :

(١) (ذلك بأن الله هو الحق) أى هذا الذى ذكرت لكم من بدئنا خلقكم فى بطون أمهاتكم ووصفنا أحوالكم قبل الميلاد وبعده طفلا وكهلا وشيوخا فى حال الهرم ، وتنبيهنا إياكم إلى فعلنا بالأرض الهامدة بما ينزل عليها من الغيث – لتصدقوا بأن الذى فعل ذلك هو الله الحق الذى لاشك فيـه ، وأن ما تعبدون من الأوثان والأصنام فهو باطل ، لأنها لاتقدر على فعل شىء من ذلك .

(٢) (وأنه يحيى الموتى) أى ولتعلموا أن الذى قدر على هذه الأشياء البديعة لايتعذر عليه أن يحيى الموتى بعد فنائها ودروسها فى التراب .

(٣) (وأنه على كل شىء قدير) أى وأن فاعل ذلك قادر على كل شىء ولا يمتنع عليه شىء أراده ، فهو قادر على إيجاد جميع الممكنات ، ومن ذلك إعادة الأجسام بعد موتها .

(٤) (وأن الساعة آتية لا ريب فيها) أى ولتعلموا أن الساعة التى وعدتكم أن أبعث فيها الموتى من قبورها آتية لامحالة ولا شك فى حدوثها وليس لأحد أن يرتاب فيها .

(٥) (وأن الله يبعث من فى القبور) أى ولتوقنوا بأن الله حينئذ يبعث من فى القبور أحياء إلى مواقف الحساب .

وخلاصة ذلك – إنكم إذا تأملتم فى خلق الحيوان والنبات أمكنكم أن تستدلوا بذلك على وجود الخالق وقدرته على إحياء الموتى وعلى غيرها من الممكنات ، وأن الساعة آتية لاشك فيها ، وأنه يبعث من فى القبور للحساب والجزاء ، ولولا ذلك ما أوجد هذا العالم ، لأن أفعاله تعالى مبنية على الحكم الباهرة ، والغايات السامية .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) .

شرح المفردات

الهدى : الاستدلال والنظر الصحيح الموصل إلى المعرفة ، والكتاب المنير : الوحى المظهر للحق ، ثانى عطفه : أى لاويا جانبه متكبرا مختالا ونحوه تصعير الخد ولىّ الجيد ، والخزى : الهوان والذل ، عذاب الحريق : أى عذاب النار التى تحرق داخليها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآية قبلها حال الضلاّل المقلدين الذين يتبعون أهل الكفر والمعاصى - أردف ذلك بذكر حال الدعاة إلى الضلال من رءوس الكفرة والمبتدعين .

الإيضاح

(ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) أى ومن الناس من يخاصم فى توحيد الله وإقراره بالألوهية بغير علم منه بما يخاصم به ، ولا برهان معه على ما يقول ، ولا وحى من الله أتاه ينير عن حجته ، بل يقول ما يقول من الجهل ظنا منه وتخرصا .

وخلاصة ذلك — إنه يجادل بلا عقل صحيح ، ولا نقل صريح ، بل يجادل اتباعا للرأى والهوى .

(ثانى عطفه) تقول العرب : جاءنى فلان ثانى عطفه إذا جاء متبخترا متكبرا فالمراد - ومن الناس من يجادل وهو لاو عنقه مُعْرضا عما يُدْعى إليـه من الحق مستكبرا عن قبوله .

ونحو الآية قول لقمان لابنه : « وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ » .

(ليضل عن سبيل الله) أى ليصد المؤمنين بالله عن دينهم الذى هداهم الله إليه ويستنزلهم عنه .

وبعد أن ذكر فعله وثمرته ذكر ما أعد له عليه فى الدنيا والآخرة فقال :

(له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) أى له فى الدنيا إهانة وذل كفاء استكباره عن آيات الله كما حدث من القتل والأسر بأيدى المؤمنين يوم بدر ، وسيصلى فى الآخرة عذاب النار ويحرق بلهيبها .

ثم بين سبحانه سبب هذا الخزى المعجل والعذاب المؤجل فقال :

(ذلك بما قدمت يداك) أى ويقال له حينئذ : إن هذه النار التى تصطلى بلهيبها اليوم جزاء ما اجترحت يداك فى الدنيا من الآثام ، واكتسبته من الذنوب والمعاصى .

(وأن الله ليس بظلام للعبيد) أى وقد فعلنا ذلك ، لأن الله لا يظلم عباده فيعاقب بعض عبيده على جرم ويعفو عن مثله عن آخر غيره .

وقصارى ذلك — إنهم استحقوا هذا العذاب لما اجترحوه من الآثام والذنوب والله لا يظلم أحدا بغير جرم قد فعله ، ومآل ذلك توبيخهم وتبكيتهم بأنهم هم سبب هذا العذاب .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ

هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) .

شرح المفردات

على حرف : أى على طرف ، خير : أى سعة فى المال وكثرة فى الولد ، فتنة : أى بلاء ومحنة فى نفسه أو أهله أو ماله ، على وجهه : أى جهته ويراد بذلك أنه ارتد ورجع إلى الكفر ، خسر الدنيا والآخرة : أى ضيعهما إذ فاته فيهما مايسره ، يدعو الأولى يراد بها يعبد ، ويدعو الثانية : أى يقول ، والمولى : الناصر ، والعشير : الصاحب والمعاشر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال الضالين المقلدين الذين يجادلون فى توحيد الله بلا بينة ولادليل وحال المضلين الذين يجادلون بلا سلطان من عقل ولا برهان صحيح من نقل ، ثم سوء مآلهما فى الدنيا والآخرة وأن لهما فى الدنيا خزيا وفى الآخرة عذابا فى النار تحترق منه أجسامهما ـ أعقب بذكر قوم مضطربى الإيمان مذبذبين فى دينهم لاثبات لهم فى عقيدتهم ولا استقرار لهم فى آرائهم ، إن أصابوا خيرا فرحوا به وركنوا إليه ، وإن نالهم بلاء وشدة فى أنفسهم أو أهليهم أو أموالهم ارتدوا كفارا ، فلحقهم الخسار والدمار فى دينهم ودنياهم ، وذلك هو الخسران الذى لاخسران بعده .

وهم فى ذلك الحين يدعون الأصنام والأوثان لتكشف عنهم ضرهم وتدفع عنهم ما نزل بهم من البلاء وقد ضلوا فى ذلك ضلالا بعيدا ، فإن من يدعونه ويعبدونه أقرب إلى الضر منه إلى النفع لأنه سيلقيهم فى النار وبئس القرار .

روى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى أعراب كانوا يقدمون على النبى صلى الله عليه وسلم مهاجرين من باديتهم ، فكان أحدهم إذاصح جسمه ونُتِجت

فرسه مهرا حسنا أو ولدت امرأته غلاما وكثر ماله وماشيته ـ رضى به واطمأن إليه ، وإن أصابه وجع أو ولدت امرأته جارية أو أجْهَضَت رماكه (خيله) أو ذهب ماله أو تأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان وقال له : ما جاءتك هذه الشرور إلا بسبب هذا الدين فينقلب عن دينه .

الإيضاح

(ومن الناس من يعبد الله على حرف) أى على طرف من الدين لا فى وسطه وقلبه ، فهو فى قلق واضطراب فى دينه لا فى سكون وطمأنينة ، فمثله مثل الذى يكون على طرف من العسكر إن أحسّ بغنيمة قرّ وسكن ، وإن كانت هزيمة فرّ وهام على وجهه ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) أى فإن أصابه رخاء وسعة فى العيش سكن واستبشر بهذا الخير والدين فعبد الله ، وإن أصابه شر وبلاء فى جسمه أو ضيق فى معيشته ارتد ورجع إلى الكفر .

والثبات فى الدين إنما يكون إذا كان الغرض منه إصابة الحق وطاعة الرب والخوف من عقابه ، أما إذا كان المقصد منه الخير المعجل فإنه يظهر فى السراء ويختفى لدى الضراء ، وهذا هو النفاق بعينه كما يرشد إلى ذلك قوله فى المنافقين : « مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ » وقوله : « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ » .

وخلاصة ذلك ــ إن من الناس من ليس له ثبات فى أمر دينه ، بل هو مُرْجَحِنٌ مضطرب مذبذب يعبد الله على وجه التجربة انتظارا للنعمة ، فإن أصابه خير بقى مؤمنا ، وإن أصابه شر من سقم وضياع مال وفقد ولد ترك دينه وارتد كافرا.

ثم بين سوء عاقبة عمله فقال :

(خسر الدنيا والآخرة) أى ضيع نفعهما وزالت عنه فائدتهما ، فإنه خسر فى الدنيا العز والكرامة وإصابة الغنيمة ، وخسر فى الآخرة الثواب الدائم، بل حل به العقاب اللازب .

(ذلك هو الخسران المبين) أى وذلك هو الخسران الذى لاخسران مثله لمن تدبر فيه وتفكر .

ثم أكد عظم ذلك الخسران بقوله :

(يدعو من دون الله ما لايضره وما لاينفعه) أى يدعو من دون الله آلهة لاتضره إن لم يعبدها فى الدنيا ، ولا منفعة له فى الآخرة إن عبدها .

(ذلك هو الضلال البعيد) أى ذلك الارتداد وعبادة تلك الآلهة دون الله هو السير على غير استقامة والذهاب على غير هدى ، فما مثله إلا مثل من أبعد فى التيه ضالا وبعدت مسافة ضلاله فلم يهتد إلى الصراط السوى ولم ينل ما يبتغى وبلغت به الحيرة كل مبلغ .

ثم بين مآل دعائه وعبادته غير الله فقال :

(يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) أى يعبد الكافر من ضره أقرب تحققا من نفعه يوم القيامة فيقول برفع صوت وصراخ حين يرى تضرره بذلك المعبود ودخوله النار بسببه ولا يرى أثرا مما كان يتوقع من نفعه : لبئس هذا المعبود ناصرا ، ولبئس مخالطا ومعاشرا .

وخلاصة ذلك — أى عشير هذا وأى مصاحب كان لاينفع مولاه ولا ينصر من يعاشره ؟ والله لبئس العشير ولبئس الصاحب هو .

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) .

المعنى الجملى

لما ذكر فى الآية السالفة حال عباده المنافقين وحال معبوديهم ـ عطف على ذلك بذكر حال المؤمنين الذين آمنوا بقلوبهم ، وصدّقوا إيمانهم بأفعالهم ، وعملوا الصالحات وتركوا المنكرات .

الإيضاح

(إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار) أى إن الله سبحانه يتفضل على المؤمنين الذين عملوا صالح الأعمال ويكافئهم لقاء إحسانهم بدخول الجنات التى تجرى من تحت أشجارها الأنهار جزاء وفاقا على ما قاموا به من جليل الأعمال ، وما زكوا به أنفسهم من جميل الخصال .

ولما بين سبحانه حال الفريقين ذكر أنه قادر على أن يفعل بهما ما يشاء فقال :

(إن الله يفعل ما يريد) من إكرام من يطيعه وإهانة من يعصيه ، لا رادّ لحكمه ، ولا مانع لقضائه ، فهو يعطى المتقين ضروبا من الفضل والإحسان زيادة على أجورهم كما قال : « فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » ويدخل الكافرين نارا وقودها الناس والحجارة لما دسّوا به أنفسهم من أنواع الرجس والفسوق .

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يُرِيدُ (١٦) .

شرح المفردات

بسبب : أى بحبل ، إلى السماء : أى إلى سقف بيته ، ليقطع : أى ليختنق ، فلينظر : أى فليقدر فى نفسه النظر ، كيده : أى فعله ، ما يغيظ : أى غيظه ،

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال المجادل بالباطل وخذلانه فى الدنيا لأنه لا يدلى بحجة من العقل ولا ببرهان من الوحى ، ثم بيّن مايئول إليه أمره من النكال فى الدنيا والخزى فى الآخرة ، ثم ذكر مشايعيه وعمم خسارهم فى الدارين ، وأردف ذلك بذكر حال المؤمنين وما يلقونه من السعادة والنعيم فى الدار الآخرة ـ قفى على ذلك بذكر المجادل عنهم وعن دين الله بالتى هى أحسن، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالغ فى إثبات نصره بما لا مزيد عليه ، ثم ذكر شأن كتابه وأنه آيات واضحات ترشد إلى سواء السبيل.

الإيضاح

(من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) أى من كان يحسب أن الله لن ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى سماء بيته ثم ليختنق به ثم ليصور فى نفسه النظر ، هل يذهبن ذلك الكيد الذى كاده والفعل الذى فعله ما يغيظه من النصرة ـ كلاّ .

وخلاصة المعنى — من كان يظن أن الله ليس بناصر محمدا ولا كتابه ولا دينه فليذهب وليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه ، فإن الله ناصره لامحالة كما قال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » وسيعلى فى الدنيا كلمته ويظهر دينه ، ويرفع فى الآخرة درجته ويدخل من صدقه جنات تجرى من تحتها الأنهار وينتقم ممن كذبه ويذيقه عذاب الحريق ، فمن كان من أعاديه يغيظه ذلك فليبالغ فى كيده إلى أقصى مجهوده فقصارى أمره خيبة مسعاه ودوام غيظه دون أن يصل إلى غاية أو يبلغ أمنية .

وتلخيص هذا — أيها الكاره لمحمد الذى أرسل لإنقاذك ، إن نعم الله على

عباده كثيرة ولا سيما بعثة الأنبياء ، فإذا كرهت ما أنعم الله به عليك ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم فكأنك تختنق ، لأنك تكره النعم لنفسك فتستبيح خنقها من حيث لاتشعر .

(وكذلك أنزلناه آيات بينات) أى وكما بينت لكم حججى على من جحد قدرتى على إحياء من مات من الخلق بعد فنائه وأوضحتها غاية الإيضاح – أنزلنا القرآن كله آيات واضحات الدلالة على معانيها .

وخلاصة ذلك — إن القرآن كله كامل البيان فى جميع أبوابه وفصوله لافى أمر البعث وحده .

(وأن الله يهدى من يريد) أى وكذلك أنزله ليوفق به لسبيل الحق من أراد هدايته وإرشاده إلى سبل السلام .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)

شرح المفردات

الذين هادوا : هم اليهود ، والصابئين : قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقرءون الزبور ، وفى كتاب الملل والنحل للشهرستانى أن الصابئة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام ، ويقال لمقابليهم الحنفاء ، وعمدة مذهبهم تعظيم النجوم ثوابتها وسياراتها ، والمجوس – على ماقاله قتادة – قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران ، والذين أشركوا : هم عبّاد الأوثان ، فالأديان ستة : خمسة للشيطان ، وواحد للرحمن ، يفصل : أى يقضى بإظهار المحق من المبطل ، شهيد : أى عالم بكل الأشياء ومراقب لها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآية السالفة أنه سبحانه يهدى من يريد – أتبعه ببيان من يهديه ومن لايهديه .

الإيضاح

(إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد) أى إن الله يقضى بين هذه الفرق ويظهر المحق من المبطل ويجازى كلاًّ بما يفعل ويضعه فى الموضع اللائق به ، إذ ليس شىء من أحوالهم بغائب عنه ، بل هو عليم بأقوالهم مراقب لأفعالهم .

وخلاصة ذلك — إنه تعالى يحكم بالعدل فيدخل من آمن به الجنة ، ويلقى من كفر به فى جهنم ، وبئس القرار ، وهو الشهيد على أعمالهم ، الحفيظ لأفعالهم ، العليم بسرائرهم ، وما تكنه ضمائرهم .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ، وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ،إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)

شرح المفردات

ألم تر : أى ألم تعلم ، والسجود : لغة التطامن والتذلل ، ثم أطلق على التذلل لله وعبادته ، وهو ضربان : سجود بالاختيار ، وهو خاص بالإنسان و به يستحق الثواب. وسجود بالتسخير والانقياد لإرادته سبحانه وهو دال على الذلة والافتقار إلى عظمته جلّت قدرته ، من فى السموات : هم الملائكة ، ومن فى الأرض : هم الإنس والجن ، وحقّ : أى ثبت وتقرر .

المعنى الجملى

بعد أن أبان فيما سلف أنه تعالى يقضى بين أرباب الفرق السالفة يوم القيامة وهو شهيد على أقوالهم وأفعالهم ـ أردف هذا ببيان أنه ما كان ينبغى لهم أن يختلفوا، ألا يرون أن جميع العوالم العلوية والسفلية كبيرها وصغيرها من شمسها وقمرها ونجومها وجبالها وحيوانها ونباتها ـ خاضعة لجبروته مسخرة لقدرته، وقد كان فى هذا مقنع لهم لو أرادوا ـ ولكن من يهنه الله ويكتب عليه الشقاء فلا يستطيع أحد أن يسعده، فالله وحده هو القدير على الإشقاء والإسعاد.

الإيضاح

(ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوابّ وكثير من الناس) أى ألم تعلم أيها المخاطب بهذا أن هذه الخلائق مسخرة لقدرة بارئها، وجبروت منشئها، منقادة لإرادته طوعا أو كرها فهى مفتقرة فى وجودها وبقائها إليه فهو الذى أنشأها وربّبها وأكمل وجودها على النحو الذى أراده والحكمة التى قدرها لها فى البقاء.

وأفرد الشمس وما بعدها بالذكر لأنها قد عبدت من دون الله، فعبدت الشمس حِمْير، والقمر كنانة، والشِّعْرى لخم، والثريّا طىء، والمصريون عبدوا العجل (أبيس) وعبدت العُزَّى ـ شجرة ـ غطفان.

(وكثير حق عليه العذاب) أى وكثير منهم لا يسجدون فاستحقوا بذلك العذاب.

(ومن يهن الله فما له من مكرم) أى ومن يهنه الله من خلقه فيكتب له الشقاء لسوء استعداده فما له من مكرم يسعده، لأن الأمور كلها بيد الله يوفق من يشاء لطاعته، ويخذل من يشاء لتدسيته نفسه، واجتراحه للسيئات وارتكابه الآثام والمعاصى.

(إن الله يفعل ما يشاء) أى إن الله يفعل فى خلقه ما يشاء من إهانة من أراد إهانته ، وإكرام من أراد إكرامه فهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) .

شرح المفردات

خصمان : واحدهما خصم ، وهو من له رأى غير رأيك فى موضوع ما وكل منهما يحاج صاحبه فيه ، قطعت لهم : أى قدرت ، والحميم : الماء الذى بلغت حرارته أقصى الغاية ، يصهر به : أى يذاب ، ومقامع : واحدها مقمعة ، وهى السوط ، والغم : الحزن الشديد ، والطيب من القول : ما يقع فى محاورة أهل الجنة بعضهم بعضا ، وصراط الحميد : أى الطريق المحمود فى آداب المعاشرة والاجتماع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أرباب الفرق الست فيما سلف ، وذكر أن الله يفصل بينهم يوم القيامة وهو العليم بأحوالهم وأفعالهم وأقوالهم - قفى على ذلك بذكر طرفى الخصومة

وتعيين موضع الخصومة وبيان مآل كل من الفريقين من الإهانة والكرامة ، والعذاب والنعيم .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : تخاصم المؤمنون واليهود فقالت اليهود : نحن أولى بالله تعالى وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم ، وقال المؤمنون : نحن أحق بالله تعالى . آمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله تعالى من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا فنزلت الآية .

ويرى جماعة من الصحابة والتابعين وهم أعرف من غيرهم بأسباب النزول أن المراد بالخصمين هم الذين برزوا يوم بدر ، فمن المؤمنين حمزة وعلى وعبيدة ، ومن الكافرين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ، وكان أبو ذر يقسم إن هذه الآيات نزلت فى هؤلاء المتبارزين كما ثبت عنه فى الصحيحين وغيرهما ، وروى البخارى وغيره عن على أنه قال : فينا نزلت هذه الآية وأنا أول من يجثو فى الخصومة على ركبتيه بين يدى الله يوم القيامة .

الإيضاح

(هذان خصمان اختصموا فى ربهم) أى إن أهل الأديان الستة التى سبق ذكرها فريقان : فريق المؤمنين . وفريق الكافرين أرباب الديانات الخمس المتقدمة جادلوا فى دين الله ، فكل فريق يعتقد أن ما هو عليه هو الحق وأن ما عليه خصمه هو الباطل ، وبنى على ذلك كل أقواله وأفعاله ، وهذا كاف فى تحقيق الخصومة وإن لم يحصل بينهما تحاور بالفعل .

ثم ذكر مآل كل فريق وما يلقاه من الجزاء بعد أن يفصل الله بينهما، وذكر من جزاء فريق الكافرين أمورا ثلاثة :

(١) (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) أى فالكافرون أعدت لهم نيران تحيط بهم كأنها ثياب قدرت على قدر أجسامهم .

ولا يخفى مافى هذا الأسلوب من التهكم بهم واحتقار شأنهم .

والتعبير بثياب للإشارة إلى تراكم طبقات النار المحيطة بهم وكون بعضها فوق بعض .

وشبيه بالآية قوله : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » .

(٢) (يصبّ من فوق رءوسهم الحميم . يصهر به ما فى بطونهم والجلود) أى يصب من فوق رءوسهم الماء الحار الذى يذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يحرق جلودهم ، فله أثر فى الباطن والظاهر .

أخرج عبد بن حميد والترمذى فى جماعة عن أبى هريرة أنه تلا هذه الآية فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ من الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت مافى جوفه حتى يبلغ قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان » .

(٣) (ولهم مقامع من حديد) أى ولتعذيبهم سياط من حديد تضرب بها رءوسهم ووجوههم يقمعون بها و يردون ردا عنيفا إذا أرادوا الهرب من النار ، و إلى هذا أشار بقوله :

(كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) أى إنهم كلما حاولوا الهرب من جهنم والخروج منها حين يلحقهم عظيم عذابها أعيدوا فيها وضربوا بسياط من حديد وقيل لهم : ذوقوا عذاب هذه النار التى تحرق الأمعاء والأحشاء .

و بعد أن بين سوء حال الكافرين أردف ذلك ببيان ما يناله المؤمنون من الكرامة فى المسكن والحلية والملبس وحسن القول والعمل فقال :

(١) (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار) أى إن الله يدخل من آمن بالله ورسله وعمل صالح الأعمال التى تزكى

نفوسهم وتقربهم إلى ربهم - جنات تجرى من تحت قصورها وأشجارها الوارفة الظلال : الأنهار الواسعة يتمتعون بها كما شاءوا .

(٢) (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا) أى يلبسون فى أيديهم حلية من ذهب ، وفى رءوسهم تيجانا من لؤلؤ .

(٣) (ولباسهم فيها حرير) أى ويلبسون الحرير الذى حرم عليهم لبسه فى الدنيا ، وكانت هذه الحلية والملابس فيها عنوان العزة والكرامة فأوتوها فى الآخرة إجلالا وتعظيما لهم .

(٤) (وهدوا إلى الطيب من القول) أى وأرشدوا إلى القول الطيب وهو قولهم حين دخول الجنة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ» .

(٥) (وهدوا إلى صراط الحميد) أى وأرشدوا إلى الطريق الحميد الذى يجعل أقوالهم وأفعالهم مرضية عند ربهم محمودة لدى معاشريهم وإخوانهم مما يجمل فى المعاشرة والاجتماع .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ، وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) .

شرح المفردات

المراد بالمسجد الحرام : مكة ، وعبر به عنها لأنه المقصود المهم منها ، العاكف : المقيم ، والبادى : الطارئ القادم عليها ، والإلحاد : العدول عن الاستقامة ، بظلم : أي بغير حق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مآل كل فريق من الكفار والمؤمنين - أردف ذلك بعظم حرمة البيت وأنكر على الكفار صدهم المؤمنين عن شهوده وقضاء مناسكهم فيه ودعواهم أنهم أولياؤه .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الآية نزلت فى أبى سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عام الحديبية عن المسجد الحرام وقد كره عليه السلام أن يقاتلهم وكان محرما بعمرة ثم صالحوه على أن يعود فى العام المقبل .

الإيضاح

(إن الذين كفروا و يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد) أى إن الذين جحدوا توحيد الله وكذبوا رسوله وأنكروا ما جاءهم به من عند ربهم ، و يمنعون الناس أن يدخلوا فى دين الله ، و يصدون عن الدخول فى المسجد الحرام الذى جعله للذين آمنوا به كافة ، سواء منهم المقيم فيه والطارئ عليه النازع إليه من غربته - نذيقهم عذابا مؤلما موجعا لهم ، ويدل على هذا قوله :

(ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) أى ومن يرد أن يميل إلى الظلم فى المسجد الحرام فيعصى الله ويخالف أوامره - نذقه يوم القيامة العذاب الموجع له .

وخلاصة ذلك - إنه سبحانه توعد الكفار الذين يصدون عن الدين و يمنعون الناس عن اعتناقه و يحولون بين الناس ودخول مكة - بالعذاب المؤلم لهم يوم القيامة كما توعد بذلك من يرتكب الذنوب والآثام فى المسجد الحرام .

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) .

شرح المفردات

يقال بوأه منزلا : أى أنزله فيه ؛ وأصل البيت مأوى الإنسان بالليل ثم أطلق على كل مأوى متخذ من حجر أو مدر أو صوف أو وبر والمراد به هنا الكعبة وقد بنيت عدة مرات فى أوقات مختلفة ، وأذن : أى ناد ، بالحج : أى بالدعوة إليه ، رجالا : أى مشاة ، والضامر : البعير الهزيل الذى أتعبته كثرة الأسفار ، ويطلق على الذكر والأنثى ، والفج : الطريق ، والعميق : البعيد ، ويذكروا اسم الله : أى يحمدوه ويشكروه ، والأيام المعلومات : هى أيام النحر وهى ثلاثة أيام يوم العيد ويومان بعده ، والمراد ببهيمة الأنعام : الإبل والبقر والضأن ، والبائس : الذى أصابه البؤس والشدة ، وليقضوا : أى ليزيلوا ، والتفث : الوسخ ، ويراد به هنا قص الشعور وتقليم الأظفار ، والنذور : ما ينذر من أعمال البر فى الحج ، والعتيق : القديم لأنه أول بيت وضع للناس .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن كثيرا من مشركى قريش صدوا عن دين الله وعن دخول المسجد الحرام ـ أردف ذلك بتأنيبهم وتوبيخهم على ما يفعلون ، فبين أنه ما كان

ينبغى لهم ذلك ، فإن أباهم إبراهيم الذى يفخرون به وينتسبون إليه هو الذى ابتناه وجعله مباءة للناس وأمر بتطهيره من الشرك للطائفين والمصلين،وأن ينادى فى الناس ليأتوه من كل فج عميق ، لما لهم فى ذلك من منافع دينية ودنيوية ، ويذكروا اسم الله فى أيام النحر على ما آتاهم من بهيمة الأنعام ، فاذكروه على ذلك وكلوا منها وأطعموا الفقراء والبائسين ، فإذا قضيتم مناسككم فأزيلوا ما عليكم من الوسخ والقذر ، فقلموا أظفاركم وأزيلوا شعوركم ثم وفوا ماعليكم من نذور كنتم قد نذرتموها من أعمال البر والخير ، ثم طوفوا طواف الزيارة بالبيت العتيق ، وبذلك تكونون قد أتممتم مناسك الحج .

الإيضاح

(وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) أى واذكر أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين يصدون عن سبيل الله وعن دخول المسجد الحرام ـ الوقت الذى جعلنا فيه هذا البيت مباءة للناس يرجعون إليه للعبادة ، والمراد بذكر الوقت ذكر ما وقع فيه من حوادث جسام ليتذكروا فيقلعوا عن غيهم ويرعووا إلى رشدهم ويستبين لهم عظيم ما ارتكبوا من خطإ ، وكبير ما اجترحوا من جُرْم ، بصدهم الناس عن بيت بناه أبوهم وجعله الله قبلة للناس فى الصلاة ومكانا للطواف حين أداء شعيرة الحج .

(أن لاتشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود) أى وقلنا له : لاتشرك بى شيئا من خلقى فى العبادة ، وطهر بيتى من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلى عنده .

(وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) أى وقلنا له : ناد الناس داعيا لهم إلى الحج وزيارة هذا البيت الذى أُمِرْتَ ببنائه ـ يأتوك مشاة على أرجلهم وركبانا على ضوامر من الإبل من كل طريق بعيد .

ثم بين السبب فى هذه الزيارة فقال :

(ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام) أى يأتونك ليحضروا منافع لهم فى الدنيا من تجارة رابحة وسلع نافقة، ومنافع فى الآخرة بما يعملون من عمل يرضى ربهم، وبما يحمدونه على النعم التى تترى عليهم ومارزقهم من الهدايا والبدن التى أهدوها أيام النحر الثلاثة يوم العيد ويومان بعده.

(فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) أى فاذكروا اسم الله على ضحاياكم وكلوا من لحومها وأطعموا ذوى الحاجة الفقراء الذين مسهم الضر والبؤس.

(ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) أى ثم ليزيلوا ما علق بهم من الأوساخ فيحلقوا الشعر ويقلموا الأظفار ويأخذوا من الشوارب والعارضين، وليوفوا ما نذروه من أعمال البر، وليطوفوا طواف الوداع بالبيت العتيق إذ هو أقدم بيت للعبادة فى حياة البشر.

ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣).

شرح المفردات

ذلك: أى الأمر هكذا، ويقع للفصل بين كلامين أو بين وجهى كلام واحد كقوله تعالى: «هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ»، والحرمات: التكاليف الدينية من مناسك الحج وغيرها، وتعظيمها العلم بوجوبها والعمل على موجب ذلك،

والزور : الكذب ، وحنفاء واحدهم حنيف : وهو المائل عن كل دين زائغ إلى الدين الحق ، وخر : سقط ، والخطف : الاختلاس بسرعة ، تهوى : أى تسقط ، سحيق : أى بعيد ، والشعائر واحدها شعيرة : وهى العلامة ؛ والمراد بها البدن الهدايا ، وتعظيمها : أن تختار حسانا سمانا غالية الأثمان ، والأجل المسمى : هو أن تنحر وتذبح ، ومحلها : مكان نحرها ، والمراد بالبيت العتيق : ما يليه و يقرب منه وهو الحرم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أمر إبراهيم ببناء البيت وتطهيره من عبادة الأوثان والأصنام ، وأن ينادى الناس ليحجوا هذا البيت الحرام مشاة وركبانا من كل فج عميق ، لما لهم فى ذلك من منافع دنيوية ودينية ، وأن ينحروا البدن الهدايا ذاكرين اسم الله عليها فى أيام معلومات ، وأن يأكلوا منها و يطعموا البائس الفقير ، وأن يقصوا شعورهم و يقلموا أظفارهم ثم ليطوّفوا بهذا البيت العتيق - قفى على ذلك ببيان أن اجتناب المحرمات حال الإحرام خير عند الله مثوبة وأعظم أجرا ، وأن ذبح الأنعام وأكلها حلال إلا ما حرم عليكم ، وأنه يجب اجتناب عبادة الأوثان وترك شهادة الزور ، وأن من يشرك بالله فقد هلك ، وأن تعظيم شعائر الله علامة على أن القلوب مليئة بالتقوى والخوف من الله ، وأن فى هذه الهدايا منافع من الدّرّ والصوف والنسل إلى أجل مسمى وهو أن تنحر ثم تؤكل و يتصدق بلحومها .

الإيضاح

(ذلك ، ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه) أى هذا الذى أمر به من قضاء التفث والوفاء بالنذور والطواف بالبيت هو الغرض الواجب عليكم أيها الناس فى حجكم - ومن يجتنب ما أمر باجتنابه فى حال إحرامه تعظيما منه لحدود الله أن يواقعها ، وحُرَمه أن يستحلها - فهو خير له عند ربه فى الآخرة ، بما يناله من رضاه وجزيل ثوابه .

وعن ابن زيد : الحرمات المشعر الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام .

(وأحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم) أى وأحل لكم أيها الناس أن تأكلوا الأنعام إذا ذكيتموها ، فلم يحرم عليكم بَحِيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حاميا إلا مايتلى عليكم فى كتاب الله وهو الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع وما ذبح على النصب ، فإن كل ذلك رجس .

(فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور. حنفاء لله غير مشركين به) أى فابتعدوا عن عبادة الأوثان وطاعة الشيطان فإن ذلك رجس ، واتقوا قول الكذب والفرية على الله كقولكم فى الآلهة : «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى» وقولكم : الملائكة بنات الله ، ونحو هذا من القول فإن ذلك كذب وزور وشرك بالله ، وقوله حنفاء لله غير مشركين به : أى تمسكوا بهذه الأمور على وجه العبادة لله وحده دون إشراك أحد سواه معه .

(ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) أى إن من أشرك مع الله سواه فقد أهلك نفسه هلاكا ليس وراءه هلاك ، وكانت حاله أشبه بحال من سقط من السماء فتخطفته الطير ففرقت أجزاءه فى حواصلها إرْبا إرْبا ، أو عصفت به الريح فهوت به فى المهاوى البعيدة التى لا رجعة له منها .

(ذلك) أى امتثلوا ذلك واحفظوه ولا تتهاونوا فى الحرص عليه والسير على نهجه .

(ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) أى ومن يعظم البدن التى يهديها للحرم بأن يختارها عظيمة الأجسام سمينة غير هزيلة غالية الثمن ويترك المكاس حين شرائها ـ فقد اتقى الله حقا ، فإن تعظيمها باب من أبواب التقوى بل هو من أعظم أبوابها .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل فى أذنه بُرَة ـ حلق ـ من ذهب ، وأن عمر أهدى نجيبة ـ ناقة ـ طلبت منه بثلثمائة دينار، وقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها و يشترى بثمنها بُدْنًا فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها ، وكان ابن عمر رضى الله عنهما يسوق البدن مُجَلَّلة بالقباطى ـ ثياب مصرية غالية الثمن ـ فيتصدق بلحومها و بجلالها .

(لكم فيها منافع إلى أجل مسمى) أى لكم فى تلك الهدايا منافع كركوبها حين الحاجة وشرب ألبانها حين الضرورة إلى أن تنحر ويؤكل منها و يتصدق بلحومها .

(ثم محلها إلى البيت العتيق) أى ثم مكان حل نحرها عند البيت العتيق أى عند الحرم جميعه ، إذ الحرم كله فى حكم البيت الحرام .

أخرج البخارى فى تاريخه والترمذى وحسنه والحاكم وصححه وابن جرير والطبرى وغيرهم عن ابن الزبير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما سمى الله البيت العتيق ، لأنه أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط » وإلى هذا ذهب قتادة وقد قصده تبّع ليهدمه فأصابه الفالج فأشير عليه أن يكف عنه ، وقيل له إن ربا يمنعه ، فتركه وكساه ، وهو أول من كساه ، وقصده أبرهة فأصابه ما أصابه .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) .

شرح المفردات

المنسك (بكسر السين وفتحها) والنسك فى الأصل : العبادة مطلقا ، وشاع استعماله فى أعمال الحج والمراد به هنا الذبح و إراقة الدماء على وجه التقرب إليه

تعالى ، أسلموا : أى انقادوا له ، المخبتين : أى المتواضعين الخاشعين ، من أخبت الرجل : إذا سار فى الخَبْت وهو المطمئن من الأرض ، وجلت : أى خافت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن تعظيم الشعائر من أعظم دعائم التقوى ، وأن محل نحرها هو البيت العتيق - قفى على ذلك ببيان أن الذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى ليس بخاص بهذه الأمة ، بل لكل أمة مناسك وذبائح تذكر بالله حين ذبحها والشكر له على توفيقه لإقامة هذه الشعائر ، فالإله واحد والتكاليف تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والمصالح ، وبعدئذ أمر رسوله أن يبشر المتواضعين الخاشعين لله الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقناهم بجنات تجرى من تحتها الأنهار .

الإيضاح

(ولكل أمة جعلنا منسكا) أى جعلنا لأهل كل دين من الأديان التى سلفت من قبلكم ذبحا يذبحونه ودما يريقونه على وجه التقرب لله ، وليس ذلك خاصا بقوم دون آخرين .

ثم بين السبب فى ذلك فقال :

(ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام) أى وإنما شرعنا لهم ذلك كى يذكروا الله حين ذبحها ، ويشكروه على ما أنعم به عليهم ، إذ هو المقصود الأهم .

وفى الصحيحين عن أنس قال : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين (فيهما بياض يخالطه سواد) أقرنين فسمى وكبر ووضع رجله على صفاحهما» وروى أحمد عن زيد بن أرقم قال : « قلت يا رسول الله ما هذه الأضاحى ؟ قال :

« سنة أبيكم إبراهيم » قالوا مالنا منها ؟ قال : « بكل شعرة حسنة » قالوا فالصوف ؟ قال : « بكل شعرة من الصوف حسنة » .

ثم أخبر سبحانه بتفرده بالألوهية وأنه لاشريك له فقال :

(فإلهكم إله واحد فله أسلموا) أى فإن معبودكم واحد وإن اختلفت العبادات على حسب الأزمنة والأمكنة ونسخ بعضها بعضا ، فما المقصد منها جميعا إلا عبادة الله وحده لاشريك له كما قال : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » فأخلصوا له العمل واستسلموا لحكمه وانقادوا له فى جميع ما كلفكم به .

(وبشر المخبتين) أى وبشر أيها الرسول الخاضعين لله بالطاعة ، المذعنين له بالعبودية ، المنيبين إليه بالتوبة ، بما أعدّ لهم من جزيل ثوابه ، وجليل عطائه .

ثم بين سبحانه علاماتهم فقال :

(١) (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أى إنهم إذا ذكر الله عرتهم رهبة من خشيته ، وخوف من عقابه .

(٢) (والصابرين على ما أصابهم) من النوائب والمحن فى طاعة الله .

(٣) (والمقيمى الصلاة) أى والمؤدين حقه تعالى فيما أوجبه عليهم من فريضة الصلاة فى الأوقات التى حددها لهم .

(٤) (ومما رزقناهم ينفقون) أى وينفقون بعض ما آتاهم الله من طيب الرزق فى وجوه البر وعلى أهليهم وأقاربهم وعلى الخلق كافة ، ومن ذلك إهداء الهدايا التى يغالون فى أثمانها .

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ

وَالْمُعْتَرَّ ، كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ
اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا
لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) .

شرح المفردات

البدن : واحدها بدنة، وهى الناقة أو البقرة التى تنحر بمكة ، وتطلق على الذكر والأنثى ، وشعائر الله : أعلام دينه التى شرعها لعباده ، صوافّ : أى قائمات قد صفت أيديهن وأرجلهن، واحدها صافة ، وجبت جنوبها : أى سقطت جنوبها على الأرض ويراد بذلك زهقت أرواحها وفقدت الحركة ، القانع : أى الراضى بما عنده وبما يعطى من غير مسألة ، قال لبيد :

فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقى بالمعيشة قانع

والمعترّ : أى المتعرض للسؤال ، المحسنين : أى المخلصين فى كل ما يأتون وما يذرون فى أمور دينهم .

المعنى الجملى

بعد أن حث سبحانه على التقرب بالأنعام كلها ، وبين أن ذلك من تقوى القلوب ، خص من بينها الإبل لأنها أعظمها خلقا، وأكثرها نفعا ، وأنفسها قيمة .

الإيضاح

(والبدن جعلناها لكم من شعائر الله) امتنّ سبحانه على عباده بأن خلق لهم البدن وجعلها من شعائره ، فتهدى إلى بيته الحرام ، بل جعلها أفضل ما يهدى إليه .

وإطلاق البدنة على البعير والبقرة هو قول معظم أئمة اللغة وهو مذهب أبى حنيفة وقول عطاء وسعيد بن المسيِّب من التابعين ، وروى عن بعض الصحابة فقد أثر عن ابن عمر رضى الله عنهما : لاتعلم البدن إلا من الإبل والبقر، وتجزئ البدنة عن سبعة

لما رواه أبو داود عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة».

(لكم فيها خير) أى لكم فيها نفع فى الدنيا كالركوب واللبن، وأجر فى الآخرة بنحرها والتصدق بها.

(فاذكروا اسم الله عليها صوافّ) أى فاذكروا اسم الله على البدن حين نحركم إياها قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن، وقولوا: بسم الله والله أكبر، اللهم منك وإليك.

(فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ) أى فإذا سقطت وزهقت أرواحها ولم يبق لها حركة، فكلوا منها وأطعموا القانع المستغنى بما تعطونه وهو فى بيته بلا مسألة، والمعتر الذى يتعرض لكم ويأتى إليكم لتطعموه من لحمها.

وخلاصة ذلك — كلوا وأطعموا.

(كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون) أى هكذا سخرنا البدن لكم مع عظم أجرامها وكمال قوتها، فلا تستعصى عليكم، بل تأتى إليكم منقادة فتعقلونها وتحبسونها صافة قوائمها ثم تطعنونها فى لبّاتها، لتشكروا إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص فى أعمالكم.

ولما حث سبحانه على التقرب بها مذكورا اسمه عليها - بيّن السبب فقال:

(لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) أى لن ينال رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المُهرَاقة بالنحر، ولكن ترفع إليه الأعمال الصالحة والإخلاص فيها بإرادة وجهه تعالى فحسب.

والخلاصة — لن يُرْضِىَ المضحون ربهم إلا إذا أحسنوا النية وأخلصوا له فى أعمالهم، فإذا لم يراعوا ذلك لم تغن عنهم التضحية والتقرب بها شيئا وإن كثر ذلك، فقد جاء فى الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

ثم كرر سبحانه التنبيه على عظم تسخيرها منبها على ما أوجب عليهم بقوله:

(كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم) أى هكذا سخرها لكم لتشكروه على هدايته إياكم لمعالم دينه، ومناسك حجه ، فتقولوا: الله أكبر على ماهدانا ولله الحمد على ما أولانا .

ثم وعد من امتثل بقوله :

(وبشر المحسنين) أى وبشر أيها الرسول الذين أطاعوا الله فأحسنوا فى طاعتهم إياه فى الدنيا ـ بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) .

شرح المفردات

أذن : أى رخص ، الصوامع : واحدها صومعة، وهى معبد الرهبان فى الصحراء ـ الدير ـ والبيع : واحدها بيعة وهى معبد النصارى ، والصلوات : واحدها صلاة معرب صلوثا بالعبرية معبد اليهود ، ومساجد : واحدها مسجد ، وهو معبد المسلمين.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه صدّ المشركين عن دين الله وعن المسجد الحرام ، ثم أردفه بذكر مناسك الحج و بين ما فيها من منافع فى الدين والدنيا - قفى على ذلك ببيان ما يزيل الصد عنه و يؤمن معه من التمكن من أداء تلك الفريضة على أتم الوجوه.

الإيضاح

(إن الله يدافع عن الذين آمنوا) أى إن الله يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه - شر الأشرار وكيد الفجار ، و يكلؤهم و ينصرهم على أعدائهم و يكتب لهم الفلج عليهم والظفر بهم كما قال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » .

ثم ذكر السبب فى وعيدهم بقوله :

(إن الله لايحب كل خوان كفور) أى و إنما دفعهم وقهرهم ، لأنهم خانوا أمانة الله وهى أوامره ونواهيه ، و كفروا أنعمه التى يسديها إليهم بكرة وعشيا وعبدوا غيره مما لايضر ولا ينفع .

وفى هذا إيماء إلى أن المؤمنين هم أحباء الله .

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) أى رخص للمؤمنين وأبيح لهم أن يقاتلوا المشركين لظلمهم إياهم ، فقد كانوا يؤذون أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أذى شديدا فيأتون إليه بين مضروب ومشجوج فى رأسه و يتظلمون إليه فيقول لهم صبرا صبرا ، فإنى لم أوذن بالقتال حتى هاجر ، وأنزل الله هذه الآية ، وهى أول آية نزلت بالإذن بالقتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية كما رواه الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس .

ثم وعدهم بالنصر ودفع أذى المشركين عنهم فقال :

(و إن الله على نصرهم لقدير) أى وإن الله على نصر المؤمنين الذين يقاتلون فى سبيله لقادر ، وقد فعل فأعزهم ورفعهم وأهلك عدوهم وأذلهم بأيديهم .

وفى هذا الأسلوب مبالغة عظيمة زيادة فى توطين عزائم المؤمنين وتثبيتهم على الجهاد فى سبيله .

وبمعنى الآية قوله : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » وقوله : « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » وقوله : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » .

وإنما شرع الجهاد بعد الهجرة إلى المدينة ، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر من المؤمنين عددا حتى أخرجوا النبى صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم وهموا بقتله وشردوا أصحابه فذهبت طائفة منهم إلى الحبشة وذهب آخرون إلى المدينة فلما استقروا بالمدينة وأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمعوا إليه وقاموا بنصره وصارت المدينة لهم دار إسلام ومعقلا يلجئون إليه ـ شرع الجهاد ونزلت الآية مرخصة فيه .

روى أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه عن ابن عباس أنه قال : لما أخرج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون . ليهلكن القوم . فأنزل الله : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) قال أبو بكر : فعرفت أنه سيكون قتال .

ثم وصف سبحانه هؤلاء المؤمنين بقوله :

(الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) أى أولئك المظلومون هم الذين أخرجهم المشركون من مكة إلى المدينة وعذبوا بعضهم وسبوا بعضا آخر ، وما كان لهم من إساءة إليهم ولا ذنب جنوه إلا أنهم عبدوا الله وحده لاشريك له .

ونحو الآية قوله : « يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ » وقوله فى قصة أصحاب الأخدود « وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » .

ولما كان المسلمون ينشدون حين بناء الخندق :

لا هُمَّ لولا أنت ما اهتدينا　　ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا　　وثبّت الأقدام إن لاقينا
إن الألى بغَوا علينا　　إذا أرادوا فتنة أبينا

كان رسول الله يوافقهم ويقول معهم آخر كل قافية ، فإذا قالوا : إذا أرادوا فتنة أبينا ـ يقول أبينا ويمدّ بها صوته .

ثم حرض المؤمنين على القتال وبين أنه أجرى العادة به فى الأمم الماضية لينتظم أمر الجماعات وتقوم الشرائع وتصان بيوت العبادة من الهدم فقال :

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) أى فليقاتل المؤمنون الكافرين ، فلولا القتال وتسليط المؤمنين على المشركين فى كل عصر وزمان لهدمت فى شريعة كل نبى معابد أمته ، فهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود ومساجد المسلمين التى يذكرون فيها اسم الله كثيرا .

وفى هذا ترقّ وانتقال من الأقل إلى الأكثر حتى انتهى إلى المساجد وهى أكثر عُمّارا وأكثر عُبّادا وهم ذوو القصد الصحيح .

والخلاصة — إنه لولا ماشرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء بعضهم ببعض وإقامة حدود الأديان لاستولى أهل الشرك على مواضع العبادة وهدموها ، وقد يكون المراد ـ لولا هذا الدفع لهدمت فى زمن موسى الكنائس وفى زمن عيسى الصوامع والبيع وفى زمن محمد صلى الله عليه وسلم المساجد .

(ولينصرنّ الله من ينصره) أى وليعينن الله من يقاتل فى سبيله لتكون كلمته

العليا وتكون كلمة عدو دينه السفلى ، ولقد أنجز الله وعده وسلط المهاجرين والأنصار على صناديد قريش وأكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم .

ونحو الآية قوله : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » .

(إن الله لقوى عزيز) أى إن الله لقوى على نصر من جاهد فى سبيله من أهل طاعته ، منيع فى سلطانه لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب .

ونحو الآية قوله : « كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى ؛ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ » وقوله : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ » .

ثم وصف الله الذين أخرجوا من ديارهم بقوله :

(الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) أى هؤلاء الذين أخرجوا من ديارهم هم الذين إن مكنا لهم فى البلاد فقهروا المشركين وغلبوهم عليها ـ أطاعوا الله فأقاموا الصلاة على النحو الذى طلبه ، وأعطوا زكاة أموالهم التى حباها الله لهم ودعوا الناس إلى توحيده، والعمل بطاعته ، وأمروا بما حثت عليه الشريعة، ونهوا عن الشرك واجتراح السيئات .

وخلاصة ذلك — إنهم هم الذين كملوا أنفسهم باستحضار المعبود والتوجه إليه فى الصلاة على قدر الطاقة ، وكانوا عونا لأممهم باعانة فقرائهم وذوى الحاجة منهم ، وكملوا غيرهم فأفاضوا عليهم من علومهم وآدابهم ، ومنعوا المفاسد التى تعوق غيرهم عن الوصول إلى الرقى الخلقى والأدب السامى .

ثم وعد باعلاء كلمته ونصر أوليائه فقال :

(ولله عاقبة الأمور) أى ولله آخر الأمور ومصايرها فى الثواب عليها أو العقاب فى الدار الآخرة .

ونحو الآية قوله : « وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢)
وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ
لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ
مَشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا
أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي
فِي الصُّدُورِ (٤٦) .

شرح المفردات

أمليت : أى أمهلت ، أخذتهم : أى أهلكتهم ، فكيف استفهام يراد به التعجب ، والنكير والإنكار على الشيء : أن تفعل فعلا به يزجر المنكر عليه على مافعل ، خاوية : ساقطة ، وعروشها : أى سقوفها ، معطلة : أى عطلت من منافعها ، مشيد : أى مبنى بالشيد ، وهو الجص (الجير) .

المعنى الجملى

بعد أن بيّن سبحانه فيما سلف أن المشركين أخرجوا المؤمنين من ديارهم بغير حق ، وأنه أذن لهم فى مقاتلتهم وضمن لهم النصرة عليهم — أردف هذا بتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على مايرى من قومه ، وتصبيره على أذاهم وتكذيبهم إياه ، فأبان له أن هذا التكذيب ليس بدعاً فى الأمم ، فكثير منها قد كذبت رسلها فحل بها من البوار مافيه عبرة لمن اعتبر وتذكر ، مما يشاهدونه رأى العين فى حلهم وترحالهم ، وفى غدوهم ورواحهم ، فلا تحزن على ما ترى واصبر فإن العاقبة للمتقين .

الإيضاح

(وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبرهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير) أى فإن يكذبك هؤلاء المشركون بالله على ما أتيتهم به من الحق وما تعدهم به من العذاب على كفرهم به ، فلست بأوحدىّ فى ذلك ، فتلك سنة إخوانهم من الأمم الخالية المكذبة لرسلها ، وذلك منهاج من قبلهم ، فلا يصدنك ذلك فإن العذاب من ورائهم ، ونصرى إياك وأتباعك عليهم آتٍ لامحالة ، كما أتى عذابى على أسلافهم من الأمم من قبلهم بعد الإمهال ، فقد أمهلت أهل الكفر من هذه الأمم فلم أعاجلهم بالنقمة والعذاب ثم أحللت بهم عقابى بعدئذ ، فانظر أيها الرسول كيف كان تغييرى ما كان بهم من نعمة ، وتنكرى لهم عما كنت عليه من الإحسان إليهم - ألم أبدلهم بالكثرة قلة وبالحياة موتا وهلاكا وبالعمارة خرابا ، فكذلك سأفعل بمكذبيك من قريش وإن أمليت لهم إلى آجالهم ، فإنى منجزك وعدى فيهم كما أنجزت غيرك من رسلى وعدى فى أممهم فأهلكتهم وأنجيت رسلى من بين أظهرهم .

ونحو الآية قوله : « وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

(فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد) أى وكثير من القرى أهلكناها إذ كان أهلها يعبدون غير من ينبغى أن يعبد ، ويعصون من لا ينبغى أن يعصى ، فخوت من مكانها وتساقطت على عروشها ، أى سقطت حيطانها فوق سقوفها ، وكم من بئر عطلناها بإفناء أهلها وهلاك وارديها ، فلا واردة لها ولا صادرة منها ، وكم من قصر شيد بالصخور والجص قد خلا من سكانه بما أذقنا أهله من عذابنا بسوء أفعالهم فبادوا وبقيت القصور المشيدة خالية منهم ، قال قتادة : شيدوه وحصنوه ، فهلكوا وتركوه .

ثم أكد لهم صدق وعيده وأحالهم على ما يشاهدون بكرة وعشيا فقال :

(أو لم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها) أى أفلم يسر هؤلاء المكذبون بآيات الله الجاحدون لقدرته ـ فى البلاد فينظروا إلى مصارع ضربائهم من مكذبى رسل الله الذين خلوا من قبلهم كعاد وثمود وقوم لوط وشعيب ، ويروا أوطانهم ومساكنهم ويسمعوا بآذانهم أخبارهم فيتفكروا ويعتبروا بها ويعلموا أمرها وأمر أهلها ، وكيف نابتهم النوائب وغالتهم غوائل الدهر ؟ فيكون فى ذلك معتبر لهم لو أرادوا فينيبوا إلى ربهم ويعقلوا حججه التى بثها فى الآفاق .

ثم أظهر اليأس من إيمانهم لأن القلوب قد عميت فلا تبصر الدلائل الكونية ولا البراهين العقلية فقال :

(فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) أى إن أبصارهم وإن كانت سالمة لاعمى بها فقد أصابهم عمى القلوب ، والعمدة على الثانى لا على الأول ، فعمى الأبصار ليس بشىء إذا قيس إلى عمى القلوب والبصائر .

وفى هذا تهويل أيما تهويل ، وفى وصف القلوب بكونها فى الصدور فضل توكيد كما جاء فى قوله تعالى : « يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ » فقد تعورف أن مكان العمى هو البصر بأن تصاب الحدقة بما يطمس نورها ، فحين أريد إثبات ماهو خلاف الأصل بنسبته إلى القلوب ونفيه عن الأبصار احتيج إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار ، وهذا على سنن قولهم : ليس المضاء للسيف ولكن للسان (الذى بين فكيك) ـ فكأنهم قالوا ما نفينا المضاء عن السيف وأثبتناه للسان فلتة وسهوا ، بل تعمدنا ذلك تعمدا .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ

ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١).

شرح المفردات

الإنذار: التخويف ، وأصل السعى: الإسراع فى المشى ، ثم استعمل فى الإصلاح والإفساد، يقال سعى فى أمر فلان: إذا أصلحه أو أفسده بسعيه فيه ، معاجزين : أى مسابقين المؤمنين ومعارضين لهم فكلما طلبوا إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله ، وأصله من قولهم : عاجزه فأعجزه ، إذا سابقه فسبقه .

المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه أن المشركين كذبوا رسوله وبالغوا فى تكذيبه وسلاه عن ذلك بأنك لست ببدع فى الرسل ، فكثير ممن قبلك منهم قد كذبوا وأوذوا فلا تبتئس بما يفعلون ، واصبر على ماتدعو إليه ولا يضيرنّك ما يأتون وما يذرون - قفى على ذلك ببيان أنهم لاستهزائهم به وشديد تكذيبهم كانوا يستعجلونه العذاب كما قال تعالى حكاية عنهم : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » ثم أنبهم على إنكار ذلك العذاب وقد سبق وعد الله به فكان لزاما عليهم ألا يستعجلوه ، فإنهم لو عرفوا ما ينالهم من آلامه وشدائده ما طلبوا استعجاله ، فيوم عند ربك تصيبهم فيه المحن والشدائد كألف سنة لو بقوا وعذبوا فى الدنيا ، ثم ذكرهم بأن كثيرا من القرى الظالمة أمهلت ولم تعذب ، لعلها ترعوى عن غيها ثم أخذت أخذ عزيز مقتدر وحسابها مدّخر ليوم تشخص فيه الأبصار، ثم أبان أن وظيفة الرسول إنما هى الإنذار والتحذير وليس

عليهم من حسابهم من شىء ، فإن شاء الله عجل لهم العذاب و إن شاء أخره عنهم ، وقد وعد الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالمغفرة من الذنوب ودخول دار النعيم وأوعد الذين يثبطون العزائم عن قبول دعوة الإسلام بدوام العذاب فى نار الجحيم .

الإيضاح

(و يستعجلونك بالعذاب) أى و يستعجلك كفار قريش المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر ـ مجىء العذاب الذى تحذرهم به وتوعدهم إياه ، إنكارا منهم لوقوعه واستهزاء بحلوله .

ثم بيّن أنه آت لامحالة فقال :

(ولن يخلف الله وعده) أى وكيف ينكرون مجىء ذلك العذاب وقد وعد الله به وما وعد به كائن لامحالة ، وهو كما فعل بمن قبلكم يفعل بكم ، لأن ذلك هو نهجه الثابت وصراطه المستقيم ، وسيحل بكم مثل ما حل بغيركم .

(و إنّ يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) أى و إن قلتم إن العهد قد طال ولم يحل بهم العذاب فأين هو ؟ فإن الله حليم ، وألف سنة عندكم كيوم عنده ، فهو سينفذ وعده بعد أمد طويل عندكم قريب عنده كما قال : « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً . وَنَرَاهُ قَرِيباً » فإذا تأخر عذاب الآخرة أمدا طويلا فلا يكون فى ذلك إخلاف للوعد ، فعشرون ألف سنة عند ربك كعشرين يوما عندكم .

والخلاصة — إن سنتى لابد من نفاذها ولابد من إهلاك الظالمين ولو بعد حين أمما وأفرادا فى الدنيا والآخرة أو عذابهم فى الآخرة فحسب مع الأكدار فى الدنيا وهم لايشعرون .

ثم أكد ما ذكره من عدم إخلاف الوعد و إن طال الأمد فقال :

(وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها و إلىّ المصير) أى وكم من قرية أخرت إهلاكها من استمرارها على ظلمها فاغترت بذلك التأخير ، ثم أنزلت

بها بأسى وشديد انتقامى ، وحسابها بعدُ مدّخر ليوم الحساب حين لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ولا يخفى مافى شديد الوعيد وعظيم التهديد .

ثم أبان لهم عظيم خطئهم فى طلب استعجال العذاب من الرسول بقوله :

(قل يأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين) أى قل يأيها المشركون المستعجلون مجيء العذاب : ليس ذلك إلىّ ، و إنما أرسلنى ربى نذيرا لكم بين يدى عذاب شديد وليس إلىّ من حسابكم من شىء ، بل أمر ذلك إلى الله إن شاء عجل لكم العذاب ، و إن شاء أخره عنكم ، وإن شاء تاب على من يتوب و ينيب إليه : « لَامُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » .

ثم فصل هذا الإنذار بذكر الوعد للمتقين والوعيد للكافرين فقال :

(فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم) أى فالذين آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ــ لهم مغفرة لما سلف من سيئاتهم وثواب عند ربهم على ماقدموا من حسناتهم ، ولهم رزق كريم فى الجنة يفوق وصف الواصفين ومقال المادحين كما قال تعالى : « فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ » وفى الحديث : « فيها مالاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

(والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم) أى والذين اجتهدوا فى رد دعوة الدين والتكذيب بها وثبطوا الناس عن متابعة النبى صلى الله عليه وسلم ظنا منهم أنهم يعجزوننا وأنهم لايبعثون ، فأولئك هم المقيمون فى النار المصاحبون لها لايخرجون منها .

ونحو الآية قوله : « الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ » .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧) .

شرح المفردات

الرسول : من جاء بشرع جديد ، والنبى يشمل هذا ويشمل من جاء لتقرير شرع سابق كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام ، والتمنى والأمنية : القراءة كما قال تعالى : « وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ » أى إلا قراءة ، وقال حسان فى عثمان حين قتل :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

وينسخ : أى يزيل ويبطل ، يحكم : أى يجعلها محكمة مثبتة لاتقبل الرد بحال، فتنة : أى ابتلاء واختبارا ، مرض : أى شك ونفاق ، القاسية قلوبهم : هم الكفار المجاهرون بالكفر ، شقاق بعيد : أى عداوة شديدة ، فتخبت : أى تذل وتخضع ، مرية : أى شك ، بغتة : أى فجأة ، الساعة : الموت ، يوم عقيم : أى منفرد عن سائر

الأيام لا مثيل له فى شدته والمراد به الحرب الضروس ، الملك : أى التصرف والسلطان ، يحكم بينهم : أى يقضى بين فريقى الكافرين والمؤمنين ، مهين : أى مذل جزاء استكبارهم عن الحق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآيات السالفة أن قومه قد كذبوه بوسائل شتى من التكذيب فقالوا تارة إنه ساحر ، وأخرى إنه شاعر ، وثالثة إن القرآن أساطير الأولين ، ثم سلاه عن هذا بأن ليس بدعا من الرسل ، فكثير قبله قد كذبوا ، ثم ذكر أنهم لعظيم استهزائهم به وتهكمهم بما يبلغهم عن ربه - طلبوا منه استعجال العذاب الذى يعدهم به - أردف ذلك بذكر نوع آخر من التكذيب وهو إلقاؤهم الشبه والأوهام فيما يقرؤه على أوليائه من القرآن ليجادلوه بالباطل ويردوا ما جاء به من الحق ويكون فى ذلك فتنة لضعاف الإيمان وللكافرين ، وليزداد المؤمنون إيمانا ويقينا بأنه الحق من ربهم فتخبت له قلوبهم ، وإن هذه حالهم حتى يموتوا أو يأتيهم عذاب لا يبلغ الوصف كنه حقيقته ، وعندئذ يحكم الله بين عباده فيدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات النعيم ، ويجازى الذين كذبوا بآياته وكانوا فى مرية من رسالة رسوله بالعذاب المهين جزاء وفاقا على تدسية أنفسهم وتدنيسها بزائغ العقائد وسىء الأعمال وباطلها .

الإيضاح

(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) أى وما أرسلنا قبلك رسولا ولا نبيا إلا إذا قرأ ألقى الشيطان على سامعيه وهو يتلو الوحى الذى أنزل إليه - شبهات فيما يقرأ فيقول قوم إنه سحر ويقول آخرون إنه نقله الرسول عن بعض الأولين وهكذا من الأباطيل والترّهات التى يتقولونها .

(فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته) أى فيزيل سبحانه تلك الخرافات التى علقت ببعض النفوس ، بأن يقيّض للدين من يدافع عنه و يدفع الشبهات ثم يجعل آياته محكمة مثبتة لاتقبل الرد بحال .

وخلاصة ذلك — إن الله حين أنزل القرآن وقرأه الرسول قال المشركون فيه ماقالوا ، ثم استبان الحق وجاءت غزوة بدر ونصر الله المسلمين الذين بشرهم كتابه بالنصر على أعدائهم كما قال : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » استتب لهم الأمر ودخل أعداؤهم فى دينهم أفواجا « وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا » . وما مثل هذا إلا مثل النباتات الطفيلية التى تنبت فى الأرض بجانب مايزرع فيها من حنطة وفول وغيرهما مما يحتاج إليه الناس ، ولا تزال تتغذى من الأرض وتأخذ غذاء النبات النافع ، فلا يهدأ للزارع بال حتى يزيلها و يوفر غذاءها للنبات الذى هو فى أشد الحاجة إليه .

وما أشبه الليلة بالبارحة ، فإنك الآن لترى أهل أوربا يُرسلون الجيوش من القساوسة التى تفتح المدارس فى بلاد الشرق و يقولون للمسلمين : إن دينهم محشو بالخرافات والأكاذيب و يشككون من تعلموا فى تلك المدارس فيه و يصدّق بعض غوغائهم تلك الأباطيل حتى لقد قالوا إن هذا الدين لايعيش فى ظل العلم ولا يقبل الأفكار والآراء الراقية ، وهو والعلم عدوان لايجتمعان ، ومما جعل لهم بعض المعذرة فيما يقولون ، حال المسلمين من الخمول وسوء الأحوال وقبيح المعتقدات والأعمال مما جعلهم مُضْغة فى أفواه الأمم المتمدينة : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » .

و إن الله لينسخ تلك الوساوس و يزيل هذه الأوهام ، فقد تصدى كثير من ذوى المعرفة لدحض تلك المفتريات ، فقام العالم الحكيم محمد عبده وألف كتابه [الإسلام والنصرانية] ودفع كثيرا من مطاعن أولئك المبشرين ، وقام بعده كثير من أهل التفقه بالدين فاحتذوا حذوه وواصلوا الليل بالنهار فى دحض تلك الشبه ، و إن الله ناصر دينه ولو كره الكافرون .

هذا وقد دس بعض الزنادقة فى تفسير هذه الآية أحاديث مكذوبة لم ترد فى كتاب من كتب السنة الصحيحة ، وأصول الدين تكذبها ، والعقل السليم يرشد إلى بطلانها وأنها ليست من الحق فى شىء ، وهى مما تشكك المسلمين فى دينهم وتجعلهم فى حيرة من أمر الوحى وكلام الرسول ، فيجب على العلماء طرحها وراءهم ظهريا ولا يضيعون الزمن فى تأويلها وتخريجها ، ولا سيما بعد أن نص الثقات من المحدّثين على وضعها وكذبها لمصادمتها لأصول الدين التى لاتقبل شكا ولا امتراء .

(والله عليم حكيم) أى والله عليم بكل شىء ، ومن ذلك مايصدر عن الشيطان وأوليائه فيجازيهم عليه أشد الجزاء ، حكيم فى أفعاله ، ومن ذلك أن يمكّن الشيطان من إلقاء الشبهات ، ليحاجّ أولياؤه بها ، فيتمكن المؤمنون من ردها ودحض المفتريات التى يتشدقون بها ، ويرجع الحق إلى نصابه ، فتظهر الحقيقة ناصعة بيضاء من بين تلك الظلمات ، فتمحو الظلام الذى كان عالقا بنفوس الذين فى قلوبهم مرض ، وتضىء آفاق العقول السليمة وتهديهم إلى طريق الرشاد ؛ وإلى الفريقين أشار بقوله :

(١) (ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم) أى ليجعل مايلقيه الشيطان على قلوب أوليائه فتنة واختبارا للمنافقين الذين فى قلوبهم مرض وللكافرين الذين قست قلوبهم ، فلا تلين لقبول الحق ، ولا ترعوى عما هى فيه من الغىّ .

ثم بين مجانفة هذين الفريقين للحق وبعدهما عن الرشد لا إلى غاية فقال :

(وإن الظالمين لفى شقاق بعيد) أى وإن هذين الصّنفين من الضُّلّال لفى عداوة لأمر الله وبعد عن الرشاد والسداد بما لامطمع لهما معه فى النجاة والفوز برضا الله .

(٢) (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم)

أى ولكى يعلم أهل العلم بالله أن الذى أنزله الله من آياته التى أحكمها ونسخ ما ألقى الشيطان ـ أنه الحق من ربهم فيصدقوا به وتخضع له قلوبهم وتذعن للإقرار به نفوسهم ، وتعمل بما فيه من عبادات وآداب وأحكام وهى مُثْلَجة الصدر هادئة مطمئنة ببرد اليقين والسير على نهج سيد المرسلين .

ثم بين حسن مآلهم وفوزهم بسعادة العقبى فقال :

(وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) أى وإن الله لمرشد الذين آمنوا به وصدقوا برسوله ، وموفقهم إلى الحق الواضح بنسخ ما ألقى الشيطان فى أمنية رسوله حين تلاوة الوحى ، وحفظ أصول الدين الصحيحة فى نفوسهم والعمل بها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وخلاصة ذلك — إن الله ليهدى الذين آمنوا إلى تأويل ما تشابه من الدين وتفصيل ما أجمل منه بما تقتضيه الأصول المحكمة . فلا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة ولا تزلزل أقدامهم ترّهات المبطلين .

ثم أردفه ببيان مآل الفريق الأول فقال :

(ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) أى ولا يزال الكافرون فى شك مما ألقى الشيطان فى قلوبهم حين قراءة القرآن عليهم حتى يأتيهم الموت فجأة وهم فى بيوتهم آمنون، أو يشتبكوا مع المؤمنين فى قتال يهلك فيه أبطالهم وصناديدهم كما حدث يوم بدر .

وقد جعل هذا اليوم عقيما ، لأن المقاتلين يُسمَّوْن أبناء الحرب ، فإذا هم قُتلوا وصف هذا اليوم بأنه عقيم .

وخلاصة هذا — إنه لا مطمع فى إيمانهم ، ولا لزوال المرية من قلوبهم ، فهم لا يزالون كذلك حتى يهلكوا .

وبعد أن بين سبحانه حال الفريقين فى الدنيا أرشد إلى حالهم فى الآخرة فقال :

(الملك يومئذ لله يحكم بينهم) أى إذا جاء يوم القيامة حكم ربهم بينهم بالحق

وجازى كلا منهما بما هو له أهل وبما أعد نفسه له فى الدنيا من عمل صالح زكى به نفسه وطهر روحه أو عمل سيئ دسَّاها به فرانت على قلبه غشاوة الشكوك والأوهام واجترام المعاصى والآثام .

ثم فصل هذا الحكم والمحكوم عليهم فقال :

(فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم) أى فالذين آمنوا بهذا القرآن وبمن أنزله وبمن جاء به وعمل بما فيه من أوامر ونواه - يثيبهم ربهم جنات النعيم يتمتعون فيها بما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، جزاء وفاقا على ما زكوا به أرواحهم وأخلصوا له فى أعمالهم وراقبوا ربهم فى السر والعلن وخافوا عذابه فى ذلك اليوم الذى تشيب من هوله الولدان .

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين) أى والذين كفروا بالله وكذبوا رسوله وجحدوا بآيات كتابه وقالوا إنما هو إفك افتراه محمد وأعانه عليه قوم آخرون - أولئك لهم عذاب عند ربهم يذلهم ويخزيهم كفاء استكبارهم عن النظر فيها وجحودهم بها عنادا وقد كان لهم فيها لو تأملوا حق التأمل ما يكون صادا لهم عن غيهم ورادعا لهم عن ضلالهم .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ

هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت قدرته أن الملك له يوم القيامة وأنه يحكم بين عباده المؤمنين والكافرين ، وأنه يدخل المؤمنين جنات النعيم - أردف ذلك بذكر وعده الكريم للمهاجرين فى سبيله بأنه يرزقهم الرزق الحسن ويدخلهم مدخلا يرضونه ، ثم بذكر وعده لمن قاتل مبغيا عليه بأن اضطر إلى الهجرة ومفارقة الوطن بأنه ينصره وهو قدير على ذلك ، إذ من قدر على إدخال الليل فى النهار وإدخال النهار فى الليل ، بأن يزيد فى أحدهما ما ينقصه من الآخر - يقدر على نصره ، وهو الثابت الإلهية وحده ، ولا يصلح لها إلا من كان كامل القدرة كامل العلم ، وأن ما سواه باطل لايقدر على شىء .

أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن سلمان الفارسى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من مات مرابطا أجرى عليه الرزق وأمن من الفتانين واقرءوا إن شئتم : (والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين. ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم) » .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن فضالة بن عبيد الأنصارى الصحابى أنه كان بموضع فمروا بجنازتين إحداهما قتيل والأخرى متوفى ، فمال الناس على القتيل ، فقال فضالة : مالى أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا هذا القتيل فى سبيل الله ، فقال والله لا أبالى من أى حفرتيهما بعثت ، اسمعوا كتاب الله (والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا) الآية .

وروى عن أنس أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المقتول فى سبيل الله والمتوفى فى سبيل الله بغير قتل هما فى الأجر شريكان » .

الإيضاح

(والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين) أى والذين فارقوا أوطانهم وتركوا عشائرهم فى رضا الله وطاعته وجهاد أعدائه ، ثم قتلوا أو ماتوا وهم كذلك - ليثيبنّهم الله الثواب الجزيل جزاء ما ناضلوا عن دينه وأخلصوا فى الذود عنه ، وإن الله ليعطى من يشاء بغير حساب ، ويرزق الخلق كافة بارّهم وفاجرهم .

ثم بين هذا الرزق الحسن بقوله :

(ليدخلنهم مدخلا يرضونه) أى ليدخلنّ المقتولين فى سبيله والموتى مهاجرين فى طاعة ربهم وذودا عن دينه - جنات النعيم ويكرمون فيها بما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما لاينالهم فيها مكروه ولا أذى كما قال « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا » .

(وإن الله لعليم حليم) أى وإن الله الذى عمت رحمته وعظمت نعمته - لعليم بمقاصدهم وأعمالهم وأعمال أعدائهم ، حليم فلم يعاجل هؤلاء المكذبين بالعقوبة جزاء تكذيبهم ومقاومتهم دعوة الدين .

(ذلك) أى ذلك الرزق الحسن والمدخل الكريم لمن قتلوا فى سبيل الله أو ماتوا ، ولهم أيضا النصر فى الدنيا على أعدائهم وإلى ذلك أشار بقوله :

(ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله) أى وإن من جازى من المؤمنين بمثل ما عوقب به ظلما من المشركين ، فقاتلهم كما قاتلوه ثم بغى عليه باضطراره إلى الهجرة ومفارقة الوطن - لينصرنه الله الذى لايغالب ، ولينتقمنّ له من أعدائه وليُنكّلنّ بهم ويمكننه منهم ويجعل كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

والخلاصة — إنه تعالى كما يدخلهم مدخلا كريما ، يعدهم بالنصر على أعدائهم إذا هم قاتلوهم وبغوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم .

(وإن الله لعفوّ غفور) أى وإن الله الذى أحاطت قدرته بكل شىء - ليعفو عن المؤمنين ، فيغفر لهم ما أمعنوا فيه من الانتقام وما أعرضوا عنه مما ندبه الله من العفو بمثل قوله : « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » وقوله : « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » وقوله : « وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ » وهم بفعلهم هذا تركوا ما كان أجدر بهم وأحرى بمثلهم .

والخلاصة — كأنه سبحانه قال : عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها لهم لأنى أذنت بها .

ثم قرر نصره لعباده المؤمنين وأكده بقوله :

(ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى ذلك النصر الذى أنصره لمن بُغِى عليه ، لأنى أنا القادر على ما أشاء ، ألا ترونى أدخل ما ينقص من ساعات الليل فى ساعات النهار ، وأدخل ما ينقص من ساعات النهار فى ساعات الليل ، وبهذه القدرة التى تفعل ذلك أنصر محمدا وصحبه على الذين قد بغوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وآذوهم أشد الأذى على إيمانهم بالله وحده .

(وأن الله سميع بصير) أى وأن الله سميع للأقوال وإن اختلفت فى النهار الأصوات بفنون اللغات ، بصير بما يعملون لا يغيب عنه شىء ولا يعزب عنه شىء وإن كان مثقال ذرة .

ولما وصف نفسه بما لا يقدر عليه غيره علل ذلك بقوله :

(ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل) أى إن الاتصاف بكمال القدرة وكمال العلم بسبب أن الله هو الثابت لذاته ، وأنه لا مثيل له ولا شريك ، وأن الذى يدعون من دونه من الآلهة باطل لا يقدر على صنع شىء بل هو المصنوع الموجَد بعد العدم .

(وأن الله هو العلى الكبير) أى وأن الله فوق كل شىء وكل شىء دونه ، وهو الكبير عن أن يكون له شريك ، إذ لا شىء أعلى منه شأنا ولا أكبر سلطانا .

وخلاصة ذلك — أفتتركون أيها الجهال عبادة من بيده النفع والضر وهو القادر على كل شيء وكل شيء دونه وهو فوق كل شيء وتعبدون من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا؟.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦).

الإيضاح

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف عظيم قدرته وبالغ حكمته فى ولوج الليل فى النهار والنهار فى الليل، ونبه بذلك على سابغ نعمه على عباده أردف ذلك بذكر أنواع أخرى من الدلائل على قدرته فقال:

(١) (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة) أى ألم تبصر أيها الرائى أن الله ينزل من السماء مطرا فيحيى به الأرض فتنبت ضروبا مختلفة من النبات بديعة الألوان والأشكال ذات خضرة سندسية تبهر العين بحسن منظرها وبديع تنسيقها.

(إن الله لطيف خبير) أى إنه تعالى لطيف يصل علمه إلى الدقيق والجليل، خبير بمصالح خلقه ومنافعهم.

ونحو الآية قوله تعالى : « وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

(ب) (له ما فى السموات وما فى الأرض و إن الله لهو الغنى الحميد) أى إن كل ما فى السموات وما فى الأرض منقاد له غير ممتنع من التصرف فيه ، وهو الغنى عن حمد الحامدين ، لأنه كامل لذاته ، غنى عن كل ما عداه ، وقد فعل ما فعل إحسانا منه إلى عباده وتفضلا عليهم .

(حـ) (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض) أى إنه تعالى سخر ما فى ظاهر الأرض و باطنها لينتفع به الإنسان فى مصالحه ومرافقه المختلفة و يصرفه فيما أراد من شئون معايشه ، ولا يزال العلم يهديه إلى غريب الأمور مما لم يكن يخطر لأسلافه على بال مما لو حُدِّث به السالفون لقالوا إنه ترهات وأباطيل ولا صدقه بشر ، ولا يزال العلم يولد كل يوم جديدا : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » ويهتدى العقل إلى ما هو أشبه بالمعجزات لولا أن سُدّ أبواب النبوات .

ونحو الآية قوله : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » .

(ى) (والفلك تجرى فى البحر بأمره) أى وسخر لكم السفن تجرى فى البحار برفق وتؤدة حاملة ما تريدون من نائى الأصقاع و بعيد المسافات من سلع وحيوان وأناسىّ و بذلك يتم تبادل مرافق الحياة بالأخذ والعطاء .

(هـ) (و يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه) أى و إن الله يمسك أجرام الكواكب من شمس وقمر وكواكب نيرات بنظام الجاذبية ، إذ جعل لكل منها مدارا خاصا بها لا تعدوه بحال ، ولا تزال كذلك ما بقيت الحياة الدنيا ، حتى إذا اقتربت الساعة اختل نظامها وانتثرت فى الفضاء كما ألمع إلى ذلك سبحانه بقوله : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ » الآية .

ولولا هذا النظام الخاص لاصطدمت الكواكب العظيمة بعضها ببعض وفسد العالم الأرضى ولم يعش على ظهر البسيطة إنسان ولا حيوان .

(إن الله بالناس لرءوف رحيم) أى إنه تعالى رحيم بهم ، إذ جعل هذه العوالم على تلك الشاكلة ، ليتسنى لهم البحث عن أسباب معايشهم وأسباب منافعهم ، وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية على وجوده و بعثة رسله .

(و) (وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) أى وهو الذى أنعم عليكم بهذه النعم وجعل لكم أجساما حية بعد أن كنتم ترابا ، ثم يميتكم حين انقضاء آجالكم ثم يحييكم بالبعث والنشور إلى عالم آخر تلقون فيه حسابكم وجزاءكم ثم إلى نعيم أو جحيم .

ثم بين طبيعة الإنسان التى خلق عليها فقال :

(إن الإنسان لكفور) أى و إن الإنسان لم يوجه همه إلى كل هذه الآلاء التى يتقلب فيها ليل نهار ، بل جحدها وجحد خالقها على وضوح أمرها ، وعبد غيره وجعل له الأنداد من الأصنام والأوثان .

ونحو الآية قوله : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » وقوله : « قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ » .

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) .

شرح المفردات

المنسك : الشريعة والمنهاج ، ناسكوه : أى عاملون به ، والهدى : الطريق الموصل إلى الحق ، مستقيم : أى سوىّ لاعوج فيه .

المعنى الجملى

بعد أن قدم عز اسمه ذكر نعمه وأنه رءوف بعباده رحيم بهم ، وأن الإنسان كفور بطبعه ، ومن ثم جحد الخالق لهذه النعم ـ أتبعه بزجر معاصريه عليه السلام من أهل الأديان السماوية عن منازعته ، بذكر خطئهم فيما تمسكوا به من الشرائع ، وبيان أن لكل أمة شريعة خاصة ، ثم أمره بالثبات على ماهو عليه من الحق ، وأنه لايضره عناد الجاحدين ، فالله هو الحكم بينهم وبينه يوم القيامة .

الإيضاح

(لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه) أى إنا أنزلنا لأهل كل دين من الأديان السماوية شريعة خاصة يعملون بها ويسيرون على نهجها لايتخطونها إلى غيرها ، فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى منسكها مافى التوراة ، والأمة التى من مبعث عيسى إلى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم منسكها مافى الإنجيل ، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم وهم من وجد حين مبعثه إلى يوم القيامة منسكهم مافى القرآن ، لأن لكل زمان مايليق به من الشرائع التى تناسب من فيه فى تلك الحقبة .

(فلا ينازعنك فى الأمر) أى فلا ينبغى لهم أن ينازعوك فى أمر هذا الدين ، فإن تعيينه تعالى لكل أمة شريعة خاصة موجب لطاعة هؤلاء لك وعدم منازعتهم إياك فى أمر هذه الشريعة زعما منهم أن شريعتهم هى ما عين لآبائهم من التوراة والإنجيل ، فذلك خطأ منهم ، فإن ذلك إنما كان شريعة لمن مضى قبل نسخه بالقرآن .

والخلاصة — اثبت أيها الرسول على دينك ثباتا لا يطمعون أن يجذبوك منه ليزيلوك عنه ، والمراد بذلك تهييج حميّته عليه السلام وإلهاب غضبه لله ولدينه ، ومثل هذا كثير فى كتاب الله ، وكأنه قد قيل له تأسّ بالأنبياء قبلك فى متاركة القوم الظالمين والإمساك عن مجادلتهم بعد اليأس من إيمانهم .

(وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم) أى وادع هؤلاء المنازعين إلى توحيد الله وعبادته ، إنك لعلى طريق يهدى إلى الحق ، وشريعة توصل إلى السعادة .

ونحو الآية قوله : « وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ » .

(وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون) أى وإن جادلك هؤلاء المشركون فى نسكك بعد أن ظهر الحق ولزمتهم الحجة ـ فقل لهم على سبيل التهديد والوعيد : الله عليم بما تعملون وبما أعمل ، ومجاز كلا بما هو له أهل .

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » وقوله : « هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » .

وبعد أن أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم وكان ذلك شديد الوقع على النفس سلاه بأن الله سيجازيهم لا محالة يوم القيامة على ما يقولون ويفعلون فقال :

(الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) أى الله يقضى بين المؤمنين منكم والكافرين يوم القيامة فيما كنتم تختلفون فيه من أمر الدين ، فيتبين المحق من المبطل .

ونحو الآية قوله : « فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ » الآية .

وقصارى ما سلف — ادع إلى شريعتك ، ولا تخصّ بالدعاء أمة دون أمة ، فكلهم أمتك ، وإنك لعلى طريق واضحة الدلالة تصل بمن اتبعها إلى سبيل السعادة ، فإن عدلوا عن النظر فى الأدلة إلى المراء والتمسك بالعادات وبما وجدوا عليه الآباء

والأجداد ، فدعهم فى غيهم يعمهون ، فقد أنذرتَ ، وما عليك إلا البلاغ ، وقل لهم مهددا منذرا من حكم يوم القيامة وهو متردد بين جنة ونار وثواب وعقاب : الله يحكم بيننا و بينكم و يتبين المحق من المبطل و يجازى كلا بما يستحق .

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) .

شرح المفردات

سلطانا : أى حجة و برهانا ، نصير : أى ناصر ومعين ، يسطون : أى يبطشون بهم من فرط الغيظ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه يحكم بين عباده يوم القيامة و يجازى كلا من المسىء والمحسن بما هو له أهل - أعقب هذا ببيان أنه العليم بما يستحقه كل منهم فيقع حكمه بينهم بالعدل ، ثم أرشد إلى أنه على وضوح الدلائل وعظيم النعم عليهم عبدوا غيره مما لم يقم الدليل على وجوده ، وأنهم مع جهلهم إذا نُبِّهوا إلى الحق وعرضت عليهم المعجزة وتلى عليهم الكتاب الكريم ظهر فى وجوههم الغيظ والغضب وهموا بالبطش بمن يذكرهم بآياته إنكارا منهم لما خوطبوا به ، ثم أبان لهم أن ماينالهم

من النار التي يقتحمونها بأفعالهم وأقوالهم أعظم مما ينالهم من الغم والغيظ حين تلاوة هذه الآيات .

الإيضاح

(ألم تعلم أن الله يعلم مافى السماء والأرض) أى قد علمت أيها الرسول أن علم الله محيط بما فى السموات وما فى الأرض لايعزب عنه مثقال ذرة فيهما ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وهو حاكم بين خلقه يوم القيامة على علم منه بما عملوه فى الدنيا ، فيجازى المحسن منهم بإحسانه والمسىء بإساءته .

(إن ذلك فى كتاب) أى إن علمه بذلك فى اللوح المحفوظ الذى كتب فيه ربنا قبل أن يخلق ماهو كائن إلى يوم القيامة ؛ ويرى أبو مسلم الأصفهانى أن المراد بالكتاب فى مثل هذا الحفظ والضبط الشديد بحيث لايغيب عنه مثقال ذرة .

(إن ذلك على الله يسير) أى إن علمه تعالى بما فى السماء والأرض وكَتْبه فى اللوح المحفوظ والفصل بين عباده يوم القيامة ـ يسير على الله إذ لايخفى عليه شىء ولا يتعسر عليه مقدور .

ثم حكى سبحانه بعض أباطيل المشركين وأحوالهم الدالة على سخافة عقولهم فقال :

(ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم) أى ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه مالم ينزل بجواز عبادته حجة وبرهانا من السماء فى كتاب من كتبه التى أنزلها إلى رسله ، وما ليس لهم بجواز عبادته علم من ضرورة العقل ، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بغير حجة ولا برهان .

والخلاصة — ويعبدون من دون الله مالم يقم دليل من الوحى ولا من العقل على صحة عبادته .

ونحو الآية قوله : « وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » .

(وما للظالمين من نصير) أى وليس للظالمين من ينصرهم يوم القيامة فينقذهم من عذاب الله ويدفع عنهم عقابه إذا أراد ذلك .

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر) أى وإذا تتلى على المشركين العابدين من دون الله مالم ينزل به سلطانا ـ آيات القرآن الحجج والبينات ، بدت على وجوههم أمارات الإنكار بالتَّجهُّم والعُبوس والبُسور ونحو ذلك مما يدل على الغيظ والحفيظة الكامنة فى نفوسهم مما يسمعون منها .

ثم بين مقدار ذلك الغيظ ومبلغ أمره فقال :

(يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) أى هم من شدة حنقهم على من يتلونه من المؤمنين يكادون يثبون عليهم ويبطشون بهم ويسطون أيديهم وألسنتهم بالسوء .

وقصارى ذلك — إنهم قد بلغوا من الجهالة حدا لاينفع فيه العلاج ولا تقنع فيه البينات والحجج .

ثم ذكر لهم أن هذا الغيظ الكمين فى نفوسهم ليس بشىء إذا قيس بماسيلاقونه من العذاب يوم القيامة فقال :

(قل أفأنبئكم بشر من ذلكم ؟) أى قل لهم : أتسمعون فأخبركم بشر من ذلكم الذى فيكم من الغيظ من التالين للآيات حتى قاربتم أن تسطوا بهم وتمدّوا إليهم أيديكم وألسنتكم بالسوء ؟ .

ثم أجاب عن هذا الاستفهام فقال :

(النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) أى النار وعذابها أشق وأعظم مما تخوّفون به أولياء الله المؤمنين فى الدنيا ومماتنالون منهم إن نلتم بإرادتكم واختياركم .

(وبئس المصير) أى وبئس النار موئلا ومُقاما لهؤلاء المشركين بالله .
ونحو الآية قوله : « إنَّها ساءَتْ مُسْتقرًّا ومُقامًا » .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) .

شرح المفردات

ضرب : أى جعل ، والمَثل والمِثل : الشبه ، لايستنقذوه : أى لايقدروا على استنقاذه ، ماقدروا الله : أى ماعظموه ، عزيز : أى غالب على جميع الأشياء ، يصطفى : أى يختار .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أنهم يعبدون من دون الله مالاحجة لهم عليه من الوحى ولا دليل عليه من العقل – أردف هذا بما يدل على إبطاله ويؤكد جهلهم بمقام الألوهية وما ينبغى أن يكون لها من إجلال وتعظيم ، ثم أعقب ذلك ببيان أنه سبحانه يصطفى من الملائكة والناس لرسالته من يشاء وهو العليم بمن يختار « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

روى أن الوليد بن المغيرة قال : أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ فأنزل الله الآية : « اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ » .

وأخرج الحاكم وصححه عن عكرمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله اصطفى موسى بالكلام وإبرهيم بالخلة » .

الإيضاح

(يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له) أى يأيها الناس جعل المشركون لى أشباها وأندادا وهى الآلهة التى يعبدونها معى ، فأنصتوا وتفهموا حال ما مثلوهم وجعلوهم لى فى عبادتهم إياهم أشباها وأمثالا .

ثم بين حال هؤلاء الأشباه والأمثال فقال :

(إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له) أى لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأوثان على أن يخلقوا ذبابة واحدة على صغر حجمها وحقارة شأنها ما قدروا وما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

روى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة » .

(وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه) أى وإن يسلب الذباب الآلهة والأوثان شيئا مما عليها من طيب وما أشبهه _ لا تستنقذ ذلك منه على ضعفه .

والخلاصة — إنهم عاجزون عن خلق ذباب واحد ، بل أعجب من ذلك أنهم عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبهم شيئا مما عليهم من طيب ونحوه .

وفى ذلك إيماء إلى أنهم قد بلغوا غاية الجهالة ، وأشركوا بالله القادر على كل شىء آلهتهم من الأصنام والأوثان التى لا تقدر على خلق أحقر المخلوقات وأصغرها وهو الذباب ولو اجتمعت له ، ولا تستطيع أن تنتصر منه لو سلبها شيئا .

(ضعف الطالب والمطلوب) أى عجز الطالب وهو الآلهة أن تستنقذ من المطلوب وهو الذباب ما سلبها إياه من الطيب وما أشبهه .

وقصارى هذا — إنه سبحانه وصف هذه الآلهة بما وصف للدلالة على مهانتها وضعفها تقريعا منه لعبدتها من مشركى قريش وكأنه قيل لهم : كيف تجعلون لى مثلا فى العبادة ، وتشركون معى فيها ما لاقدرة له على خلق ذباب ، وإن أخذ منه الذباب شيئا لم يقدر أن ينتصر منه ، وأنا الخالق مافى السموات والأرض ومالك جميع ذلك والمحيي ما أردتُ والمميت ـ إن فاعل ذلك بلغ غاية الجهل وعظيم السفه .

ثم زاد هذا الإنكار توكيدا فقال :

(ماقدروا الله حق قدره) أى ماعظموه حق التعظيم ، إذ عبدوا معه غيره من هذه الأصنام التى لا تقاوم الذباب لضعفها ولا تنتصر منه إن سلبها شيئا .

(إن الله لقوى عزيز) أى إنه تعالى قوى لايتعذر عليه شىء ، وبقدرته خلق كل شىء ، عزيز لايغالب ، لعظمته وسلطانه ، ولا يقدر شىء أن يسلبه من ملكه شيئا ، وليس كآلهتكم التى تدعونها من دون الله .

ونحو الآية قوله : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وقوله : « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » .

وبعد أن ذكر ما يتعلق بالإلهيات ذكر ما يتعلق بالنبوات فقال :

(الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) أى الله يختار من الملائكة رسلا يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحى ، ويصطفى من الناس رسلا يدعون عباده إلى مايرضيه ويبلغونهم مانزّله عليهم من وحيه إرشادا لهم وتشريعا للأحكام التى فيها سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم .

(إن الله سميع بصير) أى إنه تعالى سميع لأقوال عباده ، بصير بهم فيعلم من يستحق أن يختار منهم لهذه الرسالة .

(يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى يعلم ما كان بين أيدى ملائكته ورسله من قبل أن يخلقهم ، و يعلم ما هو كائن بعد فنائهم .

وخلاصة ذلك — يعلم مستقبل أحوالهم وماضيها .

(وإلى الله ترجع الأمور) أى وإليه ترجع الأمور يوم القيامة ، فلا أمر ولا نهى لأحد سواه ، وهو يجازى كلا بما عمل إن خيرا و إن شرا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) .

شرح المفردات

فى الله : أى فى سبيله ، والجهاد كما قال الراغب : هو استفراغ الوسع فى مجاهدة العدو ، وهو ثلاثة أضرب :

(ا) مجاهدة العدو الظاهر كالكفار .

(ب) مجاهدة الشيطان .

(ح) مجاهدة النفس والهوى ، وهذه أعظمها ؛ فقد أخرج البيهقى وغيره عن جابر قال : « قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم غزاة فقال : قدمتم خير

مقدم ، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل وما الجهاد الأكبر ؟ قال : مجاهدة العبد هواه » .

والمراد بالجهاد هنا ما يشمل الأنواع الثلاثة ، كما يؤيده ما روى عن الحسن أنه قرأ الآية وقال : « إن الرجل ليجاهد فى الله تعالى وما ضرب بسيف » واجتباكم : أى اختاركم ، حرج : أى ضيق بتكليفكم ما يشق عليكم ، واعتصموا بالله : أى استعينوا به وتوكلوا عليه ، مولاكم : أى ناصركم .

المعنى الجملى

بعد أن تكلم فى الإلهيات ثم فى النبوات - أتبعهما بالكلام فى الشرائع والأحكام .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) أى يأيها الذين صدقوا الله ورسوله ، اخضعوا لله وخروا له سجدا واعبدوه بسائر ما تعبّدكم به وافعلوا الخير الذى أمركم بفعله من صلة الأرحام ومكارم الأخلاق ، لتفلحوا وتفوزوا من ربكم بما تؤملون من الثواب والرضوان .

(وجاهدوا فى الله حق جهاده) أى وجاهدوا فى سبيل الله جهادا حقا خالصا لوجهه لاتخشون فيه لومة لائم .

(هو اجتباكم) أى هو اختاركم من سائر الأمم ، وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع .

(وما جعل عليكم فى الدين من حرج) أى وما جعل عليكم فى الدين الذى تعبدكم به ضيقا لامخرج لكم منه ، بل وسع عليكم وجعل لكم من كل ذنب مخلصا ، فرخص لكم فى المضايق ، فالصلاة وهى أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب

فى الحضر أربعا وفى السفر تقصر إلى اثنتين ، ويصليها المريض جالسا ، فإن لم يستطع فعلى جنبه، وأباح الفطر حين السفر وحين الإرضاع والحمل والشغل فى شاق الأعمال ، ولم يوجب علينا الجمعة فى المساجد حين السفر أو الخوف من عدو أو سبع أو مطر إلى نحو أولئك ، كما فتح لكم باب التوبة وشرع لكم الكفارات فى حقوقه ودفع الدية بدل القصاص إذا رضى الولى .

ونحو الآية قوله سبحانه : « فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » وقوله : « يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » وقوله : « رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا » .

(ملة أبيكم إبراهيم) أى وملتكم هى ملة أبيكم إبراهيم الحنيفية السمحة التى لم يعتورها جنف ولا إشراك .

ونحو الآية قوله تعالى : « قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا » الآية .

(هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا) أى إن الله سماكم يا معشر من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ــ المسلمين فى الكتب المتقدمة وفى هذا الكتاب .

وخلاصة هذا — إنه تعالى ذكر أنه اختارهم من بين سائر الأمم ، ثم حثهم على اتباع ما جاءهم به الرسول لأنه ملة أبيهم إبراهيم ، ثم نوّه بذكره والثناء عليه فى كتب الأنبياء قبله وفى القرآن .

(ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس) أى إنما جعلكم هكذا أمة وسطا عدولا مشهودا بعدالتكم بين الأمم ، ليكون محمد صلى الله عليه وسلم شهيدا عليكم يوم القيامة بأنه قد بلغكم ما أرسل به إليكم ، وتكونوا شهداء على الناس بأن الرسل قد بلغوهم ما أرسلوا به إليهم .

و إنما قبلت شهادتهم على الناس لسائر الأنبياء ، لأنهم لم يفرقوا بين أحد منهم وعلموا أخبارهم من كتابهم على لسان نبيهم ، ولاعتراف سائر الأمم يومئذ بفضلهم على سواهم ، وقد تقدم ذكر هذا فى سورة الأنعام عند قوله : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » الآية .

ولما ندبهم لأداء الشهادة على الأمم جميعا طلب منهم دوام عبادته والاعتصام بحبله المتين فقال:

(فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم) أى فقابلوا هذه النعم العظيمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم بطاعته فيما أوجب وترك ما حرم ، ومن أهم ذلك إقامة الصلاة التى هى وصلة بينكم و بين ربكم ، وإيتاء الزكاة التى هى طُهْرة أبدانكم ، وصلة مابينكم و بين إخوانكم ، واستعينوا بالله فى جميع أموركم ، وهو ناصركم على من يعاديكم .

ثم علل الاعتصام به بقوله :

(فنعم المولى ونعم النصير) أى إن من تولاه كفاه كل ما أهمه ، و إذا نصر أحدا أعلاه على كل من خاصمه ، إذ لاناصر فى الحقيقة سواه ولا ولىّ غيره ، فله الحمد وهو رب العالمين .

خلاصة ما تضمنته السورة من الحكم والأحكام

(١) وصف حال يوم القيامة وما فيه من شدائد وأهوال تشيب منها الولدان .

(٢) جدال عبدة الأصنام والأوثان بلا حجة ولا برهان .

(٣) إثبات البعث و إقامة الأدلة عليه .

(٤) وصف المنافقين المذبذبين فى دينهم وعدم ثباتهم على حال واحدة .

(٥) ما أعد الله لعباده المؤمنين من الثواب المقيم فى جنات النعيم .

(٦) بيان أن الله ناصر نبيه ومظهر دينه على سائر الأديان .

(٧) بيان أن الله يحكم يوم القيامة بين عباده من أرباب الديانات المختلفة ويجازى كلا بما يستحق .

(٨) إقامة الأدلة على وجود خالق السموات والأرض وبيان أن العالم كله خاضع لقدرته .

(٩) أمر المؤمنين بقتال المشركين الذين أخرجوهم من ديارهم ، وبيان أن هذا القتال لابد منه لنصرة الحق فى كل زمان ومكان وأن الله ينصر من يدافع عنه .

(١٠) تسلية الرسول على ما يناله من أذى قومه وأنهم ليسوا بدعا فى الأمم ، فكثير ممن قبلهم كذبوا رسلهم ثم كانت العاقبة للمتقين ، وأهلك الله القوم الظالمين ، والعبرة ماثلة أمامهم فى حلهم وترحالهم .

(١١) بيان أن المفسدين يلقون الشبهات على الحق ليزلزلوا عقائد المؤمنين ، لكنها لاتلبث أن تزول وينكشف نور الحق ويزيل ظلام الباطل .

(١٢) الثواب على الهجرة لله ورسوله سواء قتل المهاجر أو مات .

(١٣) وصف حال الكافرين إذا تلى عليهم القرآن ، بما يظهر على وجوههم من أمارات الغضب .

(١٤) بيان أن الله يرسل رسلا من الملائكة ورسلا من البشر وأن الله عليم بمن يصلح لهذه الرسالة .

(١٥) أمر المومنين بدوام الصلاة والزكاة وفعل الخيرات والجهاد حق الجهاد فى سبيل الحق .

(١٦) بيان أن الدين يسر لاعسر ، وأنه كملة إبراهيم سمح لاشدة فيه .

(١٧) بيان أن الرسول شهيد على أمته يوم القيامة وأن هذه الأمة تشهد على الأمم السالفة بأن رسلهم قد بلغوهم شرائع الله وما قصروا فى ذلك .

اللهم ألهمنا الحق واهدنا سبيل الرشاد وتقبل أعمالنا ، إنك أنت السميع المجيب .

قد انتهى تفسير هـذا الجزء فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وستين وثلثمائة وألف بعد الهجرة بمدينة حلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية ، وفقنا الله لإتمام تفسير كتابه الكريم .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٣	فى الحديث: بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأول وهن من تلادى .
٦	طعن المشركون فى نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم بأمرين
٧	طلب المشركون من النبى صلى الله عليه وسلم آية أخرى غير القرآن .
١١	فضل القرآن .
١٣	كانت الأمم السابقة تعترف بظلمها حين إهلاكها .
١٤	فساد المطاعن التى وجهوها إلى النبى صلى الله عليه وسلم .
١١	السموات والأرض لم تخلقا عبثا فلابد من الحساب والجزاء .
١٩	لو كان فى السموات والأرض إلهان لفسدتا .
٢٠	الكتب السماوية جميعا جاءت بوحدانية الله وطلب عبادته .
٢١	الملائكة عباد مكرمون يسبحون الليل والنهار لايفترون .
٢٤	الأدلة على وجود الله .
٢٩	الدنيا ما خلقت للخلود والدوام .
٣٠	الابتلاء والفتنة تكون بالخير والشر .
٣٢	جبل الإنسان على حب العجلة .
٣٤	تأتى الساعة بغتة وهم لايشعرون .
٣٩	يوم القيامة يدعو المشركون على أنفسهم بالويل والثبور وعظائم الأمور .
٤١	أوصاف المتقين .

الصفحة	المبحث
٤٢	حجاج إبراهيم لأبيه وقومه ودعوتهم إلى التوحيد .
٤٤	احتجاج قومه بالتقليد .
٤٦	كسر إبراهيم عليه السلام للأصنام .
٤٧	رجوع قوم إبراهيم على أنفسهم بالملامة .
٥١	اتفاق قوم إبراهيم على إحراق إبراهيم .
٥٣	النعم التى أفاض الله بها على إبراهيم .
٥٤	النعم التى أسبغها على لوط .
٥٦	ما أنعم الله به على داود وسليمان .
٥٧	قضاء داود وسليمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم .
٥٨	نعم الله على داود عليه السلام .
	نعم الله على سليمان عليه السلام .
٦١	ما أحيطت به قصة أيوب من العجائب والغرائب .
٦٣	نداء يونس عليه السلام لربه فى الظلمات واستجابة الله له .
٦٦	دعاء زكريا ربه واستجابته لدعوته .
٦٨	لبّ الدين عند الله واحد واختلاف الأديان فى التفاصيل .
٧٣	الأصنام وعابدوها فى النار، وحكمة ذلك .
٧٤	أحوال أهل النار وما يلاقونه من الأهوال .
٧٥	ما كتب لأهل السعادة فى الجنة .
٧٦	صلاح الأمة يقوم على أربعة عمد .
٧٨	الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة للعالمين .
٨٣	ما اشتملت عليه سورة الحج من المباحث .
٨٥	أهوال يوم القيامة .
٨٦	ذمّ المجادل بغير علم .

الصفحة	المبحث
٨٨	مراتب الخلق والاستدلال بها على البعث .
٩١	المجادل بلا عقل صحيح ولا نقل صريح .
٩٤	من الناس المذبذب المضطرب فى دينه .
٩٧	إثبات نصر الرسول والمبالغة فى ذلك بما لامزيد عليه .
٩٨	القرآن هاد إلى سواء السبيل .
	الأديان ستة خمسة للشيطان وواحد للرحمن .
٩٩	السجود ضربان اختيارى وتسخيرى .
١٠٠	من يهنه الله فلا مكرم له .
١٠٢	جزاء الكافرين يوم القيامة .
١٠٣	جزاء المؤمنين يومئذ .
١٠٥	جزاء الصادّ عن البيت الحرام .
١٠٦	تأنيب من يصد عنه من المشركين .
١٠٨	سبب الأمر بزيارة البيت الحرام .
١٠٩	ذبح الأنعام وأكلها حلال إلا ما حرم .
١١٠	من أشرك بالله فقد أهلك نفسه وكان كمن سقط من السماء فتخطفه الطير .
١١٢	الذبح و إراقة الدماء قربة لله ليس بخاص بهذه الأمة .
١١٣	علامات المخبتين .
١١٤	الهدايا من شعائر الله ودليل تقواه .
١١٧	وعد الله رسوله والمؤمنين بالنصر على المشركين .
١١٩	تحريض المؤمنين على القتال و بيان أن به انتظام أمر الجماعات .
١٢١	تسلية الرسول على ما يرى من قومه من الأذى .
١٢٤	كان المشركون يستهزئون بالعذاب فيستعجلونه .

الصفحة	المبحث
١٢٥	سنة الله إهلاك الظالمين ولو بعد حين .
١٢٦	وعد الله للمتقين ووعيده للكافرين .
١٢٨	إلقاء المشركين الشبه والأوهام فيما يقرأ من القرآن .
١٢٩	ما يفعله القساوسة والمبشرون الآن فى البلاد الإسلامية .
١٣١	هداية الله لعباده المؤمنين إلى الصراط المستقيم .
١٣٣	المقتول فى سبيل الله والمهاجر إعزازا لدين الله فى الأجر سواء .
١٣٥	الله قدير على نصر عباده المؤمنين .
١٣٦	سابغ نعمه على عباده المؤمنين .
١٣٨	لكل أمة منسك وشريعة خاصة بها .
١٤١	النعى على عبادة الأوثان والأصنام .
١٤٢	لا دليل على صحة عبادة الأصنام من عقل ولا نقل .
١٤٣	كانت إذا تليت آيات القرآن على المشركين ظهر على وجوههم آثار الغيظ والألم .
١٤٥	الأصنام لا تستطيع خلق الذباب ولا تدفع عن نفسها ما يسلب منها .
١٤٧	الجهاد ضروب .
١٤٨	الدين يسر لا عسر .
١٤٩	الرسول صلى الله عليه وسلم شهيد عليكم وأنتم شهداء على الناس .

تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية

بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الثامن عشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الثامن عشر

سورة المؤمنون

هى مكية وقد نزلت بعد سورة الأنبياء ، وعدد آيها ثمانى عشرة ومائة .

وقد روى أن بعض الصحابة قالوا لعائشة : كيف كان خُلُق رسول الله ؟ قالت: كان خلقه القرآن ، ثم قرأت : « قد أفلح المؤمنون - حتى انتهت إلى - والذين هم على صلواتهم يحافظون » هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ووجه المناسبة بينها و بين ما قبلها من وجوه :

(١) إنه تعالى ختم السورة السابقة بخطاب المؤمنين وأمرهم بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة وفعل الخيرات لعلهم يفلحون - وحقق فلاحهم فى بدء هذه السورة .

(٢) إنه تكلم فى كل من السورتين فى النشأة الأولى وجعل ذلك دليلا على البعث والنشور .

(٣) إن فى كل من السورتين قصصا للأنبياء الماضين وأممهم وقد ذكره عبرة للحاضرين .

(٤) إنه نصب فى كل منهما أدلة على وجود الخالق ووحدانيته .

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ
عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ
لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ
غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ
هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩)
أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)

شرح المفردات

الفلاح : الظفر بالمراد ، وأفلح : دخل فى الفلاح ؛ كأبشر دخل فى البشارة ، والمؤمن : هو المصدق بما جاء عن ربه على لسان نبيه من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء ، والخاشع : هو الخاضع المتذلل مع خوف وسكون للجوارح ، واللغو : هُجْر القول وقبيحه ، والزكاة : تزكية النفس وطهارتها بفعل العبادة المالية . والفرج : سوءة الرجل والمرأة ، وحفظه : التعفف عن الحرام ، وابتغى : طلب ، ووراء ذلك : أى غير ذلك ، والعادون : أى المتناهون فى العدوان ومجاوزة الحدود الشرعية ، والأمانات : واحدها أمانة، وهى ما ائتمن المرء عليه من قِبَل الله كالتكاليف الشرعية ، أومن قِبَل الناس كالأموال المودعة لديه والنذور والعقود ونحوها ، والعهد : ما عقده الإنسان على نفسه مما يقرب به إلى ربه، وما أمر به الله كما قال : « الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا » والرعى : الحفظ . والراعى : القائم على الشىء لحفظه وإصلاحه ، يحافظون : أى يواظبون عليها ، والفردوس : أعلى الجنة .

الإيضاح

حكم الله سبحانه بالفلاح لمن كان جامعا لخصال سبع من خصال الخير :

(١) الإيمان (قد أفلح المؤمنون) أى فاز وسعد المصدقون بالله ورسله واليوم الآخر .

(٢) الخشوع فى الصلاة (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) أى الذين هم مخبتون لله أذلاء منقادون له خائفون من عذابه ، روى الحاكم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلى رافعا بصره إلى السماء ، فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره إلى نحو مسجده أى موضع سجوده ، والخشوع واجب على المرء فى الصلاة لوجوه :

(ا) للتدبر فيما يقرأ كما قال : «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» والتدبر لا يكون بدون الوقوف على المعنى كما قال : « وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا » أى لتقف على عجائب أسراره وبديع حكمه وأحكامه .

(ب) لتذكر الله والخوف من وعيده كما قال : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى » .

(ح) إن المصلى يناجى ربه ، والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة ، ومن ثم قالوا : صلاة بلا خشوع جسد بلا روح ، وجمهور العلماء على أن الخشوع ليس شرطا للخروج من عهدة التكليف وأداء الواجب ، وإنما هو شرط لحصول الثواب عند الله وبلوغ رضوانه .

(٣) الإعراض عن اللغو (والذين هم عن اللغو معرضون) أى والذين يعرضون عن كل ما لا يعنيهم وعن كل كلام ساقط حقُّهُ أن يُلغَى كالكذب والهزل والسب ، إذ لهؤلاء من الجد ما يشغلهم ، فهم فى صلاتهم معرضون عن كل شىء إلا عن خالقهم ، وفى خارجها معرضون عن كل ما لا فائدة فيه ، فهم متجهون للجد وصالح العمل ، فهم قد استفادوا من خشوع الصلاة درسا انتفعوا منه بعدها ، وتخلقوا بأخلاق النبيين والصديقين .

(٤) تطهيرهم لأنفسهم بأداء الزكاة (والذين هم للزكاة فاعلون) أى والذين هم لأجل طهارة أنفسهم وتزكيتها يؤدون المفروض للفقير والمسكين كما قال: « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » وقال: « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ».

(٥) حفظ الفرج (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين) أى والذين يحفظون فروجهم فى كافة الأحوال إلا فى حال تزوجهم أو تسرّيهم (قربان الأمة بالملك) فإنهم حينئذ يكونون غير ملومين ، والمراد بهذا الوصف مدحهم بنهاية العفة والإعراض عن الشهوات .

(فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) أى فمن طلب غير أربع من الحرائر وما شاء من الإماء فأولئك هم المتناهون فى العدوان والمتعدّون لحدود الله .

(٦) رعاية الأمانة والعهد (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) أى والذين إذا ائتمنوا لم يخونوا بل يؤدون الأمانة لأهلها ، و إذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوْا بما عاهدوا عليه ، إذ الخيانة وخلف العهد من صفات المنافقين كما جاء فى الحديث: « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، و إذا وعد أخلف ، و إذا ائتمن خان » .

وقصارى ذلك — إنهم يؤدون ما ائتمنوا وعوهدوا عليه من الرب أو العبد كالتكاليف الشرعية والأموال المودعة والعقود التى عاقدوا الناس عليها .

(٧) المحافظة على الصلوات (والذين هم على صلواتهم يحافظون) أى والذين يواظبون عليها على أكمل وجه فى الأوقات التى رسمها الدين ، روى عن ابن مسعود أنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله : أى العمل أحب إلى الله ؟ قال: الصلاة على وقتها ، قلت ثم أىّ ؟ قال برّ الدين، قلت ثم أىّ ؟ قال الجهاد فى سبيل الله » رواه الشيخان .

وقد افتتح سبحانه هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة ، دلالة على عظيم فضلها ، و كبير مناقبها ، وقد ورد فى الحديث : «اعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » .

ولما كان الجزاء فى الآخرة نتيجة للعمل فى الدنيا ، وما فيها من نعيم حصادٌ لما زرع فيها، رتب على ذلك قوله :

(أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) أى أولئك المؤمنون الذين تحلوا بتلك الخلال السامية جديرون بأن يتبوءوا أرفع مراتب الجنات كِفاء ما زينوا به أنفسهم من الأخلاق الفاضلة ، والآداب العالية ، ويبقون خالدين فيها أبدا لايخرجون منها ولا يموتون .

وقصارى ما سلف — إن فلاح المؤمن موقوف على اتصافه بتلك الصفات السامية العالية القدر ، العظيمة الأثر فى حياته الروحية ، وكمالاته النفسية ، روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه دوىٌّ كدوىِّ النحل ، فأنزل عليه يوما فمكث ساعة ثم سرّى عنه فاستقبل القبلة فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرضنا وارض عنا ، ثم قال لقد أنزل علىّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ : قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر » .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) .

شرح المفردات

السلالة : ما سلّ من الشىء واستخرج منه ، وتارة تكون مقصودة كخلاصات الأشياء كالزبد من اللبن ، وتارة تكون غير مقصودة كقلامة الظفر وكُناسة البيت

وقرار : أي مستقر ، مكين : أى متمكن ، والعلقة : الدم الجامد ، والمضغة : قطعة اللحم قدر ما يمضغ ، تبارك الله : أى تعالى وتقدس .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال السعداء المفلحين - قفى على ذلك بذكر مبدئهم ومآل أمرهم وأمر غيرهم من بنى الإنسان ، وفى هذا إعظام للمنة وحث على الاتصاف بحميد الصفات وتحمل مئونة التكاليف ، ثم ذكر أن كل ذلك منته إلى غاية هى يوم القيامة الذى تبعثون وتحاسبون فيه على أعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

الإيضاح

(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) أى ولقد خلقنا أصل هذا النوع وأول أفراده ، وهو آدم عليه السلام من صفوة طين لا كدر فيه .

ويرى جماعة من المفسرين : أن المراد بالإنسان هنا ولد آدم وهم يقولون : إن النطف تتوالد من الدم الحادث من الأغذية وهى إما حيوانية وإما نباتية ، والحيوانية تنتهى إلى نباتية ، والنبات يتوالد من صفو الأرض والماء ، فالإنسان على الحقيقة متوالد من سلالة من طين ، ثم تواردت على تلك السلائل أطوار الخلقة إلى أن صارت نطفا .

(ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) أى ثم جعلنا نسله نطفا فى أصلاب الآباء ، ثم قذفت إلى الأرحام فصارت فى حرز حصين من وقت الحمل إلى حين الولادة .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ » .

(ثم خلقنا النطفة علقة) أى ثم حولنا النطفة من صفتها الثانية إلى صفة العلقة وهى الدم الجامد .

(فخلقنا العلقة مضغة) أى ثم جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أى قطعة لحم بمقدار ما يمضغ .

(فخلقنا المضغة عظاما) أى فصيرناها كذلك ، وميزنا بين أجزائها ، فما كان منها من العناصر الداخلة فى تكوين العظام جعلناه عظاما ، وما كان من مواد اللحم جعلناه لحما ، والمواد الغذائية شاملة لذلك ومنبثة فى الدم ، ومن ثم قال :

(فكسونا العظام لحما) وقد جعل اللحم كسوة لها ، من قبل أنه يستر العظام فأشبه بالكسوة الساترة للجسم .

(ثم أنشأناه خلقا آخر) مباينا للخلق الأول ، إذ نفخنا فيه الروح وجعلناه حيوانا بعد ما كان أشبه بالجماد ، ناطقا سميعا بصيرا وأودعنا فيه من الغرائب ظاهرها وباطنها ما لا يحصى .

وقد قال العلماء : إن جميع أعضاء الإنسان مقسمة تقسيما دقيقا على نسب معينة مقيسة بشبره ، فطوله ثمانية أشبار بشبره ، وإذا مدّ يديه إلى أعلى كان عشرة أشبار بقياسه ، وإذا مد يديه إلى الجانبين كان طولهما كطوله على السواء ، ومن ثم جعل المصريون أصل المقاييس الشبر ، وجعلوا كل ضلع من أضلاع الهرم الأكبر بالجيزة ألف شبر بشبر الإنسان .

(فتبارك الله أحسن الخالقين) أى فتنزه ربنا جلت قدرته ، وهو أحسن المقدرين المصورين .

عن أنس قال : قال عمر « وافقت ربى فى أربع ، قلت يا رسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وقلت يا رسول الله لو اتخذت على نسائك حجابا فإنه يدخل عليك البر والفاجر فأنزل الله « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ » وقلت لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم لتنتهن أو ليبدلنه الله أزواجا خيرا منكن فنزلت « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ » الآية ونزلت « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ - إلى قوله ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فقلت فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت يا عمر أخرجه الطيالسى .

(ثم إنكم بعد ذلك لميتون) أى ثم إنكم بعد النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت .

(ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) من قبوركم للحساب ثم المجازاة بالثواب والعقاب ، إذ يوفى كل عامل جزاء عمله إن خيرا فخير و إن شرا فشر .

وخلاصة ماتقدم — إنه تعالى بعد أن ذكر أنه كلف عباده بما كلف - بين أن هذه التكاليف شكر من الإنسان لربه الذى أنشأه النشأة الأولى وقلّبه فى أطوار مختلفة حتى أوصله إلى طور هو غاية كماله فأصبح قادرا على تكليفه بتلك التكاليف ، ولابد له من طور يستحق فيه الجزاء على ما كلف به وهو طور البعث بعد الموت يوم القيامة .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)

شرح المفردات

الطرائق : السموات واحدها طريقة أى مطروق بعضها فوق بعض ؛ من قولهم طارق بين ثوبين : إذا لبس ثوبا فوق ثوب ، قال الخليل والزجاج : وهذا كقوله « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقًا » وقوله : « اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا » والخلق : أى المخلوقات التى منها السموات السبع ، غافلين : أى مهملين أمرها كما قال : « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه خلق الإنسان فى أطواره المختلفة واستدل بذلك على قدرته وتفرده بالتصرف فى الملك والملكوت - أردفه ببيان ما يحتاج إليه فى بقائه لما فيه من المنافع التى لاغنى له عنها .

الإيضاح

(ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) أى ولقد خلقنا فوقكم سبع سموات بعضها فوق بعض وهى أيضا طرق الكواكب المعروفة عند البشر قديما ، وهناك طرائق أخرى عرفها الناس حديثا :

(وما كنا عن الخلق غافلين) أى وما كنا عن المخلوقات - سواء كانت هذه الطرائق أو غيرها - غافلين عن أمرها ، إذ تسير الكواكب فى تلك الطرائق بحساب منتظم ، ولو أهملناها لاختل توازنها وسار كل كوكب فى غير مداره أو زل نجم عن سنن سيره ، ففسد النظام العام للعالم العلوى والعالم الأرضى .

والخلاصة — إنا خلقنا السموات لمنافعهم ، ولسنا غافلين عن مصالحهم ، بل نفيض عليهم ماتقتضيه الحكمة ، فخلقها دال على كمال قدرتنا ، وتدبير أمرها دال على كمال علمنا .

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (٢٠) .

شرح المفردات

السماء : هنا السحاب ، بقدر : أى بتقدير خاص وهو مقدار كفايتهم ، فأسكناه فى الأرض : أى جعلناه ثابتا قارا فيها ، والذهاب : الإزالة إما بإخراجه من المائية أو بتغويره فى الأرض بحيث لايمكن استخراجه، والشجرة: هى الزيتون، وطورسيناء: هو جبل الطور الذى ناجى فيه موسى ربه ويسمى طور سينين أيضا ، والصبغ : مايصبغ فيه الخبز أى يغمس فيه للائتدام ، قال فى المُغْرب : يقال صبغ الثوب بصِبغ حسن وصباغ حسن ، ومنه الصِّبغ والصباغ من الإدام لأن الخبز يغمس فيه ويلوّن به كالخل والزيت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن من دلائل قدرته خلق الطرائق السبع ـ قفى على ذلك ببيان ما فيها من منافع للإنسان ، فمنها ينزل الماء الذى به تنشأ الجنات من النخيل والأعناب وكثير من أشجار الفاكهة التى تؤكل ، وينبت به شجر الزيتون الذى يؤخذ من ثمره الزيت الذى يتخذ دهنا للأجسام ، وإداما فى الطعام .

الإيضاح

(وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض) أى وأنزلنا من السحاب مطرا بقدر الحاجة ، لاهو بالكثير فيفسد الأرض ، ولا هو بالقليل فلا يكفى الزرع والثمار ، حتى إن الأرضين التى تحتاج إلى ماء كثير لزرعها ولا تحتمل تربتها إنزال المطر عليها يساق إليها الماء من بلاد أخرى كما فى أرض مصر ، ويقال لمثلها (الأرض الجرز) فيساق إليها ماء النيل حاملا معه الطين الأحمر (الغِرْيَن) يجترفه من بلاد الحبشة فى زمن الأمطار فيستقر فيها ويكون سمادا لها ونافعا لزرعها .

وبعض هذا الماء يسكن فى الأرض فيتغذى به ما فيها من الحب والنوى ، ومنه

تتكون الآبار والعيون التى تمر على معادن مختلفة، فتتشكل بأشكالها وتتصف بصفاتها فيكون ماؤها حاويا إما للنوشادر وإما للكبريت وإما للأملاح وهكذا .

(وإنا على ذهاب به لقادرون) أى وإنا على ذهابه وإزالته لقادرون بحيث يتعذر استخراجه، كما كنا قادرين على إنزاله، ولو شئنا ألا يمطر السحاب لفعلنا، ولوشئنا لصرفناه عنكم إلى جهات أخرى لاتستفيد منه كالأرضين السبخة والصحارى، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فى الأرض يغور فيها إلى مدى بعيد لاتصلون إليه ولا تنتفعون به، ولكن بلطفنا ورحمتنا ننزل عليكم الماء العذب الفرات ونسكنه فى الأرض ونسلكه ينابيع فيها لتسقوا به الزرع والثمار وتشربوا منه أنتم ودوابكم وأنعامكم .

(فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب) أى فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء بساتين فيها نخيل وأعناب .

(لكم فيها فواكه كثيرة) أى لكم فى الجنات فواكه كثيرة تتمتعون بها زيادة على ثمرات النخيل والأعناب .

(ومنها تأكلون) أى ومن زروع الجنات وثمارها ترزقون وتحصلون معايشكم، كما يقال فلان يأكل من حرفة يحترفها، ومن تجارة يتربح بها أى إنها طُعمته وجهته التى منها يحصّل رزقه .

(وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين) أى وأنشأنا لكم شجرة الزيتون التى تنبت فى هذا الجبل بتلك البقعة المباركة وتثمر زيتونا تصنع منه الزيوت التى يدّهن بها وتتخذ إداما للآكلين .

وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكرنا سبحانه بنعمة إنزال الماء من السماء الذى ينبت به جنات النخيل والأعناب والفواكه المختلفة والزيتون - أردفها بذكر النعم المختلفة التى سخرها لنا من خلق الحيوان .

الإيضاح

(وإن لكم فى الأنعام لعبرة) أى إن فى خلق الأنعام لعبرة فضلا عن كونها نعمة ، ووجه العبرة فيها أن الدم المتوالد من الأغذية يتحول فى الغدد التى فى الضرع إلى شراب طيب لذيذ الطعم صالح للتغذية، وهذا من أظهر الدلائل على قدرة الخالق لها.

ثم فصل منافعها وذكر منها أربعا فقال :

(١) (نسقيكم مما فى بطونها) فتنتفعون بألبانها على ضروب شتى ، فتتخذون منها القشدة والسمن والجبن ونحوها .

(٢) (ولكم فيها منافع كثيرة) فتأخذون أصوافها وأشعارها وأوبارها ، وتتخذونها ملابس وفرشا للدفء و بيوتا فى الصحارى ونحوها مما يجرى هذا المجرى .

(٣) (ومنها تأكلون) أى وتأكلون منها بعد ذبحها ، فكما انتفعتم بها وهى حية تنتفعون بها بعد الذبح بالأكل .

(٤) (وعليها وعلى الفلك تحملون) أى وتركبون ظهورها وتحملونها الأحمال الثقيلة إلى البلاد النائية كما قال فى آية أخرى : « وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ » وقال : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ؟ » .

وقصارى ذلك — إن فى خلق الأنعام عبرا ونعما من وجوه شتى ، ففيه دلائل

على قدرة الخالق بخلق الألبان من مصادر هى أبعد ما تكون منها - ونعما لنا فى مرافقها وأعيانها، فننتفع بألبانها وأصوافها ولحومها ونجملها مطايا لنا فى أسفارنا إلى نحو أولئك من شتى المنافع.

قصة نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ، أَفَلَا تَتَّقُونَ؟ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ: مَا هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً، مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ، وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠).

شرح المفردات

الملأ: أشراف القوم، يتفضل: أي يدعى الفضل والسيادة، جنة: أي جنون، فتربصوا: أي انتظروا، بأعيننا: أي بحفظنا ورعايتنا، وفار: نبع، والتنور: وجه

الأرض ، استويت : أى علوت ، لآيات : أى عبرا ، لمبتلين : أى لمختبرين ممتحنين لهم : أى لمعامليهم معاملة من يُختبر .

المعنى الجملى

بعد أن عدّد سبحانه ما أنعم به على عباده فى نشأتهم الأولى وفى خلق الماء لهم لينتفعوا به ، وفى خلق الحيوان كذلك ـ ذكر هنا أن كثيرا من الأمم قد أهملوا التدبر والاعتبار فى هذا ، فكفروا بهذه النعم وجهلوا قدر المنعم بها وعبدوا غيره ، وكذبوا رسله الذين أرسلوا إليهم فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وأهلكهم الله بعذاب من عنده فأصبحوا كأمس الدابر ، والمثل السائر ، وفى هذا تخويف لقريش وإنذار لهم على مايفعلون، وأنه سيحل بهم ماداموا على تكذيب رسولهم والكفر به مثل ماحل بمن قبلهم .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أى ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه منذرا لهم عذاب الله وشديد بأسه وانتقامه على إشراكهم به وتكذيب رسوله ، فقال لهم متعطفا عليهم مستميلا لهم لقبول الحق : ياقوم اعبدوا الله وحده وأطيعوه ولا تشركوا معه ربا سواه ، فإنه لارب لكم غيره ولا معبود سواه .

(أفلا تتقون ؟) أى أفلا تخشون عقاب الله فتحذروا أن تعبدوا معه سواه ؟ .

(فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم) أى فقال أشراف قومه ورؤساؤهم من العريقين فى الكفر ومن ذوى الكلمة المسموعة والرأى المطاع : ما نوح إلا رجل منكم ليس له مِيزة عليكم فى فضل ولا خلق فيكون أهلا للنبوة وتلقى الوحى من ربه ، وما هو إلا رجل يريد أن يسودكم ويكون

ويكون له الصَّوْلة والسلطان عليكم ، وقد ادعى الرسالة ليصل إلى ما تصبو إليه نفسه وليس له من حقيقتها شىء .

وبعد أن بينوا أن لامقتضى لاختصاصه بالنبوة ذكروا الموانع التى تحول بينه وبينها فذكروا أمورا ثلاثة :

(١) (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) أى ولو شاء الله ألا نعبد سواه لأرسل بالدعاء إلى ما يدعوكم إليه نوح ملائكة تؤدى إليكم رسالته .

(٢) (ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) أى ما سمعنا فى القرون الغابرة عهود الآباء والأجداد بمثل هذا الذى يدعو إليه نوح من أنه لا إله إلا إله واحد لاربّ غيره ولامعبود سواه .

وفى هذا إيماء إلى أنهم قوم لا رأى لهم ، وإنما يعولون على التقليد وقول الآباء والأجداد ، فلما لم يجدوا عن آبائهم شيئا مثل هذا أنكروا نبوّته ، وفيه إشارة أيضا إلى أنهم قد بلغوا الغاية فى العناد والتكذيب والانهماك فى الغى والضلال .

(٣) (إن هو إلا رجل به جنة) أى وما نوح إلا رجل به خَبَل فى عقله ، فزاعمه لاتصدر إلا من رجل لايزن قوله، ولا يدعم رأيه بالحجة الناصعة ، فلا يلتفت إذا إلى ما يدعى ، ولا ينبغى أن نضيع الوقت فى محاجته ، ودحض مزاعمه ، فى صدق دعوته .

وبعد أن ذكروا موانع نبوّته ذكروا الطريقة المثلى فى إبطال دعوته فقالوا :

(فتربصوا به حتى حين) أى فتلبثوا وانتظروا لعله يضيق مما هو فيه فيعود سيرته الأولى ويرجع من تلقاء نفسه إلى دينكم ودين آبائكم وأجدادكم .

وهذا من مكابراتهم لفرط عنادهم إذ هم يعلمون أنه أرجح الناس عقلا وأرزنهم قولا .

ولم يردّ سبحانه على هذه الشبه لسخافتها ووضوح فسادها ، إذ كل عاقل يعلم أن الرسول يتميز من غيره بالمعجزات التى تأتى على يديه سواء أكان ملكا أم بشرا ،

وإرادته التفضل عليهم إن كانت لأجل أن يستبين فضله حتى ينقادوا له فلا ضير فى ذلك بل هو واجب ، وإن أرادوا أنه يبغى التجبر عليهم فالأنبياء منزهون عن ذلك ، وقولهم : ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين، اعتناق للتقليد وهو لا يصلح حجة تدفع بها حجج المعارضين الواضحة وضوح الشمس فى رائعة النهار ، وقولهم : به جنة كذب صراح ، لأنهم يعلمون ذكَنه وعظيم فطنته وما أوتيه من أصالة الرأى وثاقب الفكر.

ولما استبان لنوح إصرارهم على ضلالهم وتماديهم فى غيهم ويأسه من إيمانهم وأوحى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن - طلب إلى ربه أن ينصره عليهم :

(قال رب انصرنى بما كذبون) أى قال رب انصرنى بانجاز ما أوعدتهم به من العذاب بقولى « إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » .

ونحو الآية قوله : « فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ » وقوله : « رَبِّ لَاتَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً » .

وقد أجاب الله دعاءه فقال :

(فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا) أى فقلنا له حين استنصرنا على كفرة قومه : اصنع السفينة بحفظنا ورعايتنا لك من التعدى عليك وتعليمنا إياك كيفية صنعها .

(فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم) أى فإذا جاء قضاؤنا فى قومك بعذابهم وهلاكهم ونبع الماء من وجه الأرض - فأدخل فيها من كل طائفة من الحيوان فردين مزدوجين كناقة وجمل وحصان ورَمَكَة ، وأدخل ولدك ونساءهم إلا من سبق عليه القول من الله بأنه هالك فيمن يهلك فلا تحمله معك وهو كنعان وأمه .

(ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) أى ولا تسألنى أن أنجى الذين كفروا بالله من الغرق . فإن كلمتى قد حقت عليهم أجمعين .

ثم أمره بحمده والثناء عليه إذا هو استوى على الفلك فقال :

(فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) أى فإذا اطمأننت فى السفينة أنت ومن معك ممن حملته من أهلك ، فقل الحمد لله الذى نجانا من هؤلاء المشركين الظلمة .

وفى هذا إيماء إلى أنه لاينبغى المسرة بمصيبة أحد ولو عدوا إلا إذا اشتملت على دفع ضرره أو تطهير الأرض من دنس شركه وإضلاله .

قال ابن عباس : كان فى السفينة ثمانون إنسانا نوح وامرأته غير التى غرقت وثلاثة بنين سام وحام ويافث وثلاث نسوة لهم واثنان وسبعون إنسانا ، وكل الخلائق من نسل من كان فى السفينة .

ثم أمر نوح أن يدعو ربه حين خروجه من السفينة .

(وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) أى وقل إذا سلمت وخرجت من السفينة : رب أنزلنى من الأرض منزلا مباركا وأنت خير من أنزل عباده المنازل .

قال قتادة : علمكم الله أن تقولوا حين ركوب السفينة : « بِاسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » وحين ركوب الدابة : « سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ » وحين النزول : «وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» .

(إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين) أى إن فيما فعلنا بقوم نوح من إهلاكهم إذ كذبوا رسولنا وجحدوا وحدانيتنا وعبدوا الآلهة والأصنام - لعبرا لقومك من مشركى قريش ، وحججا لنا عليهم يستدلون بها على سنننا فى أمثالهم فينزجرون عن كفرهم ، ويرتدون عن تكذيبهم حذر أن يصيبهم مثل الذى أصاب من قبلهم من العذاب ، وقد كنا مُخْتَبِرِيهم بالتذكير بهذه الآيات لننظر ماذا يفعلون قبل أن ننزل بهم عقوبتنا .

ونحو الآية قوله : « وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » وقد تقدم هذا القصص بتفصيل فى سورة هود عليه السلام .

قصة هود عليه السلام

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا : مَا هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ، فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) .

شرح المفردات

القرن : الأمة ، والمراد بهم عاد قوم هود لقوله تعالى فى سورة الأعراف : « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ » أترفناهم : أى وسعنا عليهم وجعلناهم فى ترف ونعيم ، لخاسرون : أى لمغبونون فى آرائكم إذ أنكم أذللتم أنفسكم

لعبادة من هو دونكم ، هيهات : أي بعد ، ما توعدون : هو البعث والحساب ، بمؤمنين : أى بمصدقين ، عما قليل : أى بعد زمان قليل ، ليصبحنّ : أى ليصيرنّ ، والصيحة : العذاب الشديد كما قال :

صاح الزمان بآل برمك صيحة		خرّوا لشدتها على الأذقان

والغثاء : ما يحمله السيل من الورق والعيدان البالية التى لاينتفع بها ، بعدا : أى هلاكا .

الإيضاح

(ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين . فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟) أى ثم أوجدنا من بعد مهلك قوم نوح قوما آخرين وهم عاد فأرسلنا فيهم رسولا منهم ، وهو هود عليه السلام داعيا لهم قائلا : ياقوم اعبدوا الله وأطيعوه دون الأوثان والأصنام ، فإن العبادة لاتنبغى إلا له ولا تصلح لسواه ، أفلا تخافون عقابه بعبادتكم غيره من وثن أو صنم ؟ .

(قال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) أى وقال أشراف قومه الذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا بالبعث والحساب ، وقد وسعنا عليهم فى الحياة الدنيا بما بسطنا لهم من الرزق حتى بطروا وعتوا وكفروا بربهم : ما هود إلا بشر مثلكم لاميزة له عنكم، فهو يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون، ومرادهم بذلك توهين أمره وتحقير شأنه .

(ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذًا لخاسرون) أى ولئن أطعتم بشرا مثلكم فاتبعتموه وقبلتم ما يقول : إنكم إذًا لمغبونون حظوظكم من الشرف والرفعة فى الدنيا.

ثم بينوا سبب إنكارهم لاتباعه واستبعادهم وقوع مايدعيه بقولهم :

(أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) أى أيعدكم أنكم مخرجون من قبوركم أحياء كما كنتم أولا إذا متم وكنتم ترابا فى القبور بعد أن تذهب لحومكم وتبقى عظامكم .

(هيهات هيهات لما توعدون) أى بعيد ما توعدون أيها القوم من أنكم بعد موتكم ومصيركم ترابا وعظاما تخرجون من قبوركم للبعث والحساب ثم الجزاء على ما تعملون .

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم :

(إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) أى ما حياة إلا هذه الحياة فى الدنيا ، تموت الأحياء منا فلا تحيا ، ويحدث آخرون منا ويولدون ، وما نحن بمبعوثين بعد الموت ، إنما مثلنا مثل الزرع يحصد هذا وينبت ذاك .

والخلاصة — إنه يموت منا من هو موجود وينشأ آخرون بعدهم .

وبعد أن كان أمرهم معه مقصورا على الاستبعاد فحسب ، جاهروا بتكذيبه فيما يدعى فقالوا :

(إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين) أى ما هود إلا رجل يختلق الكذب على الله ، فتارة يقول : مالكم من إله غير الله خالق السموات والأرض ، وأخرى يقول : إنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما إنكم مخرجون ، وما نحن بمصدقيه فيما يدعى ويزعم من التوحيد والبعث .

ولما يئس هود من إيمانهم بعد ذكر هذه المقالة « وما نحن له بمؤمنين » فزع إلى ربه .

(قال رب انصرنى بما كذبون) أى قال بعد أن يئس من إيمانهم وقد سلك فى دعوتهم كل مسلك ، متضرعا إلى ربه : رب انصرنى عليهم وانتقم لى منهم بتكذيبهم إياى فيما دعوتهم إليه من الحق وإصرارهم على الباطل .

فأجابه ربه إلى ما سأل .

(قال عما قليل ليصبحن نادمين) أى قال تعالى مجيبا دعاءه : ليصيرنّ مكذبوك بعد زمن قليل نادمين على ما فعلوا ، وستحل بهم نقمتنا ولا ينفعهم الندم حينئذ .

ثم أخبر أنه أنجز وعيده فيهم فقال :

(فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء) أى فسلطنا عليهم نقمتنا فأخذهم العذاب الذى لا قِبَل لهم به ، وقد كانوا لمثله مستحقين ، بسبب كفرهم وتكذيبهم رسوله ، فجعلناهم كغثاء السيل ، لاغناء فيهم ، ولا فائدة ترجى منهم .

(فبعدا للقوم الظالمين) أى فأبعد الله القوم الكافرين بهلاكهم ، إذ كفروا بربهم وعصوا رسوله وظلموا أنفسهم .

وفى هذا من الذلة والمهانة لهم والاستخفاف بأمرهم مالا يخفى ، وأن الذى ينزل بهم فى الآخرة من البعد من النعيم والثواب أعظم مما حل بهم من العقاب فى الدنيا، وفيه عظيم العبرة لمن بعدهم ممن هم عرضة لمثله .

قصص صالح ولوط وشعيب وغيرهم

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ، كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ، فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤) .

شرح المفردات

تترى ، من المواترة : وهى التتابع بين الأشياء مع فترة ومهلة بينها قاله الأصمعى .
أحاديث : واحدها أحدوثة، وهى مايتحدث به تعجبا منه وتلهيا به، وقدجمعت العرب

ألفاظا على أفاعيل كأباطيل وأقاطيع ، وقال الزمخشرى : الأحاديث اسم جمع للحديث ومنه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الجمهور على أنه جمع كما علمت .

الإيضاح

(ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) أى ثم أنشأنا من بعد هلاك عاد أقواما آخرين كقوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم .

(ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) أى ما تتقدم أمة من تلك الأمم المهلكة ، الوقت الذى قدر لهلاكهم وما يستأخرون عنه .

والخلاصة — ما تهلك أمة قبل مجىء أجلها ولا بعده ، فلكل شىء ميقات لا يعدوه .

(ثم أرسلنا رسلنا تترى) أى ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين وقد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولا خاصا به ، بعضهم فى إثر بعض .

(كلما جاء أمة رسولها كذبوه) أى كلما بلغهم الرسول ما جاء به من عند ربه من الشرائع والأحكام كذبوه ، كما فعل قومك بك حين أمرتهم بذلك .

(فأتبعنا بعضهم بعضا) أى فأهلكنا بعضهم فى إثر بعض حين تألبوا على رسلهم وكذبوهم .

(وجعلناهم أحاديث) يتحدث بها الناس ويتلهون بذكرها .

ونحو الآية قوله : « فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ » .

ولما ترتب على تكذيبهم الهلاك المقتضى لبعدهم قال :

(فبعدا لقوم لا يؤمنون) أى فأبعد الله قوما لا يؤمنون به ولا يصدقون برسوله .

قصة موسى وهرون عليهما السلام

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ

لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) .

شرح المفردات

الآيات : هى الآيات التسع التى سبقت فى سورة الأعراف ، والسلطان : الحجة عالين : أى متكبرين ، عابدون : أى خدم منقادون ، قال أبو عبيدة : العرب تسمى كل من دان للملك عابدا، وقال المبرد: العابد : المطيع الخاضع ، الكتاب : هو التوراة.

الإيضاح

(ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين. إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين) أى ثم أرسلنا بعد الرسل الذين قد تقدم ذكرهم من قبل ـ موسى وأخاه هرون إلى فرعون وأشراف قومه من القبط بالآيات والحجج الدامغة ، والبراهين القاطعة ، فاستكبروا عن اتباعهما والانقياد لما أمروا به ودعوا إليه من الإيمان وترك تعذيب بنى إسرائيل كما جاء فى سورة النازعات : «اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى » وقد كان من دأبهم العتوّ والبغى على الناس وظلمهم كبرا وعلوا فى الأرض .

ثم ذكر ما استتبعه هذا العتو والجبروت .

(فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ؟) أى فقال فرعون وملؤه : كيف ندين لموسى وأخيه ، و بنو إسرائيل قومهما خدمنا وعبيدنا يخضعون لنا ويتلقون أوامرنا .

وما قصدوا بهذا إلا الزراية بهما والحط من قدرهما ، و بيان أن مثلهما غير جدير بمنصب الرسالة ، وقد قاسوا الشرف الدينى والإمامة فى تبليغ الوحى عن الله بالرياسة الدنيوية المبنية على نيل الجاه والمال .

وهم فى هذا أشبه بقريش إذ قالوا : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » وقد فاتهم أن مدار أمر النبوة والاصطفاء للرسالة إنما هو السبق فى الفضائل النفسية والصفات السنية التى يتفضل الله بها على من يشاء من عباده ، فالأنبياء لصفاء نفوسهم يتصلون بالعالم العلوى وعالم المادة فيتلقون الوحى من الملأ الأعلى و يبلغونه إلى البشر ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل والانقطاع إلى حضرة الحق .

و إن تعجب من شىء فاعجب لهؤلاء وأمثالهم ممن لم يرض النبوة للبشر ، كيف سوغت لهم أنفسهم ادعاء الألوهية للحجر : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » .

ثم ذكر عاقبة أعمالهم وما آل إليه أمرهم فقال :

(فكذبوهما فكانوا من المهلكين) أى فأصر فرعون وملؤه على تكذيب موسى وهرون فأهلكهم الله بالغرق فى بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) كما أهلك من قبلهم من الأمم بتكذيبهم لرسلهم .

ثم ذكر ما أولاه موسى بعد هلاكهم من التشريف والتكريم فقال :

(ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون) أى ولقد أنزلنا على موسى التوراة وفيها الأحكام من الأوامر والنواهى بعد أن أهلكنا فرعون وملأه وأخذناهم أخذ عزيز مقتدر رجاء أن يهتدى بها قومه إلى الحق و يعملوا بما فيها من الشرائع .

قصص عيسى عليه السلام إجمالا

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) .

شرح المفردات

الآية : الحجة والبرهان ، وآويناهما : أى جعلنا مأواهما ومنزلهما الربوة وهى ما ارتفع من الأرض دون الجبل ، ذات قرار : أى ذات استقرار للناس لما فيها من الزرع والثمار ، ومعين : أى ماء جار .

الإيضاح

(وجعلنا ابن مريم وأمه آية) أى جعلنا عيسى آية للناس دالة على عظيم قدرتنا وبديع صنعنا إذ خلقناه من غير أب وأنطقناه فى المهد وأجرينا على يديه إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، وجعلنا أمه آية إذ حملته من غير أب .

وجعلهما آية واحدة ، لأنهما اشتركا فى هـذا الأمر العجيب الخارق للعادة وهو الولادة بلا أب .

ونحو الآية قوله : « وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ » .

(وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) أى وجعلناهما ينزلان بمرتفع من الأرض ذى ثمار وماء جار كثير .

قال قتادة : الربوة : بيت المقدس ، وقال مقاتل والضحاك : هى غُوطة دمشق إذ هى ذات الثمار والماء .

يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) .

شرح المفردات

الطيبات : ما يستطاب و يستلذ من المآكل والفواكه ، أمتكم : أى ملتكم وشريعتكم ، فتقطعوا : أى قطعوا ومزقوا ، أمرهم : أى أمر دينهم ، زبرا : أى قطعا واحدها زبور ، فذرهم : أى فدعهم واتركهم ، وأصل الغمرة الماء الذى يغمر القامة ويسترها والمراد بها الجهالة ، حتى حين : أى إلى أن يموتوا فيستحقوا العذاب ، نمدهم : أى نعطيه مددا لهم .

المعنى الجملى

بعد أن قص سبحانه علينا قصص بعض الأنبياء السالفين ـ عقّب هذا ببيان أنه أوصاهم جميعا بأن يأكلوا من الحلال ، و يعملوا صالح الأعمال ، كِفاء ما أنعم به عليهم من النعم العظيمة والمزايا الجليلة التى لا يقدر قدرها ، ثم حذرهم وأنذرهم بأنه عليم بكل أعمالهم ظاهرها و باطنها ، لا تخفى عليه من أمورهم خافية ، ثم أرشدهم إلى أن الدين الحق واحد لا تعدد فيه ولـكن الأمم قد فرقت دينها شيعا ، وكل أمة فرحة مسرورة بما تدين به كما هى حال قريش ، ثم خاطب رسوله بأن يتركهم وما يعتقدون إلى حين ، ثم ذكر أنهم فى عماية حين ظنوا أن ما أوتوه من النعم هو حُظْوة من ربهم لهم ـ كلا ، فهم لا يشعرون بحقيقة أمرهم وعاقبة حالهم ، ولو عقلوا لعلموا أنهم فى سكرتهم يعمهون .

الإيضاح

(يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) أمر الله كل نبى فى زمانه بأن يأكل من المال الحلال ما لذ وطاب ، وأن يعمل صالح الأعمال ، ليكون ذلك كفاء ما أنعم به عليه من النعم الظاهرة والباطنة .

وهذا الأمر وإن كان موجها إلى الأنبياء فإن أممهم تبع لهم ، وكأنه يقول لنا :

أيها المسلمون فى جميع الأقطار، كلوا من الطيبات أى من الحلال الصافى القوّام ـ الحلال ما لايعصى الله فيه، والصافى ما لاينسى الله فيه، والقوّام ما يمسك النفس ويحفظ العقل ـ واعملوا صالح الأعمال.

أخرج أحمد وابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم عن أم عبد الله أخت شداد ابن أوس رضى الله عنها أنها بعثت إلى النبى صلى الله عليه وسلم بقدح لبن حين فطره وهو صائم، فرد إليها رسولها وقال: من أين لك هذا؟ فقالت من شاة لى، ثم رده وقال: من أين هذه الشاة؟ فقالت اشتريتها بمالى فأخذه، فلما كان من الغد أمّته وقالت يا رسول الله: لم رددت اللبن؟ فقال صلى الله عليه وسلم: أمرت الرسل ألا يأكلوا إلا طيبا ولا يعملوا إلا صالحا.

وأخرج مسلم والترمذى وغيرهما عن أبى هريرة قال: قال صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس! إن الله تعالى طيب لايقبل إلا طيبا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» وقال «يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذّى بالحرام يمد يديه إلى السماء يارب يارب فأنّى يستجاب له»؟

وفى تقديم أكل الطيبات على العمل الصالح إيماء إلى أن العمل الصالح لايتقبل إلا إذا سبق بأكل المال الحلال.

وجاء فى بعض الأخبار «إن الله تعالى لايقبل عبادة مَن فى جوفه لقمة من حرام» وصح أيضاً «أيما لحم نبت من سحت فالنار أولى به».

ثم علل هذا الأمر بقوله:

(إنى بما تعملون عليم) أى إنى بأعمالكم عليم لايخفى على شىء منها، وأنا مجازيكم بجميعها، وموفيكم أجوركم وثوابكم عليها، فخذوا فى صالح الأعمال واجتهدوا قدر طاقتكم فيها، شكرا لربكم على ما أنعم به عليكم.

وفى هذا تحذير من مخالفتهم ما أمروا به ، و إذا قيل للأنبياء ذلك فما أجدر أممهم أن تأخذ حذرها ، وترعوى عن غيها ، وتخشى بأس الله وشديد عقابه :

(وإن هذه أمتكم أمة واحدة) أى و إن دينكم معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة ، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لاشريك له ـ واختلاف الشرائع والأحكام على حسب اختلاف الأزمان والأحوال لايسمى اختلافا فى الدين ، لأن الأصول واحدة .

(وأنا ربكم فاعبدون) أى و إنى أنا ربكم لا شريك لى فى الربوبية فاحذروا عقابى وخافوا عذابى .

وفى هذا إيماء إلى أن دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله واتقاء معاصيه .

ثم بين أن أمم أولئك الرسل خالفوا أمر رسلهم واتبعوا أهواءهم وجعلوا دينهم فرقا وشيعا فقال :

(فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون) أى فتفرق أتباع الأنبياء فرقا وجماعات ، وأصبح كل فريق معجبا بنفسه ، فرحا بما عنده ، معتقداً أنه الحق الذى لامعْدِل عنه .

فيا أتباع الأنبياء . أين عقولكم ؟ إن الله أرسل إليكم رسلا فجعلتموهم محل الشقاق ومثار النزاع ، لم هذا ؟ هل اختلاف الشرائع مع اتحاد الأصول والعقائد ينافى المودة والمحبة ؟ وأين أنتم يا أتباع محمد ؟ مالكم كيف تفرقتم أحزابا ؟ هل اختلاف المذاهب كشافعية ومالكية وزيدية وشيعة يفرق العقيدة ؟ وكيف يكون هذا سبب التفرقة ؟ فهل تغير الدين ؟ وهل تغير القرآن ؟ وهل تغيرت القبلة ؟ وهل حدث إشراك ؟ كلا كلا ، فإذا كان العيب قد لحق الأمم المختلفة على تنابذها ، فما أجدركم أن يلحقكم الذم على تنابذكم وأنتم أهل دين واحد .

ولا علة لهذا إلا الجهالة الجهلاء ، فقد خيم الجهل فوق ربوعكم ومدت طنبه بين ظهرانيكم ، لأنكم فرطتم فى كتاب ربكم ؛ ظننتم أن أسس الدين هى مسائل

العبادات والأحكام، وتركتم الأخلاق وراءكم ظهريا، وتركتم آيات التوحيد والنظر فى الأكوان، ولو أنكم نظرتم إلى شىء من هذا لعلمتم أن كل ذلك من دينكم وأنتم عنه غافلون.

وبعد أن ذكر سبحانه ما حدث من أمم أولئك الأنبياء من التفرّق والانقسام فيما كان يجب عليهم فيه اتفاق الكلمة، ومن فرحهم بما فعلوا - أمر نبيه أن يتركهم فى جهلهم الذى لاجهل فوقه، لأنه لاينجع فيهم النصح ولا يجدى فيهم الإرشاد فقال:

(فذرهم فى غمرتهم حتى حين) أى فذرهم فى غيهم وضلالهم إلى حين يرون العذاب رأى العين.

ونحو الآية قوله: « فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا » وقوله: « ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ».

وقد جُعلوا فى غمرة تشبيها لحالهم حين ستر الجهل والحيرة عقولهم بحال من غمره الماء وغطاه.

ثم بين خطأهم فيما يظنون من أن سعة الرزق فى الدنيا علامة رضا الله عنهم فى الآخرة فقال:

(أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون) أى أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد، كرامة لهم علينا وإجلالا لأقدارهم عندنا - كلا، إن هذا الإمداد ليس إلا استدراجا فى المعاصى، واستجراراً لهم فى زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعة فى الخيرات، إذهم أشبه بالبهائم لافطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا فى أنه - استدراج هو أم مسارعة فى الخيرات؟

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم: « وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » وقوله: « فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقوله: « إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ».

قال قتادة فى تفسير الآية : مكر الله بالقوم فى أموالهم وأولادهم . يابن آدم لا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا من أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذى نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ، قالوا وما بوائقه يارسول الله ؟ قال غشه وظلمه » .

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) .

شرح المفردات

الخشية : الخوف من العقاب ، والإشفاق نهاية الخوف والمراد لازمه ، وهو دوام الطاعة ، والآيات : هى الآيات الكونية فى الأنفس والآفاق والآيات المنزلة ، وجلة : أى خائفة ، سابقون : أى ظافرون بنيلها .

المعنى الجملى

بعد أن ذم سبحانه من فرقوا دينهم شيعا وفرحوا بما عملوا وظنوا أن ما نالوه من حظوظ الدنيا هو وسيلة لنيل الثواب فى الآخرة ، و بين أنهم واهمون فيما حسبوا ـ قفى على ذلك بذكر صفات من له المسارعة فى الخيرات ومن هو جدير بها .

الإيضاح

(إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) أى إن الذين هم من خوفهم من عذاب ربهم دائبون فى طاعته ، جادون فى نيل مرضاته ، فهم فى نهاية الخوف من سخطه عاجلا ومن عذابه آجلا ، ومن ثم يبتعدون عن الآثام والمعاصى .

(والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) أى والذين هم بآيات ربهم الكونية التى نصبها فى الأنفس والآفاق دلالة على وجوده ووحدانيته ، وبآياته المنزلة على رسله مصدقون موقنون لا يعتريهم شك ولا ريب .

(والذين هم بربهم لا يشركون) أى والذين لا يعبدون مع الله سواه ، ويعلمون أنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى ليس له صاحبة ولا ولد .

وفيما سبق وصف لله بتوحيد الربوبية ، وهنا وصف له بتوحيد الألوهية ، ولم يقتصر على الأول ، لأن كثيراً من المشركين يعترفون بتوحيد الربوبية كما قال : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » ولا يعترفون بتوحيد الألوهية والعبادة ، ومن ثم عبدوا الأصنام والأوثان على طرائق شتى ، وعبدوا معبودات مختلفة .

(والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) أى والذين يعطون ما أعطوا ويتصدقون بما تصدقوا ، وقلوبهم خائفة ألا يتقبل ذلك منهم وألا يقع على الوجه المرضى حين يبعثون ويرجعون إلى ربهم وتنكشف الحقائق ويحتاج العبد إلى عمل مقبول لديه وإن قل « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

ويدخل فى قوله : (يؤتون ما آتوا) كل حق يلزم إيتاؤه ، سواء أكان من حقوق الله كالزكاة والكفارة وغيرها أم من حقوق العباد كالودائع والديون والعدل بين الناس ، فمتى فعلوا ذلك (وقلوبهم وجلة من التقصير والإخلال بها بنقصان أو غيره) اجتهدوا فى أن يوفوها حقها حين الأداء .

وسألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) أهو الذى يزنى ويشرب الخمر ، ويسرق وهو على ذلك يخاف الله تعالى ؟ فقال لا يابنة الصديق ، ولكن هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يقبل ذلك منه .

(أولئك يسارعون فى الخيرات) أى أولئك الذين جمعوا هذه المحاسن يرغبون فى الطاعات أشد الرغبة ، فيبادرونها لئلا تفوتهم إذا هم ماتوا ، ويتعجلون فى الدنيا وجوه الخيرات العاجلة التى وعدوا بها على الأعمال الصالحة فى نحو قوله : « فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ » وقوله : « وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » .

(وهم لها سابقون) أى إنهم يرغبون فى الطاعات وهم لأجلها سابقون الناس إلى الثواب ، لا أولئك الذين أمددناهم بالمال والبنين فظنوا غير الحق أن ذلك إكرام منا لهم ، فإن إعطاء المال والبنين والإمداد بهما لا يؤهل للمسارعة إلى الخيرات ، وإنما الذى يؤهل للخيرات هو خشية الله وعدم الإشراك به وعدم الرياء فى العمل والتصديق مع الخوف منه .

ومعنى (هم لها) أنهم معدّون لفعل مثلها من الأمور العظيمة ، كقولك لمن يطلب منه حاجة لا ترجى من غيره ـ أنت لها ـ وعلى هذا قوله :

مشكلات أعضلت ودهت يا رسول الله أنت لها

وخلاصة ذلك — إن النعم ليست هى السعادة الدنيوية ونيل الحظوظ فيها ، بل هى العمل الطيب بإيتاء الصدقات ونحوها مع إحاطة ذلك بالخوف والخشية .

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) .

شرح المفردات

الوسع : مايتسع على الإنسان فعله ولا يضيق عليه ، والـكتاب : هو صحائف الأعمال ، بالحق : أى بالصدق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه صفات المؤمنين المخلصين الذين يسارعون إلى الخيرات ـ أرشد إلى أن ما كلفوا به سهل يسير لايخرج عن حد الوسع والطاقة ، وأنه مهما قلّ فهو محفوظ عنده فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى ، وهو لايظلم أحدا من خلقه ، بل يجزى بقدر العمل وبمـا نطقت به الصحف على وجه الحق والعدل .

الإيضاح

(ولا نكلف نفسا إلا وسعها) أى إن سنتنا جارية على ألا نكلف نفسا إلا مافى وسعها وقدر طاقتها ، ومن ثم قال مقاتل : من لم يستطع القيام فى الصلاة فليصلّ قاعدا ، ومن لم يستطع القعود فليوم إيمـاء .

(ولدينا كتاب ينطق بالحق) أى ولدينا صحائف أعمالهم يقرءونها حين الحساب وتظهر فيها أعمالهم التى عملوها فى الدنيا دون لبس ولا ريب ، ويجازون على الجليل منها والحقير، والقليل والـكثير .

ونحو الآية قوله : « هٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » وقوله : « لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا » .

ثم بين فضله على عباده وعدله بينهم فى الجزاء إثر بيان لطفه فى التكليف وكتابة الأعمال على ماهى عليه فقال :

(وهم لايظلمون) أى وهم لايظلمون فى الجزاء بنقص ثواب أو زيادة عذاب ، بل يجازون بمـا عملوا ونطقت به كتبهم بالعدل والحق .

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا
عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤)
لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى
عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ
سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ
الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ
بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ
الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ
بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ
رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
(٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ
رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ
أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا
فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) .

شرح المفردات

الغمرة : الغفلة والجهالة ، من دون ذلك : أى غير ذلك ، والمترف : المتوسع في النعمة ، وجأر الرجل : صاح ورفع صوته ، لاتنصرون : أى لايجيركم أحد ولا ينصركم ، تنكصون : أى تعرضون عن سماعها ، وأصل النكوص : الرجوع على

الأعقاب (العقب مؤخر الرِّجْل) ورجوع الشخص على عقبه : رجوعه فى طريقه الأولى كما يقال رجع عوده على بدئه ، سامرا : أى تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه ، والهُجْر (بالضم) الهذيان ، والجِنة: الجنون ، والذكر : القرآن الذى هو فخرهم ، عن ذكرهم : أى فخرهم ، خرجا : أى جُعْلا وأجرا ، صراط مستقيم : أى طريق لاعوج فيه، لناكبون : أى عادلون عن طريق الرشاد، يقال نكب عن الطريق: إذا زاغ عنه ، لجّ فى الأمر : تمادى فيه ، يعمهون : أى يتحيرون ويترددون فى الضلال ، واستكانوا : خضعوا وذلوا ، وما يتضرعون : أى يجددون التضرع والخضوع ، مبلسون : أى متحيرون آيسون من كل خير .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه سجاحة هذا الدين وأنه دين يسر لاعسر فلا يكلف النفس إلا ماتطيق ، وأن مايعمله المرء فهو محفوظ فى كتاب لايبخس منه شيئا ولا يزاد له فيه شىء - أردف هذا ببيان أن المشركين فى غفلة عن هذا الذى بين فى القرآن ولهم أعمال سوء أخرى من فنون الكفر والمعاصى كطعنهم فى القرآن واستهزائهم بالنبى صلى الله عليه وسلم وإيذائهم للمؤمنين ، فإذا حل بهم بأسنا يوم القيامة جأروا واستغاثوا فقلنا لهم لافائدة فيما تعملون ، فقد جاءتكم الآيات والنذر فأعرضتم عنها واتخذتموها هزوا تسمرون بها فى البيت الحرام وقد كان من حقكم أن تتدبروا القرآن لتعلموا أنه الحق من ربكم ، وأن مجىء الكتب إلى الرسل سنة قديمة فكيف تنكرونها ، وهل رابكم فى رسولكم شىء حتى تمتنعوا من تصديقه وتقولوا إن به جِنةً وأنتم تعلمون أنه أرجح الناس عقلا وأثقبهم رأيا - لا - إن الأمر على غير ماتظنون ، إنه قد جاءكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ، لما دسيتم به أنفسكم من الزيغ والانصراف عن سبيل الحق ، ولو أجابكم ربكم إلى مافى أنفسكم من الهوى وشرع الأمور وفق ذلك لفسدت السموات والأرض لفساد أهوائكم

واختلافها ، وأنتم لو تأملتم لعلمتم أن ماجاءكم به هو فخركم فكيف تعرضون عنه ، وهل تظنون أنه يسألكم أجرا على هدايتكم وإرشادكم فما عند الله خير مما عندكم وهو خير الرازقين . فها هو ذا قد تبين الرشد من الغى واستبان أن ما تدعوهم إليه هو الحق الذى لامحيص منه ، وأن الذين لايؤمنون به عادلون عن طريق الحق ، وقد بلغوا حدا من التمرد والعناد لايرجى معه صلاح ، فلو أنهم ردوا فى الآخرة إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه لشدة لجاجهم وتدسيتهم لأنفسهم .

ولقد قتلنا سراتهم بالسيف يوم بدر فما خضعوا ولا انقادوا لربهم ولا ردهم ذلك عما كانوا فيه ، بل استمروا فى غيهم وضلالهم كما قال « فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا » .

فإذا جاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من عذاب الله مالم يكونوا يحتسبون ، أيسوا من كل خير وانقطع رجاؤهم من كل راحة وسعادة .

الإيضاح

(بل قلوبهم فى غمرة من هذا) أى بل قلوب المشركين فى غفلة عن هدى القرآن والاسترشاد بما جاء به مما فيه سعادة الناس فى دينهم ودنياهم ، فلو قرءوه وتدبروه لرأوا أنه كتاب ينطق بالصدق ، وأنه يقضى بأن أعمال المرء مهما دقت فهو محاسب عليها ، وإن ربك لايظلم أحدا من عباده .

ثم ذكر جنايات أخرى لهم فوق جنايتهم السابقة فقال :

(ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون) أى إن لهم أعمالا أخرى أسوأ من ذلك ، فقد أغرقوا فى الشرك والمعاصى واتخذوا هذا الكتاب هزوا وجعلوه سمرهم فى البيت الحرام يقولون فيه ماهو منه براء ، يقولون إن هو إلا سحر مفترى ، وما هو إلا أساطير الأولين ، وما هو إلا كلام شاعر ، ويتقولون على من أرسل به فيزعمون أنه رجل به جنة ، وأنه قد تعلمه من غيره من أهل الكتاب ، وانغمسوا فى عبادة

الأوثان والأصنام، ولقد تراهم إذا جاء البرهان الساطع أعرضوا عنه وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مقتدون .

(حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون) أى حتى إذا حلّ بهم بأسنا يوم القيامة وحاق بهم سوء العذاب صاحوا صيحة منكرة وقالوا : واغوثاه ، وواسوء منقلباه ، لشدة مايرون من الكرب والهول ، ولا سيما مترفوهم الذى انقلب أمرهم من النعيم إلى العذاب الأليم ، وندموا حين لاينفع الندم :

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

ثم أبان أن الصريخ والعويل لايجديهم نفعا فقال :

(لاتجأروا اليوم إنكم منا لاتنصرون) أى قلنا لهم : هيهات هيهات ، قد فات ما فات ، الآن لايجديكم البكاء والعويل ، فهذا وقت الجزاء على ما كسبت أيديكم ، وقد حقت عليكم كلمة ربكم ، ولا مغيث من أمره ، ولا ناصر يحول بينكم و بين بأسه.

ولا يخفى ما فى ذلك من التهويل الشديد لذلك اليوم وأنه لاتجدى فيه ضراعة ولا استغاثة ، ولا ينفع فيه ولىّ ولا نصير .

ثم ذكر سببا آخر يبين أن البكاء والصراخ لاينفع شيئا فقال :

(قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون) أى دعوا الصراخ فانه لايمنعكم منا ، واتركوا النصير فانه لاينفعكم عندنا ، فقد ركبتم شططا وجاءتكم الآيات والنذر فأعرضتم عن سماعها ، فضلا عن تصديقها والعمل بها ، وكنتم كمن ينكص على عقبيه موليا القهقرى ، نافرا مما يسمع و يرى .

ثم ذكر سببا ثالثا يدعو إلى التنكيل بهم والتشديد فى عذابهم فقال :

(مستكبرين به سامرا تهجرون) أى تعرضون عن الإيمان مستعظمين بالبيت الحرام ، تقولون نحن أهل حرمه وخدام بيته ، فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحدا ، وتسمرون حوله وتتخذون القرآن سلوا كم ، والطعن فيه هجّيرا كم ، تهذون فتقولون : هو سحر ، هو شعر ، هو كِهانة إلى آخر مايحلو لكم أن تتقوّلوه .

والخلاصة — إنكم كنتم عن سماع آياتى معرضين ، مستعظمين بأنكم خدام البيت وجيرانه ، فلا تضامون ، وتهذون فى أمر القرآن وتقولون فيه ماليس فيه مَسْحة من الحق ، ولا جانب من صواب .

ثم أنبهم على مافعلوا و بين أن إقدامهم عليه لابد أن يكون لأحد أسباب أربعة فقال :

(١) (أفلم يدبروا القول) أى إنهم لم يتدبروا القرآن فيعلموا ماخص به من فصاحة و بلاغة ، وقد كان لديهم فسحة من الوقت تمكنهم من التدبر فيه ومعرفة أنه الحق من ربهم وأنه مبرأ من التناقض وسائر العيوب التى تعترى الكلام — إلى مافيه من حجج دامغة ، و براهين ساطعة ، إلى مافيه من فضائل الآداب ، وسامى الأخلاق ، إلى مافيه من تشريع إن هم اتبعوه كانوا سادة البشر ، واتبعهم الأسود والأحمر ، كما كان لمن اتبعه من السابقين الأولين من المؤمنين .

(٢) (أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين) أى أم اعتقدوا أن مجىء الرسل أمر لم تسبق به السنن من قبلهم ، فاستبعدوا وقوعه ، لكنهم قد عرفوا بالتواتر أن الرسل كانت تَتْرى وتظهر على أيديهم المعجزات ، فهلا كان ذلك داعيا لهم إلى التصديق بهذا الرسول الذى جاء بذلك الكتاب الذى لاريب فيه .

(٣) (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) أى أم إنهم لم يعرفوا رسولهم بأمانته وصدقه وجميل خصاله قبل أن يدعى النبوة ، كلا ، إنهم لقد عرفوه بكل فضيلة وشهر لديهم باسم (الأمين) فكيف ينكرون رسالته ، ولقد قال جعفر ابن أبى طالب رضى الله عنه للنجاشى : إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه ، ونعرف صدقه وأمانته ، وكذلك قال أبو سفيان لملك الروم حين سأله وأصحابه عن نسبه وصدقه وأمانته ، وقد كانوا بعدُ كفارا لم يسلموا .

(٤) (أم يقولون به جنة) أى أم إن به جنونا فلا يدرى ما يقول ، مع أنهم يعلمون أنه أرجح الناس عقلا وأثقبهم ذهنا وأوفرهم رزانة .

و بعد أن عدد سبحانه هذه الوجوه ونبه إلى فسادها بين وجه الحق فى عدم إيمانهم فقال :

(بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) أى إن ما جاءهم به هو الحق الذى لامحيص منه ، فما هو إلا توحيد الله وما شرعه لعباده مما فيه سعادة البشر ، لكن أكثرهم جبلوا على الزيغ والانحراف عن الحق ، لما ران على قلوبهم من ظلمات الشرك والإسراف فى الآثام والمعاصى ، ومن ثم فهم لايفقهون الحق ولا تستسيغه نفوسهم فهم له كارهون .

و إنما نسب هذا الحكم للأكثر ، لأن فيهم من ترك الإيمان أنفة من توبيخ قومه وأن يقولوا : ترك دين آبائه ، لا كراهة للحق ، كما أثر عن أبى طالب من قوله :

فوالله لولا أن أجىء بسُبَّة	تجرّ على أشياخنا فى القبائل

إذاً لاتبعناه على كل حالة	من الدهر جدا غير قول التخاذل

ثم بين سبحانه أن اتباع الهوى يؤدى إلى الفساد العظيم فقال :

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) أى ولو سلك القرآن طريقهم ، بأن جاء مؤيدا للشرك بالله واتخاذ الولد (تعالى الله عن ذلك) وزين الآثام واجتراح السيئات لاختل نظام العالم كما جاء فى قوله : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا » ولو أباح الظلم وترك العدل لوقع الناس فى هرْج ومرْج، ولوقع أمر الجماعات فى اضطراب وفساد ، والمشاهد فى الأمم التى يفشو فيها التخاذل والذلة والمسكنة يئول أمرها إلى الزوال ، ولو أباح العدوان واغتصاب الأموال وأن يكون الضعيف فريسة للقوى ، لما استتب أمن وماساد نظام ، وحال العرب قبل الإسلام شاهد صدق على ذلك .

ولو أباح الزنا لفسدت الأنساب وما عرف والد ولده فلا تتكوّن الأسر ولا يكون من يعول الأبناء ولا يبحث لهم عن رزق ، فيكونون شرّدا فى الطرقات لامأوى لهم ، ولاعائل يقوم بشئونهم ، وأكبر برهان على هـذا ماهو حادث فى أوربا

الآن من وجود نسل بازدواج غير شرعى مما تئن منه الأمم والجماعات ؛ إلى نحو أولئك مما سبق ذكره من قبل وفصلناه تفصيلا .

وبعد أن أنبهم إلى كراهتهم للحق ، شنع عليهم لإعراضهم عما فيه الخير لهم وهو يخالف ما جبلت عليه النفوس من الرغبة فى ذلك فقال :

(بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) أى بل جئناهم بالقرآن الذى فيه فخرهم وشرفهم فأعرضوا عنه ونكصوا على أعقابهم وازدروا به وجعلوه هزوا وسخرية ، وما كان لهم من الخير أن يفعلوا ذلك .

ونحو الآية قوله: « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » .

ثم نفى عن رسوله صلى الله عليه وسلم ما ربما صدّهم عن دعوته وهو طلبه المال منهم أجرا لنصحه وإرشاده فقال :

(أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير) أى أم يزعمون أنك طلبت منهم أجرا على تبليغ الرسالة ، فلأجل هذا لا يؤمنون .

والمراد — إنك لا تسألهم أجرا ، فإن ما رزقك الله فى الدنيا والعقبى خير من ذلك ، لسعته ودوامه وعدم تحمل منة فيه ، ولأنك تحتسب أجره عند الله لا عندهم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ » وقوله : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ » وقوله : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » .

(وهو خير الرازقين) توكيد لما قبله ، إذ من يكون خير الرازقين يكون رزقه خيرا من رزق غيره .

وبعد أن فند آراءهم أتبعها ببيان صحة ما جاء به الرسول وأنه الحق الذى لا معدل عنه فقال :

(وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) أى وإنك لتدعو هؤلاء المشركين من

قومك إلى ذلك الدين القيم الذى تشهد العقول السليمة باستقامته، و بعده عن الضلال والهوى والاعوجاج والزيغ .

وخلاصة ما سبق ما قاله صاحب الكشاف : قد ألزمهم الحجة فى هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم ـ بأن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره ، وحاله مخبور ، وسره وعلنه خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم ، وأنه لم يَعْرِض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ، ولم يجعل ذلك سلما إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذى هو الصراط المستقيم مع إبراز المكنون من أدوائهم ، وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل ، واستهتارهم بدين الآباء الضُّلال من غير برهان وتعللهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق ، وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة ، وكراهتهم للحق و إعراضهم عما فيه حظهم من الذكراه .

ثم بين أن الذين ينكرون البعث هم فى ضلال مبين فقال :

(وإن الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) أى وإن الذين لايصدقون بالبعث بعد الموت ، و بقيام الساعة ومجازاة الله عباده فى الآخرة ـ عادلون عن محجة الحق وعن قصد السبيل وهو دين الله الذى ارتضاه لعباده ونصب الأدلة عليه .

(ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضرّ للجوا فى طغيانهم يعمهون) أى إنهم بلغوا فى التمرد والعناد حدا لايرجى معه صلاح لهم ، فلو أنهم ردوا فى الآخرة إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه ، لشدة لجاجهم وتدسيتهم لأنفسهم .

(ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) أى ولقد قتلنا سراتهم بالسيف يوم بدر ، فما خضعوا لربهم ولا انقادوا لأمره ونهيه ، ولا تذللوا ولا ردهم ذلك عما كانوا فيه ، بل استمروا فى غيهم وضلالهم .

ونحو الآية قوله : « فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا » .

ثم أبان عاقبة أمرهم وما يكون من حالهم إذا جاءت الساعة فقال :

(حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذاهم فيه مبلسون) أى حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من العذاب مالم يكونوا يحتسبون - أيسوا من كل خير وانقطعت آمالهم وخاب رجاؤهم .

وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَاتَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ (٨٠).

شرح المفردات

ذرأكم فى الأرض : أى خلقكم وبثكم فيها ، اختلاف الليل والنهار : تعاقبهما من قولهم : فلان يختلف إلى فلان : أى يتردد عليه بالمجىء والذهاب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه إعراض المشركين عن سماع الأدلة ورؤية العبر والتأمل فى الحقائق - أردف ذلك بالامتنان على عباده بأنه قد أعطاهم الحواس من السمع والبصر وغيرهما ووفقهم لاستعمالها ، وكان من حقهم أن يستفيدوا بها ليستبين لهم الرشد من الغى ، لكنها لم تغن عنهم شيئا فكأنهم فقدوها كما قال : « فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَىْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ » ثم ساق أدلة أخرى على وجوده وقدرته فبين أنه أوجدهم من العدم وأن حشرهم إليه ، وأنه هو الذى يحييهم ثم يميتهم وأنه هو الذى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، أفلا عقل لكم تتأملون به فيما تشاهدون ؟.

الإيضاح

امتن سبحانه على عباده بأمور هى دلائل قدرته وواسع علمه فقال :

(١) (وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة) أى والله هو الذى أحدث لكم السمع لتسمعوا به الأصوات التى تخاطبون بها ، والأبصار لتشاهدوا بها الأضواء والألوان والأشكال المختلفة ، والعقول لتفقهوا بها ما ينفعكم ويوصلكم إلى سعادة الحياتين الدنيا والعقبى .

وخص هـذه الثلاثة بالذكر ، لأنها طريق الاستدلال الحسى والعقلى لمعرفة الموجودات .

(قليلا ما تشكرون) تقول العرب للكفور الجحود للنعمة : ما أقل شكر فلان على نعمتى على معنى أنه لم يشكرها ، فالمراد هنا أنكم لم تشكروه على هذه النعم العظيمة ، وقد كان ينبغى أن تشكروه عليها فى كل حين .

(٢) (وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون) أى وهو الذى خلقكم فى الأرض وبثكم فيها على اختلاف أجناسكم ولغاتكم ، ثم يجمعكم لميقات يوم معلوم فى دار لاحاكم فيها سواه .

(٣) (وهو الذى يحيى ويميت) أى وهو الذى جعل الخلق أحياء بنفخ الروح فيهم بعد أن لم يكونوا شيئا ، ثم يميتهم بعد أن أحياهم ، ثم يعيدهم تارة أخرى للثواب والجزاء .

(٤) (وله اختلاف الليل والنهار) أى وهو الذى سخر الليل والنهار وجعلهما متعاقبين يطلب كل منهما الآخر طلبا حثيثا ، لا يملّان ولا يفترقان كما قال : « لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » .

ثم أنب من ترك النظر فى كل هذا فقال :

(أفلا تعقلون ؟) أى أفلا تتفكرون فى هذه الموجودات لتعلموا أن هذه صنع الإله العليم القادر على كل شىء ، وأن كل شىء خاضع له تحت قبضته دالّ على وجوده ؟.

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ ، إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) .

شرح المفردات

الأساطير : الأكاذيب واحدها أسطورة كأحدوثة وأعجوبة، قاله المبرد وجماعة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أدلة التوحيد المبثوثة فى الأكوان والأنفس والتى يراها الناس فى كل آن - أعقبها بذكر البعث والحشر وإنكار المشركين لهما ، وترداده مقالة من سبقهم من الكافرين الجاحدين فى استبعادهما والتكذيب بحصولهما .

الإيضاح

(بل قالوا مثل ما قال الأولون) أى ما اعتبر هؤلاء المشركون بآيات الله ولا تدبروا حججه الدالة على قدرته على فعل كل ما يريد ، كإعادة الأجسام بالبعث ، وحياتها حياة أخرى للحساب والجزاء ، بل قالوا مثل مقالة أسلافهم من الأمم المكذبة لرسلها من قبلهم ، تقليداً لهم دون برهان ولا دليل .

ثم فصل تلك المقالة . فقال :

(قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) أى قالوا أئذا متنا وصرنا ترابا قد بليت أجسامنا وجردت عظامنا من لحومنا : أئنا لمبعوثون من قبورنا أحياء كهيئتنا قبل الممات ؟ إن هذا لن يكون .

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم :

(لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل) أى قالوا : لقد وعدنا هذا الوعد الذى تعدنا به ، ووعد آباؤنا من قبل مثل هذا على أيدى قوم زعموا أنهم رسل الله ، ثم لم يوجد ذلك مع طول العهد .

ثم زادوا فى تأكيد الإنكار فقالوا :

(إن هذا إلا أساطير الأولين) أى ما هذا الذى تعدنا به من البعث بعد الممات إلا أكاذيب الأولين ، قد تلقفناها منهم دون أن يكون لها ظل من الحقيقة ولا نصيب من الصحة .

ونحو الآية قوله حكاية عنهم : « أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » وقوله : « أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ، (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ؟ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ؟ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) .

شرح المفردات

تتقون : أى تحذرون عقابه ، الملكوت : الملك والتدبير ، يجير : أى يغيث ، من قولهم أجرت فلانا من فلان إذا أنقذته منه ، ولا يجار عليه : أى لا يعين أحد منه أحدا ، تسحرون : أى تخدعون وتصرفون عن الرشد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه شبهات المشركين فى أمر البعث والحساب والجزاء وأحوال النشأة الآخرة - عقب ذلك بذكر الأدلة التى تثبت تحققه وأنه كائن لا محالة .

الإيضاح

احتج سبحانه عليهم لإثبات البعث ببرهانات ثلاثة :

(١) (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المكذبين بالآخرة من قومك : لمن مُلْك السموات والأرض ومن فيها من الخلق ، إن كنتم من أهل العلم بذلك ؟

وفى قوله : (إن كنتم تعلمون) استهانة بهم وتوكيد لفرط جهالتهم كما لا يخفى .

ولما كانت بداهة العقل تضطرهم أن يجيبوا بأن الخالق لها هو الله - أخبر عن الجواب قبل أن يجيبوا فقال :

(سيقولون لله) أى إنهم سيقرون بأنها لله ملكا وخلقا وتدبيراً دون غيره .

ثم رغبهم فى التدبر ليعلموا بطلان ما هم عليه فقال :

(قل أفلا تذكرون؟) أى قل لهم حين يعترفون بذلك موبخا لهم: أفلا تتدبرون فتعلموا أن من قدر على خلق ذلك ابتداء ؟ - فهو قادر على إحيائهم بعد مماتهم ، وإعادتهم خلقا جديدا بعد فنائهم .

(٢) (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟) أى قل لهم : من خلق السموات وخلق العرش المحيط بهن كما قال : « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ » ومن يدبر أمرهن على هذا الوضع البديع والنظام العجيب ؟ كما قال : « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فى كُلِّ سَماءٍ أَمْرَهَا » .

(سيقولون لله) الذى له كل شىء وهو رب ذلك ، ليس لهم جواب غيره .

ولما تأكد الأمر وزاد وضوحا حسن التهديد فقال :

(قل أفلا تتقون ؟) أى قل لهم منكرا وموبخا : أتعلمون ذلك ولا تقون أنفسكم عقاب ربكم ، فتنكروا ما أخبر به من البعث .

وبعد أن قررهم بأن العالَمَيْن العلوى والسفلى ملك له تعالى - أمره أن يقررهم بأن له تدبير شئونهما وتدبير كل شىء فقال :

(٣) (قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون) أى قل لهم : مَن المالك لكل شىء ؟ والمدبر لكل شىء ؟ وفى قبضته وتحت سلطانه وتصرفه كل شىء ؟ وهو يغيث من يشاء فيكون فى حرز لا يقدر أحد على الدنوّ منه ، ولا يغاث أحد ولا يمنع منه ، لأنه ليس فى العوالم كلها ما هو خارج من قبضته .

والخلاصة — إنه المدبر لنظام العالم جميعه وهو الذى يغيث من شاء ولا يستطيع أحد أن يغيث منه .

(سيقولون لله) الذى بيده ذلك دون غيره .

(قل فأنى تسحرون ؟) أى قل لهم على طريق الاستهجان والتوبيخ : كيف تُخدعون وتصرفون عن توحيد الله وطاعته ؟ فأنتم بعبادة الأصنام أو بعض البشر قد سحرت عقولكم كأنما غابت عن رشدها ، واعتراها الذهول ، فتصورت الأشياء على غير ما هى عليها .

وقد ثبت بالتجربة أن تكرار الكلام يخدع العقول والحواس حتى تتخيل غير الحق حقا وتتوهم صدق ما يقال وإن كان باطلا ، ومن ثم كثرت المذاهب الإسلامية وابتدع الرؤساء الدينيون والسياسيون من الأساليب ما خدعوا به عقول الشعوب فى دينهم ودنياهم .

والخلاصة — إن الكتاب الكريم عبر عن انصراف المشركين عن الحقائق الملموسة إلى ما لا أصل له إلا فى أوهامهم وخيالاتهم بالسحر ، فإن قوما يعترفون بإله خالق للسموات والأرض بل للعالم كله ، ثم هم بعد ذلك يقولون إن له شريكا — ليس له من سر إلا أن العقول قد سحرت عن أن تفهم الحقائق ، وعولت على الاقتناع بالترّهات والأباطيل .

(بل آتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون) أى ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من قولهم : إن هذا إلا أساطير الأولين ، بل جئناهم فيه بالدين الحق الذى فيه سعادة البشر ، وإنهم لكاذبون فى إنكار ذلك ، لأن عقولهم قد سحرت بخدع الآباء وتكرار القول وحكم العادة وهى طبيعة ثانية .

مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن المشركين كاذبون فى إنكار البعث والجزاء ، وفى مقالتهم : إن القرآن أساطير الأولين ، قفى على ذلك ببيان أنهم كاذبون فى أمرين آخرين . اتخاذ الله للولد ، وإثبات الشريك له .

الإيضاح

نفى سبحانه عن نفسه شيئين :

(١) (ما اتخذ الله من ولد) أى ليس له ولد كما زعم قوم من المشركين حين

قالوا : الملائكة بنات الله ، وكيف يكون له ذلك ولا مثل له ولا ندّ ، والولد إنما يتخذ للحاجة إلى النصير والمعين ، والله غنى عن كل شىء .

(٢) (وما كان معه من إله) يشركه فى الألوهية لا قبل خلق العالَم ولا حين خلقه له ولا بعد خلقه .

ثم ذكر دليلين على بطلان تعدّد الآلهة فقال :

(ا) (إذاً لذهب كل إله بما خلق) أى لو قدّر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق إذ لكل صانع ضرب من الصنعة يغاير صنعة سواه ، فكان يحصل التباين فى نظم الخلق والإيجاد ، ويوجد الاختلاف بين المخلوقات المتحدة الأنواع فلا ينتظم الكون ، والمشاهد أنه منتظم متسق ، وهو الغاية فى الكمال كما قال : « مَا تَرَى فى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ » .

(ب) (ولعلا بعضهم على بعض) أى ولكان لكل منهم أن يطالب قهر الآخر وغلبته ، فيعلو بعضهم على بعض كما هو حال ملوك الدنيا ، وإذ لم تروا أثرا للتحارب والتغالب فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون .

وبعد أن وضح الحق وصار كفلق الصبح جاء بما هو كالنتيجة لذلك فقال :

(سبحان الله عما يصفون) أى تنزه ربنا وتقدّس عما يقوله الكافرون من أن له ولدا أو شريكا .

ثم وصف نفسه بصفات الكمال فقال :

(عالم الغيب والشهادة) أى هو العالم بما غاب عن خلقه من الأشياء فلا يرونه ولا يشاهدونه ، وبما يرونه ويبصرونه ، والمراد أن الذين قالوا بالولد والشريك مخطئون فيما قالوا ، فإنهم يقولون عن غير علم ، وأن الذى يعلم الأشياء شاهدها وغائبها ولا تخفى عليه خافية من أمرهما ــ قد نفى ذلك ، فخبره هو الحق دون خبرهم .

(فتعالى عما يشركون) أى تقدس عما يقول الجاحدون الظالمون .

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ
مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّى إِذَا
جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا
تَرَكْتُ ، كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ
يُبْعَثُونَ (١٠٠) .

شرح المفردات

الهمزات : الوساوس المغرية بمخالفة ما أمرنا به ، واحدها همزة ، وأصل الهمز النخس والدفع بيد أو غيرها ، ومنه مهماز الرائض (حديدة توضع فى مؤخر الرجل ينخس بها الدابة لتسرع) كلا : كلمة تستعمل للردع والزجر عن حصول ما يطلب ، من ورائهم : أى من أمامهم ، برزخ : أى حاجز بينهم و بين الرجعة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه ما لهم من مقالات السوء كإنكار البعث والجزاء واتخاذ الولد ووصف الله بما لا يليق به ، وكان كل هذا مما يدعو إلى استئصالهم وأخذهم بالعذاب ـ أمر رسوله أن يدعوه بألا يجعله قرينا لهم فيما يحيق بهم من العذاب ، ثم ذكر أنه قدير على أن يعجل لهم العذاب ولكنه أخره ليوم معلوم ، ثم أرشده إلى الترياق النافع فى مخالطة الناس ، وهو إحسان المرء إلى من يسىء إليه حتى تعود عداوته صداقة وعنفه لينا .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسان

ثم أمره أن يستعيذ من حيل الشياطين وأن يحضروه فى أى عمل من أعماله ، ولا يكون كالكافرين الذين قبلوا همزها وأطاعوا وسوستها ، حتى إذا ما حان وقت الاحتضار تمنوا أن يعودوا إلى الدنيا ليعملوا صالحا ، و إنه لايسمع لمثل هؤلاء دعاء ، فإنه لا رجعة لهم بعد هذا ، وأمامهم حاجز يحول بينهم و بين الرجوع إلى الدنيا إلى يوم البعث .

الإيضاح

(قل رب إما ترينّى ما يوعدون . رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين) أى قل رب إن عاقبتهم وأنا مشاهد ذلك فلا تجعلنى فيهم ولا تهلكنى بما تهلكهم به، ونجنى من عذابك وسخطك ، واجعلنى ممن رضيت عنه من أوليائك .

وفى أمره بذلك إيماء إلى أن العذاب قد يلحق غير من هو أهل له كما قال : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

روى الإمام أحمد والترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو « و إذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون » .

(و إنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون) أى و إنا أيها الرسول لقادرون على أن نريك ما ننزله بهم من العذاب ، فلا يحزنك تكذيبهم بك ، و إنما نؤخره حتى يبلغ الكتاب أجله ، علما منا أن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمن ، ومن جرّاء ذلك لانستأصلهم ولا نمحو آثارهم .

ثم أرشده إلى ما يفعل بهم إذا لحقه أذاهم فقال :

(ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون) أى ادفع الأذى عنك بالخصلة التى هى أحسن بالإغضاء والصفح عن جهلهم والصبر على أذاهم وتكذيبهم بما أتيتهم به من عند ربك ، ونحن أعلم بما يصفوننا به و ينحلونه إيانا من الاختلاق والأكاذيب

و بما يقولون فيك من السوء وهجر القول ومجازوهم على ما يقولون ، فلا يحزننك ذلك واصبر صبرا جميلا .

ونحو الآية قوله : « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » .

روى عن أنس رضى الله عنه أنه قال فى الآية : « يقول الرجل لأخيه ما ليس فيه فيقول له : إن كنت كاذبا فإنى أسأل الله أن يغفر لك ، وإن كنت صادقا فإنى أسأل الله أن يغفر لى » .

ولما أدب سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يدفع بالحسنى أرشده إلى ما به يقوى على ذلك فقال :

(وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك ربّ أن يحضرون) أى وقل : ربّ ألتجئ إليك من أن يصل إلىّ الشياطين بوساوسهم ، وأن يبعثوا إلىّ أعداءك لإيذائى ، وهكذا يدعو المؤمنون فإن الشيطان لايصل إليهم إلا بأحد هذين الأمرين .

وإذا انقطع العبد إلى مولاه وتبتل إليه وسأله أن يعيذه من الشياطين استيقظ قلبه وتذكر ربه فيما يأتى و يذر، ودعاه ذلك إلى التمسك بالطاعة وازدجر عن المعصية .

وقد استعاذ صلى الله عليه وسلم أن تحضره الشياطين فى عمل من أعماله ولا سيما حين الصلاة وقراءة القرآن وحلول الأجل .

أخرج أحمد وأبو داود والترمذى وحسنه والبيهقى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا كلمات نقولها عند النوم خوف الفزع : بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ، قال فكان ابن عمرو يعلمها من بلغ من أولاده أن يقولها عند نومه ، ومن كان منهم صغيرا لايعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها فى عنقه » .

وأخرج أحمد عن الوليد بن الوليد أنه قال : « يا رسول الله إنى أجد وحشة ، قال: إذا أخذت مضجعك فقل: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ، فإنه لايحضرك وبالحرِى لايضرك » .

وروى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الهرم وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق ، وأعوذ بك أن تتخبطنى الشياطين عند الموت » .

ثم أخبر عما يقوله الكافرون حين معاينة الموت من سؤال الرجعة إلى الدنيا ليصلحوا ما كانوا قد أفسدوا حال حياتهم فقال :

(حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت) أى ولا يزال الكافر يجترح السيئات ولا يبالى بما يأتى وبما يذر من الآثام والأوزار، حتى إذا جاءه الموت وعاين ما هو قادم عليه من عذاب الله ندم على ما فات وأسف على ما فرط فى جنب الله وقال : رب ارجعنى إلى الدنيا لأعمل صالحا فيما قصرت فيه من عبادتك وحقوق خلقك .

وخلاصة ذلك — إنه حين الاحتضار يعاين ما هو مقبل عليه من العذاب فيتمنى أن يرجع إلى الدنيا ليصلح ما أفسد ويطيع فيما عصى .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ، فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » وقوله : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا » وقوله :« وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ » وقوله : « وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ؟ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » .

ومن كل هذا تعلم أنهم يطلبون الرجعة حين الاحتضار، وحين النشور، وحين العرض على الملك الجبار، وحين يعرضون على النار وهم فى غمرات جهنم، فلا يجابون إليها فى كل حال .

(كلا إنها كلمة هو قائلها) أى إنا لانجيبه إلى ما طلب، لأن طالبه الرد ليعمل صالحا هو قول فقط ولا عمل معه وهو كاذب فيه، فلو ردّ لما عمل كما قال : «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» .

(ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) أى ومن أمامهم حاجز يحول بينهم و بين الرجوع إلى الدنيا إلى يوم القيامة .

وفى هذا تيئيس لهم من الرجوع أبدا، لأنهم إذا لم يرجعوا قبل يوم القيامة، فهم بعدها لا يرجعون أبدا، لما علم أنه لا رجعة بعد البعث إلا إلى الآخرة .

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)
فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ
فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ
النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ
بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ
(١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا
وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ : رَبَّنَا آمَنَّا
فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ
أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ
بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) .

شرح المفردات

الصور واحدها صورة نحو بسر و بسرة : أى نفخت فى الأجساد أرواحها ، ولا يتساءلون: أى لايسأل بعضهم بعضا ، موازينه أى موزوناته وهى حسناته ، المفلحون: أى الفائزون ، خسروا أنفسهم : أى غبنوها ، تلفح : أى تحرق ، كالحون: أى عابسون متقلصو الشفاه ، الشقوة والشقاوة : سوء العاقبة ، وهى ضد السعادة ، اخسئوا : أى اسكتوا سكوت ذلة وهوان ، سخريا:أى هزوا ، ذكرى: أى خوف عقابى.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن وراء الرجوع إلى الدنيا حاجزاً إلى يوم القيامة - أعقب ذلك بذكر أحوال هذا اليوم فبين أنه عند البعث و إعادة الأرواح فى الأجسام لا تنفع الأحساب ولا يسأل القريب قريبه وهو يبصره ، وأن من رجحت حسناته على سيئاته فاز ونجا من النار ودخل الجنة ، ومن ثقلت سيئاته على حسناته خاب وهلك وأدخل النار خالدا فيها أبدا ، وكان عابس الوجه متقلص الشفتين من شدة الاحتراق ، وأنه يقال لأهل النار تو بيخا لهم على ما ارتكبوا من الكفر والآثام : أليسوا قد أرسلت إليكم الرسل ، وأنزلت عليكم الكتب؟ فيقولون بلى، ولكننا لم ننقد لها ولم نتبعها فضللنا ، ربنا ارددنا إلى دار الدنيا ، فإن نحن عدنا فإنا ظالمون مستحقون العقوبة ، فيجيبهم ربهم : امكثوا فى النار صاغرين أذلاء ولا تعودوا إلى سؤالكم هذا ، إنكم كنتم تستهزئون بعبادى المؤمنين وكنتم منهم تضحكون ، إنهم اليوم هم الفائزون جزاء صبرهم على أذاكم واستهزائكم بهم .

الإيضاح

(فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ) أى فإذا أعيدت الأرواح إلى الأجساد حين البعث والنشور ، لا تنفعهم الأنساب ، لأن التعاطف يزول ، والود

يختفى ، لاستيلاء الدهشة والحيرة عليهم واشتغال كل امرئ بنفسه كما جاء فى قوله : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ » .

(ولا يتساءلون) أى ولا يسأل القريب قريبه وهو يبصره ، لاشتغاله بأمر نفسه كما قال : « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً » وما جاء فى بعض الآيات من إثبات التساؤل بينهم كقوله : « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » فإنما هو عند القرار فى الجنة والقرار فى النار .

ثم شرع يبين أحوال السعداء وأحوال الأشقياء حينئذ فقال :

(فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) أى فمن رجحت موزونات أخلاقه وأعماله فأولئك هم الفائزون بكل مطلوب ، والحائزون لكل مرغوب .

(ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) أى ومن ثقلت سيئاته على حسناته فأولئك الذين خابوا وآبوا بالصفقة الخاسرة ، إذ هم دسّوا أنفسهم باسترسالهم فى الشهوات وفعل الموبقات .

(فى جهنم خالدون) أى ومآلهم أن يمكثوا فى جهنم لا يخرجون منها أبدا .

ثم وصف حال النار وحالهم فيها فقال :

(تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون) أى تحرق النار وجوههم وهم فيها متقلصو الشفاه من أثر ذلك اللفح .

وإنما خص الوجوه من بين باقى الأعضاء ، لأنها أشرفها ، فذكر ما ينوبها من ألم ويلحقها من أذى يكون أزجر عن المعاصى التى تصل بهم إلى النار .

أخرج ابن مردويه عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قول الله تعالى (تلفح وجوههم النار) تلفحهم لفحة تُسيل لحومهم على أعقابهم .

ثم ذكر ما يقال لهم حينئذ توبيخا وتقريعًا وتذكيراً لما به حق عليهم العذاب

(ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون) أى قد أرسلت إليكم الرسل

وأنزلت عليكم الكتب وأزلت عنكم الشبه ، ولم يبق لكم حجة كما قال : « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » وقال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » فكذبتم بها وأعرضتم عنها وآذيتم من جاء بها .

ونحو الآية قوله : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ » .

ثم ذكر جوابهم عن ذلك فقال .

(قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين) أى قالوا قد قامت علينا الحجة ولم ننقد لها لسوء استعدادنا وتغلُّب شهواتنا ، ولما دسّينا به أنفسنا من الآثام والمعاصى ، ومن ثم ضللنا طريق الهدى ولم نتبع الحق .

ونحو الآية قوله : « فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » .

والخلاصة — إنا كنا نعرف الحق ولكن العادة وخشية الناس ملكت علينا أمرنا فلم نقدر على الخلاص مما نحن فيه ، وما مثلنا إلا مثل شاربى الخمر والتَّبَغْ والمولَعين بحب الكبرياء والعظمة والمغرمين بالإسراف ، فإنهم يعرفون أضرارها ثم لا يجدون سبيلا إلى تركها ولا للبعد عنها .

وبعدئذ حكى دعاءهم ربَّهم أن يخرجهم منها: وقولهم فإن عدنا كنا ظالمين فقال :

(ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) أى قالوا ربنا أخرجنا من النار وارددنا إلى الدنيا ، فإن عدنا إلى مثل ما سلف منا من الشرور والآثام كنا ظالمين لأنفسنا جديرين بالعقوبة .

ثم ذكر ما أجيبوا به عن طلبهم هذا فقال :

(قال اخسئوا فيها ولا تكلمون) أى قال امكثوا فيها أذلاء صاغرين واسكتوا ولا تعودوا إلى مثل سؤالكم هذا ، فإنه لارجعة لكم إلى الدنيا ، وإنما يكلمنى من سمَتْ نفسه إلى عالم الأرواح ، ولبس رداء الخوف والخشية من ربه ، واحتقر الدنيا وشهواتها وعزف عنها لما يرجوه من ربه من ثواب عميم ونعيم مقيم .

ثم بين السبب فيما نالهم من العذاب فقال :

(إنه كان فريق من عبادى يقولون : ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين) أى إن فريقا من عبادى ممن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فى الدنيا يقولون : ربنا آمنا بك وبرسلك وبما جاءوا به من لدنك ، فاستر زلاّتنا ، وآمن روعاتنا ، ولا تخزنا يوم العرض ، ولا تعذبنا بعذابك ، فإنك أرحم من رحم أهل البلاء .

(فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون) أى فتشاغلتم بهم ساخرين منهم ودأبتم على هذا حتى نسيتم ذكرى ولم تخافوا عقابى ، وكنتم تضحكون منهم استهزاء بهم .

والخلاصة — إنكم أضفتم إلى سيئاتكم ، الاستهزاء بمن يفعلون الحسنات ، ويتقربون إلى رب الأرض والسموات ، روى أنها نزلت فى كفار قريش وقد كانوا يستهزئون بالفقراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كبلال وعمار وصهيب . ونحو الآية قوله : «إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ» .

ثم ذكر ما جازى به أولئك المستضعفين فقال :

(إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) أى إنى جزيتهم بصبرهم على الأذى والسخرية بهم ـ بالفوز بالنعيم المقيم .

والخلاصة — إنهم صبروا فجوزوا أحسن الجزاء .

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا

لاَ تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨) .

شرح المفردات

اللبث: الإقامة ، العادّين: الحفظة العادين لأعمال العباد وأعمارهم ، والعبث: ماخلا من الفائدة ؛ الحق: أى الثابت الذى لايبيد ولا يزول ملكه ، والعرش: هو مركز تدبير العالم ، ووصفه بالكريم لشرفه ، وكل ماشرف فى جنسه يوصف بالكرم كما فى قوله : «وَزَرْعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ» وقوله : «وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا» يدعو : يعبد ، حسابه : أى جزاؤه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنكارهم للبعث وأنهم لا يعترفون بحياة إلا ما كان فى هذه الدنيا وأنه بعد الفناء لا حياة ولا إعادة ـ ذكر هنا أنهم بعد أن يستقروا فى النار ويوقنوا أنهم مخلدون فيها أبدا ، يسألون سؤال تقريع وتوبيخ عن مدة لبثهم فى الأرض ، ليستبين لهم أن ماظنوه أمداً طويلا يسير بالنسبة إلى ما أنكروه ، وحينئذ يزدادون حسرة وألمًا على ما كانوا يعتقدون فى الدنيا حين رأوا خلاف ما ظنوا ، ثم بين بعدئذ ما هو كالدليل على وجوده وهو تمييز المطيع من العاصى ، ولولاه لكان خلق العالم عبثا ، تنزه ربنا عن ذلك . ثم أتبع هذا بالرد على من أشرك معه غيره وأنذره بالعذاب الأليم ، ثم أمر رسوله أن يطلب منه غفران الذنوب وأن يثنى عليه بما هو أهله .

الإيضاح

(قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟) أى قال الملَك المأمور بسؤالهم : كم لبثتم فى الأرض أحياء؟

(قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) فقد نسى هؤلاء الأشقياء مدة لبثهم فى الدنيا لعظيم ماهم فيه من البلاء والعذاب ، وقصّر عندهم الأمد الذى مكثوه فيها ، ما حل بهم من نقمة الله حتى حسبوا أنهم لم يمكثوا إلا يوما أو بعض يوم ، ولعل بعضهم يكون قد أقام بها الزمان الطويل والسنين الكثيرة .

(فاسأل العادّين) أى فاسأل الحفظة العارفين لأعمال العباد وأعمارهم كما روى ذلك جماعة عن مجاهد .

(قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) أى قال لهم الملَك : ما لبثتم إلا زمنا يسيرا ، ولو كنتم تعلمون شيئا من العلم لعملتم على مقتضى ذلك ، ولما صدر منكم ما أوجب خلودكم فى النار ، ولما قلنا لكم : اخسئوا فيها ولا تكلمون .

روى مرفوعا «أن الله تعالى إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال : يا أهل الجنة كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قال : لنعم ما أتجرتم فى يوم أو بعض يوم رحمتى ورضوانى وجنتى ، امكثوا فيها خالدين مخلدين ، ثم يقول يا أهل النار : كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، فيقول بئسما أتجرتم فى يوم أو بعض يوم نارى وسخطى ، امكثوا فيها خالدين مخلدين» .

ثم زاد فى توبيخهم على تماديهم فى الغفلة وتركهم النظر الصحيح فيما يرشد إلى حقية البعث والقيامة فقال :

(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) أى أظننتم أيها الأشقياء أنا إنما خلقناكم إذ خلقناكم لعبا وباطلا ؟ كلا ، بل خلقناكم لنهذبكم ونعلمكم ، لترتقوا إلى عالم أرقى مما أنتم فيه ، كما خلتم أنكم لا ترجعون إلينا للحساب والجزاء .

وفى هذا إشارة إلى أن الحكمة تقتضى تكليفهم و بعثهم لمجازاتهم على ماقدموا من عمل وأسلفوا من سعى فى الحياة الدنيا .

ثم نزه الله نفسه عما يصفه به المشركون فقال :

(فتعالى الله الملِك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) أى تنزه ربنا ذو الملك والملكوت الثابت الذى لايزول والذى ليس هناك معبود سواه وهو ذو العرش الكريم الذى يدبر فيه نظام الكون علويه وسفليه وجميع ما خَلَق عن أن يَخلق الخلق عبثا ، وأن تخلو أفعاله عن الحكم والمقاصد الحميدة ، وأن يكون له ولد أو شريك .

و بعد أن ذكر أنه الملك الحق الذى لا إله إلا هو أتبعه ببيان أن من ادعى أن فى الكون إلها سواه فقد ادعى باطلا وركب شططا فقال :

(ومن يدع مع الله إلها آخر لابرهان له به فإنما حسابه عند ربه) أى ومن يعبد مع ذلك المعبود الذى لاتصلح العبادة إلا له ، معبودا آخر لابيّنة له به ، فجزاؤه عند ربه وهو موفيه مايستحقه من جزاء وعقاب .

وفى ذلك من شديد التوبيخ والتقريع ما لايخفى .

(إنه لايفلح الكافرون) أى إنه لايسعد أهل الشرك ولا ينجيهم من العذاب .

وما ألطف افتتاح السورة بفلاح المؤمنين وختمها بخيبة الكافرين وعدم فوزهم بما يؤملون !.

و بعد أن شرح أحوال الكافرين وجهلهم فى الدنيا وعذابهم فى الآخرة ، أمر رسوله بالانقطاع إليه والالتجاء إلى غفرانه ورحمته بقوله :

(وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) أى وقل أيها الرسول : رب استر علىّ ذنوبى بعفوك عنها ، وارحمنى بقبول توبتى وترك عقابى على ما اجترحت من آثام وأوزار ، وأنت ربنا خير من رحم ذا ذنب فقبل توبته وتجاوز عن عقابه

إنك ربنا خير غافر، وإنك المتولى للسرائر، والمرجوّ لإصلاح الضمائر، وصلِّ ربّنا على محمد وآله .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى وابن حبّان فى جماعة عن أبى بكر أنه قال يارسول الله علّمنى دعاء أدعو به فى صلاتى قال : « قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، وإنه لايغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » .

خلاصة ما تضمنته السورة

من الحكم والأحكام والآداب

(١) فوز المؤمنين ذوى الصفات الفاضلة بالفوز والفلاح بدخول الجنات خالدين فيها أبدا .

(٢) ذكر حال النشأة الأولى .

(٣) خلق السموات السبع وإنزال المطر من السماء وإنشاء الجنات من النخيل والأعناب وذكر منافع الحيوان للانسان .

(٤) قصص بعض الأنبياء كنوح وشعيب وموسى وهٰرون وعيسى عليهم السلام، ثم أمرهم جميعا بأكل الطيبات وعمل الصالحات .

(٥) لا يكلف الله عباده إلا بما فيه يسر وسجاحة .

(٦) وصف مايلقاه الكافرون من النكال والوبال يوم القيامة وتأنيبهم على عدم الإيمان بالرسول، وتفنيد المعاذير التى اعتذروا بها .

(٧) ذكر ما أنعم به على عباده من الحواس والمشاعر .

(٨) إنكار المشركين للبعث والجزاء والحجاج على إثبات ذلك .

(٩) النعى على من أثبت الولد والشريك لله .

(١٠) دعاء النبى صلى الله عليه وسلم ربه ألا يجعله فى القوم الظالمين حين عذابهم .

(١١) تعليم نبيه صلى الله عليه وسلم الأدب فى معاملة الناس ، وأمره أن يدعوه بدفع همزات الشياطين عنه .

(١٢) طلب الكفار العودة إلى الدنيا حين رؤية العذاب ، لعلهم إذا عادوا عملوا صالحا .

(١٣) وصف أهوال يوم القيامة و بيان مافيها من الشدائد .

(١٤) أوصاف السعداء والأشقياء .

(١٥) تأنيب الكافرين على طلبهم العودة إلى الدنيا وزجرهم على هذا الطلب .

(١٦) سؤال المشركين عن مدة لبثهم فى الدنيا و بيان أنهم ينسون ذلك .

(١٧) النعى على من عبد مع الله إلها آخر .

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

سورة النور

هى مدنية وآيها أربع وستون .

ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) إنه قال فى السورة السالفة « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ » وذكر هنا أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزانى وما اتصل بذلك من شأن القذف وقصة الإفك والأمر بغضّ البصر الذى هو داعية الزنا ، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف ، والنهى عن إكراه الفتيات على الزنا .

(٢) إنه تعالى لما قال فيما سلف إنه لم يخلق الخلق عبثا بل للأمر والنهى — ذكر هنا جملة من الأوامر والنواهى .

روى عن مجاهد أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علموا رجالكم سورة المائدة ، وعلموا نساءكم سورة النور » وعن حارث بن مضرّب رضى الله عنه قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنْ تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) .

شرح المفردات

أنزلناها : أى أعطيناها الرسول كما يقول العبد إذا كلم سيده : رفعت إليه حاجتى ، والفرض : التقدير كما قال: «فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ» وقال « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » والمراد هنا تقدير ما فيها من الحدود والأحكام على أتم وجه ، بينات : أى واضحات الدلالة على مافيها من الأحكام ، ولعلّ هنا يراد بها الإعداد والتهيئة ، تذكرون : أى تتذكرون وتتعظون .

الإيضاح

امتن سبحانه على عباده بما أنزل عليهم فى هذه السورة من الفرائض والأحكام وفصله لهم من أدلة التوحيد و بيناته الواضحة التى لاتقبل جدلاً ليعدّهم بذلك لأن يتعظوا و يعملوا بما جاء فيها مما فيه سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم وفيه صلاحهم، فإن فى حفظ الفروج صيانة للأنساب واطمئنانا على سلامتها مما يشوبها، كما أن فيه أمناً من حصول الضغائن والأحقاد التى قد تجر إلى القتل وارتكاب أفظع الجرائم بين الأفراد، وأمناً على الصحة والبعد من الأمراض التى قد تودى بحياة المرء وتوقعه فى أشد المصايب وأعظم ألوان البلاء.

كما جاء فيها توثيق روابط المودة بين أفراد المجتمع، ففيها نظام دخول البيوت للتزاور، وفيها حفظ الألسنة وصونها عن الولوغ فى الأعراض بما لا ينبغى أن يقال حتى لاينتشر الفحش بين الناس، وفيها تحذير للعباد من ذلك « إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ».

والخلاصة — إنه تعالى ذكر فى أول السورة أنواعا من الأحكام والحدود الشرعية. وفى آخرها الدلائل على وحدانيته وكامل قدرته، فأشار إلى الأولى بقوله (وفرضناها) وإلى الثانية بقوله: (وأنزلنا فيها آيات بينات).

والفائدة فى كل هذا اتقاء المحارم والبعد عنها ومعرفة الله المعرفة التى تجعل المرء يخضع لجلاله وعظيم سلطانه، ويشعر بأنه محاسب على كل ما يعمل من عمل قلّ أو كثر، فإذا تم له ذلك صلحت نظم الفرد ونظم المجتمع وسادت السكينة والطمأنينة بين الناس.

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢).

عقوبة الزنا الدنيوية

الزاني والزانية إما أن يكونا محصنين : أى متزوجين ، أو غير محصنين : أى غير متزوجين .

عقوبة المحصنين

إن كان الزانيان محصنين واستوفيا الشروط الآتية ، وهى أن يكونا بالغين عاقلين حرين مسلمين متزوجين بعقد نكاح صحيح ـ وجب رجمهما : أى رميهما بالحجارة حتى يموتا ، ويكون ذلك فى حفل عامّ للمسلمين ليعتبر بهما غيرهما .

وقد ثبت هذا بالسنة المتواترة ورواه الثقات عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد رواه أبو بكر وعمر وعلىّ وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخُدْرى وأبو هريرة وزيد ابن خالد وبُرَيدة الأسلمى فى آخرين من الصحابة ، وجاء فى رواياتهم أن رجلا من الصحابة يسمى ماعزا أقر بالزنا فرجم ، وأن امرأتين من بنى لخم وبنى غامد أقرتا بالزنا فرجمتا على مشهد من الناس ومرأى منهم .

عقوبة غير المحصنين

إن كان الزانيان غير محصنين فالعقوبة مائة جلدة بحضرة جمع من المسلمين كما بينته الآية ليفتضح أمرهما كما تقدم ذلك .

طريق إثبات الزنا

يثبت الزنا بأحد أمور ثلاثة :

(١) الإقرار به وهذا هو الطريق الذى ثبت به الزنا فى الإسلام ، وبه أوقع النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته العقوبة على من زنى .

(٢) الحبل للمرأة بلا زوج معروف لها .

(٣) شهادة أربعة من الشهود يرونهما وهما ملتبسان بالجريمة .

عقوبة الزنا الأخروية

تقدم أن بيّنا المساوى والأضرار التى تنشأ من الزنا للأفراد والجماعات فى الدنيا ، وعلينا أن نذكر هنا حكمه الأخروى فنقول : اتفقت الأمة على أن الزنا من أكبر الآثام ، وأنه من الذنوب التى شدد الدين فى تركها ، وأغلظ فى العقوبة على فعلها ، وجاء فيه من النصوص مالم يأت فى غيره مما حرم الله ، فقد قرن بالشرك فى قوله : « وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » .

وروى عن حذيفة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يا معشر الناس اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال ، ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة ، أما التى فى الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر ، وأما التى فى الآخرة فسخط الله سبحانه وتعالى وسوء الحساب وعذاب النار » .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قلت يا رسول الله ، أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك ، قلت ثم أىّ ؟ قال وأن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك ، قلت ثم أىّ ؟ قال وأن تزنى بحليلة جارك ، فأنزل الله تصديقها : «وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ » .

الإيضاح

(الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) أى من زنى من الرجال أو زنت من النساء وهما حران بالغان عاقلان غير محصنين بزوجين فاجلدوا كلا منهما مائة جلدة عقوبة له على ما أتى من معصية الله .

(ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) أى ولا تأخذكم بهما رحمة ورقة فى حكم

الله ، فتعطلوا الحدود أو تخففوا الضرب ، بل الواجب عليكم أن تتصلبوا فى دين الله ولا يأخذكم اللين والهوادة فى استيفاء الحدود ، وكفى برسول الله أسوة فى ذلك إذ يقول : « لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » .

(إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أى إن كنتم تصدقون بالله ربكم وأنكم مبعوثون للحشر ومجازَون بالثواب والعقاب . فإن من كان مصدقا بذلك لايخالف أمر الله ونهيه خوف عقابه على معاصيه .

وفى هذا تهييج وإغضاب لتنفيذ حدود الله وإقامة شريعته .

(وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) فإنهما إذا جلدا بمحضر من الناس كان ذلك أبلغ فى زجرهما وأنجع فى ردعهما والزيادة فى تأنيبهما على ما فعلا .

والطائفة: الأربعة فصاعدا كما روى عن ابن عباس ، وعن الحسن: عشرة فصاعدا.

الزَّانِى لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) .

المعنى الجملى

قال مجاهد وعطاء : قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء ليس لهم أموال ولاعشائر وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة عيشا ، ولكل منهن علامة على بابها للتعريف عن نفسها والإعلان عن أمرها ، وكان لايدخل عليهن إلا زانٍ أو مشرك ، فرغب فى كسبهن ناس من فقراء المسلمين وقالوا نتزوج بهن إلى أن يغنينا الله عنهنّ ، فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية .

الإيضاح

(الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لاينكحها إلا زانٍ أو مشرك) أى إن الفاسق الفاجر الذى من شأنه الزنا والفسق لايرغب فى نكاح الصوالح من النساء

وإنما يرغب فى فاسقة خبيثة أو فى مشركة مثلها ، والفاسقة المستهترة لايرغب فى نكاحها الصالحون من الرجال ، بل ينفرون منها ، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة ، ولقد قالوا فى أمثالهم : إن الطيور على أشكالها تقع .

ولا شك أن هذا حكم الأعم الأغلب كما يقال : لايفعل الخير إلا الرجل التقى ، وقد يفعل الخير من ليس بتقى ، فكذا هذا فإن الزانى قد ينكح المؤمنة العفيفة ، والزانية قد ينكحها المؤمن العفيف .

(وحرّم ذلك على المؤمنين) أى إن نكاح المؤمن المتسم بالصلاح ، الزانيةَ ورغبته فيها واندماجه فى سلك الفَسَقَة المشهورين بالزنا ـ محرم عليه لما فيه من التشبه بالفُسّاق ومن حضور مواضع الفسق والفجور التى قد تسبب له سوء القالة واغتياب الناس له ، وكم فى مجالسة الفساق من التعرض لاقتراف الآثام ، فما بالك بمزاوجة الزوانى والفجار ، وجاء فى الخبر « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » .

حكم قذف غير الزوجة من النساء

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) .

شرح المفردات

المراد بالمحصنات هنا : العفيفات الحرائر البالغات العاقلات المسلمات .

المعنى الجملى

بعد أن نفّر سبحانه من نكاح الزانيات وإنكاح الزانين وبيّن أن ذلك عمل لايليق بالمؤمنين الذين أشربت قلوبهم حب الإيمان والتصديق برسله ـ نهى هنا

عن رمى المحصنات به وشدد فى عقوبته الدنيوية والأخروية ، فجعل عقوبته فى الدنيا الجلد وألا تقبل له شهادة أبدا ، فيكون ساقط الاعتبار فى نظر الناس ملغى القول لاتسمع له كلمة ، وجعل عقوبته فى الآخرة العذاب المؤلم الموجع إلا إذا تاب إلى الله وأناب وأصلح أعماله فإنه يزول عنه اسم الفسوق وتقبل شهادته .

الإيضاح

(والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة) أى إن الذين يشتمون العفيفات من حرائر المسلمين فيرمونهن بالزنا ثم لم يأتوا على ما رموهن به من ذلك بأربعة شهداء عدول يشهدون بأنهم رأوهن يفعلن ذلك — فاجلدوهم ثمانين جلدة جزاء لهم على ما فعلوا من ثلم الأعراض وهتك الستر دون أن يكون ذلك بوجه الحق .

(ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا) أى ردوا شهادتهم ولا تقبلوها أبدا فى أىّ أمر من الأمور .

ثم بين سوء حالهم عند ربهم بقوله :

(وأولئك هم الفاسقون) أى وأولئك هم الخارجون عن طاعة ربهم إذ أنهم فسقوا عن أمره وركبوا كبيرة من الكبائر باتهامهم المحصنات الغافلات المؤمنات كذبا وبهتانا ؛ كما قال حسان يمدح أمّ المؤمنين عائشة :

حَصانٌ رزانٌ ما تُزَنُّ بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل (١)

وهم إن كانوا صادقين فقد هتكوا ستر المؤمنات وأوقعوا السامعين فى شك من أمرهن دون أن يكون فى ذلك فائدة دينية ولا دنيوية لهم ، وقد أمرنا بستر العرض إذا لم يكن فى ذلك مصلحة فى الدين .

---

(١) حصان : عفيفة ، ورزان : حصيفة الرأى ، وتزنّ : تتهم ، وريبة : أى شك فى عرضها ، وغرثى : جائعة ، والمراد أنها لاتغتاب النساء كما هو شأن المرأة .

(إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) أى إلا الذين رجعوا عما قالوا وندموا على ما تكلموا من بعد ما اجترحوا ذلك الإثم وأصلحوا حالهم .

وقد اختلف فى هذا الاستثناء ، أيعود إلى الجملة الأخيرة فترفع التوبة الفسق فحسب ، ويبقى مردود الشهادة دائما وإن تاب ؟ وإلى هذا ذهب من السلف القاضى شريح وسعيد بن جُبَير وأبو حنيفة ، أم يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ، وإلى هذا ذهب سعيد بن المسيِّب وجماعة من السلف ، وهو رأى مالك والشافعى وأحمد ، وعليه فتقبل شهادته ويرتفع عنه حكم الفسق .

ثم ذكر علة قبول التوبة فقال :

(فإن الله غفور رحيم) أى فإن الله ستار لذنوبهم التى أقدموا عليها بعد أن تابوا منها ، رحيم بهم فيزيل عنهم ذلك العار الذى لحقهم بعدم قبول شهادتهم ووسمهم بميسم الفسوق الذى وصفوا به .

حكم قذف الرجل زوجه

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) .

شرح المفردات

يرمون : أى يقذفونهم بالريبة وتهمة الزنا ، ولعنة الله : الطرد من رحمته ، ويدرأ : أى يدفع ، والعذاب : الحد ، وغضب الله : سَخَطُه والبعد من فضله وإحسانه .

المعنى الجملى

بعد أن بيّن سبحانه حكم قاذف الأجنبيات بالزنا وذكر أنه لايعفى القاذف عن العقوبة إلا إذا أتى بأربعة شهداء ـ ذكر هنا ما هو فى حكم الاستثناء من ذلك، وهو قذف الزوجات ، فإن الزوج القاذف يعفى من الحد إذا شهد الشهادات المبينة فى الآية ، لأن فى تكليف الزوج إحضار الشهود إعناتا له وإحراجا ، ولما يلحقه من الغَيرة على أهله ثم كظم الغيظ ، إذ لايجد مخلصا من ضيقه .

روى عن ابن عباس أنه قال: « لما نزل قوله تعالى: والذين يرمون المحصنات الخ قال عاصم بن عدىّ الأنصارى : إن دخل منا رجل بيته فوجد رجلا على بطن امرأته فإن جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك ، فقد قضى الرجل حاجته وخرج ، وإن قتله قتل به ، وإن قال وجدت فلانا مع تلك المرأة ضرب ، وإن سكت سكت على غيظ، اللهم افتح .

وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عويمر وله امرأة يقال لها خَوْلة بنت قيس ، فأتى عويمر عاصما فقال : لقد رأيت شريك بن سحماء على بطن امرأتى خولة ، فاسترجع عاصم وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ماأسرع ماابتليت بهذا فى أهل بيتى ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما ذاك ؟ قال أخبرنى عويمر ابن عمى أنه رأى شريك بن سحماء على بطن امرأته خولة ، وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بنوعم عاصم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم جميعا وقال لعويمر اتق الله فى زوجتك وابن عمك ولا تقذفها ، فقال : يارسول الله أقسم بالله إنى رأيت شريكا على بطنها وإنى ماقربتها منذ أربعة أشهر وإنها حبلى من غيرى ، فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : اتقى الله ولا تخبرى إلا بما صنعتِ ، فقالت يارسول الله : إن عويمرا رجل غيور وإنه رأى شريكا يطيل النظر إلىّ ويتحدث فحملته الغَيْرة على ماقال ، فأنزل الله هذه الآية ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

فنودى (الصلاة جامعة) فصلى العصر ثم قال لعويمر : قم وقل أشهد بالله إن خولة لزانية و إنى لمن الصادقين ، ثم قال : قل أشهد بالله إنى رأيت شريكا على بطنها و إنى لمن الصادقين ، ثم قال : قل أشهد بالله إنها حبلى من غيرى و إنى من الصادقين ثم قال : قل أشهد بالله إنها زانية و إنى ماقربتها منذ أربعة شهور و إنى لمن الصادقين ثم قال : قل لعنة الله على عويمر (يعنى نفسه) إن كان من الكاذبين فيما قال ، ثم قال : اقعد ، وقال لخولة : قومى فقامت وقالت أشهد بالله ما أنا بزانية و إن عويمرا زوجى لمن الكاذبين ، وقالت فى الثانية : أشهد بالله ما رأى شريكا على بطنى و إنه لمن الكاذبين ، وقالت فى الثالثة : إنى حبلى منه ، وقالت فى الرابعة أشهد بالله إنه ما رآنى على فاحشة قط و إنه لمن الكاذبين ، وقالت فى الخامسة : غضب الله على خولة إن كان عويمر من الصادقين فى قوله ، ففرق رسول الله بينهما » .

« وفى رواية عن ابن عباس : أنها حين كانت تؤدى الشهادة الخامسة قالوا إنها الموجبة التى توجب عليك العذاب فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ، ثم قالت والله لا أفضح قومى فشهدت فى الخامسة كما تقدم ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتفريق بينهما وألا يدعى ولدها لأب ، وأن لامسكن لها عليه ولامؤنة ، من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا وفاة » فصار هذا سنة المتلاعنين وسمى عملهما (اللعان والملاعنة) .

وفى رواية « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ابصروها فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الإليتين فلا أراه إلا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر كأنه وَحَرَةٌ (سحلية) فلا أراه إلا كاذبا فجاءت به على النعت المكروه » .

الإيضاح

(والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين)

أى والأزواج الذين يقذفون زوجاتهم بالزنا ، ولم يكن لهم شهداء يشهدون لهم بصحة ماقذفوهن به من الفاحشة ، فعلى كل منهم أن يشهد أربع شهادات إنه لصادق فيما رماها به من الزنا ، والشهادة الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما اتهمها به .

(ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) أى ويدفع عنها العقوبة الدنيوية وهى الحد أن تحلف بالله أربعة أيمان إن زوجها الذى رماها بما رماها به من الفاحشة ـ لمن الكاذبين فيما قال ، والشهادة الخامسة أن غضب الله عليها إن كان زوجها صادقا فيما اتهمها به .

وخُصتِ الملاعِنة بأن تخمّس بغضب الله عليها تغليظا عليها ، لأنها هى سبب الفجور ومنبعه بخديعتها وإطماعها الرجل فى نفسها .

وبعد أن ذكر حكم الرامى للمحصنات وللأزواج بين أن فى هذا تفضلا بعباده ورحمة بهم فقال :

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله توّاب حكيم) أى ولولا تفضله سبحانه عليكم ورحمته بكم وأنه قابل لتوبتكم فى كل آن وأنه حكيم فى جميع أفعاله وأحكامه التى منها ماشرعه لكم من اللعان ـ لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان ، إذ لو لم يشرع لكم ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع أن قرائن الأحوال تدل على صدقه ، لأنه أعرف بحال زوجه ، وأنه لايفترى عليها لاشتراكهما فى الفضيحة ، ولو جعل شهادته موجبة لحد الزنا عليها لأهمل أمرها وكثر افتراء الزوج عليها لضغينة قد تكون فى نفسه من أهلها ، وفى كل هذا خروج من سبق الحكمة والفضل والرحمة ، ومن ثم جعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما دارئة عنه العقوبة الدنيوية ، وإن كان قد ابتلى الكاذب منهما فى تضاعيف شهادته بأشد مما دراه عن نفسه وهو العقاب الأخروى .

حديث الإفك على أم المؤمنين عائشة

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ
بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي
تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ
وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ
بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ
(١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا
أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ
بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ
(١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا، سُبْحَانَكَ
هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ
الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ
أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو

الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) .

شرح المفردات

الإفك : أبلغ الكذب والافتراء ، والعصبة: الجماعة، وكثر إطلاقها على العشرة فما فوقها إلى الأربعين ، وقد عدت عائشة منها المنافق عبد الله بن أبى بن سلول وقد تولى كبره وحَمْنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب رضى الله عنها وزوج طلحة ابن عبيد الله ومِسْطَح بن أثاثة وحسان بن ثابت ، كبره (بكسر الكاف وضمها وسكون الباء) أى معظمه فقد كان يجمعه ويذيعه ويشيعه ، (لولا) كلمة بمعنى هلاّ تفيد الحث على فعل ما بعدها، مبين : أى ظاهر مكشوف ، أفضتم: أى خضتم فى حديث الإفك ، تلقونه : أى تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض ، يقال تلقى القول وتلقنه وتلقفه ومنه « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ » سبحانك : تعجب ممن تفوّه به ، بهتان : أى كذب يبهت سامعه ويحيره لفظاعته ، يعظكم : أى ينصحكم، تشيع : أى تنتشر ، الفاحشة : الخصلة المفرطة فى القبح وهى الزنا ، وخطوات واحدها خطوة (بالضم) ما بين القدمين من المسافة ، ويراد بها نزغات الشيطان ووساوسه ، والمنكر : ما تنكره النفوس فتنفر منه ، زكا : أى طهر من دنس الذنوب ، ولا يأتل : أى لا يحلف ، الفضل : الزيادة فى الدين ، السعة : الغنى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حكم من قذف الأجنبيات وحكم من قذف الزوجات — ذكر فى هذه الآيات العشر براءة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك والبهتان من المنافقين ، صيانة لعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومجمل القصص ما رواه البخارى وغيره عن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة قالت .

«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرجت قرعتها استصحبها ، فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج سهمى (نصيبى) فخرجت معه بعد نزول آية الحجاب فحُملت فى هودج فسرنا حتى إذا قفلنا ودنونا من المدينة نزلنا منزلا ثم نودى بالرحيل ، فقمت ومشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى ، فلمست صدرى فإذا عِقْدى من جِزْع ظَفَارِ قد انقطع فرجعت فالتمسته فحبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى وهم يحسبون أنى فيه لخفتى فلم يستنكروا خفة الهودج وذهبوا بالبعير ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس فيها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى وظننت أنهم سيفقدوننى ويعودون فى طلبى ، فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت ، وكان صفوان بن المُعَطّل السُّلَمِى من وراء الجيش ، فلما رآنى عرفنى فاستيقظت باسترجاعه ، فخمّرت وجهى بجلبابى ووالله ماتكلمت بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطئ على يديها ، فقمت إليها فركبتها وانطلق يقود بالراحلة حتى أتينا الجيش بعد أن نزلوا فى نحر الظهيرة ، وافتقدنى الناس حين نزلوا وماج القوم فى ذكرى ، فبينا الناس كذلك إذ هجمت عليهم فخاضوا فى حديثى فهلك من هلك ، وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبى ، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرا والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشىء من ذلك ، ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذلك يريبنى ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعد ما نقهت ، وخرجت مع أم مِسْطَح قِبَل (المناصع) وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل وقبل أن تتخذ الكُنُف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه فى البرية ، وكنا نتأذى بالكنف أن

أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح (هى ابنة أبى رُهْم بن المطلب بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق) قبل بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مِرْطها فقالت : تعس مسطح ، فقلت أتسبين رجلا قد شهد بدرا ؟ فقالت : أىْ هَنَتَاهُ أولم تسمعى ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضى ، فلما رجعت إلى منزلى ودخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال كيف تيكم ؟ قلت أتأذن لى أن آتى أبوىّ ؟ قال نعم ، قالت وأنا حينئذ أريد أن أستثبت الخبر من قبلهما ، فجئت أبوىّ فقلت لأمى : أى أمتاه ، ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أىْ بُنية هوّنى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها : قالت قلت سبحان الله ، أو قد تحدث الناس بهذا و بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت نعم ، قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ؟ ثم أصبحت فدخل علىّ أبو بكر وأنا أبكى ، فقال لأمى ما يبكيها؟ قالت : لم تكن علمت ما قيل لها ، فأكب يبكى ، فبكى ساعة ثم قال : اسكتى يا بُنية ، فبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلى المقبل لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم حتى ظن أبواى أن البكاء سيفلق كبدى ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب وأُسامة بن زيد حين استلبث الوحى يستشيرهما فى فراق أهله ، قالت : فأما أسامة فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله و بالذى فى نفسه من الود ، فقال : يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا ، وأما علىّ فقال : لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، و إن تسأل الجارية (يعنى بَرِيرة) تَصْدُقْك ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال : هل رأيتِ من شىء يريبك من عائشة ؟ قالت : والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الدواجن فتأكله ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من

عبد الله بن أبىّ فقال وهو على المنبر : يا معشر المسلمين من يعذِرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى ؟ فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى ، فقام سعد بن مُعاذ الأنصارى رضى الله عنه فقال : أنا أعذِرك يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، و إن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عُبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحَمِيّة ، فقال أىْ سعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من أهلك ما أحببت أن يقتل ، فقام أُسَيد بن حُضَير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عُبادة ، كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا ، ثم أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى بيت أبوىّ ، فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت علىّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى ، قالت فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جلس عندى ولم يجلس عندى منذ قيل ماقيل ، وقد لبث شهرا لايوحى إليه فى شأنى بشىء ، قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال : أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، و إن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قَلَص دمعى حتى ما أحس منه دمعة ، قلت لأبى : أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ، قال والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت لأمى : أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن ، إنى والله قد عرفت أن قد سمعتم بهذا حتى استقر فى أنفسكم حتى كدتم أن تصدقوا به، فإن قلت لكم إنى بريئة (والله يعلم أنى بريئة) لاتصدقونى

بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقُنّى ، وإنى والله لا أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال يوسف : «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَاتَصِفُونَ» ثم توليت فاضطجعت على فراشى وأنا والله أعلم أنى بريئة وأن الله سيبرئنى ببراءتى ، ولـكنى والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فىّ بأمر يتلى ، ولـكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام رؤيا يبرئنى الله بها ، قالت والله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج من البيت أحد حتى أنزل الله على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء عند الوحى حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى اليوم الشاتى من ثقل القول الذى ينزل عليه ، قالت : فلما سُرّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك ،كان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشرى يا عائشة، إن الله قد برأك ، فقالت لى أمى قومى إليه ، فقلت والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله، هو الذى أنزل براءتى ، فأنزل الله : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ » العشر الآيات كلها ، فلما أنزل الله هذا فى براءتى قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره : والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعـد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله : «وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْـكُمْ وَالسَّعَةِ ـ إلى قوله ـ غَفُورٌ رَحِيمٌ » فقال أبو بكر: إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه ، وقال لا أنزعها منه أبدا .

قالت عائشة : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمرى وما سمعت ، فقالت يا رسول الله : أحمى سمعى و بصرى ، والله ما رأيت إلا خيرا .

قالت عائشة : وهى التى كانت تساميني ، فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حَمْنَة تحارب لها ، فهلـكت فيمن هلك» .

وكان مسروق إذا حدث عن عائشة يقول : حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من السماء .

الإيضاح

(إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) أى إن الذين جاءوا بالكذب والبهتان جماعة منكم أيها المؤمنون تعاونوا وأجمعوا أمرهم على إعلانه و إذاعته بين الناس لمقاصد لهم أخفوها والله عليم بما يفعلون .

وفى التعبير (بعصبة) بيان أن هؤلاء شرذمة قليلون وأنهم هم الذين ينشرونه ، لا أنهم عدد كثير من الناس .

(لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم) أى لاتظنوا أن فيه فتنة وشرا ، بل هو خير لكم لاكتسابكم به الثواب العظيم ، لأنه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة ، ولظهور كرامتكم على الله بإنزال قرآن يتلى مدى الدهر فى براءتكم وتعظيم شأنكم ، ولما فيه من تهويل الوعيد لمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيرا ، إلى نحو ذلك من الفوائد الدينية والآداب التى لاتخفى على من تأملها .

ثم ذكر عقاب من اجترحوه - كل منهم بقدر ماخاض فيه فقال :

(لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم) أى لكل امرئ منهم جزاء مااجترح من الإثم بقدر ماخاض فيه ، فإن بعضهم تكلم ، و بعضهم ضحك كالمسرور الراضى بما سمع ، و بعضهم أقلّ و بعضهم أكثر .

(والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) أى والذى تحمل معظم ذلك الإثم منهم وهو عبد الله بن أبىّ (عليه اللعنة) له عذاب عظيم فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فبإظهار نفاقه على رءوس الأشهاد ، وأما فى الآخرة فبعذاب لايقدر قدره إلا العليم الحكيم .

وقد كان هو أول من اختلقه لإمعانه فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وقال الضحاك : الذى تولى كبره حسان ومسطح فجلدهما صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عذرها وجلد معهما امرأة من قريش ، وإنما أضاف الكبر إليه لأنه ابتدأ بذلك القول ، لاجرم حصل له من العقاب مثل ماحصل لكل من قال ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام « من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

ثم عاتب الله أهل الإيمان به فيما وقع فى أنفسهم من إرجاف من أرجف فى أمر عائشة وزجرهم بتسعة أمور :

(١) (ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين) أى هلا إذ سمعتم ماقال أهل الإفك فى عائشة ظننتم بمن اتهم بذلك خيرا ، لأن الإيمان يحملكم على إحسان الظن ويكفكم عن إساءتكم أنفسكم أى أمثالكم من المؤمنين الذين هم كأنفسكم كما قال « وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » وقال « إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » وهلا قلتم حينئذ هذا كذب ظاهر مكشوف ؟ فإن الذى وقع لم يكن فيه مايرتاب منه ـ ذاك أن مجىء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان وقت الظهيرة والجيش أجمعه يشاهد ذلك ، ورسول الله بين أظهرهم ينفى كل شك ، وإنما قيل ماقيل لحسد فى القلوب كامن ، وبغض فى النفس مكتوم .

ثم علل سبحانه كذب الآفكين ووبخهم على مااختلقوه وأذاعوه بقوله :

(٢) (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء) أى هلا جاء الخائضون فى الإفك بأربعة شهداء يشهدون على ثبوت ماقالوا وما رموها به .

(فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) أى فحين لم يقيموا بينة على ماقالوا فأولئك المفسدون هم الكاذبون فى حكم الله وشرعه .

(٣) (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) أى ولولا تفضله سبحانه عليكم فى الدنيا بضروب النعم التى من أجلها الإمهال للتوبة ، ورحمته فى الآخرة بالعفو بعد التوبة ـ لعجل لكم العقاب فى الدنيا من جراء ماخضتم فيه من حديث الإفك والبهتان .

ثم بين سبحانه وقت حلول العذاب الذى كانوا يستحقونه لولا الفضل والرحمة بقوله :

(٤) (إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) أى ولولا تفضله ورحمته لمسكم ذلك العذاب وقت تلقيكم ماأفضتم فيه من الإفك وأخذ بعضكم إياه من بعض بالسؤال عنه ، وقولكم قولا بالأفواه دون أن يكون له منشأ فى القلوب يؤيده ، وظنكم إياه هينا سهلا لايعبأ به ، وهو من العظائم والكبائر عند الله .

وخلاصة ذلك ـ إنه وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها:

(١) تلقى الإفك بالألسنة ، فقد كان الرجل يلقى أخاه فيقول له ماوراءك ، فيحدثه حديث الإفك حتى شاع وانتشر حتى لم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه ، فهم قد فعلوا جهد المستطاع فى نشره .

(ب) إنه قول بلا روية ولا فكر ، فهو قول باللسان لايترجم عما فى القلب ، إذ ليس هناك علم يؤيده ولا قرائن أحوال وشواهد تصدقه .

(ح) استصغار ذلك وحسبانه مما لايؤبه له ، وهو عند الله عظيم الوزر، مستحق لشديد العقوبة .

(٥) (ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم) أى وهلا حين سمعتموه ممن بدأ به وانتحله أوممن تابعه فى القول ـ قلتم تكذيبا له وتهويلا لشأن ما ارتكبه من الجُرْم :لايحل لنا أن نتكلم بهذا ولا ينبغى لنا أن نتفوه به سبحانك رب ـ هذا كذب صراح يحير السامعين أمره لما فيه من جرأة على بيت كريم شهير بالعفاف والطهر ، ولما فيه من مس عرض ذلك البيت المقدس ، بيت النبوة الذى هو فى الذروة العليا من الإجلال والاحترام وعظيم المكانة ؛ وإذا جاز الخوض فيه على هذه الشاكلة فماذا يبقى للمؤمنين بعدئذ ؟ أفليس هؤلاء هم الأسوة الحسنة ، وينبوع الطهر ومنهم يقتبس المؤمنون فضائل الدين وشريف الأخلاق ؟

وإنا لنبرأ إليك ربنا منه وأن تلوكه ألسنتنا وأن يحمل الهواء تلك النبرات الصوتية لتصل إلى أسماعنا ، كما نبرأ إليك ربنا من كل أفاك أثيم سولت له نفسه أن يكون الوسيلة فى انتشار هذا القول الكاذب بين المؤمنين .

وخلاصة هذا ـ تنزه ربنا أن يرضى بظلم هؤلاء القاذفين وألا يعاقبهم على عظيم ماارتكبوا وعلى كبير مااجترحوا من الإثم والفسوق ، وأن توسم زوج نبيه بالفجور ، والعقل والدين يمنعان الخوض فى مثل هذا ، لأن فيه إيذاء للنبى صلى الله عليه وسلم والله يقول « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » ولأن فيه إشاعة الفاحشة التى أمر الله بسترها ، ولأن فى إظهار محاسن الناس وترك معايبهم تخلقا بأخلاق الله وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « تخلقوا بأخلاق الله » .

ثم حذر عباده المؤمنين أن يعودوا لمثل هذا فقال :

(٦) (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين) أى يعظكم الله بهذه المواعظ التى بها تعرفون عظم هذا الذنب وكبير هذا الجُرْم ، وأن فيه النكال والعقاب بالحد فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة ، كى لاتعودوا لمثله أبدا إن كنتم من أهل الإيمان تتعظون بعظات الله ، وتأتمرون لأمره وتنتهون عما نهاكم عنه .

وفى قوله : (إن كنتم مؤمنين) إيماء إلى أن الإيمان لايمنع من فعل هذا .

(ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) أى ويفصل الله لكم فى كتابه آيات التشريع ومحاسن الفضائل والآداب ، وهو العليم بكم ، لايخفى عليه شىء منها ، فيجازى المحسن منكم بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، الحكيم فى تدبير شئونكم وفيما كلفكم به مما فيه سعادتكم فى معاشكم ومعادكم ، وبه تسمو نفوسكم وترقى إلى عالم الأرواح وتكونون خير الأمم فى سياسة الشعوب وعمارة الأرض وإقامة ميزان العدل بين أفرادها « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » ولقد صدق الله وعده وعمر أسلافنا الأولون ما كان معروفا فى ذلك الحين وبثوا فيه فضائل الدين وسماحته

حتى صاروا مضرب الأمثال ، فلما انحرفوا عن الصراط السوى والنهج القويم تقلص ظلهم وذهب ريحهم وصاروا أذلاء مستعبدين بعد أن كانوا السادة الحاكمين ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ولما كان من أنفع المواعظ بيان مايستحقه المذنب من العقاب على جرْمه بيّن ذلك بقوله :

(٧) (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة) أى إن الذين يحبون أن يذيع الزنا فى المحصنين والمحصنات من المؤمنين والمؤمنات ، لهم عذاب موجع فى الدنيا بإقامة الحد عليهم واللعن والذم من الناس ، وفى الآخرة بعذاب النار وبئس القرار .

وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر مانهى الله عنه » وعنه عليه السلام أنه قال : «لا يستر عبد مؤمن عورة عبد مؤمن إلا ستره الله يوم القيامة ، ومن أقال عثرة مسلم أقال الله عثرته يوم القيامة » .

(والله يعلم وأنتم لا تعلمون) فردوا الأمور إلى ربكم ترشدوا ، ولا ترووا ما لا علم لكم به ، ولا سيما حلائل رسول الله صلى الله عليه وسلم فتهلكوا .

ثم كرر فضله ورحمته على عباده للمنة عليهم بترك المعاجلة بالعقاب فقال :

(٨) (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم) أى ولولا أن الله تفضل عليكم وأبقاكم بعد الخوض فى الإفك ومكنكم من التلافى بالتوبة لهلكتم ، لكنه لرأفته بعباده لايدع ما هو أصلح للعبد وإن جنى على نفسه .

وبعدئذ حذر عباده من اتباع وساوس الشيطان فقال :

(٩) (يأيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان) أى يأيها الذين صدقوا الله ورسوله لاتسلكوا سبل الشيطان وطرقه ، ولا تقتفوا آثاره بإشاعتكم الفحشاء فى الذين آمنوا وإذاعتكموها فيهم بروايتكم إياها عمن نقلها إليكم .

ثم ذكر سبب النهى فقال :

(ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) أى ومن يتبع الشيطان ارتكب الفحشاء والمنكر ، فإنه لا يأمر إلا بهما ، ومن هذا شأنه لا ينبغى اتباعه ولا طاعته .

ثم أكد منته على عباده فقال :

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا) أى ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم بتوفيقكم للتوبة التى تمحو الذنوب وتغسل أدرانها ما طهر أحد منكم من ذنبه وكانت عاقبته النكال والوبال ، ولعاجلكم بالعقوبة كما قال : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » .

(ولكن الله يزكى من يشاء) أى ولكن الله جلت قدرته يطهر من يشاء من خلقه بقبول توبتهم من تلك الذنوب التى اجترحوها تفضلا منه ورحمة كما فعل بمن سلم من داء النفاق ممن وقع فى حديث الإفك كحسان ومِسْطح وغيرهما .

(والله سميع عليم) أى والله سميع لما تقولون بأفواهكم من القذف وإثبات البراءة ، عليم بما فى قلوبكم من محبة إشاعة الفاحشة أو كراهتها ، ومجازيكم بكل ذلك .

وفى هذا حث لهم على الإخلاص فى التوبة والابتعاد جَهْد المستطاع عن المعصية وارتكاب الأوزار والآثام .

(ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين) أى ولا يحلف من كان ذا فضل وسعة منكم أيها المؤمنون بالله ، ألا يعطوا ذوى قرابتهم المساكين المهاجرين كمسطح ابن خالة أبى بكر الذى كان فقيرا وهاجر من مكة إلى المدينة وشهد مع رسول الله بدرا .

روى أن الآية نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه حين حلف أن لا ينفع مسطح ابن أثاثة بنافعة أبدا بعد ما قال فى عائشة ما قال .

ذاك أنه بعد أن أنزلت براءة عائشة وطابت النفوس وتاب الله على من تكلم من المؤمنين فى ذلك وأقيم الحد على من أقيم عليه ـ تفضل وله الحمد والمنة فعطَف الصديق على قريبه مسطح وكان ابن خالته وكان مسكينا لامال له وكان من المهاجرين فى سبيل الله وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها وضرب الحدّ عليها .

(وليعفوا وليصفحوا) أى وليتركوا عقوبتهم على ذلك بحرمانهم مما كانوا يؤتونهم قبل ذلك ، وليعودوا لهم إلى مثل الذى كان لهم عليهم من الإفضال .

ثم رغبهم فى العفو والتفضل فقال :

(ألا تحبون أن يغفر الله لكم) أى ألا تحبون أن يستر الله عليكم ذنوبكم بإفضاله عليكم ، والجزاء من جنس العمل ، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك ، وكما تصفح يصفح الله عنك ، فحينئذ قال الصديق : بلى والله نحب أن تغفر لنا ربَّنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال والله لا أنزعها منه أبدا .

(والله غفور رحيم) أى والله غفور لذنوب من أطاعه واتبع أمره ، رحيم به أن يعذبه على ما كان له من زلة قد استغفر منها وتاب إليه من فعلها .

وفى هذا ترغيب عظيم فى العفو ووعد كريم عليه بالمغفرة من الذنوب وحث على مكارم الأخلاق .

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) .

شرح المفردات

المحصنات : العفيفات ، الغافلات : أى عن الفواحش وهن النقيات القلوب اللاتى لايفكرن فى فعلها ، لعنوا : أى طردوا من رحمة الله فى الآخرة وعذبوا فى الدنيا بالحدّ ، دينهم : أى جزاءهم ومنه «كما تدين تدان» الحق : أى الثابت الذى يحق لهم لامحالة ، أن الله : أى وعده ووعيده ، الحق : أى العدل الذى لاجَوْر فيه.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص أم المؤمنين عائشة وبين عقاب من اتهمها بالإفك وشديد عذابه يوم القيامة وأسهب فى هذا - أعقب ذلك ببيان حكم عام وهو أن كل من اتهم محصنة مؤمنة غافلة من الخنا والفجور - فهو مطرود من رحمة الله بعيد عن دار نعيمه معذب فى جهنم إلا إذا تاب وأحسن التوبة وعمل صالحا.

الإيضاح

(إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) أى إن الذين يتهمون بالفاحشة العفيفات الغافلات عنها المؤمنات بالله ورسوله - أُبْعِدُوا من رحمة الله فى الدنيا والآخرة ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم جزاء ما اقترفوا من جناياتهم ، فهم مصدر قالة السوء فى المؤمنات و إشاعة الفاحشة بين المؤمنين والقدوة السيئة لمن يتكلم بها ، فعليهم وزرها ووزر من تكلم بها كما ورد فى الحديث : « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ».

(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) أى ولهم ذلك العذاب الذى لايقدر قدره يوم يجحدون ما اكتسبوا فى الدنيا من الذنوب حين سؤالهم عنها ، فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون من قول أو فعل ، إذ ينطقها الله بقدرته فتخبر كل جارحة منها بما صدر منها من أفاعيل صاحبها .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ » .

عن أبى سعيد الخدرىّ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة عُرِّف الكافر بعمله ، فيجحد ويخاصم ، فيقال هؤلاء جيرانك يشهدون عليك ، فيقول كذبوا ، فيقال أهلك وعشيرتك ، فيقول كذبوا ، فيقال احلفوا فيحلفون ، ثم يُصمّهم الله فتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ثم يدخلهم النار» .

ويرى فريق من المفسرين أن الشهادة هنا ليست الشهادة باللسان ، بل شهادة الإثبات والبيان ، إذ كل ما يعمله الإنسان فى الدنيا من قول أو فعل تنطبع له صورة على العضو الذى فعله ، فالكلمة يقولها تنطبع لها صورة على اللسان ، واليد التى تمتد لفعل شىء ، والرجل التى تخطو إلى عمل ، كل ذلك يحفظ على نفس الجارحة التى فعلته ، فما أشبه ذلك بالصور التى تؤخذ اليوم لأصابع المجرمين و بصمات أيديهم وأرجلهم فى قلم تحقيق الشخصية للرجوع إليها إذا دعت الحاجة إلى ضبط أولئك المجرمين ، فما ينطبع إذ ذاك على اللسان واليد والرجل يكون كافيا جد الكفاية فى إثبات الجرم على أولئك المجرمين والطغاة الظالمين .

(يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق و يعلمون أن الله هو الحق المبين) أى فى هذا اليوم يوفيهم الله جزاءهم على أعمالهم و يعلمون أن ما كانوا يوعدون به فى حياتهم الدنيا من العذاب هو الحق الذى لاشك فيه و يزول عنهم كل ريب كان قد ألمّ بهم فى الدار الأولى .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » رواه الشيخان .

قال صاحب الكشاف : ولو قلّبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة

لم تر أن الله قد غلظ فى شىء تغليظه فى إفك عائشة رضوان الله عليها ، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعقاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك ، واستفظاع ما أقدم عليه ، على طرق مختلفة ، وأساليب مفتنة ، كل واحد منها كاف فى بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين فى الدارين جميعا وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة بأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الذى هم أهله اه .

الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ، وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ، وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ، أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) .

المعنى الجملى

بعد أن برأ سبحانه عائشة مما رميت به من الإفك، ثم ذكر أن رامى المحصنات الغافلات مطرود من رحمة الله - أردف ذلك بدليل ينفى الريبة عن عائشة بأجلى وضوح - ذاك أن السنة الجارية بين الخلق مبنية على مشاكلة الأخلاق والصفات بين الزوجين ، فالطيبات للطيبين والخبيثات للخبيثين ، ورسول الله من أطيب الطيبين ، فيجب كون الصديقة من أطيب الطيبات على مقتضى المنطق السليم ، والعادة الشائعة بين الخلق .

الإيضاح

(الخبيثات للخبيثين) أى الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال لا يتجاوزنهم إلى غيرهم .

(والخبيثون للخبيثات) أى والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، لأن المجانسة من دواعى الألفة ودوام العشرة .

(والطيبات للطيبين) أى والطيبات من النساء للطيبين من الرجال لما قد عرفت من الأنس بمن يحاكيك فى الصفات ويجانسك فى الفضل والكمال .

(والطيبون للطيبات) أى والطيبون أيضا للطيبات منهن لا يتجاوزونهن إلى من عداهن .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أطيب الأطيبين ، وخيرة الأولين والآخرين ، استبان أن الصديقة رضى الله عنها من أطيب الطيبات واستبان بطلان ما أشاعه المرجفون من أهل الإفك .

(أولئك مبرءون مما يقولون) أى أولئك الطيبون والطيبات ومنهم صفوان وعائشة مبرءون مما يقول الخبيثون والخبيثات من النساء .

(لهم مغفرة ورزق كريم) أى لهم مغفرة عن ذنوبهم التى اقترفوها من قبل ، ورزق كريم عند ربهم فى جنات النعيم .

(تنبيه) هذه الآية الكريمة تشرح الغرائز والطباع وتبين أن الإنسان بل هذا الوجود لا تلاؤم بين أجزائه إلا بصفات متناسبة ، فالكرة الأرضية متجاذبة الأجزاء وكرة الهواء مطيعة لمجموعها لما بينها من تناسب وتشابه فى الصفات ، وهكذا أخلاق الناس وصفاتهم إذا تشابهت اتفقوا ، وهم يكونون يوم القيامة كذلك ، لا يجتمعون إلا حيث يتفقون .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ، وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا

فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) .

شرح المفردات

حتى تستأنسوا : أى حتى تستأذنوا ، إذ به يحصل أنس أهل البيت ، وبدونه يستوحشون ويشق عليهم ذلك ، تذكرون: أى تتعظون ، أزكى: أى أطهر ، جناح: أى حرج ، متاع : أى حق تمتع ومنفعة كإيواء الأمتعة والرحال والشراء والبيع كحوانيت التجارة والفنادق والحمامات ونحوها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حكم قذف المحصنات الأجنبيات وحكم قذف الزوجات ، ثم أتبع ذلك بقصص أهل الإفك وبسط ذلك غاية البسط ، وكان مما يسهل السبيل إلى التهمة فى كل هذا وجود الخلوة بين رجل وامرأة ـ أعقب ذلك بحكم دخول المرء بيت غيره ، وبين أنه لايدخله إلا بعد الاستئذان والسلام حتى لايوجد بحال تورث التهمة التى أمرنا بالابتعاد عنها جهد الطاقة ، إلى أن الإنسان قد يكون فى بيته ومكان خلوته على حال لايود أن يراه غيره عليها .

روى عدى بن ثابت عن رجل من الأنصار «أن امرأة قالت يارسول الله : إنى أكون فى بيتى على الحال التى لا أحب أن يرانى عليها أحد لا والد ولا ولد ، فيأتينى آت فيدخل علىّ فكيف أصنع ؟ فنزلت (يأيها الذين آمنوا) الآية » .

الايضاح

(يأيها الذين آمنو لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) أدب الله عباده المؤمنين بآداب نافعة فى بقاء الود وحسن العشرة بينهم ،

ومن ذلك ألا يدخلوا بيوت غيرهم إلا بعد الاستئذان والسلام حتى لايطلعوا على عورات سواهم ، ولا ينظروا إلى ما لايحل لهم النظر إليه ولا يقفوا على الأحوال التى يطويها الناس فى العادة ويتحفظون من اطلاع أحد عليها - إلى أن فى هذا تصرفا فى ملك غيرك فلا بد أن يكون برضاه .

وينبغى أن يكون الاستئذان ثلاث مرات ، فإن أُذن له دخل وإلا انصرف ، فقد ثبت فى الصحيح أن أبا موسى الأشعرى حين استأذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له انصرف ، ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس (يعنى أبا موسى) يستأذن ؟ ائذنوا له ، فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال ما أرجعك؟ قال إنى استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى وإنى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فلينصرف » .

(ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون) أى الاستئذان والتسليم والانتظار حتى يؤذن لكم خير من الدخول بغتة أو من الدخول على عادة الجاهلية ، فقد كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتا غير بيته يقول حييتم صباحا ، حييتم مساء ، ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف واحد .

وقد أرشدكم ربكم إلى ذلك كى تتذكروا وتتعظوا وتعملوا بما أمرتم به .

(فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) أى فإن لم تجدوا فيها أحدا ممن يملك الإذن بأن كان فيها عبد أو صبى فلا تدخلوها حتى يأذن لكم من يملكه وهو رب الدار .

وقد استثنى من ذلك ما إذا دعت الضرورة إلى الدخول فورا كإطفاء حريق أو منع حدوث جناية أو نحو ذلك .

(وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم) أى وإن قال لكم أهل البيت الذى تستأذنون فيه ارجعوا فارجعوا ، فإن الرجوع أطهر لكم فى دينكم ودنياكم ، لأن رب الدار قد يستوحش ويتأذى بوقوف غيره على بابه بعد منع الاستئذان ،

ولما فى ذلك من الدناءة والتسكع على بيوت الناس ، وربما ظُن بأهل البيت سوء من وقوف الأجانب على أبوابهم .

(والله بما تعملون عليم) أى والله عليم بكل مقاصدكم ونواياكم من دخول البيوت ومجازيكم على ذلك .

ولما بين حكم البيوت المسكونة بين حكم البيوت غير المسكونة فقال :

(ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم) أى ليس عليكم أيها المؤمنون إثم ولا حرج أن تدخلوا بيوتا غير معدة لسكنى قوم معينين ، بل معدة ليتمتع بها من يحتاج إليها كائنا من كان كالفنادق والحوانيت والحمامات ونحوها مما فيه حق التمتع لكم كالمبيت فيها وإيواء الأمتعة والبيع والشراء والاغتسال ونحو ذلك ، لأن السبب الذى لأجله منع دخول البيت وهو الاطلاع على عورات الناس والوقوف على أسرارهم ـ غير موجود فيها .

روى أن أبا بكر قال «يا رسول الله : إن الله قد أنزل عليك آية فى الاستئذان، وإنا لنختلف فى تجارتنا فننزل هذه الخانات ، أفلا ندخلها إلا بإذن ؟ فنزلت الآية» .

(والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) أى والله عليم بما تظهرون بألسنتكم من الاستئذان إذا استأذنتم على أهل البيوت المسكونة ، وما تضمرون من حب الاطلاع على عورات الناس أو من قصد ريبة أو فساد .

وفى هذا من الوعيد الشديد ما لا يخفى .

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَٰلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ

أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ، وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) .

شرح المفردات

غض بصره : خفض منه ، والخُمُر : واحدها خمار، وهو ماتغطى به المرأة رأسها (طرحة) والجيوب واحدها جيب : وهوفتحة فى أعلى القميص يبدو منها بعض الجسد، والبعولة : الأزواج واحدهم بعل ، والإربة : الحاجة إلى النساء ، والطفل : يطلق على الواحد والجمع ، لم يظهروا : أى لم يعلموا عورات النساء لصغرهم .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن دخول البيوت إلا بعد الاستئذان والسلام على أهلها منعا للقيل والقال والاطلاع على عورات الناس وأسرارهم ـ أمر رسوله أن يرشد المؤمنين إلى غض البصر عن المحارم لمثل السبب المتقدم ، إذ ربما كان ذلك ذريعة إلى وقوع المفاسد وانتهاك الحرمات التى نهى الدين عنها .

الإيضاح

(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) أى قل أيها الرسول للمؤمنين كفوا أبصاركم عما حرم الله عليكم ولا تنظروا إلا ما يباح لكم النظر إليه ، فإن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرفوا أبصارهم عنه سريعا لما رواه مسلم عن عبد الله البَجَلىّ قال :

« سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجاءة فأمرني أن أصرف بصرى » ، وروى أبوداود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلىّ : « ياعلىّ لاتُتْبِع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة » ، وفى الصحيح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والجلوسَ على الطرقات ، قالوا يا رسول الله لابد لنا من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال صلى الله عليه وسلم: إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه ، قالوا وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال غض البصر وكفّ الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

والحكمة فى ذلك : أن فى غض البصر سدا لباب الشر ، ومنعا لارتكاب المآثم والذنوب ، ولله در أحمد شوق حيث يقول :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

(ويحفظوا فروجهم) بمنعها من عمل الفاحشة ، أو بحفظها من أن أحدا ينظر إليها ، وقد جاء فى الحديث : « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » .

(ذلكم أزكى لكم) أى ما ذكر من غض البصر وحفظ الفرج أطهر من دنس الريبة وأنفع دينا ودنيا فقد قالوا : النظر بريد الزنا ورائد الفجور ، ولله در شاعرهم :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فعلت فى قلب فاعلها فعل السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها فى أعين العِين موقوف على الخطر
يسر ناظره ما سر خاطره لا مرحبا بسرور عاد بالضرر

(إن الله خبير بما يصنعون) فلا يخفى عليه شىء مما يصدر منهم من الأفعال كإجالة النظر واستعمال سائر الحواس ، وماذا يراد بذلك ، فلتكونوا على حذر منه تعالى فى كل ماتأتون وما تذرون .

وبعد أن أمر رسوله بأمر المؤمنين بغض أبصارهم أمره بأن يأمر المؤمنات بذلك .

(وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن النظر إليه من عورات الرجال والنساء (ما بين السرة والركبة) وإذا نظرن إلى ما عدا ذلك بشهوة حرم ، وبدونها لا يحرم ، ولكن غض البصر عن الأجانب أولى بهن وأجمل ؛ لما روى أبو داود والترمذى عن أم سلمة « أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وميمونة إذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه بعد ما أُمِرْنا بالحجاب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجبا منه ، فقلت يا رسول الله : أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو عمياوان أنتما ؟ أو لستما تبصرانه ؟ » .

(ويحفظن فروجهن) عما لا يحل لهن من الزنا والسحاق ويسترنها حتى لا يراها أحد .

(ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) أى ولا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه مما جرت العادة بظهوره كالخاتم والكحل والخضاب ، وإنما المؤاخذة فى إبداء ما خفى من الزينة كالسوار والخلخال والدُّمْلُج والقلادة والإكليل والوشاح والقُرْط ، لأن هذه الزينة واقعة فى مواضع من الجسد (وهى الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن) لا يحل النظر إليها إلا لمن استثنى فى الآية بعد .

ولما نهى عن إبداء الزينة أرشد إلى إخفاء بعض مواضعها فقال :

(وليضربن بخمرهن على جيوبهن) أى وليلقين خمرهن على جيوبهن ليسترن بذلك شعورهن وأعناقهن وصدورهن حتى لا يرى منها شىء ، وكان النساء يغطين رءوسهن بالخمر ويسدلنها من وراء الظهر فتبدو نحورهن وبعض صدورهن كعادة الجاهلية فنهين عن ذلك ، قالت عائشة : رحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) شققن مروطهن فاختمرن بها .

(ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن) أى قل للمؤمنات لايظهرن هذه الزينة الخفية إلا لأزواجهن ، فإنهم المقصودون بها ، والمأمورات نساؤهم بصنعها لهم، حتى إن لهم ضربهن على تركها ، ولهم النظر إلى جميع بدنهن ، أو لآباء النساء أو لآباء الأزواج أو لأبنائهن أو لأبناء أزواجهن أو لأخواتهن أو لأبناء الإخوة أو لأبناء الأخوات ، لكثرة المخالطة بينهم و بينهن ، وقلة توقع الفتنة من قبلهم ولأن الطباع السليمة تأبى أن تفتتن بالقريبات ، إلى أنهن محتاجات إلى صحبتهم فى الأسفار للركوب والنزول .

(أو نسائهن) أى المختصات بهن بالصحبة والخدمة .

(أو ماملكت أيمانهن) من الجوارى ، أما العبيد فقد اختلفوا فيهم ، فقال قوم عبد المرأة محرم لها فيجوز له الدخول عليها إذا كان عفيفا ، وله أن ينظر إلى بدن مولاته إلا ما بين السرة والركبة كالمحارم ، وروى ذلك عن عائشة وأم سلمة ، وقد روى أن عائشة كانت تمتشط وعبدها ينظر إليها ، وقال قوم هو كالأجنبى معها وهو رأى ابن مسعود والحسن وابن سيرين ، ومن ثم قالوا لاينظر العبد إلى شعر مولاته ، وسئل طاوس هل يرى غلام المرأة رأسها وقدمها ؟ قال ما أحب ذلك إلا أن يكون غلاما يسيرا ، فأما رجل ذو لحية فلا .

(أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال) وهم الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم لاغرض لهم إلا ذلك ولا حاجة لهم إلى النساء ، إما لأنهم طعنوا فى السن ففنيت شهواتهم ، و إما لكونهم ممسوحين قطعت منهم أعضاء التناسل .

(أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) أى أو الأطفال الذين لم يبلغوا سن الشهوة والقدرة على ملامسة النساء .

ثم نهى عن إظهار وسوسة الحلى بعد النهى عن إبداء مواضعه فقال :

(ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن) أى ولا يضربن بأرجلهن

الأرض لتقعقع خلاخلهن ، فإن ذلك مما يهيج الرجال و يورث ميلا إليهن ، وللنساء أفانين فى هذا فقد يجعلن الخرز ونحوه فى جوف الخلخال ، فإذا مشين ولو هونا كان له رنين وصوت خاص ، ومن الناس من تهيجه وسوسة الحلى أكثر مما تهيجه رؤيته .

(وتو بوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) أى ارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم به ونهاكم عنه من غض البصر وحفظ الفرج وترك دخول بيوت غيركم بلا استئذان ولا تسليم ، تفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة .

أخرج أحمد والبخارى والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر أنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « أيها الناس تو بوا إلى الله ، فإنى أتوب إليه كل يوم مائة مرة » .

ومن شرط التوبة : الإقلاع عن الذنب والندم على ما مضى والعزم على ألا يعود إليه ورد الحقوق إلى أهلها ، لا كما يظن الناس الآن أنها كلمة تلاك باللسان دون أن يكون لها أثر فى القلب ولا عزم على عدم العود ، حتى إن كثيرا ممن يزعمون أنهم تابوا من الذنب يحكون ما فعلوه من الآثام على وجه الفخر والاستلذاذ بذكره ، وهذا دليل على أنهم كاذبون فى توبتهم مراءون فى أفعالهم .

وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ، وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ

بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٣٤) .

شرح المفردات

الأيامى : واحدهم أيم وهو كما قال النضر بن شُميل كل ذكر لا أنثى معه ، وكل أنثى لا ذكر معها بكرا كانت أو ثيبا ، ويقال آمت المرأة وآم الرجل إذا لم يتزوجا بكرين أو ثيبين ، وكثر استعماله فى الرجل إذا ماتت امرأته وفى المرأة إذا مات زوجها ، والصالحين : أى الصالحين للنكاح والقيام بحقوقه ، والإماء : واحدهن أمة وهى الرقيقة غير الحرة ، واسع : أى غنى ، وليستعفف : أى وليجتهد فى العفة : لا يجدون : أى لا يتمكنون من وسائله وهى المال . والكتاب والمكاتبة : كالعتاب والمعاتبة يراد بها شرعا إعتاق المملوك بعد أداء شىء من المال منجما أى فى موعدين أو أكثر فيقول له كاتبتك على كذا درهما ويقبل المملوك ذلك ، فإذا أداه عتق وصار أحق بمكاسبه ، كما صار أحق بنفسه ، والفتيات : واحدهن فتاة ، ويراد بالفتى والفتاة لغة العبد والأمة ، والبغاء : الزنا ، والتحصن : العفة ، لتبتغوا أى لتطلبوا : عرض الحياة الدنيا : أى الكسب وبيع الأولاد ، مبينات : أى مفصلات ما أنتم فى حاجة إلى بيانه من الأحكام والآداب ، مثلا : أى قصة عجيبة من قصص الماضين كقصة يوسف ومريم .

المعنى الجملى

لما أمر سبحانه بغض الأبصار وحفظ الفروج ونحوهما مما يفضى إلى السفاح أعقبه بالأمر بإنكاح الأيامى ، لأنه الوسيلة لبقاء هذا النوع وحفظ الأنساب الذى يستدعى مزيد الشفقة على الأولاد وحسن تربيتهم ودوام الألفة بينهم ؛ ثم ذكر حكم من يعجز عن ذلك لعدم وجود المال لديه ، ثم رغب فى مكاتبة الأرقاء ، ليصيروا

أحرارا فى أنفسهم وفى أموالهم يتزوجون كما يشاءون ، و بعدئذ أردف ذلك بالنهى عن إكراه الإماء على الفجور إن أردن العفة ، ابتغاء ظل زائل من عرض الدنيا .

ثم ختم هـذا ببيان أنه أنزل عليكم فى هذه السورة وفى غيرها آيات مبينات لكل ما أنتم فى حاجة إلى بيانه من أحكام وآداب وحدود زاجرة ، وعقوبات رادعة، وقصص عجيبة عن الماضين وأمثال مضروبة لتكون عبرة وذكرى لكم .

الإيضاح

(وأنكحوا الأيامى منكم) أى زوّجوا من لازوج له من الأحرار والحرائر : أى من الرجال والنساء ، والمراد بذلك المساعدة بكل الوسائل حتى يتسنى لهم ذلك كمدهم بالمال وتسهيل الوسائل التى بها يتم ذلك الزواج والمصاهرة .

(والصالحين من عبادكم وإمائكم) أى والقادرين والقادرات على النكاح والقيام بحقوق الزوجية من الصحة والمال ونحو ذلك .

والخلاصـة — إن فى الآية أمرا للأولياء بتزويج من لهم عليهم حق الولاية وللسادة بتزويج العبيد والإماء ، والجمهور قد حملوا الأمر على الاستحسان لا على الوجوب، لأنه قد كان فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وفى سائر العصور بعـده أيامى من الرجال والنساء ولم ينكر ذلك أحد عليهم ، والظاهر أن الأمر يكون للوجوب إذا خيفت الفتنة وغلب على الظن حصول السفاح من الرجل أو المرأة .

ثم رغب فى الزواج بالفقير والفقيرة وألا يكون عدم وجدان المال حائلا عن إتمامه فقال :

(إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) أى لاتنظروا إلى فقر من يخطب إليكم أو فقر من تريدون زواجها ، ففى فضل الله ما يغنيهم والمال غاد ورائح .

وكم يسر أتى من بعد عسر وفرّج كُرْبة القلب الشجىّ

(والله واسع عليم) أى والله ذو سعة وغنى ، فلا انتهاء لفضله ولا حد لقدرته ،

فهو يسع هذين الزوجين وغيرهما ، وهو عليم يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

قال ابن عباس : أمر الله سبحانه بالنكاح ورغبهم فيه وأمرهم أن يزوجوا أحرارهم وعبيدهم ووعدهم فى ذلك الغنى .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازى فى سبيل الله » .

وبعد أن بين حال القادرين على النكاح ووسائله ، بين حال العاجزين عن تلك الوسائل فقال :

(وليستعفف الذين لايجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله) أى وليجتهد فى العفة وصون النفس من لايتمكن من المال الذى به يتم النكاح ، ولينتظر أن يغنيه الله من فضله حتى يصل إلى بغيته من النكاح ، وقد جاء فى الحديث الصحيح : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء » الباءة مؤن النكاح من مهر ونفقة وكسوة ، والوجاء نوع من الخصاء يكون برض عروق الأنثيين مع بقاء الخصيتين كما هما ، فشبه الصوم فى قطعه شهوة النساء به .

(والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا) أى والمماليك الذين يطلبون من سادتهم أن يكاتبوهم على أداء مال معين نجوما ليصيروا بعد أدائها أحرارا ، ويكونون قادرين على الكسب وأداء ما كوتبوا عليه مع الأمانة والصدق ـ فكاتبوهم ويكونون بعد انتهاء الأجل وأداء ما أوجبوه على أنفسهم أحرارا فى رقابهم وفى كسبهم .

ثم حث المؤمنين جميعا على تحرير الرقاب فقال :

(وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) أى وآتوا أيها السادة المكاتبين شيئا من مال الله الذى أعطاكم وليس لكم فيه فضل ، فإن الله ربكم ورب عبيدكم ، وأموالكم

ملكه ، وأعطوا أيها الحكام المكاتبين سهومهم التى جعلها الله لهم فى بيت المال فى مصارف الزكاة بقوله (وفى الرقاب) أى فى تحرير الأرقاء .

وفى هذا حث لجميع المؤمنين على عتق الرقاب ، روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة حق على الله عونهم : المكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح يريد العفاف ، والمجاهد فى سبيل الله » .

ثم نهى المؤمنين عن السعى فى جمع المال بسبل الحرام فقال :

(ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) أى ولا تكرهوا إماءكم على الزنا إن كنّ يردن التعفف والتحصن ، التماسا لعرَض الدنيا من مال وزينة ورياش .

وفى قوله : (إن أردن تحصنا) زيادة فى تقبيح حالهم وتشنيع عليهم ، فإن ذا المروءة لا يرضى بفجور من يحويه بيته من إمائه ، فضلا عن أمرهن بذلك أو إكراههن عليه ولا سيما عند إرادة التعفف وتوافر الرغبة فيه .

والخلاصة — لا تفعلوا ما أنتم عليه من إكراه الإماء على البغاء طلبا لمتاع سريع الزوال وشيك الفناء والاضمحلال .

أخرج مسلم وأبو داود عن جابر رضى الله عنه أن جارية لعبد الله بن أبىّ ابن سلول يقال لها (مُسَيْكة) وأخرى يقال لها (أميمة) كان يكرههما على الزنا فشكتا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية .

وأخرج ابن مردويه عن على كرم الله وجهه أنهم كانوا فى الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا ليأخذوا أجورهن ، فنهوا عن ذلك فى الإسلام ونزلت الآية .

ثم أبان أنهن إن أكرهن فالوزر على من أكرههن لا عليهن فقال :

(ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) أى ومن يكرههن على البغاء فإن الله غفور رحيم لهن من بعد إكراههن والذنب على المكرِه لهن ، وكان الحسن إذا قرأ الآية قال : لهن والله ، لهن والله .

و بعد أن فصل هذه الأحكام و بيّنها امتنّ على عباده بذلك فقال :

(ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين) أى ولقد أنزلنا آيات القرآن مبينات لما أنتم فى حاجة إليه من الأحكام والآداب ، كما أنزلنا قصصا من أخبار الأمم السالفة كقصة يوسف وقصة مريم وفيها شبه بقصص عائشة ، وفيها عظة لمن اتقى الله وخاف عقابه وخشى عذابه .

وأثر عن على كرم الله وجهه فى وصف القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله .

اَللّٰهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، اَلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَاشَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللّٰهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللّٰهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) .

شرح المفردات

نور : أى ذو نور أى هو هادٍ أهل السموات والأرض ، والمراد العالم كله . والمشكاة : لفظ حبشى معرّب يراد به الكوة غير النافذة . الزجاجة : القنديل من الزجاج . والدرىّ : المضىء المتلألئ منسوب إلى الدر . لاشرقية ولا غربية : أى ضاحية للشمس لا يظلها جبل ولا شجر ولا يحجبها عنها شىء من الشروق إلى الغروب. يضرب الله الأمثال : أى يبين للناس الأشباه والأمثال .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أنزل فى هذه السورة آيات مبينات لكل مايحتاج إليه الناس فى صلاح أحوالهم فى معاشهم ومعادهم من الشرائع والأحكام والآداب والأخلاق بين أنه نور السموات والأرض بما بث فيهما من الآيات الكونية والآيات التى أنزلها على رسله دالة على وجوده ووحدانيته وسائر صفاته من قدرة وعلم إلى نحو أولئك ، هادية إلى صلاح أمورهم فى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(الله نور السموات والأرض) أى الله هاد أهل السموات والأرض بما نصب من الأدلة فى الأكوان و بما أنزل على رسله من الآيات البينات ، فهم بنوره إلى الحق يهتدون ، و بهداه من حيرة الضلال ينجون .

(مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) أى مثل أدلته التى بثها فى الآفاق وهدى بها من شاء من عباده كنور مشكاة فيها سراج ضخم ثاقب له الصفات الآتية .

(المصباح فى زجاجة) أى وذلك المصباح فى قنديل من الزجاج الصافى الأزهر .

(الزجاجة كأنها كوكب درىّ) أى الزجاجة كأنها كوكب ضخم مضىء من درارى النجوم وعظامها كالزُّهرة والمُشْترى .

(يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية) أى رويت ذبالته (فتيلته) بزيت شجرة زيتونة كثيرة المنافع ، زرعت على جبل عال أوصحراء واسعة فهى ضاحية للشمس لايظلها جبل ولا شجر ولا يحجبها عنها حاجب من حين طلوعها إلى حين غروبها ، فزيتها أشد مايكون صفاء .

فقوله : (لاشرقية ولا غربية) أى لاشرقية فحسب ، ولا غربية فحسب ، بل هى شرقية غربية تصيبها الشمس من حين طلوعها إلى حين غروبها كما يقال فلان لامسافر ولا مقيم إذا كان يسافر أحيانا ويقيم أخرى .

(يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار) أى هو لصفائه و بريقه ولمعانه كأنه يضىء بنفسه دون أن تمسه النار ، لأن الزيت إذا كان خالصا صافيا ثم رئى من بعد يرى كأن له شعاعا ، فإذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوء ـ كذلك قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه ازداد نورا على نور وهدى على هدى .

قال يحيى بن سلام : قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبيَّن له ، لموافقته إياه ، وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » .

(نور على نور) أى هو نور مترادف متضاعف ، قد تناصرت فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم يبق مما يقوى النور و يزيده إشراقا و يمده بإضاءة بقية .

ذاك أن المصباح إذا كان فى مكان ضيق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره ، بخلاف المكان الواسع فإن الضوء ينبعث فيه و ينتشر ، والقنديل أعون شىء على زيادة الإنارة ، وكذلك الزيت وصفاؤه .

(يهدى الله لنوره من يشاء) أى يوفق الله من يشاء من عباده لإصابة الحق بالنظر والتدبر وتوجيه الفكر لسلوك طريق الجادّة الموصلة إليه ، ومن لم يتدبر فهو كالأعمى سواء لديه جُنْح الليل الدّامس ، وضَحْوة النهار الشامس ، وعن على رضى الله عنه : « الله نوّر السموات والأرض ونشر فيهما الحق و بثه فأضاءا بنوره » .

(ويضرب الله الأمثال للناس) أى ويسوق الله الأمثال للناس فى تضاعيف هدايتهم على حسب ما تدعو إليه حالهم ، لما فيها من الفوائد فى النصح والإرشاد ، إذ بها تتفتق الأذهان للوصول إلى الحق ، و بها تأنس النفس بتصويرها المعانى بصور المحسوسات التى تألفها وتدين بها ، ولأمر ما كثرت فى القرآن الكريم فقلّما ساق حجاجا أو أقام دليلا إلا أردفه بالمثل ليكون أدعى إلى الإقناع ، وأرجى للاقتناع .

(والله بكل شىء عليم) فيعطى هدايته من يستحقها ممن صفت نفوسهم ،

واستعدوا لتلقى أحكام الدين وآدابه ؛ وكذلك يجعل وسائلها على ضروب شتى على حسب اختلاف أحوال عباده ، لتقوم له الحجة عليهم .

وفى هذا وعد و بشارة لمن تدبر الأمثال ووعاها ، ووعيد و إنذار لمن لم يتفكر فيها ولم يكترث بها ، فإنه لا يصل إلى الحق ولا يهتدى لطريقه .

وخلاصة ذلك ما قاله ابن عباس : هذا مثل نور الله وهداه فى قلب المؤمن ، فكما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار ، فإذا مسته ازداد ضوءا على ضوء - يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه ازداد هدى على هدى ونورا على نور .

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)

شرح المفردات

المراد بالبيوت : المساجد ، وأذن : أمر . أن ترفع : أى أن تعظم وتطهر عن الأنجاس وعن اللغو من الأقوال . يسبح : أى ينزه و يقدس . الغدو والغداة : أول النهار . والآصال : واحدها أصيل وهو العشى : أى آخر النهار . تلهيهم : أى تشغلهم وتصرفهم . تجارة : أى نوع من هذه الصناعة ، ولا بيع : أى فرد من أفراد البياعات وخصه بالذكر لأنه أدخل فى الإلهاء ، و إقام الصلاة : أى إقامتها لمواقيتها ،

وإيتاء الزكاة : أى المال الذى فرض إخراجه للمستحقين ، واليوم : هو يوم القيامة، وتتقلّب فيه القلوب والأبصار : أى تضطرب وتتغير من الهول والفزع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر - جلّت آلاؤه - نوره لعباده وهدايته إياهم على أتم الوجوه - بين هنا حال من حصلت لهم الهداية بذلك النور، وذكر بعض أعمالهم القلبية والحسية .

الإيضاح

(فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه) أى كمشكاة فى بيوت أمر الله بتطهيرها من الأنجاس الحسية والمعنوية ، كاللغو ورفث الحديث وأمر بذكره فيها وإخلاص العبادة له .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « المساجد بيوت الله فى الأرض تضىء لأهل السماء كما تضىء النجوم لأهل الأرض » .

وعن عمرو بن ميمون قال : أدركت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون : المساجد بيوت الله ، وحق على الله أن يكرِم من زاره فيها .

(يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) أى ينزه اللهَ ويقدسه فى أول النهار وآخره، رجال لاتشغلهم الدنيا وزخرفها ولا بيوعهم وتجاراتهم عن ذكر ربهم وهو خالقهم ورازقهم ، إذ يعلمون أن ما عنده خير لهم وأنفع مما بأيديهم ، فما عندهم ينفد، وما عند الله باق ، ويؤدون الصلاة فى مواقيتها على الوجه الذى رسمه الدين ، ويؤتون الزكاة المفروضة عليهم تطهيرا لأنفسهم من الأرجاس .

ونحو الآية قوله : « يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَاأَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ » الآية وقوله : « يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ » .

ثم ذكر السبب فى شغل أنفسهم بالعبادة فقال :

(يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار) أى إنهم يخافون عقاب يوم تضطرب فيه الأفئدة من الهول والفزع وتشخص فيه الأبصار من الهلع والحيرة والرعب والخوف .

ونحو الآية قوله : « وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ » وقوله : « إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ » .

ثم بين مآل أمرهم وحسن عاقبتهم فقال :

(ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) أى يفعلون هذه القربات من التسبيح والذكر وإيتاء الزكاة مع الخوف من عذاب يوم القيامة ـ ليثيبهم الله على حسناتهم التى فعلوها ، فرضها ونفلها واجبها ومستحبها .

ونحو الآية قوله : « إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ، فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ، وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا » .

وفى قوله (أحسن ما عملوا) إيماء إلى أنه لا يجازيهم على مساوئ أعمالهم بل يغفرها لهم .

(ويزيدهم من فضله) أى يجزيهم بأحسن الأعمال ويضاعف لهم ما يشاء كما قال : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » وقال : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

ثم نبه إلى كمال قدرته وعظيم جوده وسعة إحسانه فقال :

(والله يرزق من يشاء بغير حساب) أى إنه تعالى يعطيهم غير أجزية أعمالهم من الخيرات ما لا يفى به الحساب ، فهم لما اجتهدوا فى الطاعة ، وخافوا ربهم أشد الخوف ـ جازاهم بالثواب العظيم على طاعتهم وزادهم الفضل الذى لا غاية له لخوفهم من قهره وشديد عذابه .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) .

شرح المفردات

السراب : ما يرى فى الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب و يجرى على وجه الأرض كأنه ماء ، والقيعة والقاع : المنبسط من الأرض ، والظمآن : شديد العطش . لجىّ : أى ذى لج (بالضم) واللج معظم الماء، والمراد بحر عميق الماء كثيره . يغشاه : أى يغطيه . لم يكد يراها : أى لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها .

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه أحوال المؤمنين وأنهم فى الدنيا يكونون فى نور الله و به يستمسكون بالعمل الصالح ، وفى الآخرة يفوزون بالنعيم المقيم والثواب العظيم ـ أردف ذلك ببيان حال أضدادهم وهم الكفار ، فذكر أنهم يكونون فى الآخرة فى أشد الخسران والبوار ، وفى الدنيا فى ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ، وضرب لكلتا الحالين مثلا يوضحها أتم الإيضاح والبيان .

الإيضاح

(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) شبه الأعمال الصالحة التى يعملها من جحدوا توحيد الله وكذبوا بهذا القرآن

وبمن جاء به ويظنون أنها تنفعهم عند الله وتنجيهم من عذابه، ثم تخيب فى العاقبة آمالهم ويلقون خلاف ما قدروا - بالسراب يراه من اشتد به العطش فيحسبه ماء فيطلبه ويظن أنه قد حصل على ما يبغى، حتى إذا جاءه لم يجد شيئا - هكذا حال الكافرين يحسبون أعمالهم نافعة منجية لهم من بأس الله، حتى إذا جاءهم العذاب يوم القيامة لم تنفعهم ولم تغنهم من عقابه إلا كما ينتفع بالسراب من اشتد ظمؤه، واحتاج إلى ما به يروى غلته.

ثم بين شديد عقابه بقوله:

(ووجد الله عنده فوفاه حسابه) أى ووجد عقاب الله الذى توعد به الكافرين أمامه وعندئذ تغير ما كان يظنه من النفع العظيم إلى ضرر محقق فجاءته الزبانية تعتله وتسوقه إلى جهنم وتسقيه الحميم والغساق. ونحو الآية قوله: « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ».

(والله سريع الحساب) لا يشغله حساب عبد عن حساب آخر.

وخلاصة ما سلف — إن الخيبة والخسران فى الآخرة لمن عملوا صالح الأعمال فى الدنيا كصلة الأرحام وإغاثة الملهوفين وقِرى الأضياف ونحو ذلك. وظنوا أنها تنجيهم من عذاب الله، وهم مع ذلك جاحدو وحدانية ربهم مكذبون لرسله، فما مثلهم إلا مثل من اشتد أُوامه ورأى السراب فخاله ماء وظن أنه قد وجد ضالته فسعى إليه، حتى إذا جاءه لم يجد شيئا ورجع بخفَّى حُنين.

هذه حالهم فى الآخرة، أما حالهم فى الدنيا فكما قال:

(أو كظلمات فى بحر لجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب) أى ومثل أعمالهم التى عملت على غير هدى مثل ظلمات مترادفة فى بحر عميق ماؤه، بعيد غوره، يغطيه موج من فوقه موج من فوقه سحاب - فالظلمات هى أعمال الكافرين، والبحر اللجىّ قلوبهم التى غمرها الجهل وتغشتها الحيرة والضلالة،

فلا تعقل ما فى الكون من آيات ولا تسمع عظة الناصحين ، ولا تبصر حجج الله ، فتلك ظلمات بعضها فوق بعض .

قال الحسن : الكافر له ظلمات ثلاث : ظلمة الاعتقاد ، وظلمة القول ، وظلمة العمل ، وقال ابن عباس : هى ظلمة قلبه و بصره وسمعه .

والخلاصة — إن الكافر لشدة إصراره على كفره تراكمت عليه الضلالات ، حتى إن أظهر الدلالات إذا ذكرت عنده لايفهمها ، فقلبه مظلم فى صدر مظلم فى جسد مظلم .

(ظلمات بعضها فوق بعض) أى ماتقدم ذكره ظلمات متراكمة ، فإن البحر يكون مظلم القعر جدا بسبب غور الماء ، فإذا ترادفت الأمواج ازدادت الظلمة ، فإذا كان فوق الماء سحاب يغطى النجوم ويحجب أنوارها بلغت الظلمة حدا عظيما .

(إذا أخرج يده لم يكد يراها) أى إذا أخرج الناظر يده ، وهى أقرب ما يرى إليه ، لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها .

(ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) أى ومن لم يرزقه الله إيمانا وهدى من الضلالة فما له هداية من أحد .

ونحو الآية قوله : « وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ » وقوله : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » .

وخلاصة ذلك — من لم يوله الله نور توفيقه ولطفه فهو فى ظلمة الباطل لانور له .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (٤٢) .

شرح المفردات

يسبح : أى ينزه ويقدس ، صافات : أى باسطات أجنحتها فى الهواء ، المصير : المرجع .

المعنى الجملى

لما وصف سبحانه قلوب المؤمنين بالنور والهداية وقلوب الكافرين بالظلمة ـ أردف ذلك بذكر دلائل التوحيد وساق منها ثلاثة .

الإيضاح

(١) (ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات) أى ألم تعلم بالدليل أن الله ينزهه آنا فآنا فى ذاته وصفاته وأفعاله جميع ما فى السموات والأرض من العقلاء وغيرهم ، تنزيها تفهمه أرباب العقول السليمة ؛ إذ كل المخلوقات فى وجودها و بقائها دالة على وجود خالق لها متصف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص .

وخص التنزيه بالذكر مع دلالة ما فيهما على اتصافه بجميع أوصاف الكمال ، من جرّاء أن سياق الكلام لتقبيح شأن الكفار الذين أخلوا بالتنزيه ، فجعلوا الجمادات شركاء له سبحانه ، ونسبوا له اتخاذ الولد إلى نحو أولئك ، تعالى ربنا عما يقول الكافرون علوّا كبيرا .

كما ذكر الطير مع دخولها فى جملة ما فى الأرض ، من قِبل أنها غير مستقرة فيها ، ولاستقلالها ببديع الصنع و إنبائها عن كمال قدرة خالقها ولطف تدبير مبدعها ، فإن منح تلك الأجرام الثقيلة الوسائل التى تتمكن بها من الوقوف فى الجو وتتحرك كيف تشاء ، و إرشادها إلى طريق استعمالها بالقبض والبسط والتحريك يمينا وشمالا ـ حجة واضحة الدلالة على كمال قدرة الصانع المجيد ، وحكمة المبدع المعيد .

(كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون) أى كل مصلّ منهم ومسبح قد علم الله صلاته وتسبيحه ، لايخفى عليه شىء من أفعالهم طاعتها ومعصيتها ، محيط علمه بها ومجازيهم عليها .

وقد يكون المعنى - إن كل مصلّ ومسبح يعلم مايجب عليه من الصلاة والتسبيح الذى كلف به ، وليس بالبعيد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التى لايكاد العقلاء يهتدون إليها .

انظر إلى النحل كيف تبنى بيوتها المسدسة التى لايتمكن من بنائها فطاحل المهندسين ، و إلى العنكبوت كيف تفعل الحيل اللطيفة لاصطياد الذباب ، و إلى الدب يستلقى فى ممر الثور ، حتى إذا قرب منه ورام نطحه شبث ذراعيه بقرنيه ولا يزال ينهش مابين ذراعيه حتى يثخنه :

(ولله ملك السموات والأرض و إلى الله المصير) أى إن لله تعالى ملك السموات والأرض وهو الحاكم المتصرف فيهما إيجادا و إعداما بدءا و إعادة ، و إليه وحده مصيركم ومعادكم ، فيوفيكم أجور أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا ، فأحسنوا عبادته واجتهدوا فى طاعته وقدموا لأنفسكم صالح الأعمال .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) .

شرح المفردات

يزجى : يسوق برفق وسهولة ، يؤلف : أى يجمع بين أجزائه وقطعه ، ركاما : أى مترا كما بعضه فوق بعض ، الودق : المطر ، من خلاله : أى فتوقه التى حدثت بالترا كم ، واحدها خلل كجبال وجبل ، من جبال : أى من قطع عظام تشبه الجبال ، والسنا : الضوء ، يذهب بالأبصار : أى يخطفها لشدة ضوئه وسرعة وروده ، وهو كقوله فى البقرة « يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ » يقلب الله الليل والنهار : أى يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا فى قصر ذاك حتى يعتدلا و يغير أحوالهما بالحر والبرد ، لأولى الأبصار : أى لأهل العقول والبصائر .

الإيضاح

(٢) هاتان الآيتان هما ثانى الدليلين على وحدانية الله وقدرته .

وخلاصتهما — ألم تعلم أيها الرسول الكريم أن الله يسوق السحاب بقدرته أول ماينشئه ، ثم يجمع بين ما تفرق من أجزائه ثم يجعل بعضه مترا كما فوق بعض ، فينزل المطر من فتوقه ، وحينا يُنزل منه قطعا كبيرة من البَرَد كأنها الجبال ، فيصيب بما ينزل منه من يشاء من عباده ، فيناله الخير والنفع العميم أو الضرر الشديد إذا كان فوق الحاجة ، و يصرفه عمن يشاء أن يصرفه ، وأن لهذا السحاب برقا يضىء بشدة وسرعة حتى ليكاد يخطف الأبصار ، وهـذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة ، إذ فيه توليد الضد من الضد ، ففيه توليد النار من الماء .

وانظر أيضا إلى اختلاف الليل والنهار وتقلبهما بزيادة أحدهما ونقص الآخر ، وإلى تغير أحوالهما بالحرارة والبرودة ، إن فى هذا لعبرة لمن اعتبر ، وعظة لمن تأمل فيه ممن له عقل ، فهو واضح الدلالة على أن له مدبرا ومقلبا لايشبهه شىء .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى : يؤذينى

ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلّب الليل والنهار » أخرجه البخارى ومسلم .

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) .

الإيضاح

(٣) هـذا هو ثالث الأدلة على التوحيد ، فقد استدل أوّلا بأحوال السماء والأرض ، وثانيا بالآثار العلوية ، وهنا استدل بأحوال الحيوان فقال :

(والله خلق كل دابة من ماء) أى والله خلق كل حيوان يدب على الأرض من ماء هو جزء مادته .

وخص الماء بالذكر من بين ما يتركب منه من المواد ، لظهور احتياج الحيوان إليه ، ولا سيما بعد كمال تركيبه ، ولامتزاج الأجزاء الترابية به .

ثم فصل أقسام الحيوان مما يدب على وجه الأرض فقال :

(فمنهم من يمشى على بطنه) كالحيات والسمك وغيرهما من الزواحف ، وسمى حركتها مشيا مع كونها تزحف زحفا ، إشارة إلى كمال القدرة ، وأنها مع عدم وجود آلة المشى كأنها تمشى .

(ومنهم من يمشى على رجلين) كالإنسان والطير .

(ومنهم من يمشى على أربع) كالأنعام والوحوش .

ولم يذكر سبحانه مايمشى على أكثر من ذلك كالعناكب وغيرها من الحشرات ؛ لدخوله فى قوله :

(يخلق الله ما يشاء) مما ذكر ومما لم يذكر مع الاختلاف فى الصور والأعضاء والحركات والطبائع والقوى والأفاعيل .

(إن الله على كل شىء قدير) أى إن الله على إحداث ذلك وخلقه وخلق ما يشاء من الأشياء - لذو قدرة فلا يتعذر عليه شىء أراده .

وعلى الجملة فاختلاف هذه الحيوانات فى الأعضاء والقوى ومقادير الأبدان والأعمار والأخلاق - لابد أن يكون بتدبير مدبر حكيم مطلع على أحوالها وأسرار خلقها ، لايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، تعالى الله عما يقول الجاحدون علوا كبيرا .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ، وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ساق سبحانه ما يدل على وجوده من أحوال السماء والأرض والآثار العلوية وأحوال الحيوان - ذكر هنا أن هذه وغيرها آيات واضحات دالة على وجود الخالق المدبر للكون لاخفاء فيها .

الإيضاح

(لقد أنزلنا آيات مبينات) أى لقد أنزلنا عليك دلائل واضحات على طريق الحق والرشاد ، لكن لايصل إلى فهمها إلا من أوتى بصيرة نيرة وفطرة سليمة تضىء له الفكر حتى يسير على نهج الحق ويبتعد عن الغى والضلال ، ومن ثم قال :

(والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) أى والله يرشد من يشاء إلى الطريق الذى لاعوج فيه ، وهو إخلاص العبادة له وحده والإنابة إليه .

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ

بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ؟ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ، قُلْ لَا تُقْسِمُوا ، طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) .

شرح المفردات

يتولى : أى يعرض ، مذعنين : أى منقادين ، مرض : أى فساد من أصل الفطرة يحملهم على الضلال ، ارتابوا : أى شكوا فى نبوّتك ، يحيف : أى يجور ، الظالمون : أى الذين يريدون ظلم الناس وجحد حقوقهم ، ويخشى الله : أى فيما صدر منه من الذنوب فى الماضى ، ويتقه : أى فيما بقى من عمره ، جهد أيمانهم : أى أقصى غايتها ، من قولهم : جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها ، تولوا : أى تتولوا (بحذف إحدى التاءين) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة الواضحة على توحيده وأتمّ بيانها ، ثم ذكر أنه يهدى بها من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم ، أعقبه بذكر من لم يهتد بها وهم المنافقون

الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، فيقولون : آمنا بالله و بالرسول ثم يفعلون ضد ما يقولون ، فإذا دعوا ليحكم بينهم الرسول فيما يتنازعون فيه أبوا وخافوا أن يحيف عليهم ، والمؤمن الصادق الإيمان إذا ما دعى إلى الله والرسول قال سمعا وطاعة ثم بيّن بعض أكاذيبهم التى يراءون بها و يدّعون الإخلاص فيها ، فمنها أنهم يحلفون أغلظ الأيمان إنهم مطيعون للرسول فى كل ما يأمرهم به ، حتى لو أمرهم بالخروج والجهاد لبوّا الأمر سراعا ، ثم أمر الرسول بنهيهم عن الحلف والأيمان ؛ لأن طاعتهم معروفة لاتحتاج إلى يمين ، و بأن يقول لهم : أطيعوا الله حقا لا رياء ، فإن أبيتم فإنما علىّ التبليغ وعليكم السمع والطاعة ، فإن أطعتمونى اهتديتم ، و إن توليتم فقد فعلت ما كلفت به ، وعلى الله الحساب والجزاء .

قال مقاتل : نزلت هذه الآية فى بشر المنافق دعاه يهودى فى خصومة بينهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا هو اليهودى إلى كعب بن الأشرف ، ثم تحا كما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحكم لليهودى فلم يرض المنافق بقضائه عليه السلام فقال نتحا كم إلى عمر رضى الله عنه ، فلما ذهبا إليه قال له اليهودى : قضى لى النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرض بقضائه ، فقال عمر للمنافق : أ كذلك ؟ قال بلى ، فقال مكانكما حتى أخرج إليكما ، فدخل رضى الله عنه بيته وخرج بسيفه فضرب به عنق المنافق حتى برد ، وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(و يقولون آمنا بالله و بالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين) أى و يقول هؤلاء المنافقون ، صدّقنا بالله و بالرسول وأطعنا الرسول ثم يخالفون ذلك فيعرضون عن طاعة الله ورسوله ضلالاً منهم عن الحق ، وما أولئك بالمؤمنين المخلصين الثابتين على الإيمان ، بل هم ممن فى قلوبهم مرض وقد مرنوا على النفاق يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

وخلاصة ذلك — لايدخل فى زمرة المؤمنين من يقول آمنا بالله والرسول وأطعنا ثم يعرض عما تقتضيه الطاعة و ينحاز إلى غير المؤمنين .

ثم بين هذا التولّى بقوله :

(و إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون) أى و إذا دعى هؤلاء المنافقون إلى كتاب الله و إلى رسوله ليحكم بينهم فيما اختصموا فيه بحكم الله - أعرضوا عن قبول الحق واستكبروا عن اتباع حكمه ، لأنه لايحكم إلا بالحق .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا » .

(و إن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين) أى و إذا كانت الحكومة لهم لاعليهم جاءوا إلى الرسول مطيعين ، لعلمهم بأنه يحكم لهم ، لأنه لايحكم إلا بالحق ، فإذعانهم لم يكن عن اعتقاد أن حكمه الحق ، بل لأنه وافق هواهم ، ومن جرّاء هذا لما خالف الحق قصدهم عدلوا عنه إلى غيره .

ثم فصل ما يحتمل أن يكون هو السبب فى عدولهم عن قبول حكمه صلى الله عليه وسلم بقوله :

(أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟) أى أسبب إعراضهم عن المحاكمة إليه صلى الله عليه وسلم أنهم مرضى القلوب بالكفر والنفاق ؟ أم سببه أنهم ارتابوا وشكوا فى نبوته عليه السلام على ظهور أمرها ؟ أم سببه أنهم يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم فى الحكم ؟ .

وخلاصة ذلك — لايخرج أمرهم عن أن يكون فى القلوب مرض لازم بالكفر والنفاق ، أو عروض شك فى الدين ، أو خوف من أن يجور الله ورسوله عليهم وأيا كان الأمر فهو كفر وضلال ، والله عليم بما انطوت عليه قلوبهم من المرض .

ثم أبطل السببين الأولين وأثبت الثالث فقال :

(بل أولئك هم الظالمون) أى ليس العدول إلا للسبب الأول فحسب ، فهم ما عدلوا إلا لما فى قلوبهم من المرض والنفاق وظلمهم لأنفسهم بمخالفة أمر ربهم ومعصيتهم له فيما أمرهم به من الرضا بحكم رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أحبوا وكرهوا والتسليم لقضائه .

وبعد أن نفى عنهم الإيمان الحق بيّن صفات المؤمن الكامل فقال :

(إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) أى ينبغى أن يكون قول المؤمنين إذا دعاهم الداعون إلى حكم الله وإلى حكم رسوله فيما بينهم وبين خصومهم - سمعنا كلامكم وأطعنا أمركم ، وأولئك هم الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مخوف .

وبعد أن رتب الفلاح على هذا النوع من الطاعة أتبعه ببيان أن كل طاعة لله ورسوله موجبة للفوز فقال :

(ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) أى ومن يطع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ، ويخش الله فيما صدر منه من الذنوب فيحمله ذلك على الطاعة وترك المعاصى ، ويتقه فى مستأنف أموره ، فأولئك هم الذين وصفوا بكل هذا هم الفائزون برضا الله عليهم يوم القيامة ، والآمنون من عذابه .

ثم حكى سبحانه نوعا آخر من أكاذيب المنافقين بقوله :

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن) أى وحلفوا بالله جاهدين أيمانهم بالغين غايتها - لئن أمرتهم بالخروج للجهاد والغزو ليلبُنَّ الطلب وليخرجُنّ كما أمرت .

والخلاصة — إنهم أغلظوا الأيمان وشددوها فى أن يكونوا طوع أمرك ورهن إشارتك وقالوا : أينما كنت نكن معك ، فإن أقمت أقمنا ، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا .

فرد الله عليهم وزجرهم عن التفوه بهذه الأيمان الفاجرة وأمره أن يقول لهم :

(قل لاتقسموا) أى قل لهم : لاتحلفوا ، فإن العلم بما أنتم عليه لايحتاج إلى قَسَم ويمين لوضوح كذبه .

ثم علل النهى عن الحلف بقوله :

(طاعة معروفة) أى لاتقسموا لأن طاعتكم معروفة لنا ، فهى طاعة باللسان فحسب من غير مواطأة من القلب لها ، ولا يجهلها أحد من الناس .

ونحو الآية قوله : « يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » وقوله : « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » .

ثم هددهم وتوعدهم على أيمانهم الكاذبة وأنه مجازيهم على أعمالهم السيئة ، ولا سيما ذلك النفاق المفضوح فقال :

(إن الله خبير بما تعملون) أى إنه تعالى لاتخفى عليه خافية من ظاهر أعمالكم وخافيها ، فيعلم ما تظهرونه من الطاعة المؤكدة بالأيمان الكاذبة ، وما تبطنونه من الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين ونحو ذلك من أفانين الشر والفساد التى دبرتموها .

ولما نبه سبحانه إلى خداعهم وأشار إلى عدم الاغترار بأيمانهم ـ أمر بترغيبهم وترهيبهم مشيرا إلى الإعراض عن عقوبتهم بقوله :

(قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أى مرهم باتباع كتاب الله وسنة رسوله ، وفى هذا إيماء إلى أن ما أظهروه من الطاعة ليس منها فى شىء .

ثم أكد الأمر السابق وبالغ فى إيجاب الامتثال به والحمل عليه بالترغيب والترهيب بقوله :

(فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم) أى فإن تتولوا عن الطاعة بعد أن أمركم الرسول بها ، فما ضررتم الرسول بشىء ، بل ضررتم أنفسكم ، لأنه عليه

ما أمر به من تبليغ الرسالة وقد فعل ، وعليكم ما أمرتم به من الطاعة ، فإن أنتم لم تفعلوا وتوليتم فقد عرّضتم أنفسكم لسخط الله وعذابه ، وإن أطعتموه فقد خرجتم من الضلال إلى الهدى ، فالنفع والضر عائدان إليكم .

(وإن تطيعوه تهتدوا، وما على الرسول إلا البلاغ المبين) أى وإن تطيعوا الرسول فيما أمركم به أو نهاكم عنه ـ تهتدوا إلى الحق الموصل إلى كل خير ، المنجّى من كل شر ، وما الرسول إلا ناصح وهادٍ ومبلغ لكم ، فإن أطعتموه لحظوظ أنفسكم أصبتم طريق الصواب ، وإن خالفتموه أوقعتم أنفسكم فى الهلكة .

والخلاصة — إن الرسول فعل ما يجب عليه من أداء الرسالة ، وقد بقى ما يجب عليكم أن تفعلوه .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » وقوله : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » .

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) .

المعنى الجملى

بعد أن بيّن أن من أطاع الرسول فقد اهتدى إلى الحق ، ومن اهتدى إلى الحق فجزاؤه دار النعيم ـ أردف ذلك بوعده الكريم بأنه سيجعل المؤمنين المطيعين لله ورسوله خلفاء فى الأرض ويؤيدهم بالنصرة والإعزاز ويبدلهم من بعد خوفهم من العدوّ أمنا فيعبدون الله وحده وهم آمنون ، ومن جحد هذه النعم من بعد ذلك فقد عصى ربه وكفر أنعمه .

روى الطبرانى والحاكم وابن مردويه عن أبىّ بن كعب قال : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة ، فكانوا لايبيتون إلا فى السلاح ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا : ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لانخاف إلا الله ؟ » فنزلت الآية .

الإيضاح

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) أى وعد الله المؤمنين منكم المصلحين لأعمالهم - ليورثنهم أرض المشركين من العرب والعجم ، وليجعلنهم ملوكها وساستها ، كما استخلف بنى إسرائيل بالشام حين أهلك الجبابرة وجعلهم ملوكها وسكانها .

وقد وفى سبحانه بوعده فإنه لم يمت عليه السلام حتى فتح الله عليه مكة وخَيْبَر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأخذ الجزية من مجوس هَجَر ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هِرَقْل ملك الروم ، والمقَوْقس فى مصر ، والنجاشى ملِك الحبشة .

ولما قبض صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى قام بالأمر بعده الخلفاء الراشدون فنهجوا منهجه ، وافتتحوا كثيرا من المشرق والمغرب ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم واستعبدوا أبناء القياصرة ، وصدق قول رسوله : « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » .

(وليمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم) أى وليجعلن دين الإسلام راسخا قويا ثابت القدم ، ويعظم أهله فى نفوس أعدائه الذين يواصلون الليل بالنهار فى التدبير لإطفاء أنواره لتعفو آثاره .

(وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) أى وليغيرنّ حالهم مما هى عليه من الخوف إلى الأمن ، قال الربيع بن أنس : « كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحوا من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لاشريك له سرًّا

وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ، حتى أُمروا بعد بالهجرة إلى المدينة فقدموها فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين يمسون فى السلاح و يصبحون فى السلاح فصبروا على ذلك ما شاء الله ، ثم إن رجلا من الصحابة قال يا رسول الله : أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس فيه حديدة ، فأنزل الله «وعد الله الذين آمنوا» إلى آخر الآية .

ونحو الآية قوله : « وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

ثم أتبع ذلك بتعليل التمكين وما معه بقوله :

(يعبدوننى لا يشركون بى شيئا) أى يعبدوننى غير خائفين أحدا غيرى .

(ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) أى ومن جحد هذه النعم فأولئك هم الذين أنكروا فضل المنعم بها وتناسوا جليل خطرها .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) .

شرح المفردات

معجزين فى الأرض : أى جاعلين الله عاجزا عن إدراككم و إهلاككم و إن هربتم فى الأرض جميعها .

المعنى الجملى

بعد أن بشر المؤمنين بأنه سيمكن لهم فى الأرض ويجعل لهم من بعد الخوف أمنا - أردف ذلك بأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة شكرا له على ما أنعم به عليهم، وإحسانا إلى عباده البائسين الفقراء كما أحسن إليهم بتبديل ذلهم عزة وضعفهم قوة، ثم أعقبه برفع استبعاد تحقق الوعد السابق، مع كثرة عَدد عدوهم وعُددهم، وبعدئذ ذكر أن مآلهم النار، وبئس القرار.

الإيضاح

(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) أى أقيموا أيها الناس الصلاة على الوجه الذى رسمه الدين فى مواقيتها ولا تضيعوها، وآتوا الزكاة التى فرضها على أهلها، لما فيها من الإحسان إلى الفقير والمسكين وذوى البؤس والحاجة وأطيعوا رسول ربكم فيما أمركم به ونهاكم عنه، لعل ربكم أن يرحمكم فينجيكم من شديد عذابه.

ثم بين أن الكافرين سيحل بهم النكال ولا يجدون مهربا مما أوعدهم به ربهم فقال:

(لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض) أى لا تظنن أيها الرسول أن الكافرين يجدون مهربا فى الأرض إذا أردنا إهلاكهم، بل نحن قادرون على أخذهم والبطش بهم متى أردنا، والكلام من وادى قولهم: (اسمعى يا جاره).

وبعدئذ بين مآلهم فى الآخرة فقال:

(ومأواهم النار ولبئس المصير) أى كما أنا سنضيق عليهم فى الدنيا وننكل بهم ولا يفلتون من عذابنا - سنجعل عاقبة أمرهم نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى.

والخلاصة — إنه سيلحقهم سخطنا فى الدنيا وسينالهم الذل والصغار، وسيكون مصيرهم فى الآخرة نارا وسعيرا وحميا وغساقا جزاء وفاقا، إنهم كذبوا بآياتنا كذابا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ، بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠).

شرح المفردات

ما ملكت أيمانكم: يشمل العبيد والإماء أى الذكران والإناث، الحلم: بسكون اللام وضمها أى وقت البلوغ إما بالاحتلام، وإما يبلوغ الخامسة عشرة سنة من حلم بفتح اللام، تضعون: أى تخلعون، الظهيرة: وقت اشتداد الحر حين منتصف النهار، والعورات: أى الأوقات التى يختل فيها تستركم، من قولهم: أعور الفارس: إذا اختلت حاله. جناح: أى إثم وذنب، طوافون عليكم: أى يطوفون عليكم للخدمة والمخالطة الضرورية، القواعد: واحدها قاعد، وهى العجوز، لايرجون نكاحا أى لايطمعن فيه لكبر سنهن، والتبرج: التكلف فى إظهار مايخفى من الزينة، من قولهم: سفينة بارج، إذا كان لاغطاء عليها.

المعنى الجملى

بعد أن نهى فيما سلف عن دخول الأجانب فى البيوت إلا بعد الاستئذان والتسليم على أهلها ، وبين أن فى ذلك الخير كل الخير لهم ، فإن لم يجدوا فيها أحدا رجعوا ؛ لما لذلك من كبير الأثر فى المجتمع الإسلامى ، بصيانة الآداب العامة ومنع القيل والقال وحفظ الأعراض والأنساب .

استثنى فى هذه الآيات دخول الأقارب بعضهم على بعض ودخول المملوكين على سادتهم ، وبين أن الاستئذان لا يكون فى جميع الأوقات ، بل فى ثلاث أوقات هى عورات لأرباب البيوت لما فيها من رفع الكلفة وقلة التحفظ فى الستر ، ثم ذكر أن النساء الطاعنات فى السن إذا لم يطمعن فى الزواج فلا حرج عليهن إذا لم يستعملن الزينة ، وعليهن أن يتعففن جهد الطاقة .

روى أن سبب نزول الآية «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث وقت الظهيرة إلى عمر رضى الله عنه غلاما من الأنصار يقال له مُدْلج، وكان عمر نائما فدق عليه الباب ودخل فاستيقظ وجلس فانكشف منه شىء ، فقال : لوددت أن الله تعالى نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا عن الدخول علينا فى هذه الساعة إلا بإذن ، فانطلق معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الآية قد نزلت فخرّ ساجدا » وهذا أحد موافقات رأيه الصائب رضى الله عنه للوحى .

وقيل إن السبب ما روى من أن أسماء بنت أبى مرثد دخل عليها غلام كبير لها فى وقت كرهت دخوله فيه فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فنزلت الآية .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة

العشاء) أى لايدخل أيها المؤمنون فى بيوتكم عبيدُكم و إماؤكم ثلاث مرات فى ثلاثة أوقات من ساعات ليلكم ونهاركم إلا بإذن : قبل صلاة الفجر لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة ، وكل ذلك مظنة انكشاف العورة ، وحين تخلعون ثيابكم التى تلبسونها وقت الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، لأنه وقت خلع ثياب اليقظة ولبس ثياب النوم .

وخص هـــذه الأوقات الثلاثة ، لأنها ساعات الخلوة ووضع الثياب والالتحاف باللحاف .

وهكذا حكم حال الذين لم يبلغوا الحلم من أطفالكم .

ثم علل طلب الاستئذان بقوله :

(ثلاث عورات لكم) أى لأن هذه الأوقات الثلاثة ثلاث عورات لكم يختل فيها التستر عادة .

و بعد أن بين حكم هذه الأوقات الثلاث بين حكم ما عدا ذلك فقال :

(ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) أى ليس عليكم معشر أرباب البيوت ولا على الذين ملكت أيمانكم من الرجال والنساء ولا على الذين لم يبلغوا الحلم من أطفالكم حرج ولا إثم فى غير هذه العورات الثلاث .

والخلاصة — لاحرج ولا إثم على الناس أن يدخل عليهم مماليكهم البالغون وصبيانهم الصغار بغير استئذان بعد هـذه الأوقات الثلاث ـ أما من بلغ الحلم فإنه لايدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال .

ثم علل الإباحة فى غيرها بقوله :

(طوافون عليكم بعضكم على بعض) أى هؤلاء المماليك والصبيان الصغار يدخلون و يخرجون على مواليهم وأقربائهم فى منازلهم غدوة وعشية بغير إذن ، لأنهم يخدمونهم ، أو لاحتياج الأقارب إليهم ، كما أن السادة والأقارب يطوفون على ذوى قرابتهم ومماليكهم إذا عرضت لهم حاجة إليهم .

ثم بين فضله على عباده فى بيان أحكام دينهم فقال :

(كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) أى ومثل هذا التبيين لتلك الأحكام يبين لكم شرائع دينكم وأحكامه ، والله عليم بما يصلح أحوال عباده ، حكيم فى تدبير أمورهم ، فيشرع لهم ما يصلح أحوالهم فى المعاش والمعاد .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن (يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) الآية ، وقوله فى النساء : (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى) الآية ، وقوله فى الحجرات : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » .

وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلين سألاه عن الاستئذان فى العورات الثلاث التى أمر الله بها فى القرآن فقال : إن الله ستير يحب الستر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجال فى بيوتهم ، فربما فجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمه فى حجره وهو على أهله ، فأمرهم الله أن يستأذنوا فى تلك العورات ، ثم بسط الله عليهم الرزق فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال فرأوا أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به .

ولما بين الله حكم الأرقاء والصبيان الذين هم أطوع للأمر وأقبل لكل خير - أتبعه بحكم البالغين الأحرار بقوله :

(و إذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم) أى و إذا بلغ الصغار من أولادكم وأقربائكم الأحرار سنّ الاحتلام وهو خمس عشرة سنة فلا يدخلوا عليكم فى كل حين إلا بإذن لا فى أوقات العورات الثلاث ولا فى غيرها ، كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه .

وذكر الله فى هذه الآية حكم الأطفال إذا بلغوا ولم يذكر حكم ما ملكت أيماننا مع أن ما قبلها فيه ذكر المماليك والأطفال - لأن حكم ما ملكت اليمين واحد كبارهم وصغارهم ، وهو الاستئذان فى الساعات الثلاث التى ذكرت فى الآية قبل .

ثم أكد نعمه عليهم ببيان أحكام دينهم بقوله :

(كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) أى كما بين لكم ماذكر غاية البيان ، يبين لكم مافيه سعادتكم فى دنياكم وآخرتكم ، وهو العليم بأحوال خلقه ، الحكيم فيما يدبر لهم .

ولما بين سبحانه حكم الحجاب حين إقبال الشباب أتبعه بحكمه حين إدباره فقال :

(والقواعد من النساء اللاتى لايرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة) أى والنساء اللواتى قعدن عن الولد كِبَرا ، وقد يئسن من التبعل فلا يطمعن فى الأزواج ، فليس عليهن إثم ولا حرج أن يخلعن ثيابهن الظاهرة كالملحفة والجلباب الذى فوق الخمار إذا كنّ لايبدين زينة خفية كشعر ونحر وساق لدى المحارم وغير المحارم من الغرباء .

وخلاصة ذلك — لاجناح على القواعد من النساء أن يجلسن فى بيوتهن بدرع وخمار ويضعن الجلباب ، مالم يقصدن بذلك الزينة وإظهار ما يجب إخفاؤه ـ هذا إذا لم يكن فيهن بقية من جمال تورث الشهوة ، فإن كان فيهن ذلك فلا يدخلن فى حكم الآية .

(وأن يستعففن خير لهن) أى وإن تعففن عن وضع جلابيبهن وأرديتهن ، فلبسها كان ذلك خيرا لهن من خلعها ، لتباعدهن حينئذ عن التهمة ، ولقد قالوا : لكل ساقطة فى الحى لاقطة .

ثم توعد من يخالف تلك الأوامر فقال :

(والله سميع عليم) أى والله سميع بما يجرى بينهن وبين الرجال من الأحاديث ، عليم بمقاصدهن لاتخفى عليه خافية من أمرهن ، فاحذروا أن يسوّل لكم الشيطان مخالفة ما به أمر وعنه نهى .

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ، فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) .

شرح المفردات

الحرج لغة : الضيق ، ويراد به فى الدين الإثم ، ماملكتم مفاتحه : أى ما كان تحت تصرفكم من بستان أو ماشية بطريق الوكالة أو الحفظ ، والصديق : يطلق على الواحد والجمع كالخليط والعدو ، جميعا : أى مجتمعين ، أشتاتا : أى متفرقين ، واحدهم شتيت ، على أنفسكم : أى على أهل البيوت ، طيبة : أى تطيب بها نفس المستمع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن للمماليك والصبيان الدخول فى البيوت فى غير العورات الثلاث بلا استئذان ولا إذن من أهل البيت ـ ذكر هنا أنه لاحرج على أهل هذه الأعذار الثلاثة فى تركهم للجهاد وما يشبهه ، وذلك يستلزم عدم الاستئذان منه صلى الله عليه وسلم فلهم القعود عندئذ من غير استئذان ولا إذن ، كما لاحرج عمن ذكروا بعدهم فى الأكل من البيوت المذكورة فى الآية .

قال صاحب الكشاف : والكلام على هذا التفسير صحيح لالتقاء الطائفتين فى أن كلا منهما منفى عنه الحرج ، ومثاله أن يستفتى مسافر عن الإفطار فى رمضان وحاجٌّ مُفْرِد عن تقديم الحلق على النحر فتقول : ليس على المسافر حرج أن يفطر ولا عليك يا حاجّ أن تقدم الحلق على النحر .

قال الحسن : أنزلت الآية فى ابن أم مكتوم وضع الله عنه الجهاد وكان أعمى .

وقال مقاتل : نزلت فى الحارث بن عمرو ، وكان قد خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازيا وخلف مالك بن يزيد على أهله ، فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال : تحرجت أن آكل من طعامك بغير إذنك .

الإيضاح

(ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) أى ليس على هؤلاء الثلاثة إثم فى ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم ، قاله عطاء وزيد بن أسلم .

ونحو الآية قوله فى سورة براءة : « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد من الحرج المنفى فى الآية الحرج فى الأكل ، ذلك أنه لما نزل قوله تعالى : «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ» تحرّج المسلمون عن مؤاكلة الأعمى لأنه لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والأعرج لأنه لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، والمريض لأنه لا يستطيع استيفاء الطعام فأنزل الله هذه الآية . والمعنى على هذه الرواية : ليس فى مؤاكلة الأعمى ولا ما بعده حرج .

(ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) أى لا حرج عليكم أن تأكلوا من البيوت التى فيها أزواجكم وعيالكم ، ويشمل ذلك بيوت الأولاد ، لأن بيت الولد كبيته ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم «أنت ومالك لأبيك» وقوله: « إن أطيب ما أكل المرء من كسبه ، وإن ولده من كسبه » .

وفائدة ذكر قوله : (على أنفسكم) الإشارة إلى أن الأكل المذكور مع أنه لاحرج فيه لايخل بقدر من له شأن فقد كثر إقحام (النفس) فى ذوى القدر كقوله : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » ولم يقل : كتب ربكم عليه الرحمة، وقوله فى الحديث القدسى « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى » ولم يقل : حرمت الظلم علىّ .

وذكر هذا الحكم وهو معلوم ، ليعطف عليه غيره فى اللفظ ، وليساويه ما بعده فى الحكم .

(أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم) لما علم بالعادة أن هؤلاء تطيب نفوسهم بأكل من يدخل عليهم من الأقارب .

(أو ما ملكتم مفاتحه) عنى بذلك وكيل الرجل وقيّمه فى ضيعته وماشيته ، فلا حرج عليه أن يأكل من ثمر الضيعة ويشرب من لبن الماشية ولكن لايحمل ولا يدخر ، وهذا إذا لم يجعل له أجرا على ذلك ، فإن جعل له أجرا فلا يحل له أكل شىء منها .

(أو صديقكم) أى أو بيوت أصدقائكم الذين يصْدُقونكم المودة وتصدقونهم ، هذا إذا علم رضاهم بذلك بالإذن أو بشاهد الحال ، ولا فرق بينهم وبين غيرهم إذا وجد الإذن .

قال ابن زيد : هذا شىء قد انقطع ، إنما كان فى أوّله ولم يكن لهم ستور أبواب وكانت الستور مرخاة فربما دخل الرجل البيت وليس فيه أحد وربما وجد الطعام وهو جائع فسوغ له أن يأكل منه ، ثم قال ذهب ذلك اليوم ، البيوت فيها أهلها ، فإذا خرجوا أغلقوا اهـ .

وعلى هذا ، فالمعنى يجوز الأكل من بيوت هؤلاء وإن لم يحضروا إذا علم رضاهم به بصريح اللفظ أو بالقرينة وإن كانت ضعيفة .

وإنما خص هؤلاء بالذكر، لأنهم اعتادوا التبسط بينهم، والرضا فيهم محقق غالبا .

وعن جعفر الصادق رضى الله عنه . من عظم حرمة الصديق أن جعله الله تعالى من الأنس والثقة والانبساط ورفع الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ .

وقيل لأفلاطون : من أحب إليك : أخوك أم صديقك ؟ فقال لا أحب أخى إلا إذا كان صديق ، ولكن أنّى هو ؟ فقد أثر عن هشام بن عبد الملك أنه قال : نلت ما نلت حتى الخلافة ، وأعوزنى صديق لا أحتشم منه .

ثم استأنف سبحانه حكما آخر من نوع ما قبله فقال :

(ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا) أى لا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين ، روى عن ابن عباس والضحاك وقتادة أنها نزلت فى بنى ليث ابن عمرو بن كنانة تحرّجوا أن يأكلوا طعامهم متفرقين ، وكان الرجل منهم يمكث طوال يومه لا يأكل حتى يجد ضيفا يأكل معه ، فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئا ، وربما قعد الرجل منهم والطعام بين يديه لا يتناوله إلى الرواح ، وقد تكون معه الإبل الحفّل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه ، فإذا أمسى ولم يجد أحدا أكل ، وفى مثل هذا يقول حاتم :

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسى له أكيلا فإنى لستُ آكله وحدى

وفى الحديث : « شر الناس من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رفده » وإنما ذم هذا لأنه بخل بالقِرى .

ثم شرع سبحانه يبين ما ينبغى رعايته حين دخول البيوت بعد أن ذكر الرخصة فيه فقال :

(فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم) أى فإذا دخلتم بيتا من هذه البيوت فليسلم بعضكم على بعض .

وفى التعبير عن أهل تلك البيوتات (بأنفسكم) إيماء إلى السبب الذى اقتضى إباحة الأكل من تلك البيوت ، وأنه إنما كان؛ لأن الداخل فيها كأنه داخل فى بيته لما بينهما من قرابة أو نحوها .

(تحية من عند الله مباركة طيبة) أى حيوا تحية ثابتة بأمره تعالى مشروعة من لدنه ، يرجى بها زيادة الخير والثواب ويطيب بها قلب المستمع .

وعن جابر بن عبد الله قال : « إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة » أخرجه البخارى وغيره .

روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس قال : أوصانى النبى صلى الله عليه وسلم بخمس خصال قال : « يا أنس ، أسبغ الوضوء يزد فى عمرك ، وسلم على من لقيك من أمتى تكثر حسناتك ، وإذا دخلت (يعنى بيتك) فسلم على أهلك يكثر خير بيتك ، وصلّ صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك ، يا أنس ، ارحم الصغير ووقر الكبير تكن من رفقائى يوم القيامة » .

(كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) أى هكذا يفصّل الله لكم معالم دينكم ، كما فصل لكم فى هذه الآية ما أحل لكم فيها وعرفكم سبيل الدخول على من تدخلون عليه ، لكى تفقهوا أمره ونهيه وأدبه ، وبذا تفوزون بسعادة الدارين ويكون لكم المقام المحمود عند ربكم .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قَدْ يَعْلَمُ

مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ؛ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) .

شرح المفردات

أمر جامع : أى خطب جلل يستعان فيه بأرباب التجارب والآراء كقتال عدو أو تشاور فى حادث قد عرض ، والتسلل : الخروج من البيت تدريجا وخفية ، واللواذ والملاوذة : التستر، يقال لاذ فلان بكذا، إذا استتر به ، والمخالفة : أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر فى حاله أو فعله ، فتنة : أى بلاء وامتحان فى الدنيا ، عذاب أليم : أى عذاب مؤلم موجع فى الآخرة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر المؤمنين بالاستئذان عند الدخول أمرهم بالاستئذان حين الخروج ولا سيما إذا كانوا فى أمر جامع مع الرسول صلى الله عليه وسلم كتشاور فى قتال أحد أو فى حادث عرض ، و بيّن أن من يفعل ذلك فهو من كاملي الإيمان، ثم أمر رسوله أن يأذن لمن شاء منهم إذا استأذنه ، ثم أمر المؤمنين أن يبجلوا نبيهم ولا يسموه باسمه بل يقولوا يا نبى الله ، و يا رسول الله ، وليحذروا أن يخالفوا أمره وسنته وشريعته ، بل عليهم أن يزِنوا أقوالهم وأفعالهم بأقواله وأفعاله ، فما وافق ذلك قُبل وما خالفه فهو مردود على فاعله وقائله كائنا من كان ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ » .

الإيضاح

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله و إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) أى ما المؤمنون حق الإيمان إلا الذين صدقوا الله ورسوله ،

وإذا كانوا مع رسوله على أمر يجمع جميعهم من حرب حضرت أو صلاة اجتمع لها أو تشاور فى أمر قد نزل ، لم ينصرفوا عما اجتمعوا له حتى يستأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم .

وهذا أدب على نهج سابقه ، فكما أرشدهم من قبل إلى الاستئذان حين الدخول ، أمرهم بالاستئذان حين الانصراف ، ولا سيما إذا كانوا فى أمر جامع ، روى الترمذى والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم ، فإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة » .

ولما كان الإذن كالدليل على كمال الإيمان والمميز للمخلص من غيره أعاده مؤكدا بأسلوب أبلغ فقال :

(إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) أى إن الذين لا ينصرفون إذا كانوا معك أيها الرسول فى أمر جامع إلا بإذنك لهم ، طاعة منهم لله ولك ، وتصديقا بما أتيتهم به من عنده - أولئك هم المؤمنون حقا .

ولما ذكر ما يلزم المؤمن من الاستئذان أعقبه بما يفعله الرسول حينئذ فقال :

(فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم) أى فإذا استأذنوك لبعض ما يعرض لهم من مهامّ أمورهم فأذن لمن شئت منهم أن ينصرف لقضاء ما عرض له ، على حسب ما تقتضيه المصلحة التى تراها ، كما وقع لعمر رضى الله عنه حين خرج مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، حيث استأذن فى الرجوع إلى أهله فأذن له صلى الله عليه وسلم وقال له : ارجع فلست بمنافق .

(واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم) أى وادع الله أن يتفضل عليهم بالعفو عن تبعات ما بينه وبينهم ، إنه غفور لذنوب عباده التائبين ، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها .

وفى هذا إيماء إلى أن الاستئذان و إن كان لعذر قوى ـ فيه بعض الملامة لما فيه من تقديم شئون الدنيا على أمور الآخرة ، كما أن فيه احتفالا برسوله صلى الله عليه وسلم إذ جعل الاستئذان للذهاب عنه ذنبا محتاجا إلى الاستغفار ، فضلا عن الذهاب بلا إذن ، ورتب الإذن على الاستئذان لبعض شأنهم لا على الاستئذان لأى أمر مهما كان ، مهمًّا كان أو غير مهم ، على أنه علق الإذن بالمشيئة .

و بعد أن ظهر فى هـذه السورة شرف الرسول ، ولا سيما فى هذه الآيات التى بهرت العقول ـ أردف هذا بما يؤكده فقال :

(لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) أى لا تقيسوا أيها المؤمنون دعاءه عليـه السلام إياكم بدعاء بعضكم بعضا فى المساهلة والرجوع من مجلسه بغير استئذان ، فإن هذا محرم عليكم .

ثم توعد المنصرفين خفية بغير استئذان فقال :

(قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) أى قد يعلم الله الذين يخرجون متسللين من المسجد فى الخطبة واحدا بعد واحد من غير استئذان خفية مستترين بشىء ، و إن عملهم هذا إن خفى على الرسول صلى الله عليـه وسلم فلا يخفى على من يعلم السر والنجوى ومن لا يعزب عنه مثقال ذرة ، و يعلم الدواعى التى تحملهم على ذلك ، ولديه الجزاء على ما يفعلون ، وكان من المنافقين من يثقل عليه استماع الخطبة والجلوس فى المسجد فإذا استأذن أحد من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به فأنزل الله الآية ، رواه أبو داود .

(فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) أى فليتق الله من يفعلون ذلك منكم ، فينصرفون عن رسول الله بغير إذنه ، أن تصيبهم محنة و بلاء فى الدنيا أو يصيبهم عذاب مؤلم موجع فى الآخرة ، بأن يطبع الله على قلوبهم فيتمادوا فى العصيان ومخالفة أمر الرسول ، فيدخلهم النار و بئس القرار .

والآية تعم كل من خالف أمر الله وأمر رسوله وجمد على التقليد من بعد ماتبين له الهدى وظهر له الصواب من الخطأ .

وبعد أن أقام الأدلة على أنه نور السموات والأرض ، ثم حذر كل مخالف لرسوله صلى الله عليه وسلم – ختم السورة ببيان أنه المالك للموجودات بأسرها خلقا وملكا وتصرفا وإيجادا وإعداما بدءا وإعادة ، فقال :

(ألا إن لله مافى السموات والأرض ، قد يعلم ما أنتم عليه) أى إنه تعالى مالك السموات والأرض وإنه عالم بما يعمل العباد كما قال : « وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » وقال تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ؟ » .

ثم هدد وتوعد فقال :

(ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا) أى ويوم يرجع الخلائق إلى ربهم حين العرض والحساب يخبرهم بما فعلوا فى الدنيا من جليل وحقير وكبير وصغير كما قال : « يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » وقال : « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

وبعدئذ ذكر ما هو كالدليل على ما سلف بقوله :

(والله بكل شىء عليم) أى إنه سينبئهم بما عملوا فى حياتهم الأولى ، لأنه ذوعلم بكل شىء وإحاطة به وهو موفّ كل عامل أجر عمله ، يوم يرجعون إلى حكمه، إذ لا حَكَم يومئذ إلا هو .

عن عقبة بن عامر قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية فى خاتمة النور، وهو جاعل أصبعيه تحت عينيه يقول بكل شىء بصير» أخرجه الطبرانى وغيره ، قال السيوطى بسند حسن .

وصلّ ربنا على محمد النبى الأمى وعلى آله .

مجمل ما حوته السورة الكريمة من الأغراض والمقاصد

(١) عقوبة الزانى والزانية .

(٢) عقوبة قاذفى المحصنات الغافلات المؤمنات .

(٣) حكم قذف الزوجات .

(٤) قصص الإفك وبراءة أم المؤمنين عائشة .

(٥) آداب الزيارة .

(٦) أمر المؤمنين بغضّ الأبصار وحفظ الفروج .

(٧) نهى النساء عن إبداء زينتهن لغير بعولتهن الخ .

(٨) أمر المؤمنين بإنكاح الأيامى من الرجال والنساء ، فالمجتمع الإسلامى كأنه أسرة واحدة .

(٩) أمر من لم تتوافر له وسائل النكاح لعدم وجود المال أو سواه بالعفة حتى يغنيه الله .

(١٠) بيان أن الأعمال الصالحة التى يعملها الكافرون فى الدنيا لاتجدى لهم نفعا يوم القيامة ، بل تكون كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

(١١) الأدلة التى نصبها الله فى الأكوان علويها وسفليها شاهدة بوحدانيته .

(١٢) المنافقون يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم .

(١٣) وصف المؤمنين الصادقين .

(١٤) وعد الله عباده المؤمنين بأنه سيستخلفهم فى الأرض وينشر دينهم الذى ارتضى لهم .

(١٥) استئذان الموالى والأطفال فى أوقات ثلاث إذا أرادوا الدخول على أهليهم .

(١٦) رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض فى الجهاد .

(١٧) لاحرج فى الأكل من بيوت الآباء والأمهات الخ بلا إذن .

(١٨) نهى المؤمنين عن الانصراف من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانوا معه فى أمر جامع .

(١٩) إباحة إذنه لهم إن شاء حين الطلب .

(٢٠) بيان أن مجلس الرسول مبجّل موقر وليس كمجلس المؤمنين بعضهم مع بعض .

سورة الفرقان

هى مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، وهى ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، وعدد آيها سبع وسبعون ، ونزلت بعد سورة يس .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه سبحانه اختتم السورة السابقة بكونه مالكا لما فى السموات والأرض مصرفا له على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة مع النظام البديع والوضع الأنيق ، وأنه سيحاسب عباده يوم القيامة على ما قدموا من العمل خيرا كان أو شرا ، وافتتح هذه بما يدل على تعاليه فى ذاته وصفاته وأفعاله وعلى حبه لخير عباده بإنزال القرآن لهم هاديا وسراجا منيرا .

(٢) اختتم السورة السالفة بوجوب متابعة المؤمنين للرسول صلى الله عليه وسلم مع مدحهم على ذلك وتحذيرهم من مخالفة أمره خوف الفتنة والعذاب الأليم ، وافتتح هذه بمدح الرسول وإنزال الكتاب عليه لإرشادهم إلى سبيل الرشاد ، وذمّ الجاحدين لنبوّته بقولهم : إنه رجل مسحور ، وإنه يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق إلى آخر ما قالوا .

(٣) فى كل من السورتين وصف السحاب وإنزال الأمطار وإحياء الأرض الجرز فقال فى السالفة : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا الخ » وقال فى هذه : « وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا الخ » .

(٤) ذكر فى كل منهما وصف أعمال الكافرين يوم القيامة وأنها لا تجزيهم فتيلا ولا قطميرا فقال فى الأولى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ الخ » وقال فى هذه : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » .

(٥) وصف النشأة الأولى للإنسان فى أثنائهما فقال فى الأولى : « وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ » وفى الثانية : « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢).

شرح المفردات

تبارك: من البركة، وهى كثرة الخير لعباده بإنعامه عليهم وإحسانه إليهم كما قال «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا» والفرقان: هو القرآن، سمى بذلك لأنه فرق فى الإنزال كما قال: «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ» على عبده: أى على رسوله صلى الله عليه وسلم، ووصفه بذلك تشريفا له بكونه فى أقصى مراتب العبودية، وتنبيها إلى أن الرسول لايكون إلا عبدا للمرسِل، وفيه ردّ على النصارى الذين يدّعون ألوهية عيسى عليه السلام، للعالمين: أى الثقلين من الإنس والجن، فقدره: أى هيأه لما أعده له من الخصائص والأفعال:

المعنى الجملى

حوت هذه السورة توحيد الله وإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان صفات النبى، والرد على من أنكروا نبوته صلى الله عليه وسلم، ثم بيان أحوال يوم القيامة وما يكون فيها من الأهوال، ثم ختمت بأوصاف عباده المخلصين الذى يمشون على الأرض هونا، ثم ذكر جلال الله وتصرفه فى خلقه وتفرده بالخلق والتقدير.

الإيضاح

(تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) حمد سبحانه نفسه على ما نزله على رسوله من القرآن الكريم لينذر به الثقلين الجن والإنس ويخوفهم

بأسه ، وإنما ذكر الإنذار ولم يذكر التبشير مع أن الرسول مرسل بهما ، من قِبَل أن السورة بصدد بيان حال المعاندين المتخذين لله ولدا والطاعنين فى كتبه ورسله واليوم الآخر .

وخلاصة ذلك — تعالى الله عما سواه فى ذاته وصفاته وأفعاله التى من جملتها تنزيل القرآن المعجز الناطق بعلوّ شأنه ، وسمو صفاته ، وابتناء أفعاله على أساس الحكم والمصالح ، على عبده محمد صلى الله عليه وسلم لينذر به الناس ويخوفهم بأس الله ووقائعه بمن خلا قبلهم من الأمم .

ونحو الآية قوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ » .

ثم وصف سبحانه نفسه بأربع صفات من صفات الكبرياء :

(١) (الذى له ملك السموات والأرض) أى له السلطان القاهر عليهما ، فله القدرة التامة فيهما وفيما حوياه إيجادا وإعداما وأمرا ونهيا على حسب ما تقيضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح .

(٢) (ولم يتخذ ولدا) أى ولم يكن له ولد كما زعم الذين قالوا ذلك المسيح وعزير والملائكة ، كما حكى الله عنهم فى قوله : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ » وقوله : « أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ؟ » .

(٣) (ولم يكن له شريك فى الملك) أى ما كان لله شريك فى ملكه وسلطانه يصلح أن يعبد من دونه ، فأفردوا له العبادة وأخلصوها له دون كل ما تعبدون من دونه من الآلهة والملائكة والجن والإنس .

وفى هذا ردّ على مشركى العرب الذين كانوا يقولون فى تلبيتهم للحج : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك » .

(٤) (وخلق كل شىء فقدّره تقديرا) أى وأوجد كل شىء على حسب ما اقتضته إرادته المبنية على الحكم البالغة ، وهيأه لما أراد به من الخصائص والأفعال التى تليق به ، فأعد الإنسان للإدراك والفهم والتدبر فى أمور المعاش والمعاد واستنباط الصناعات المختلفة والانتفاع بما فى ظاهر الأرض وباطنها ، وأعد صنوف الحيوان للقيام بأعمال مختلفة تليق بها وبادرا كها .

والخلاصة — إن كل شىء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شىء وربه ومليكه وإلهه ، وكل شىء تحت قهره وتسخيره وتقديره ، ومن كان كذلك فكيف يخطر بالبال أو يدور فى الخلد كونه سبحانه والدا له أو شريكا له فى ملكه كما قال : « بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ؟ » الآية.

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) .

الإيضاح

بعد أن وصف سبحانه نفسه بصفات العزة والجلال ، وبيّن وجه الحق فى ذلك أردفه بحكاية أباطيل عبدة الأوثان الذين اتخذوا من دونه آلهة ، تعجيبا لأولى النهى من حالهم ، وتنبيها إلى خطأ أفعالهم ، وتسفيها لأحلامهم ، فقد انحرفوا عن منهج الحق وركبوا المركب الذى لا يركبه إلا كل آفن الرأى ، مسلوب العقل .

وقد أبان سبحانه ما بها من النقص من وجوه متعددة :

(١) إنها لا تخلق شيئا ، والإله يكون قادرا على الخلق والإيجاد .

(٢) إنها مخلوقة والمخلوق محتاج ، والإله يجب أن يكون غنيا عن كل ماسواه.

(٣) إنها لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا ، فضلا عن أن تملك ذلك لغيرها ، ومن كان كذلك فلا فائدة فى عبادته و إجلاله وتعظيمه .

(٤) إنها لا تقدر على التصرف فى شىء ما ، فلا تستطيع إماتة الأحياء ولا إحياء الموتى و بعثهم من قبورهم ، ومن كان كذلك فكيف يسمى إلها، وتعطى له خصائص الآلهة من الخضوع لعظمته والإخبات لجلاله .

وعلى الجملة فعبدة الأصنام قد تركوا عبادة الخالق المالك لكل شىء المتصرف فيه بقدرته وسلطانه وعبدوا ما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وليس بعد هذا من حماقة ولا يرضى بمثله من له مُسكة من عقل ، ولا إثارة من علم .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦) .

شرح المفردات

الافتراء: الاختلاق والكذب، من قولهم: افتريت الأديم ـ الجلد ـ إذا قطعته للإفساد ، جاءوا : أى أتوا ، والظلم : وضع الشىء فى غير موضعه ، إذ هم قد نسبوا القبيح إلى من كان مبرأ منه ، والزور : الكذب ، والأساطير : واحدها أسطار أو أسطورة كأحدوثة ، وهو ما سطره المتقدمون ، اكتتبها : أى أمر بكتابتها ، تملى عليه : أى تلقى عليه بعد اكتتابها ليحفظها ، بكرة وأصيلا : أى صباحا ومساء ، والمراد دائما .

المعنى الجملى

بعد أن تكلم أوّلا فى التوحيد ثم فى الرد على عبدة الأوثان - أردف ذلك بالرد على الطاعنين فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وقد قسموا مطاعنهم قسمين: مطاعن فى القرآن، ومطاعن فيمن نزل عليه القرآن.

روى أن هذه الآيات نزلت فى النضر بن الحرث إذ هو الذى قال هذه المقالة، وعنى بالقوم الآخرين عدّاسا مولى حويطب بن عبد العُزّى، ويسارا مولى العلاء بن الحضرمى، وأبا فُكَيْهَة الرومى، وكانوا من أهل الكتاب يقرءون التوراة ويحدثون أحاديث منها، فأسلموا، وكان النبى يتعهدهم ويختلف إليهم، فمن ثم قال النضر ما قال.

الإيضاح

(وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) أى وقال الكافرون: إن هذا القرآن ليس من عند الله بل اختلقه محمد، وأعانه على ذلك جماعة من أهل الكتاب ممن أسلموا وكان يتعهدهم ويختلف إليهم: «تقدم ذكر أسمائهم» فيلقون إليه أخبار الأمم الغابرة، وهو يصوغها بلغته وأسلوبه الخاص.

فرد الله عليهم مقالهم فقال:

(فقد جاءوا ظلما وزورا) أى فقد وضعوا الأشياء فى غير مواضعها وكذبوا على ربهم، إذ جعلوا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - إفكا مفترى من قبل البشر، وكيف يتقوّلون ذلك على الرسول وقد تحداهم أن يأتوا بمثله، وهم ذوو اللَّسن والفصاحة والغاية فى البلاغة، فعجزوا أن يأتوا بمثله، ولو كان ذلك فى مُكْنتهم ما ادخروا وسعا فى معارضته، وقد ركبوا الصعب والذلول ليدحضوا حجته ويبطلوا دعوته، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم قد استعان فى ذلك بغيره لأمكنهم أيضا أن يستعينوا هم بغيرهم، فما مثله فى اللغة إلا مثلهم

فلما لم يفعلوا علم أنه قد بلغ الغاية التى لاتجارى وانتهى إلى حد الإعجاز - إلى أنه اشتمل على الحكم والأحكام التى فيها سعادة البشر فى معاشهم ومعادهم ، كما اشتمل على أخبار من أمور الغيب التى لاتصل إليها مدارك البشر ولا عقولهم .

وبعد أن حكى عنهم قولهم فى الافتراء بإعانة قوم آخرين عليه - حكى عنهم طريق تلك الإعانة .

(وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) أى وقال المشركون الذين قالوا إن هذا إلا إفك مفترى : ما هذا إلا أحاديث الأولين الذين كانوا يسطرونها فى كتبهم من نحو أحاديث رستم واسفنديار - اكتتبها من اليهود فهى تستنسخ منهم وتقرأ عليه ليحفظها غدوة وعشيا : أى قبل انتشار الناس وحين يأتون إلى مساكنهم ، وقد عنوا بذلك أنها تملى عليه خفية لئلا يقف الناس على حقيقة الحال ، وهذه جرأة عظيمة منهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وقد يكون مرادهم أنها تملى عليه دائما .

ثم أمره الله تعالى بإجابتهم عما قالوا بقوله :

(قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض) أى قل لهم ردًّا وتحقيقا للحق : ليس ذلك كما تزعمون ، بل هو أمر سماوى أنزله الله الذى لايعزب عن علمه شىء وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع لاتحوم حوله الأفكار ، ومن ثم أعجزكم بفصاحته وبلاغته ، كما أخبركم فيه بمغيّبات مستقبلة وأمور مكنونة لايوقف عليها إلا بتوفيق العليم الخبير .

وقد وصف سبحانه نفسه بإحاطة علمه بجميع المعلومات الخفية ، فالجلية المعلومة من باب أولى ، إيذانا بانطواء ما أنزله على أسرار مطوية عن عقول البشر .

(إنه كان غفورا رحيما) أى إنكم استوجبتم العذاب بمكايدتكم لرسوله ، لكنه لم يعجله لكم رحمة بكم ، رجاء توبتكم وغفران ذنوبكم ، ولولا ذلك لصبّ عليكم العذاب صبّا .

وفى هذا إيماء إلى أن هذه الذنوب مع بلوغها الغاية فى العظم - مغفورة إن تابوا وأن رحمته واصلة إليهم بعدها ، فلا ييأسوا منها بما فرط منهم مع إصرارهم على ماهم عليه من معاداة الرسول ومخاصمته .

وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ، لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ، وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦) .

شرح المفردات

مسحورا : أى سُحر فاختلّ عقله ، الأمثال : أى الأقاويل العجيبة الجارية لغرابتها مجرى الأمثال ، فضلوا : أى فبقوا متحيرين فى ضلالهم ، أعتدنا : أى هيأنا والسعير : النار الشديدة الاشتعال ، رأتهم : أى إذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد، من قولهم: دور تتراءى أى تتناظر ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : «إن المؤمن والكافر

لاتتراءى ناراهما» أى لاتتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى ، إذ يجب على المؤمن مجانبة الكافر والمشرك فى أمور الدين ، والتغيظ : إظهار الغيظ ، والمراد صوت التغيظ ، والزفير : إخراج النفَس بعد مده ، مقرنين : أى قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى السلاسل ، والثبور : الهلاك ، وجنة الخلد : هى التى لاينقطع نعيمها ، مسئولا : أى جديرا أن يسأل و يطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه شبهتهم فيما يتعلق بالمنزَّل وهو القرآن ـ ساق شبهتهم فى المنزّل عليه ، وهو الرسول على الوجه الذى ذكره ، ثم فنّد تلك الشبه و بين سخفها وأنها لاتصلح مطعنا فى النبى . ثم حكى عنهم نوعا ثالثا من أباطيلهم وهو تكذيبهم بيوم القيامة ، ثم وصف ما أعد للكافرين فيه مما يشيب من هوله الولدان من نار تلظى يسمعون لها تغيظا وزفيرا ، ووضعهم فيها مقرنين فى الأصفاد ، ونداءهم إذ ذاك بقولهم يا ثبوراه ، ثم أتبع ذلك بما يؤكد حسرتهم وندامتهم بوصف مايلقاه المتقون فى جنات النعيم : مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأن هذا ما وعدهم به ربهم الذى لاخلف لوعده .

الإيضاح

حكى الله هنا أن المشركين ذكروا خمس صفات للنبى تمنع النبوة فى زعمهم :

(١) (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ؟) أى أىّ شىء ميزه عنا وجعله يدعى النبوة مع أنه يأكل كما نأكل و يشرب كما نشرب .

(٢) (ويمشى فى الأسواق) لابتغاء الرزق كما نفعل ، فهو مثلنا فمن أين له الفضل علينا ؟ وهم يقصدون بذلك استبعاد الرسالة عنه ، لمنافاتها للأكل والشرب وطلب المعاش ، وكأنهم قالوا : إن صح مايدعيه ، فما باله لم يخالف حالُه حالنا ولم يؤت ميزة دوننا .

وما هذا منهم إلا لضعف عقولهم وقصور إدراكهم ، فإن الرسل لم يمتازوا بأمور حسية ، بل بصفات روحية ، وفضائل نفسية فطرهم الله عليها توجب صفاء عقولهم وطهارة نفوسهم ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » .

(٣) (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا) أى فهلا أنزل إليه ملَك من عند الله يكون شاهدا على صدق ما يدعيه ، ويرد على من يخالفه ، وشبيه بهذا ما قال فرعون عن موسى : « فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ » .

(٤) (أو يلقى إليه كنز) أى وهلا أنزل عليه كنز من السماء ينفق منه حتى لا يحتاج إلى المشى فى الأسواق لطلب المعاش .

(٥) (أو يكون له جنة يأكل منها) أى وهلا كان له بستان يعيش من غلته كما يعيش المياسير من الناس .

قال صاحب الكشاف : إنهم طلبوا أن يكون الرسول ملكا ، ثم نزلوا عن ملكيته إلى صحبة ملَك يعينه ، ثم نزلوا عن ذلك إلى كونه مرفودا بكنز ، ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون له بستان يأكل ويرتزق منه اه .

وعن ابن عباس قال : إن عقبة بن ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحرث وأبا البحترى والأسود بن عبد المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ومنبه بن الحجاج اجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا منه ، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك ، قال فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالوا يا محمد : إنا بعثنا إليك لنعذر منك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب به الشرف فنحن

نسودك ، و إن كنت تريد به ملكا ملكناك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مابى مما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل علىّ كتابا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، و إن تردوه علىّ أصبر حتى يحكم الله بينى و بينكم ، قالوا يا محمد : فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فسل لربك وسل لنفسك أن يبعث معك ملكا يصدقك فيما تقول و يراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضة و يغنيك عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا، فأنزل الله فى ذلك هذه الآية . أخرجه ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر .

و بعد أن حكى عنهم أوّلا أنهم يثبتون له كمال العقل ولكنهم ينتقصونه بصفات فى شئون الدنيا ـ حكى عنهم ثانيا أنهم نفوا عنه العقل بتاتا وادّعوا أنه مختل الشعور والإدراك و إلى هذا أشار بقوله :

(وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) أى وقال الكافرون الظالمون لأنفسهم بنسبتهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ما هو منه براء ، و يدل العقل والمشاهدة على نفيه عنه : ما تتبعون إلا رجلا سحر فاختلّ عقله فهو لا يعى ما يقول ، ومثله لا يطاع له رأى ، وهذا منهم ترقّ فى انتقاصه ، وأنه لا يصلح للنبوة بحال .

ولما ذكر ضلالاتهم التفت إلى رسوله صلى الله عليه وسلم مسليا له بقوله :

(انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) أى انظر واعجب لهم : كيف جرءوا على التفوّه بتلك الأقاويل العجيبة ، فاخترعوا لك صفات وأحوالا بعيدة كل البعد عن صفاتك التى أنت عليها ، فضلوا بذلك عن طريق الهدى

وصاروا حائرين لايدرون ماذا يقولون ولا ما يقدحون به فى نبوتك إلا مثل ذلك السُّخْف والهذَر .

والخلاصة — إن ما أتوا به لايصلح أن يكون قادحا فى نبوتك ولا مطعنا فيك فإن كان لهم مطعن فى المعجزات التى أتيت بها فليفعلوا ، ولكن أنى لهم ذلك ؟ .

ثم رد على ما اقترحوه من الجنة والكنز بقوله :

(تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا) أى كثر خير ربك، فإن شاء وهب لك فى الدنيا خيرا مما اقترحوا فإن أراد جعل لك فى الدنيا مثل ما وعدك به فى الآخرة ، فأعطاك جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وآتاك القصور الشامخة والصياصى التى لايصل إلى مثلها أكثرهم مالا وأعزهم نفرا ، ولكن الله لم يشأ ذلك لأنه أراد أن يكون عطاؤه لك فى الدار الباقية الدائمة ، لافى الدار الزائلة الفانية ، وإنما كانت خيرا مما ذكروا ؛ لكثرتها وجريان الأنهار من تحت أشجارها وبناء المساكن الرفيعة فيها ، والعرب تسمى كل بيت مشيد قصرا .

ثم انتقل من كلامهم فى البعث وأمر الساعة مبينا بذلك السبب فى عدم تصديقهم برسوله فقال :

(بل كذبوا بالساعة) أى ما أنكر هؤلاء المشركون ما جئتهم به من الحق ، وتقوّلوا عليك ما تقوّلوا ، إلا من قبل أنهم لايوقنون بالبعث ، ولا يصدقون بالثواب والعقاب .

والخلاصة — إنهم أتوا بأعجب من هذا كله وهو تكذيبهم بالساعة ، ومن ذلك لاينتفعون بالدلائل ولا يتأملون فيها .

ثم توعدهم وبين عاقبة أمرهم وما كتب لمثلهم من الخيبة والخذلان فقال :

(وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا . وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا . لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا

وادعوا ثبورا كثيرا) أى إنا أعددنا لمن كذب بالبعث والحشر والنشر والحساب والجزاء ، نارا تسعر وتتقد عليهم إذا كانت منهم بمرأى الناظر سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتغيظ ؛ لشدة توقدها ، وصوت الزفير الذى يخرج من فم الحزين المتهالك حسرة وألما .

أخرج ابن المنذر وابن جرير عن عبيد بن عمير أنه قال : « إن جهنم لتزفر زفرة لايبقى ملك مقرب ولا نبىّ مرسل إلا ترْعُد فرائصه ، حتى إن إبراهيم ليجثو على ركبتيه فيقول : رب لا أسألك اليوم إلا نفسى » .

وإذا ألقوا منها فى مكان ضيق قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال والسلاسل ، استغاثوا وقالوا يا ثبوراه : أى يا هلاكا كنا احضر فهذا وقتك ، فيقال لهم: لاتنادوا هلاكا واحدا وادعوا هلاكا كثيرا : أى إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحدا ، إنما ثبوركم منه كثير ، لأن العذاب ألوان وأنواع ، ولكل منها ثبور لشدته وفظاعته .

وخلاصة ذلك — إن الله قد أعدّ لمن كذب بالقيامة نارا مستعرة إذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد سمعوا صوت غليانها ، وإذا طرحوا منها فى مكان ضيق وهم مقرنون فى السلاسل والأغلال تمنوا الهلاك ليسلموا مما هو أشد منه كما قيل: (أشد من الموت ما يتمنى معه الموت) فيقال لهم حينئذ : لاتدعوا هلاكا واحدا فإنه لايخلصكم بل اطلبوا هلاكا كثيرا لتخلصوا به — والمقصد من ذلك تيئيسهم مما علقوا به أطماعهم من الهلاك ، وتنبيه إلى أن عذابهم أبدىّ لاخلاص لهم منه .

وبعد أن وصف عقاب المكذبين بالساعة ، أردفه بما يؤكد الحسرة والندامة فقال :

(قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون ؟) أى قل لهؤلاء المكذبين تهكما بهم وتحسيرا لهم على ما فاتهم : أهذه النار التى وصفت لكم خير أم جنة الخلد التى يدوم نعيمها ولا يبيد ، وقد وعدها من اتقاه فى الدنيا بطاعته فيما به أمره ونهاه .

ثم حقق أمرها تأكيدا للبشارة بقوله :

(كانت لهم جزاء ومصيرا) أى كانت هذه الجنة لهم جزاء أعمالهم فى الدنيا بطاعته ، وثوابا لهم على تقواه ، ومرجعا لهم ينتقلون إليه فى الآخرة .

ثم وصف مقدار تنعمهم فيها بقوله :

(لهم فيها ما يشاءون خالدين) أى لهم فى جنة الخلد ما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ونحو ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهم فيها خالدون أبدا بلا انقطاع ولا زوال .

(كان على ربك وعدا مسئولا) أى وهذا من وعد الله الذى تفضل به عليهم وأحسن به إليهم حين سألوه بقولهم : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ » .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ؟ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ، وَلَـٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ، وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) .

شرح المفردات

ضل السبيل : فقده وخرج عنه ، والذكر : ما ذكر به الناس على ألسنة أنبيائهم ، بورا : أى هالكين وهو لفظ يستوى فيه الواحد والجمع ، صرفا : أى دفعا للعذاب ، يظلم : أى يكفر .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر سبحانه ما أعد لأولئك المكذبين بيوم القيامة من الشدائد والأهوال فى النار ودعائهم على أنفسهم بالويل والثبور - أردفه بذكر أحوالهم مع معبوداتهم من دون الله وتوبيخهم على عبادة من عبدوا من الملائكة وغيرهم، ثم ذكر أن معبوداتهم تكذبهم فيما نسبوه إليهم، ثم بين أن العابدين لا يستطيعون دفع العذاب عن أنفسهم ولا يجدون من يستنصرون به.

الإيضاح

(ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل؟) أى واذكر لقومك تخويفا وتحذيرا يوم يحشر عابدو الأصنام والملائكة وعيسى وعزير وأضرابهم من العقلاء الذين عبدوا من دون الله، ثم يقال لأولئك المعبودين: أأنتم دعوتم عبادى إلى الغىّ والضلال حتى دسوا أنفسهم وهلكوا، أم هم الذين ضلوا سبيل الرشد والحق، وسلكوا سبيل الهلاك بإعراضهم عن اتباع الرسول؟ فأجاب المعبودون:

(قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا) أى قال المعبودون على طريق التعجب مما قيل لهم لأنهم ملائكة أو أنبياء معصومون، فما أبعدهم عن الإضلال: تنزهت ربنا مما نسب إليك هؤلاء المشركون، ما كان يليق بنا ونحن لا نتخذ من دونك أولياء أن ندعو غيرنا إلى ذلك، ولكنك ربنا أكثرت عليهم وعلى آبائهم نعمك ليعرفوا حقها ويشكروك فاستغرقوا فى الشهوات وانهمكوا فى اللذات وغفلوا عن ذكرك والإيمان بك، فكانوا من الهالكين، فحينئذ يقال لأولئك العابدين.

(فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا) أى فقد كذبكم أيها الكافرون من زعمتم أنهم أضلوكم ودعوكم إلى عبادتهم - فيما تقولون،

فما تستطيعون صرف العذاب عن أنفسكم ولا تجدون من ينصركم ويدفع عقاب الله عنكم .

والخلاصة — إنكم لاتستطيعون النجاة لا بالهرب ولا بالانتصار لأنفسكم ، فأنتم معذبون لامحالة .

ثم عمم سبحانه الحكم وخاطب جميع المكلفين فقال :

(ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا) أى ومن يكفر منكم أيها المكلفون فيعبد مع الله إلها غيره كهؤلاء الذين كذبوا بيوم القيامة — نذقه فى الآخرة عذابا كبيرا لايقدر قدره ، ولا تصل العقول إلى معرفة كنهه .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ، أَتَصْبِرُونَ ؟ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقالتهم التى طعنوا فيها على رسوله بقولهم : مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ـ زاعمين أن هذا مما لاينبغى للرسول أن يفعل مثله ـ أردف ذلك بالاحتجاج عليهم بأن محمدا ليس بدعا فى الرسل ، فكلهم كانوا يفعلون فعله .

وفى هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتصبير له على أذاهم .

ثم بيّن أن سنته أن يبتلى بعض الناس ببعض ، فيبتلى الفقراء بالأغنياء والمرسلين بالمرسَل إليهم فيناصبوهم العداء ويؤذوهم ، ليعلم أيهم يصبر وأيهم يجزع ؟ وهو البصير بحال الصابرين وحال الجازعين .

الإيضاح

(وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) أى إن جميع من سبقك من الرسل كانوا يأكلون الطعام للتغذى به ، ويمشون فى الأسواق للتكسب والتجارة ولم يقل أحد إن ذلك نقص لهم يغض من كرامتهم ويزرى بهم ، ولم يكن لهم امتياز عن سواهم فى هذا ، وإنما امتازوا بصفاتهم الفاضلة وخصائصهم السامية وآدابهم العالية ، وبما ظهر على أيديهم من خوارق العادات ، وباهر المعجزات ، مما يستدل به كل ذى لب سليم وبصيرة نافذة على صدق ما جاءوا به من عند ربهم - فمحمد صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل إذ يأكل ويمشى فى الأسواق ، وليس هذا بذم له ولا مطعن فى صدق رسالته كما تزعمون .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى » وقوله : « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » .

ثم سلى رسوله عن قولهم « أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » بقوله :

(وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ؟) أى وامتحنا أيها الناس بعضكم ببعض ، فجعلنا هذا نبيا وخصصناه بالرسالة ، وهذا ملكا وخصصناه بالدنيا ، وهذا فقيرا وحرمناه من لذات الحياة ونعيمها ، لنختبر الفقير بصبره على ما حرم مما أعطيه الغنى ، والملك بصبره على ما أوتيه الرسول من الكرامة ، وكيف يكون رضى كل منهم بما أعطى وقسم له ، وطاعته ربه على حرمانه مما أعطى سواه - ومن جرّاء هذا لم أعط محمدًا الدنيا وجعلته يمشى فى الأسواق يطلب المعاش ، لأبتليكم وأختبر طاعتكم وإجابتكم إياه إلى ما دعاكم إليه وهو لم يرج منكم عرضا من أعراض الدنيا يرجو أن يناله ، ولو أعطيتها إياه لسارع كثير منكم إلى اتباعه ، طمعا فى أن ينال شيئا من دنياه .

والخلاصة — لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى حتى لايخالفوا لفعلت ، لكنى أردت أن أبتلى العباد بهم وأبتليهم بالعباد فينالهم منهم الأذى ويناصبوهم العداء ، فاصبروا على البلاء فقد علمتم ما وعد الله به الصابرين .

(وكان ربك بصيرا) أى وربك أيها الرسول بصير بمن يجزع وبمن يصبر على ما امتحن به من المحن ، ويجازى كلا بما يستحق من عقاب أو ثواب ، روى مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « انظروا إلى أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هم فوقكم ، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم » .

اللهم اجعلنا من الصابرين على أذى السفهاء ، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وارزقنا من لدنك قناعة وغنى نربأ بهما عما فى أيدى الناس وثبت أقدامنا فى فهم كتابك ، وبلغنا ما نرجوه من إرشاد عبادك بما نقدّم لهم من نور يهتدون به إلى صراطك المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، وصل ربنا على محمد وآله .

تم تفسير هذا الجزء بحلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية ، لثلاث خلون من صفر سنة أربع وستين وثلثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية ، ولله الحمد أولا وآخرا .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٥	المؤمن المفلح هو الجامع لخصال سبع من خصال الخير
٧	أطوار خلق الإنسان .
٩	قال عمر : وافقت ربى فى أربع الخ .
١١	ما يحتاج إليه الإنسان فى معيشته .
١٢	ما فى السماء من منافع للإنسان .
١٤	النعم التى سخرها الله لنا من خلق الحيوان .
١٥	قصص نوح عليه السلام مع قومه وما فيه من عبرة .
٢٠	قصص هود عليه السلام مع قومه .
٢٣	قصص صالح ولوط وشعيب وغيرهم عليهم السلام .
٢٤	قصص موسى وهرون عليهما السلام .
٢٦	قصص عيسى عليه السلام .
٢٨	الرسل جميعا أمروا أن يأكلوا من الحلال الطيب .
٢٩	فى الحديث : إن الله تعالى طيب لايقبل إلا طيبا .
٣٠	دين الأنبياء دين واحد وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده، واختلاف الشرائع لايسمى اختلافا فى الدين .
٣١	كثرة المال والبنين ليست كرامة من الله لعباده .
٣٢	صفات المسارعين فى الخيرات .

الصفحة	المبحث
٣٥	لا يكلف العبد إلا بما فى وسعه وهو فى كتاب محفوظ عليه .
٣٨	المشركون فى غفلة عما بيّن فى القرآن .
٣٩	لا ينفع المشركين يوم القيامة الصريخ والعويل .
٤٠	الأسباب التى ركن إليها المشركون فى إنكارهم لهذا الدين .
٤١	لو جاء التشريع على حسب الهوى لاختل نظام العالم .
٤٢	ما أنت أيها الرسول بطالب أجرا على هدايتهم .
٤٥	ما امتنّ به سبحانه على عباده .
٤٦	المشركون أنكروا البعث تقليدا لمن سبقهم .
٤٨	إثبات البعث ببرهانات ثلاثة .
٥٠	كذب المشركون فى ادعائهم اتخاذ الله الولد واتخاذ الشريك .
٥١	ما وصف به سبحانه نفسه من صفات الكمال .
٥٢	أمر الله رسوله أن يدعوه ألا يجعله قرينا للمشركين فى العذاب .
٥٣	أمر الرسول بالدفع بالحسنى .
٥٤	كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم صحبه كلمات يقولونها عند النوم .
٥٥	طلب المشركين الرجوع إلى الدنيا عند معاينة العذاب .
٥٧	أهوال يوم القيامة .
٥٨	أحوال الأشقياء يومئذ .
٦٢	يسأل المجرمون توبيخا لهم عن مدة لبثهم فى الأرض .
٦٣	تنزيه الله نفسه عما يصفه به المشركون .
٦٨	عقوبة الزنا الدنيوية لغير المحصن .

الصفحة	المبحث
٦٨	طريق إثبات الزنا .
٦٩	العقوبة الأخروية للزنا .
٧٠	الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة .
٧١	حكم قذف غير الزوجة من النساء .
٧٣	قذف الرجل زوجته .
٧٤	ما ورد فى ذلك من الآثار .
٧٧	حديث الإفك على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .
٧٩	من هلك بسببه من المؤمنين .
٨٣	وعيد من أشاع هذا الحديث .
٨٤	عتاب الله للمؤمنين على ما وقر فى نفوسهم من إرجاف المرجفين .
٨٥	ارتكاب المرجفين ثلاثة آثام .
٨٦	تحذير المؤمنين أن يعودوا لمثل هذا .
٨٧	جزاء من يحب إشاعة الفاحشة فى المؤمنين .
٩٠	من اتهم محصنة غافلة من الخنا والفجور فهو مطرود من رحمة الله .
٩٠	شهادة الأيدى والأرجل والألسنة .
٩٢	الأدلة على براءة عائشة .
٩٣	الإنسان لا تلاؤم بين أجزائه إلا بصفات متناسبة .
٩٤	دخول المرء بيت غيره لابد فيه من الإذن .
٩٥	إن قيل للداخل ارجع وجب أن يرجع .
٩٦	حكم دخول البيوت غير المسكونة سكنى خاصة .

الصفحة	المبحث
٩٧	الأمر بغض البصر وحفظ الفروج سدًّا لباب الشر ومنعا لارتكاب الآثام .
٩٩	الأمر بضرب الخُمُر على الجيوب .
١٠٠	النهى عن إبداء الزينة إلا للبعولة أو آباء البعولة إلخ .
١٠١	الأمر بإنكاح الأيامى من الرجال والنساء حفظا للأنساب وبقاء للنوع .
١٠٤	ثلاثة حق على الله عونهم .
١٠٦	مثل نور الله فى السموات والأرض .
١٠٨	فوائد ضرب الأمثال فى القرآن
١١٠	المساجد بيوت الله ، وحق على الله أن يكرم من زاره فيها .
١١١	أعددت لعبادى الصالحين ــ الحديث .
١١٢	مثل أعمال الكافرين فى الآخرة .
١١٥	ذكر دلائل التوحيد .
١١٩	المنافقون يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم .
١٢٢	المنافقون يعرضون عن التحاكم إلى الرسول .
١٢٣	طاعة الله ورسوله توجب الفوز والنجاة .
١٢٤	نهى المنافقين عن الحلف .
١٢٦	وعد المؤمنين بالاستخلاف فى الأرض .
١٢٧	الأمر بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة .
١٢٩	الأمر بالاستئذان فى العورات الثلاث .
١٣٠	سبب نزول آية الاستئذان .
١٣٣	لا حرج على النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فى ترك الزينة .

١٣٤ الأمر بالسلام عند دخول البيوت .
١٣٥ لاحرج على الأعمى ولا على المريض ولا على الأعرج فى ترك الجهاد .
١٣٨ الأمر بالاستئذان حين الانصراف عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم .
١٤١ النهى عن الانصراف خفية من مجلسه .
١٤٢ علم الله محيط بكل شىء .
١٤٧ ما وصف به سبحانه نفسه من صفات الكبرياء .
١٤٨ ما فى الأصنام من صفات النقص .
١٥٠ الرد على الطاعنين فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .
١٥١ قال المشركون إن محمدا اكتتب أساطير الأولين .
١٥٣ الصفات التى تمنع نبوة النبى صلى الله عليه وسلم فى زعمهم .
١٥٥ ادعى المشركون أن محمدا رجل مسحور .
١٥٦ تكذيب المشركين بيوم القيامة .
١٦٠ الرسل جميعا كانوا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق .
١٦٢ لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى لفعلت .

DATE DUE

JAFET LIB.
30 SEP 1999
Circulation Dept.3

JAFET LIB.
- 4 DEC 2003
Circulation Dept.4

297.207:M29tA:v.16-18:c.1
المراغي ،احمد مصطفى
تفسير المراغي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01010043

American University of Beirut

297.207
M29tA
v.16-18
General Library